الاستاذ الدكتور محسن محمد حسين

بحوث في التأريخ الكردي

حول:

اربيل..صلاح الدين يوسف..

ابن الأثير..وغيرها.

اربيل ٢٠١٢

- عنوان الكتاب: بحوث في التاريخ الكردي، حول ((اربيل * صلاح الدين يوسف * ابن الاثير * وغيرها))
- تأليف: د. محسن محمد حسين
- المشرف الفني والغلاف: عثمان بيرداود
- تصميم: عصام محسن
- ادخال: عبدالحميد عزيز، بدرخان بكر
- رقم الايداع: في المديرية العامة للمكتبات في اربيل ( ) لسنة ٢٠١٢
- عدد النسخ:٥٠٠
- مطبعة الحاج هاشم – اربيل

توضيح وشكر..

نقدّم في هذا الكتاب ما نشرناه من بحوث في بغداد واربيل، وفي الكويت والسعودية، والخاصه بتاريخ اربيل في العهد الأتابگى، ولاسيما في فترة حكم الملك المعظم السلطان مظفرالدين گوگبۆرى، وبحوث آخرى عن جوانب من تاريخ صلاح الدين يوسف بن ايوب بن شادي الروادي الهذباني، الذي عرف منذ عقود باسم (صلاح الدين اليوبي) للتغطية على إنتمائه القومي الكردي، عمداً وليس عفواً. فلم يكن (الأيوبي) لقباً له طيلة حياته الثرّة، ولا بعد حياته. فليس من العاده، لالدى الكرد ولالدى العرب، ولالدى غيرهم، جعل اسم والد الشخص لقباً له، بالصاق حرفي (ال) باسمه، وإلصاق حرف (ي) على نهاية إسمه ـ لذابات من الضروري ـ من الآن في الأقل ـ ان يكتب اسمه كما كان، لاكما أريد أن يكون، وأن يدوّن. اقول (من الآن) لأني سبق لي أن إستعملت في بعض كتاباتي صيغة (صلاح الدين الايوبي) إنسياقاً مع التيار، ولست متأكداً منذ متى تم تداول هذه الصيغة. وفي ظنّى أن هذا تمّ في القرن العشرين.

ووافع الأمر يعود إهتمامي بصلاح الدين يوسف الى ما قبل إختياري لموضوع (جيش صلاح الدين الايوبي) عنواناً لاطروحة الدكتوراه في العام الجامعي ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩. إذ سبق لي ان نشر لي عام ١٩٧٥ بحثي الاول بعد نيلي درجة الماجستير عن (اربيل في العهد الأتابگى) وكان البحث تحت عنوان (ابن الأثير وأحداث عصره وموقفه من صلاح الدين) ونشر في مجلة (شمس كردستان).

الاّ ان اطروحة الدكتوراه وطّدت علاقتي مع هذا القائد المثابر اكثر من ذي قبل، ولهذا ـ لاعجب ـ إن كان نصف البحوث المنسورة في هذا الكتاب عنه، وعددها تسعة بحوث، عدا بحوثي المنشورة باللغة الكردية التي ستنشر في كتاب تال. اما النصف الآخر من هذه البحوث ـ هنا ـ فكتبت خمسة منها عن اربيل الاتابگية وشخوصها، وبحثين عن ابن الثير المؤرخ الكبير، واخرى عن مواضيع فكرية، عن عزالدين الضرير الاربيلي، أحد مفكري ذلك العصر، وآخر عن (مكياڤيللية صدام حسين) ثم عن التراث والتجديد.

في حين جمعنا بحوثنا الخاصة بالفكر التاريخي (طبيعة المعرفة التايخية) و(فلسفة التايخ) المنشورة في مجلة (رۆشنبيرى نوێ) لطبعها في كتاب (ثالث)، الا أن طبعها تأخّر لسبب خارج إرادتنا. وأخيراً تولّت مؤسسة موكريان مسؤولية طبعها.

ولابد من الاشارة الى ان ما نشرته في مجلات غير أكاديمية (رۆشنبيرى، قبل ان تغدو مجلة أكاديمية) ومجلة (كاروان) و(مەتين)، وكذلك مجلات (ينابيع) و(رؤية) والعديد من الصحف في بغداد واربيل والخارج، فلم ادرجها في هذه الكتب.

وأخيراً لايسعني الا تقديم الشكر الى الاكاديمية الكردية في اربيل على تبنّيها طبع بحوثي هذه في كتابين.

د. محسن
٢٠١١/٨/٢١

ابن الاثير واحداث عصره وموقفه من صلاح الدين يوسف بن أيوب(*)

المقدمة:

ليس القصد من هذا البحث تعريف القارىء بصلاح الدين يوسف فقد كتب عنه الكثيرون بمختلف لغات العالم، نظرا لمكانته الفريدة في تاريخ الشرق الاسلامي. ولانه - ((دون كثير من القادة والابطال - كان ضرورة زمانه، فلم يكن يعوضه فيه بطل اخر تقل صفاته عن الصفات التى جاء بها بين قومه وفي ارضه وفي زمانه)). كما يقول عبدالعزيز سيد الاهل، على الرغم ما في قول هذا المؤرخ من محاولة لتجريد هذا القائد عن اللحظة التاريخية بتراكمتها التي أنجبته، فلو لم يظهر قائد بهذا الاسم لكان من المحتم أن يظهر بأسم ثان. وعظمة هذا القائد - واى قائد اخر - تكمن في انه وعى الواقع التاريخي الذي يعيشه شعبه، وبالتالي أدرك ان الوعي بالضرورة يحتمه الانفلات من تأثيرها، والقيام بعمل حاسم يوصل مجمتعه الى شاطىء الحرية، وهذا ما فعله صلاح الدين يوسف(**).

وعلى الرغم من اختلاف الرؤى في تناول شخصيته من وجهات النظر المتباينة، الا ان الكل متفقون على عظمته، ولعل من المفيد ان نشير الى أقوال بعض من كتب عنه لتتوضح لدينا معالم شخصيته الغنيّة. فذكر المؤرخ هاملتون الكسندر روسكين المعروف بـ(جب): ان عهد صلاح الدين يشكل اكثر من حادثة عابرة في تاريخ الحروب الصليبية، فهو يمثل أحدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشرى، وذلك عندما يكون التصميم الاخلاقي ووحدة الهدف قد أطاحا لفترة وجيزه بكل من الشك

(*) نشر في من مجلة شمس كردستان/ بغداد العدد (٢٨ - ٢٩ - ٣٠) سنة ١٩٧٥.

(**) (الايوبي) لم يكن يوماً لقباً لهذا القائد خلال عصره ومابعده، بل هو من الكرد (الهذباني الروادي) ولم يذكر إسمه في مظان التاريخ بـ((صلاح الدين الايوبي))

في طيبة الدوافع البشرية والتحررمن الوهم، وهما الناجمان عن خبرة طويلة لاطماع الامراء الانانية.

ووصفه الامبراطور غليوم بأنه كان أعظم رجال عصره وفريد دهره شجاعة وبسالة وشهامة. وتكلم عنه عبدالعزيز سيد الاهل قائلا: ان صلاح الدين ترك سيرة أبهى من الضوء تنير الطريق لمن يريد ان يهتدى وان يصل، يرى كل عابر طريقه ان يشعل منه قبسا حتى يستضيء ويهتدى ويصل. وهى مهمة التاريخ ووظيفة الاقتداء وحكمة الانتفاع بالقياس.

وقال الذهبي: لم تكن قصة أى رجل في المسلمين شبيهه بأسطورة، الا قصة صلاح الدين. فكان فارسا لم ينزل عن صهوة جواده اكثر من ربع قرن طارحا فرسه للهيجاء، قارعا باب كل حصن، مقتحما بنفسه كل معركة حتى امتدت البلاد التى وحدها تحت لوائه من اليمن الى الموصل وبلاد الروم ـ الاناضول ـ ومن طرابلس الغرب ـ ليبيا ـ الى أسوان. وبالتالي فاي فارس معلم مر في حقيقته مرور اسطورة، يصلح أن يكون قدوة لنا غير صلاح الدين، لقد كان الفارس المعلم الذي يفتخر به قومه ويتغنون به كأسطورة خيالية حلوة التكرار، وستظل حلوة في أفواههم حتى غاية الابد. بل فتن اعداؤه الاوربيون به وبرجولته.

وقال ـ ستانلي لين پول ـ في كتابه الذي يحمل اسم هذا القائد: كان صلاح الدين شريف النفس هماما وشجاعا، حليما ورحيما، وفيا وكريما، طاهر القلب ناصع الحياة وهو بحق مثال البطولة في الاسلام. وقال عنه الكاتب المصري المعروف سلامة موسى: ان صلاح الدين كان نبأ في الشرق، ومازلنا نستعيد ذكرياتنا عن حروبه فنحس الفخر والعزة والشرف.

البحث:

ابن الاثير وصلاح الدين

لعل ثمة من يسأل: ترى لماذا إنفرد ابن الاثير بالذات بين المؤرخين جميعا في تبيان موقفة من صلاح الدين، نقول: لان ابن الاثير كان المؤرخ الوحيد الذي عاصر صلاح الدين والذي انفرد في ذكر بعض الروايات التى تظهر هذا القائد بمظهر غير لائق، مما تضفي عليه أهمية خاصة كمؤرخ فريد من نوعه هذا اولا. وثانيا: لان هذا

المؤرخ يتمتع بمكانة مرموقة بين كافة المؤرخين المسلمين، لم يصل اليها أحد، ربما بأستثناء ابن جرير الطبري المتوفي في ٣١٠هـ – ٩٢٣م. وثالثا: لان ابن الاثير كان على اتصال شخصي بأدارة الموصل في عهد الملوك الزنكيين الذين ناصبوا صلاح الدين العداء، وكان ـ أى المؤرخ ـ في وضع يسمح بمعرفة الوقائع الخارجة وقد شاهد صلاح الدين في كل من الموصل وبلاد الشام. رابعا وأخيرا: لان احد الباحثين المختصين بدراسة ابن الآثير وهو الدكتور عبدالقادر احمد طليمات، قد اضفى على روايات هذا المؤرخ ـ الفريدة نلك ـ هالة من التقدير بحيث لايسمح لاحد ان يناقشها، وأسرف في الاشادة به في وقت غدت فيه اساءات هذا المؤرخ معروفة لدى الدارسين، واصبحت رواياته سلاحا ذا حدين لايمكن الركون اليها دون رويّة وتمحيص.

وعلى الرغم من اننا نبغي مناقشة اراء ومواقف ابن الاثير، الا ان من الضرورى البدء بتناول أقوال الدكتور طليمات والكشف عن التناقضات التي فيها. ونبدأ ونقول ان ابن الاثير كان فعلا مؤرخا أمينا في مواقفه السياسية على حد تعبير طليمات. الا ان أمانته كانت للاسرة الزنكية التى عاش المؤرخ واخوته[1] ووالدهم في كنفها وتفيأوا بظل ملوكها. ولهذا فانّنا لانلوم ابن الاثير على عواطفه تجاه هذه الاسرة، فمن حقه ـ بل ومن واجبه ـ أن يميل الى الزنكيين، وان يحبهم ويعجب بهم

---

[1] وهم ثلاثة اخوة من مدينة (جزره)اي ـ جزيرة ابن عمر ـ ويعتبرون من مشاهير علماء المسلمين واعاظم مؤلفيهم أكبرهم:

أ– ابو السعادات مجدالين المبارك بن محمد. ولد عام ٥٤٤هـ ١١٤٩م، وتوفي بالموصل سنة ٦٠٦ هـ – ١٢١٠م. كرس حياته لدراسة القرآن والحديث والنحو. وتولى ديوان الرسائل في البلاط الاتابكي الموصلي.

ب– الاخ الثاني هو ابو الحسن عزالدين علي بن محمد ولد عام ٥٥٥هـ – ١١٦٠م وتوفي بالموصل سنة ٦٣٠هـ. مؤلف كتاب – الكامل الى التأريخ ـ وكتاب التاريخ الباهر ـ وصنف كتبا أخرى منها ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ وفي الأنساب لخص كتاب السمعاني المعروف مع بعض الاضافات تحت اسم ـ اللباب –.

جـ– والاخ الثالث هو ابو الفتح ضياء الدين نصرالله ولد عام ٥٥٨هـ – ١١٦٣م وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ – ١٢٣٩م. واشتهر بجودة اسلوبه، وله في البلاغة ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر اتصل بصلاح الدين، ثم انظر: دائرة المعارف الاسلامية، طبعة القاهرة ١٩٣٣، ماذا ابن الاثير. ولهم تراجم في كتب السير والتاريخ منها ابن خلكان ـ وفيات الاعيان وياقوت الحموي، معجم الادباء–.

وان يرفع من شأنهم، والا اعتبر «عاقا» ومتنكرا لاياد احسنت اليه والى اسرته، ورفعتهم الى مكانة عالية في البلاط الموصلي وفي مجتمعهم على حد قول طليمات[٢]. ولكننا نناقش روايات ابن الاثير كمؤرخ دافع عنه طليمات بهذه الصورة المشبوبة بالعواطف، دفاعا لو قدر له ان يعود الى الحياة ويقرأ دفاع الدكتور طليمات عنه لعقدت الدهشة لسانه، لانه ـ اى ابن الاثير ـ اراد في الاساس بوعية وارادته الا يبدو عاقا ومتنكرا لاياد احسنت اليه، فكان ان انحاز اليهم وحط من مكانة خصمهم صلاح الدين.

بل ان الحماس يبلغ بطليمات حدا صار يرمى نقاد ابن الاثير بالجهل... ويقول: ان المهاجمين على أبن الاثير لم ينتبهوا الى طبيعته الناقدة، وانما انصرف ذهنهم فقط الى نقده لصلاح الدين، وذلك لانهم لم يعرفوا ابن الأثير الا عن طريق كتابته عن صلاح الدين[٣].

أمانحن فنقول ان الدكتور طليمات لم يفتح صدره لكي يستوعب آراء منتقدى ابن الاثير لانه مأخوذ بكتابات هذا المؤرخ الى حد مفرط، حتى اهتزت أمامه وتشوّهت صورة صلاح الدين، في محاولته لاقناع نفسه واقناع الآخرين على صحة روايات ابن الاثير. ومن ثم فأنه لم يحاول ان يعرف المزيد عن صلاح الدين عبر كتابات المؤرخين الآخرين لكي يدرك الى أى حد «أساء اليه» ابن الاثير، وبالتالى فأن دفاعه عنه أشبه بالرجم في الغيب، دون سند يعضده، وان المهاجمين على ابن الأثير ـ كما يسميهم الدكتور ـ وهم الذين اختصوا في الكتابة عن صلاح الدين، لم يكن يهمهم من هذا المؤرخ الا كتاباته عن هذا القائد.

والواقع اننا لن نتحمل اى صعوبة في سبيل إثبات أنحياز ابن الاثير الى أتابكة الموصل، فإلقاء نظرة على الديباجة المطولة التى دونها في مستهل كتابه ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ـ الذي قام بتحقيقه ونشره الدكتور طليمات نفسه ـ يجعلنا ندرك مدى هذا الانحياز، والمعروف عن ابن الاثير انه وضع هذا الكتاب ليهديه الى الملك القاهر عزالدين مسعود ٦٠٧ ـ ٦١٥هـ/ ١٢١١ ـ ١٢١٨م ابن نورالدين ارسلان شاه الاول آخر ملوك الموصل العظام ٥٨٩ ـ ٦٠٧هـ/ ١١٩٣ ـ

---

[٢] د. عبدالقادر أحمد. طليمات، ابن الاثير الجزري المؤرخ ص ١٣٦.

[٣] م. ن. ص ١٤٠.

١٢١١م، ولعل من المفيد ان نقتبس من هذه المقدمة بعض الفقرات. فيبدأها بحمد الله ثم الاشادة بالملوك والأمراء. لانهم يتملكون لكف القوى عن الضعيف ثم يقول ـ عن الملك عزالدين مسعود ـ انه غمرنا من انعام هذه الدولة العزيزة القاهرة ـ نسبة الى لقب هذ الملك ـ والايام الاتابكية الزاهرة وشملنا من إحسانها، وأنالتنا من عزسلطانها، فقد اشتهر خبره، وطاب مخبره، وطار ذكره في الآفاق وتحدثت به الرفاق. لم يخل من مبرة تسديها ونعمة توليها... ويتحول المؤرخ الى الثناء على والد هذا الملك ويقول: كان أكثر الموالى السعداء ـ قدس الله أرواحهم ـ انعاما علينا واحسانا الينا، المولى السعيد الملك العادل نور الدين ارسلان شاه رضى الله عنه وارضاه وأكرم في الآخرة نزله ومثواه. فأنه طال ما انعم علينا واعطانا ووصلنا وحبانا، وقربنا واصطفانا، والى أعلى مراتب الكرامة اعلانا، مازال يوالينا الجميل، ويولينا الجليل، ويقربنا إلى حضرته العلية، ويدنينا من سدته السنية، وبأسراره يخصنا، ولمشورته يستخلصنا، لم يخل يوما من برر غيب وانعام لنفاسته غريب، وكان يمدنا به ماطوله بحرا يقذف بالغنى ويجود بما لا يبلغه المنى فلهذا كانت حياتنا من سبب انعمه غدق الحياض، مونقة الرياض، ولم نزل نقابل قديم انعامهم وحديثه بأخلاص الدعاء، وصدق العبودية والولاء... كل ذلك صادر عن نيات في العبودية صادقة.. ويستمر ابن الاثير في سرد فضائل البيت الاتابكى عليه وعلى اسرته. ثم يأتي الى ذكر الملك عزالدين مسعود فيصفه بالملك القاهر العادل العالم المؤيد المنصور عز الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين. وعن نسب هذا الملك يقول نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح غمورا... وينهى كلامه قائلا: لم يكن لاحد من الملوك المتقدمين والخلفاء الراشدين منقبة دينية ودنيوية وتجربة في حفظ الممالك والرعايا شرعية وسياسية، الا وفي بيته الشريف — ثبت الله تعالى قواعده وشد من عزه معاقده ـ مايضاهيما وظهر عنهم ما يمائلها ويناويها.. الخ.

ومن حق المؤرخ ـ اى مؤرخ ـ ان يكتب مايشاء ويزيف الحقائق كما يحلو له، فلسنا في معرض القاء اللوم عليه، فأن موالاة الحكام كانت من شيمة المؤرخين، ولكن المهم الا ينكر او يغض أحد الطرف عن هذه الموالاة، والايبحث عن مبررات هذا الانحياز مهما كانت قوية، ويتخذ موقف الدفاع عن هذا المؤرخ أوذاك أو عن أخطائه.

وبالتالى فليس ثمة من يؤمن بحيدة المؤرخ التامة المطلقة مهما بدا نزيها، على الرغم من وجود تفاوت بين مدى انحياز هذا المؤرخ أو ذاك، ولان تدوين الاحداث لم يكن قط ترفا ذهنيا بحتا يسود كاتبه الصفحات دون رقيب، أو كيفما يشاء.

الا نتساءل: كيف تسنّى لباحث عصرى ان يقول ان ابن الاثير كان محايدا في التاريخ للاحداث التي لها صلة وثيقة بالزنكيين والايوبيين، وانه أرخهم بحيدة تامة. ولم يمنعه فضل الزنكيين عليه وعلى اسرته من أن يدون اخبارهم تدوينا أمينا بل ان هذا الباحث اي الدكتور طليمات يتحدى النصوص التي تكشف انحياز ابن الاثير التام حين يقول: ان حيدة ابن الاثير في تاريخ صلاح الدين لجديرة بالتقدير حقا[٤]. ولكن سرعان ما يهوى هذا الدفاع الساخن أمام الحقائق، ولايقدر من الصمود. فنراه يعلن ـ اي طليمات. في مكان آخر مبرراانحياز هذ المؤرخ الفعلى قائلا: لكن ـ اذا كان لتاريخ الاسر ـ يقصد كتاب الباهر الخاص بالاسرة الاتابكية ـ ميزات فأن له مساوىء خطيرة حين ينحرف المؤرخ عن الامانة الواجبة في التاريخ! سواء كان الانحراف بضغط خارجي عليه، أو كان من المؤرخ نفسه مجاملة منه للاسرة، كما فعل ابن الاثير في كتابه، ففي الحالتين يضطر المؤلف الى الانحراف! الامر الذي يسبب مشقه كبيرة للباحث الحديث للوصول الى الحقيقة[٥].

ولا ندرى كيف يمكن التوفيق بين ـ حيدة ابن الاثير الجديرة حقا – في الفقرة الاولى، وبين اضطراره الى الانحراف عن الامانة الواجبة لاسباب داخلية او خارجية ـ الامر الذي يسبب مشقة كبيرة للباحث الحديث للوصول الى الحقيقة، كما في الفقرة الاخيرة.

والواقع ان ابن الاثير لم يسبب لاحد مشقة بقدر ما سبّبها للدكتور طليمات الذي أراد ان يبرهن حيدة هذا المؤرخ بأى ثمن، وحين لم تسعفه الادوات انهار دفاعه بهذه الصورة. أما المشقة التى سببها ابن الاثير لنا فهى براعته المدهشة في اقتباس الروايات خاصة تلك المتعلقة بصلاح الدين من مؤلفات غيره من المؤرخين خاصة

---

[٤] م. ن. ص ٤٧.

[٥] م. ن. ص ٧٨.

عماد الدين الكاتب الاصفهاني[٦]، واعادة سبك هذه الروايات بتحريفها أو مزجها بشيء من تصوراته الخيالية[٧].

يقول أحد الباحثين في كتابه ـ ان من عيوب هذا المؤرخ انه لم يذكر مصادره الاصليه التي أعتدى على روايتها بالتعديل الكثير، لدرجة بات البحث عنها من اشق الامور واعزها منالا[٨]. ويبدو انه كان متعمدا في تضليل قرائه بعدم ذكر تلك المصادر. بل كان يكتفي في هذا الصدد بالعبارات المموهة التالية:– ذكر اصحاب التواريخ، وحكي ان بعض الحكماء في الانساب والتواريخ قال: وحكي لي والدى، وحدثني والدى عن بعض خواصه قال..الخ.. ولعل ابن الاثير كان يأنف من ذكر المصادر لكي لايظهر بمظهر من يقتبس روايات الآخرين، خاصة وانه لم يحافظ على فحوى تلك الروايات. أما عباراته المموهة المذكورة فهى عبارات لاتفيد المؤرخ الحديث في قليل او كثير ولاتخدم البحث من جوانبه العديدة[٩].

وقد أمعن الدكتور طليمات في دفاعه عن انحياز ابن الاثير بقوله: لقد تجنب هذا المؤرخ التوسع في اخبار الصراع بين الزنكيين وبين صلاح الدين وخلفائه، وسبب ذلك هو ان اخبار هذا الصراع تظهر ضعف الزنكيين أمام صلاح الدين وخلفائه وهزائمهم في حروبه معهم، كذلك تثبت ـ الاخبار ـ خضوع الزنكيين لصلاح الدين وخلفائه خضوعا تاما، فتجنب ابن الاثير اثبات هذه الاخبار التى تجرح اصحابها لئلا يخدش كبرياء الملك القاهر[١٠].

اين من هذا الكلام قوله السابق ان ابن الاثير دوّن تأريخه للزنكيين والايوبيين بحيدة تامة؟ وكيف يمكن ان يفهم هذا الحياد مادامه تجنب التوسع في اخبار الصراع لئلا يخدش كبرياء ولي نعمته الملك القاهر المذكور. والواقع لم يكن اتابكة الموصل

---

[٦] يورد الدكتور الباز العريني أمثلة كثرة على اقتباسات ابن الاثير من العماد الكاتب دون الاشارة اليه، انظر كتابه ـ مؤرخو الحروب الصليبية من ص ٢٠٨ الى ص ٢٣٤، ويقول في ص ٢١٢: ان التزام ابن الاثير لرواية ـ البرق الشامي ـ للعماد الكاتب ـ يجعل من العسير ان نفترض له مصدر آخر سواه.

[٧] جب، صلاح الدين: ١٨١.

الباز العريني، ص ٢٢٢.

[٨] نظير حسان، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ص ٩.

[٩] الباز العريني، ٢٠٧.

[١٠] طليمات، ٨٢، ومقدمة الباهر: ١٧.

من الزنكيين وحدهم الذين اخفي ابن الاثير الحقائق ليتجنب اثارتهم، بل انه فعل الشيء نفسه مع بدرالدين لؤلؤ الذي قضى على الاسرة الزنكية، أسياد اسرة أبن الاثير، فقد اشاد به المؤرخ الى حد بعيد، واكثر من هذا فأنه سكت عن جرائم بدرالدين لؤلؤ الشنعاء التى ارتكبها بحق ابناء هذه الاسرة بعد ان أصبح هو حاكم الموصل الفعلى أثر وفاة الملك نور الدين ارسلان شاه سنة ٦٠٧هـ – ١٢١١م. ثم تهيأ له الجو أكثر بعد وفاة عز الدين مسعود ابن الملك المذكور في سنة ٦١٥هـ – ١٢١٨م. وكان عزالدين مسعود لدى وفاته شابا لم يتجاوز عمر الخامسة والعشرين[١١].

ويذكر ابن الاثير ان وفاة هذا الملك كانت بسبب اصابته بالحمى. في حين ذكر أبو شامة ان بدر الدين لؤلؤ سقاه سما فمات[١٢]. ويتفق الذهبي مع ابى شامة في اتهام حاكم الموصل الجديد[١٣]. ويبدو من رواية أوردها ابن الاثير نفسه مدى تعلق الناس في الموصل بالاسرة الزنكية وعدم ثقتهم بما يجرى وراء الكواليس لابناء هذه الاسرة بيد بدرالدين لؤلؤ. فكانوا مرتابين غير مطمئنين لتصرفاته، بل انهم طالبوا هذا الحاكم بأن يفرجهم على ملكهم ان كان لهم ملك بعد أن تيقّنوا انه يريد ان يقلع ـ البيت الاتابكي بالكلية ـ على حد تعبير ابن الوردى[١٤] خاصة بعد اغتيال الملك الشاب المذكور. فما كان من بدر الدين لؤلؤ ـ في محاولة منه في كسب الرأى العام الموصلى وتهدأة خواطره الاوركب الملك الطفل ناصر الدين محمود ابن الملك عزالدين مسعود[١٥]، وسار به في شوارع الموصل ـ فطابت نفوس الناس ـ على حد

---

[١١] يقول ابن الاثير ان عمر هذا الملك حين وفاة والده سنة ٦٠٧هـ كان عشر سنين انظر ـ الكامل ١٢/ ٢٩٣ ـ وهذا خطأ ولاشك، اذ أنه لما توفي ـ أي الملك القاهر ـ في سنة ٦١٥ هـ كان عمر ابنه الاكبر ـ نحو عشر سنين، الكامل ١٢/ ٣٣٤ ـ ولا يعقل أن يكون قد تزوج وانجب وعمره تسع سنين. والصحيح هو ماروا ابن خلكان الأربلي واعلن ان مولده كان في سنة ٥٩٠هـ ـ وفيات الاعيان ٤/ ٢٩٥.

[١٢] ابو شامة، تراجم رجال القرنين ص ١١٤.

[١٣] الذهبي، العبر ٥/ ٥٥.

[١٤] ابن الوردي، ٢/ ٢٠٦.

(١٥) وهو ابن بنت – سبط مظفرالدين گوگبورى، وكان عمره لايجاوز الثلاث سنوات حين اصبح ملكا تحت رحمة بدرالدين لؤلؤ. وصغر سنه دفع گوگبورى الى تأييد صهره عماد الدين زنكي ـ عم هذا الملك الصغير ـ والذي دخل في صراع عنيف مع بدرالدين لؤلؤ حول عرش الموصل.

تعبير ابن الاثير، لانهم علموا ان لهم سلطان من البيت الاتابكي فأستقروا واطمأنوا، وسكن كثير من الشغب بسببه[١٦].

واكثر من هذا كله فأن ابن الاثير يسكت سكوتا تاما عما جرى لهذا الملك الطفل ناصر الدين محمود بعد حوالى ست سنين. يقول الذهبي ضمن أحداث سنة ٦٢١هـ استولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل وخنق ناصرالدين محمود، وزعم انه مات[١٧]. وشبيهة بهذه الرواية مايرويها ابن تغرى بردى حين يقول: في هذه السنة ٦٢١هـ استولي بدرالدين لؤلؤ على الموصل وأظهر ان الملك محمود ابن القاهر قد توفي، وكان قد أمر بخنقه[١٨] وكذا ماذكره قبله سبط ابن الجوزي ضمن حوادث السنة نفسها[١٩].

ألا أن ثمة روايات تذكر ان قتل هذا الملك بيد بدرالدين لؤلؤ لم يحدث سنة ٦٢١هـ بل حدث سنة ٦٣٠هـ. لان بدرالدين لؤلؤ كان ينتظر موت خصمه صاحب اربيل مظفرالدين گوگبورى جد هذا الملك الصغير من طرف أمه، وكان صاحب اربيل قد غدا شيخا طاعنا في السن. وبوفاته يخلو الجو لبدرالدين لؤلؤ، ولن يبقى ثمة من يطالب بعرش الموصل، خاصة وان عمادالدين زنكي ابن نورالدين ارسلان شاه، عم الملك الطفل، وصهر صاحب أربيل والمطالب السابق بعرش الموصل كان قد انزوى ومنذ فترة غير قصيرة في بلاد شهرزور، بعد ان تخلى ـ لاسباب كثيرة ـ[٢٠] عن المطالبة بهذا العرش.

فيذكر ابن كثير ان بدرالدين لؤلؤ أقام هذا الملك بشكل صورى حتى تمكن أمره وقويت شوكته ـ شوكة لؤلؤ ـ ثم حجر عليه فكان لايسمح أن تقترب منه الجواري والسراري حتى لا يعقب، فلما توفي جده صاحب أربيل منع عنه الطعام والشراب ثلاثة عشر يوما حتى مات كمدا وجوعا وعطشا[٢١].

---

[١٦] الكامل، ١٢/ ٣٣٩.

[١٧] الذهبي، العبر ٥/ ٨١.

[١٨] ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة ٦/٢٥٧.

[١٩] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٦٣٣.

[٢٠] عن هذا الموضوع انظركتابنا ـ اربيل في العهد الاتابكي ـ ص ١٠٦ ـ ١١٦.

[٢١] ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/ ١٣٦.

ويذكر أبو شامة ان بدر الدين لؤلؤ أدخل هذا الملك حماماً حامياوا اغلق عليه الباب فأستكر به وعطشه فأستغاث: أخرجوني واسقوني ماء ثم اقتلوني، فأخرج وقد تغيرت خلقته، فأسقي ماء ثم خنقه بوترقوس[٢٢].

والمعروف ان ابن الاثير قد توقف عن كتابة التاريخ لسبب او لآخر عند أخبار سنة ٦٢٨هـ وبداية ٦٢٩هـ. وهذا مايبريْ ذمته في سكونه عما جرى بعد تلك السنة اذا كان خنق ناصرالدين محمود حدث فعلا في سنة ٦٣٠هـ رغم ان سبط ابن الجوزي ـ وهو مؤرخ معاصر لبدرالدين لؤلؤ ـ والذهبي وابن تغرى يؤكدون ان مقتل هذا الملك حدث في سنة ٦٢١هـ كما مر بنا، بل ان من المؤرخين ان ما يجعلونه في سنة ٦١٩هـ كأبن واصل[٢٣] وان الوردي[٢٤]. ومهما يكن من أمر فأن ابن الاثير يصمت عما فعله بدالدين لؤلؤ في ٦١٩هـ أو ٦٢١هـ. وهذا يعني ان هذا المؤرخ الذي كان ينحاز الى الزنكيين في فترة حكمهم. بدأ ينحاز الى بدرالدين لؤلؤ بعد ان استأصل البيت الزنكي ـ وهم أولياء نعم ابن الاثير ـ سواء بالقتل او بأساليب الكيد وتدبير الحيل على حد قول الديوه‌جى[٢٥].

وكما هو معروف فأن ابن الاثير قد صنف سفره الضخم ـ الكامل في التاريخ ـ بأيعاز من بدرالدين لؤلؤ كما أهدى كتابه الآخر ـ الباهر ـ الى الملك القاهر عزالدين مسعود كما ذكرنا. والظاهر انه تجنب عن ذكر ماقترفه بدرالدين لؤلؤ لئلا يثير غضبه وهو حاكم الموصل الجديد، كما سكت سابقا عن بعض احداث هذه الامارة لئلا يخدش كبرياء الملوك الزنكيين حكام الموصل السابقين. ونعيد ما قلناه سابقا: أن موالاة الحكام كانت من شيمة المؤرخين، والمهم الا نغض الطرف عن هذا الانحياز والا نبحث عن مبررات مهما كانت قوية، لان ليس ثمة من يكتب بأيعاز من ذاته فحسب.

---

[٢٢] أبو شامة، تراجم رجال القرنين.

[٢٣] ابن واصال، مفرج الكروب حوادث سنة ٦١٩هـ جـ ٤ ص ١١٤.

[٢٤] ابن الوردي، حوادث سنة ٦١٩هـ جـ ٢ ص ٢٠٦ والمدهش حقا ان الدكتور طليمات يعلن ان وفاة هذا الملك حدثت في سنة ٦٢٣هـ انظر كتابه مظفرالدين گوگبورى ص ١٣١. ويخطأ ياسين العمري في جعل وفاته تقع في سنة ٦١٧هـ انظر منية الادباء ص: ٦٥.

[٢٥] سعيد الديوه‌جى، الموصل في العهد الاتابكي ص ٣٨.

تحامل ابن الاثير على صلاح الدين يوسف:

أصبح تحامل ابن الاثير على صلاح الدين واظهاره على غير حقيقته أمرا ملموسا معروفا. واذا كنا قد بررنا انحيازه الى ملوك الموصل سواء الزنكيين او بدرالدين لؤلؤ، فأننا لانبرر قيامه بتشويه روايات غيره واعادة كتابتها بأسلوبه الخاص دون الاشارة اليها. خاصة وان قيمة كتابات المؤرخ الحقيقية لاتكمن في نقل احداث العصور السالفة مهما بلغ من فطنة وحسن اختيار الاخبار وجودة العرض واتساق المنهج ـ وهذه كلها صفات متوفرة في المؤرخ الكبير ابن الاثير، بل انها تكمن في مدى التزامه بالامانة والصدق ـ قدر المستطاع ـ في ذكر أحداث عصره، واذا شاء ان ينحاز فلا يكون انحيازه مجافيا للواقع في حين نجد ان ابن الاثير كان ينظر الى صلاح الدين نظرة غير سليمة، ويحاول ان يصطاد اخطاءه ثم يضعها في قالب مشوّه يظهره فيه بمظهر من لايهمه سوى تحقيق نزوعه وسيطرته على البلاد الاسلامية التى دانت له.

والمعروف ان صلاح الدين في بداية تكوينه كجندي باسل في الجيوش التى بعث بها الملك العادل نورالدين محمود ابن عماد الدين زنكي، مؤسس اتابكية حلب، الى مصر لثلاث مرات متتالية تحت قيادة أسدالدين شيركو عم صلاح الدين. وكان ـ أى صلاح الدين ـ غير مرتاح من ذهابه الى مصر خاصة في المرة الاخيرة. فمما يذكر عنه انه قال: كنت أكره الناس للخروج هذه الدفعة وما خرجت مع عمي بأختياري[٢٦]. ويذكر ابن الاثير ان عمه لما قال له: تجهز يا يوسف[٢٧] الى مصر. قال لعمه: والله لوأعطيت ملك مصر ما سرت اليها[٢٨].

ثم سار الى مصر واستقر فيها منذ سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، وبعد فترة قصيرة مات عمه، وحل محله كوزير للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله. ثم قضي صلاح الدين على الخلافة الفاطمية، قبل أيام من وفاة الخليفة المذكور، فأصبح هو حاكم مصر الحقيقي.

---

[٢٦] ابن شداد، سيرة صلاح الدين ٣٩.

[٢٧] أسمه يوسف وكني بصلاح الدين.

[٢٨] الكامل ١١/ ٣٣٨.

ونرى ان ابن الاثير يحاول ان يظهر صلاح الدين بمظهر من يكره قطع الخطبة عن الخليفة الفاطمي خوفا من سيطرة نورالدين. فكان ـ على حد قول هذا المؤرخ ـ يريد ان يكون العاضد لدين الله معه، فاذا قصد نورالدين محمود مصر وحاول أخذها من صلاح الدين، اعتصم هذا فيها معتمدا على الخليفة المذكور وعلى أهل مصر[٢٩]، الا ان الحاح نور الدين محمود عليه ـ بقطع الخطبة ـ ألزمه الزاما ولم يدع له مجال المخالفة. فقطع الخطبة عن الخليفة الفاطمي وبدأ يخطب للخليفة العباسي المستضيء بالله.

ثم حدثت الفرقة ـ الوحشة ـ بين صلاح الدين ونور الدين، لان الاول اراد الاستقلال بمصر والخروج على نورالدين، فما كان من هذا الا وقرر الالتقاء به في مكان ما لعزله عن مسؤوليته في حكم مصر وتعيين غيره محله حسب تفسير ابن الاثير. وقد اختار نورالدين محمود حصن الشوبك ليلتقيا فيه بدعوى مقاتلة الصليبيين. ويقع هذا الحصن بالقرب من الكرك في جنوبي الاردن. فطلب من صلاح الدين ان يتوجه نحو الحصن المذكور حيث تمركز فيه الصليبيون.

فتحرك صلاح الدين من مصر ووصل الحصن وحاصره وضيق عليه وقاتل من فيه من المعتصمين وأضعفهم كثيرا، فأضطروا الى طلب الامان واستمهلوه عشرة أيام فأجابهم صلاح الدين الى ذلك[٣٠].

الا ان صلاح الدين ـ الكلام لازال لابن الاثير ـ لم يصمد طويلا لاتمام اجلاء الصليبيين عن هذا الحصن الهام ذي الموقع الستراتيجي بين مصر والشام، وذلك عندما سمع نبأ تحرك نور الدين محمود من دمشق وسيره بأتجاه الشوبك، وخاف صلاح الدين من ان يعزله، فغادر الحصن وعاد الى مصر، وبقى الحصن بيد الصليبيين. ولكي يقدم دليلا الى نور الدين محمود يبرىء به ذمته عن سبب مغادرته الحصن، كتب اليه يعتذر معلنا انه فعل ذلك بسبب اختلال الامور في مصر بعد ان حاول بقايا الفاطميين ان يعودوا الى الحكم ويحدثوا انقلابا ضد الحكم الايوبي ـ الاتابكي الفتي. وقد حصل فعلا ان وثبوا على الحكم الا انهم أخفقوا في تحقيق

---

[٢٩] ن. م ص ٣٦٨.

[٣٠] ص ٣٧٢.

غايتهم وكان ذلك في مطلع رمضان ٥٦٩هـ نيسان ١١٧٤م[٣١].

الا أن نور الدين محمود لم يقبل اعتذاره، وتغير عليه وعزم على الدخول الى مصر واخراجه عنها[٣٢]. وهذا مما زاد في حراجة الموقف، وتأكدت لدى صلاح الدين نوايا نور الدين محمود الحقيقية في عزله. وكاد ان يتعقد الوضع اكثر واستعد رفاق صلاح الدين لمجابهة نورالدين محمود اذا وصل الى مصر، لولا الموقف المتعقل الذي اتخذه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف.

ونلاحظ ان ابن الاثير بدأ يستنطق رفاق صلاح الدين الذين اشتركوا في الحوار الذي دار بينهم حول كيفية الرد على نورالدين محمود اذا حصل وان هاجم مصر. فقد انبرى تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين واعلن: اذا جاءنا نورالدين قاتلناه ومنعناه عن البلاد. وأيده قسم من الحاضرين. فرد عليهم نجم الديم أيوب واستنكر رأيهم، وشتمهم وشتم تقي الدين عمر وطلب منه ان يقعد ويسكت، ثم قال لصلاح الدين: انا أبوك وهذا خالك شهاب الدين، ونحن اكثر محبة لك من جميع من ترى، والله لو رأيت أنا وخالك هذا نورالدين محمود، لم يمكنا الا أن نقبل الارض بين يديه، ولو أمرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلناه، فاذا كنا نحن هكذا فماظنّك بغيرنا؟... فأن أراد نورالدين عزلك سمعنا واطعنا، ثم طلب من ابنه ان يكتب، الى نورالدين محمود يعتذر ويعلن عن استعداده للتنازل عن مصر[٣٣].

الا ان ابن الاثير ـ بعد كل هذا ـ يريد ان يقول لنا ان هذا الحوار لم يكن الا من قبيل التحايل لايهام نور الدين محمود وتطمينه ولاظهار صلاح الدين امامه بمظهر من لايهمه شيء سوى رضاه عنه.

فيذكر ـ ابن الاثير ـ ان نجم الدين ايوب انفرد بإبنه قال له. بأى عقل تفعل هذا ـ أي تتحدى نورالدين محمود ـ الا تعلم ان نورالدين محمود اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته لانقوى على محاربته. أما اذا سمع الحوار الذي دار بيننا فأنه سيتركنا وشأننا وينشغل بغيرنا ثم اعلن الاب: ان هذا ليس الاحيلة لابعاد نورالدين

---

[٣١] ص ٣٩٨.

[٣٢] ص ٣٧٢.

[٣٢] ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

محمود عنا، واذا حاول القدوم الى مصر فسنحاربه بكل طاقاتنا ـ فوالله لواد أراد نورالدين قصبة من قصب السكر لقاتلته انا حتى أمنعه او أقتل[٣٤].

ولنا ان نسأل ـ إذا صح موضوع الحوار ـ ياترى كيف أقتنع نورالدين محمود بهذا المنطق، وترك صلاح الدين وشأنه وكف عن عزله، في وقت ادرك فيه انه سيتخلى عنه حتى والده اذا قدم الى مصر محاولا استر جاعها. وكذلك نسأل: ترى كيف تسنى لهذا الحوار السرى الذي دار في خلوة بين الاب وابنه ولاثالث بينهما، ان يصل من مصر الى الموصل، حيث فيها إبن الأثير، ولماذا لم يصل الى مسامع نورالدين محمود؟

ولو صحت ظنون ابن الاثير في أن صلاح الدين كان يخشى مقابله نورالدين في الشوبك او الكرك، فلماذا أعاد الكرة في الهجوم على الكرك؟ فالمعروف أنه سار من مصر في العام التالي في شوال سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م لمحاصرة الصليبيين من الجنوب، على ان يهاجمهم نورالدين محمود من الشمال – فأيهما سبق صاحبه يقيم الى أن يصل الآخر اليه، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين من مصر قاطعا الطريق الشائك ووصل الكرك وحصرها[٣٥].

أما نورالدين محمود فوصل الى (الرقيم) القريبة من الكرك. الا أن صلاح الدين مالبث ان غادر الكرك الى مصر خشية حدوث اى طارىء بعد وفاة والده حيث تركه فيها مريضا، على الرغم من ان وفاته لم تكن بسبب مرضه، بل بسبب سقوطه من على ظهر الفرس. فأرسل صلاح الدين مرة أخرى الى نورالدين محمود يعتذر عن عودته الى مصر، وبعث مع رسوله الفقيه عيسى أحد أمرائه الكثير من الهدايا والتحف ما يجل عن الوصف، حسب تعبير ابن الاثير. ولما وصل الرسول الى حضرة نورالدين محمود، قبل هذا اعتذار صلاح الدين وقال للرسول: حفظ مصر أهم عندنا من غيرها[٣٦].

ثانية نسأل: اذا كان نورالدين محمود ينوى فعلا عزل صلاح الدين والاستغناء عن خدماته في مصر، أفلم يكن بوسعه ان يعزله دون ضجيج ودون الالتقاء به في ذلك

---

[٣٤] ص ٣٧٣.

[٣٥] ص ٣٩٣.

[٣٦] ن. ص.

الجو المشحون والدقيق؟ وان صحت هذه النوايا أفلم يكن صلاح الدين محقا في خشيته من نورالدين محمود؟

ومهما يكن من أمر فيبدو ان العلاقة بين القائدين لم تكن على ما يرام، بل أصابها نوع من التوتر والفتور. ولعل نورالدين محمود كان يرغب في الاطلاع على نوايا صلاح الدين الحقيقة عن طريق الالتقاء به. وأبدى صلاح الدين من جانبه استعداده للقاء سيده والاجتماع به وشرح الامور له. الا ان أصحابه أثاروا خوفه من نتيجة الاجتماع خشية عزله. بل ان منهم من أعلن عن استعداده لتحدى نورالدين محمود، بيد ان صلاح الدين كان يخالفهم دوما. وأكثر من هذا فأنه بقى على وفائه له ولم يحدث أن خرج عن طاعته. يقول ابن شداد ـ وكان من اقرب أصحابه ومؤرخه الخاص – لقد حكى لي السلطان صلاح الدين قال: كان بلغنا عن نورالدين محمود انه قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف ـ أى معركة ـ نرده اذا تحقق قصده، وكنت ـ القول لصلاح الدين ـ وحدى أخالفهم وأقول: لايجوز ان يقال شيء من ذلك[٣٧].

وليست المسألة كما يصورها ابن الاثير، خاصة عندما يبلغ به سوء الظن على صلاح الدين حدا يتهمه فيه بالفتور في غزو الفرنج ـ الصليبيين ـ لكي يبقى هؤلاء يشكلون حاجزا بين مصر والشام، ويحولوا دون هجوم نورالدين محمود على مصر لاستردادها من صلاح الدين. ومع ذلك فأنه ـ اى نورالدين ـ شرع كما يعلن هذا المؤرخ ـ يتجهز للدخول الى مصر لاخذها من صلاح الدين فجمع جيشا من الموصل وديار بكر والجزيرة الا ان وفاته حالت دون تحقيق وغبته[٣٨].

وما دام الامر كان على هذه الشاكلة ترى ما الذي كان ينبغي أن يفعله صلاح الدين لكي لا يرميه هذا المؤرخ بفرية الفتور في غزو الفرنج، أكثر مما فعل؟ أفلم يغز الشوبك والكرك لسنتين متتاليتين رغم علمه بنوايا نورالدين محمود... ومن ثم ألم يكن لنور الدين محمود ـ ودوره المجيد معروف في قتال الصليبين ـ شغل آخر غير اهتمامه بصلاح الدين ومحاولة عزله عن مصر المهددة من العدو الصليبي. أم أن (وفاء) هذا المؤرخ للاسرة الزنكية ـ ونورالدين محمود هو ابن عماد الدين زنكي

---

[٣٧] ابن شداد ٤٧.

[٣٨] الكامل ١١/ ٤٠٢.

مؤسس أتابكية الموصل وحلب ـ جعله يراجع الحسابات القديمة عله يعثر فيها على مايسيء الى سمعة صلاح الدين، ويبرهن لملوك الموصل ان موقف صلاح الدين بمحاولاته المتكررة في غزو الموصل قبل سنة ٥٨١هـ – ١١٨٥م، انما له تاريخ بعيد يعود الى أيام نورالدين محمود الذي بقى صلاح الدين مصدر قلق له. الا أن ابن الاثير ظل الصوت الوحيد الذي يردد مثل هذا الكلام ولم يشاركه فيه أحد من المؤرخين المعاصرين له، لا ابن شداد ـ وهو من ابناء الموصل على غرار ابن الاثير، ولا العماد الكاتب الاصفهاني ولا ابن أبي الطي وكذلك سبط ابن الجوزي او غيرهم. بل كان المؤرخ الوحيد ـ أيضا ـ الذي لم يتطرق الى أسباب قيام صلاح الدين بغزو الموصل مرارا، لانه شاء الا يجرح ملوكها ولا يخدش كبرياءهم. فالمعروف عن حكام الموصل المعاصرين لصلاح الدين انهم توقفوا عن مقاومة المحتلين الصليبيين ثم ما أنفكوا يتصلون بهم ويراسلونهم للاتفاق معهم والعمل ضد عدوهم المشترك (صلاح الدين يوسف) كما تؤكد المصادر الوثيقة الصلة بأحداث الفترة[٣٩].

وكذلك يشير المؤرخون الصليبيون الى ان ملك بيت المقدس الصليبي إستقبل وفدا من أتابك الموصل يعرض عليه دفع جزية سنوية قدرها عشرون الف دينار وتسليم بانياس وجبيس جلدك للصليبيين، فضلا عن اطلاق سراح جميع من لدى المسلمين من أسرى، اذا نجح الصليبيون في طرد صلاح الدين من دمشق[٤٠].

الا ان ابن الاثير ـ الذي كان على وعي تام بمجريات الامور في البلاط الموصلي ـ شاء الا يشير الى هذه الاتصالات، ولا الى اتصالات الموصل مع غيرهم من أعداء الجبهة الاسلامية، أعداء صلاح الدين. فتشير المصادر الى مراسلة حكام الموصل للطائفة الاسماعلية (الباطنية) التي ناصبت صلاح الدين العداء. فيذكر أبو شامة (أن المواصلة راسلوا الملاحدة الحشيشية ـ الاسماعليين ـ واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين وواسطة بينهم وبين الفرنج الكافرين ووعدوهم بقلاع من يد الاسلام تقلع، وضياع من فيء المسلمين توضع، وبدار دعوة بحلب ينصب فيه علم الضلالة فيرفع ـ ويا للعجب ـ من الخصم يهدم دولة حق وهي تبنيه ومن العبد يبني ملكها بنفسه

---

[٣٩] ابن شداد: ٥٦الايوبي، مضمار الحقائق ٩٦، ٢١٤.

[٤٠] عاشور، الناصر صلاح الدين ص ١٥.جب: ١٣٦.

ومالـه وذويـه.. هـذا رسـولهم ـ رسـول الموصـل ـ عنـد سـنان صـاحب الملاحـدة الاسماعيليين ورسولهم عند القمص ملك الفرنج)[٤١].

وكان قصد هذه القوى الثلاث ـ أتابك الموصـل والاسمـاعيليون والصـليبيون ـ من تعاونها هو الحيلولة دون تحقيق الوحدة الاسـلامية ـ رعـم اخـتلاف أهـداف هـذه القـوى مـن هـذا التعـاون ـ تلـك الوحـدة التـى ـ أدرك صـلاح الـدين ضـرورة قيامهـا للوقوف صفا واحدا بوجـه الغـزاة المحـتلين، وللحفـاظ علـى الجبهـة الداخليـة. يقـول باحث عراقي: ان صلاح الدين لم يكن هدفه من الاسـتيلاء طمعـا في الملـك اورغبـة في تحقيق مكاسب واطماع شخصية، وانما كان هدفه حفظ البلاد من التفكـك والانقسـام الذي دب فيها عقب وفاة نورالدين محمود، والدفاع عـن بـلاد الشـام بتوحيـد الجبهـة الاسلامية ضد القوى الصليبية[٤٢].

الا ان حكام الموصل أصروا على موقفهم المتعنت، فلم ير صلاح الدين بـدا مـن أعلان الحرب عليهم مـرارا، تلـك الحـرووب الـتي حـاول ابـن الاثـير ان يظهرهـا وكـأن القصد منها لم يكن الا اشباع نزوات صلاح الدين، في حين ان هذا القائد اثبـت في كـل المناسبات أنه كان أبعد مايكون عـن هـذه الفريـة التـى حـاول الـدكتور طليمـات ان يسجلها على صلاح الدين ـ معتمداً على رواية ابـن الأثـير ـ وكأنهـا حقيقـة لاتـدحص فنراه يقول: يفهم من هجوم المهاجمين ـ يقصد الـذين انتقـدوا روايـات ابـن الاثـير ـ انهم يريدون تنزيـه صـلاح الـدين عـن الطمـوح في تكـوين دولـة او امبراطوريـة تحمـل أسمه، وفي رأينـا انهـم أسـرفوا في حسـن الظـن بصـلاح الـدين وزهـده عـن الطمـوح، متناسين ان صلاح الـدين كـان متـأثرا بطـابع عصـره وتقاليـده، هـذا العصـر الـذي أصدق وصف له هو (عصر الغلبة)[٤٣] أي العصر الذي كان الحكم فيه للغالب، فأيمـا صاحب منصب يجد في نفسه القدرة على تحسين مركزه يقدم عليه، ويبـذل أقصـى مايستطيع لتحقيق غرضه، ولايتورع عن الوصول اليه بشتى الوسائل بالدس والتآمر

---

[٤١] ابو شامة، الروضتين ٢/ ٢٤.

[٤٢] الجميلي، د. رشيد عبدالله، دولة الاتابكة في الموصل، ص ١٢٠. وانظـر د. عاشـور ـ مصـر والشـام في عصر الايوبيين والمماليك ـ ص ٤٥.

[٤٣] يكرر د. طليمات تسمية العصر بعصر الغلبة في غير هذا الكتاب أيضـا انظـر ـ مظفرالـدين طوطبـوري ص ١٣.

وبالقتل والقتال، الى أن يقول: فهل كان صلاح الدين أقل من غيره طموحا؟ أم هو أزهد من عماد الدين زنكي ونور الدين محمود (وقد تكلم طليمات عن طموحاتهما وتوسعاتهما في الملك والسلطان) فمادام الحال هكذا، فلماذا يستشنى صلاح الدين من تأثير تقاليد عصره، ويكون وحده العف عن المطامع والطمح[٤٤].

وهكذا لكي يبرهن الدكتور طليمات صحة دفاعه عن ابن الاثير لم ير غضاضة في الطعن بكفاح الشعوب ودور المجاهدين والابطال في التصدى لقوى العدوان والقهر والتشهير ببطل من مستوى صلاح الدين، كل هذا لكى يبرهن ان العصر كان عصر الغلة.

ولناأن نسأل ثانية وثالثة ترى متى لم تكن العصور ـ كل العصور– عصور غلبة القوى على الضعيف... ولكن لان الجماعات البشرية تأبى الرضوخ لهذا المنطق الجبري الباطش فتبدأ بأرهاصاتها، وتتفاعل مع الاحداث ـ ان سلبا أو ايجابا ـ الى ان يتمخض عن قيام عهد جديد يبدأ وليداً ثم لا يلبث ان يشب ويغدو يافعا فقويا. وهذا ما فعلته الشعوب الاسلامية على الخصوص ضد القوى الصليبية التى أحتلت قلب الوطن الاسلامى، متذرعة بالدين مستغلة ضعف المسلمين وانشغال القادة بمنطق ـ عصر الغلبة ـ فيما بينهم. فكانت ـ أي الشعوب الاسلامية ـ أن أنجبت أبطالا أفذاذا اضطلعوا بدور جدير بالتمجيد، جعلوا شعوبهم تدرك انه صار بوسعها ان ترد على العدوان الصليبي، ولو بشكل واه في البداية لم يتعد نطاق المناوشات وردود الفعل ذات الاثر المحدود. ثم بدا عهد الافاقة الاسلامية المنظمة على يد القائد المجاهد عماداليدن زنكي ابن آقسنقر التركماني، ثم استلم منه الراية خير استلام ابنه نور الدين محمود الذي كان صلاح الدين يوسف ـ واسرته ـ من أتباعه، وقد تطرقنا الى العلاقة بين الطرفين وكيف صورها ابن الاثير. وقد بلغ عهد الافاقة الاسلامية ذروتها مع صلاح الدين ثم أستمر من بعده الى أن ألحقت الهزيمة النهائية بنقاط الارتكاز الصليبية بأيدي ملوك مصر من المماليك.

واذا كانت أساليب الدس والتآمر والقتل قد استعملها القادة من الحكام وغير الحكام في هذا العصر، فأنها لم تكن الاساليب المفضلة لا لدي عماد الدين زنكي، ولا عند صلاح الدين يوسف. ولاندرى كيف سمح الدكتور طليمات لنفسه أن يسيء الى

---

[٤٤] ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

سممة زنكي وابنه في محاولة منه لتطبيق قانون ـ عصر الغلبة ـ على صلاح الدين وياترى أبهذا الاتجاه التلفيقي والنظرة الاحادية نقوم بدراسة تأريخنا؟ واذا حكمنا على صلاح الدين ومن قبله على عمادالدين زنكي ونورالدين محمود هذا الحكم المتعسف والبعيد عن المنطق والعلم، فماذا يبقي لنا من أمجاد؟ واذا لم يكن هؤلاء عفيفين عن المطامع وتحقيق النزوات الشخصية فمن ياترى كان العفيف من أبطالنا؟

وهنا لابد من القول: انه لا ينبغي أن نعصم أحداً من الخطأ، فمن يعمل لابد أن يخطأ، ولكن ثمة فرق بين استجلاء الحقيقة وذكر الاخطاء من جهة، وبين اختلاق الاخطاء والصاقها بشخص، أو اظهار الشخص على غير حقيقته. وكان من شأن روايات ابن الاثير ـ الفريدة ـ حول صلاح الدين ان تتمتع بمكانة فذة في تاريخ الحقبة لولا انها صادرة من انسان متحامل على صلاح الدين حتى ان تحامله أصبح ذائع الشهرة[٤٥].

ولكي لا تكون هذه الروايات وكانها حقيقة تسجل على صلاح الدين، ولكي يأخذ الصواب مجراة، ولكي لا يكون التاريخ ألعوبة بأيدينا نوجهه كيفما نشاء ونصدر أحكامنا دون روية وتمحيص ووضوح رؤيا، صار من اللازم أماطة اللثام عما حدث. فصلاح الدين على حد تعبير الدكتور عاشور ـ كان آخر من يمكن اتهامه بالطمع[٤٦]، والافتراء عليه وقد اثبت انه لم يفتح مدينة ليملكها بل ليضمها الى دولة اسلامية موحدة. ودليله انه كان يترك أمراءها عليها متى رفعوا راية الجهاد، وانقطعوا عن التودد للصليبيين واستجابوا لنصرة الدين[٤٧].

ولكي يتوضح قولنا أكثر نضرب هذا المثل: فمما يذكر عن صلاح الدين انه حاصر مدينة آمد ـديار بكر وتقع في كردستان تركيا الآن ـ سنة ٥٧٩هـ – ١١٨٣م وذلك لوعد كان قد قطعه لنورالدين محمد ابن قرا ارسلان ابن سقمان الامير الارتقى صاحب مدينة حصن كيفا، وكانت آمد بيد جمال الدين شمس الملوك محمود بن ايكلدى[٤٨] منذ سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م. الا ان الحاكم الحقيقي عليها كان بهاء الدين

---

[٤٥] انظر الى مايقوله جب ص ٧٠.

[٤٦] عاشور، الناصر صلاح الدين ص ٨٩.

[٤٧] وانظر الى مايقوله سوبرنهايم في دائرة المعارف الاسلامية ١٠ ـ ٢٧٥.

[٤٨] انظر الكامل ١١/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤. مضمار الحقائق ١٣٦/ ١٣٩. مفرج الكروب ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٦. الروضتين ٢/ ٣٨ ـ ٤٠.

مسعود ابن نيسان، وقد أحرز صلاح الدين النصر بعد حصار دام ثلاثة أسابيع. عندها جاءته نسوة ابن نيسان مستغيثات وقصدن سرادقه وهن يستجرن به ويسألن الصفح عن الحاكم المذكور، فقبل صلاح الدين مطلبهن، ثم طلبن منه أن يسمح لحاشية ابن نيسان بأن يخرجوا الاموال والحاجيات النفسية والجواهر التى تحويها المدينة. فقبل ذلك أيضاً، بل انه طلب من جنده أن يساعدوا الحاشية في إستخراج ما يشاؤون. وإستمرّت عملية نقل الذخائر ثلاثة أيام متتالية، وكان إبن نيسان قد ضرب خيمته في ظاهر ـ ضاحية ـ المدينة، وعجز عن اخراج سائر الذخائر، لان ابراح المدينة ودورها قد ملئت من أجناس الغلات وأجناس آلات الحروب.

ولما تسلم صلاح الدين المدينة أمر باعطائها الى نور الدين محمد الارتقى المذكور في الحال. ولم يعبأ بما قيل له بأن هذه المدينة فيها من الذخائر تربو على ألف ألف مليون دينار واشياء لا تقدر بثمن فعليه ان يخرج كنوزها ثم يسلمها لابن قرا ارسلان، لان هذا يقتنع بالمدينة حتى لو فرغها صلاح الدين. وكان رد الاخير هو الرفض واعلن بأنه لايعطى الاصل ـ اي المدينة ـ ويبخل بالفرع فهدا لايجوز في عرف الكرماء. ويقول صاحب ـ مضمار الحقائق ـ ان ابن قرا ارسلان باع من ذخائر آمد مدة سبع سنين[٤٩]، رغم ما في هذا الكلام من مبالغة.

يعلق ـ جب ـ على تصرف صلاح الدين هذا قائلا: ان أريحيته الكيشوتية تجاه الحاكم المهزوم، وتسليمه القلعة والمدينة مع مخازنها العسكرية الضخمة دون المساس بها الى نور الدين ابن قرا ارسلان لتثبت مرة والى الابد بطلان جميع التهم التي ألصقها به اعداؤه عن أطماعه الانانية[٥٠] وفي ظني ان جب لايدخل ابن الاثير ضمن اعداء صلاح الدين لان هذا المؤرخ ـ شأنه شأن المؤرخين الآخرين ـ لم يقدر ان يحجب عن الناس حقيقة ماجرى في آمد، الا انه ـ أي ابن الاثير ـ أضاف قائلا ان انتصار صلاح الدين يعود الى سوء تدبيرا إبن نيسان في الحكم.. وتخليه عن الدفاع عن المدينة... وكذلك الى بخله الشديد وكره الناس له.

ذكرنا ان ابن الاثير اعتاد ان يقتبس الروايات الخاصة بصلاح الدين دون أن يشير الى أصحابها. وكان يقصد من ذلك تضليل قرائه على حد تعبير الدكتور

---

[٤٩] مضمار الحقائق ١٣٨.

[٥٠] جب: ١٣٧.

سعداوي، لكي يخفي عنهم حقيقة اقتباسه. ولانه ـ وهو المهم ـ لم يكن ينقل عنهم بأمانة بل كان يشبع الرواية المقتبسة تحويرا، وهذا ينسحب بالدرجة الاولى على الروايات التي أخذها من العماد الكاتب الاصفهاني، ولكن عندما كان يريد الحفاظ على الرواية ـ لسبب ما ـ كان يشير الى المصدر، وقد تطرقنا الى هذه المسالة ولاحاجة الى تكرارها.

ففي المعركة التي جرت في شوال سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م والتي انتصر فيها صلاح الدين على الاتابك سيف الدين غازي صاحب الموصل، اشار العماد الاصفهاني ان عدد جند الاتابك وصل الى عشرين ألف فارس من عدا الامداد الذي يصلهم يوميا، في حين لم يزد عدد فرسان صلاح الدين عن ستة آلاف[٥١]. هنا انبري ابن الاثير ليصحح هذا الرقم وليؤكد حقيقة اقتباسه من العماد، فيقول: ذكر العماد الكاتب في كتاب (البرق الشامي): ان سيف الدين غازي كان عسكر في هذه الوقعة عشرين الف فارس، ولم يكن كذلك، انما كان على التحقيق يزيد على ستة آلاف فارس اقل من خمسمائة وانما قصد العماد ان يعظم امر صاحبه ـ صلاح الدين ـ بأنه هزم بستة آلاف ـ عشرين الفا[٥٢] ولاشك ان ابن الاثير أحس بتفوقه على غريمه العماد في القدرة على إكتشاف الرقم الصحيح، لذا فليس من قبيل الخيال ـ كما يقول جب ـ ان نشمّ من ملاحظته هذه شيئا من التلذذ ولاشك أنه كان محقا في التلذذ من نتيجة اكتشافه.

والواقع ان هذه لم تكن المرة الوحيدة التي يشير فيها ابن الاثير الى العماد الكاتب ـ كما يعلن جب خطأ ـ بل ان ابن الاثير أشار الى أقتباسه من العماد في أكثر من مكان منه: خبر وفاة زين الدين يوسف ينالتگين ابن على[٥٣]. ومرة أخرى في كتاب الآخر ـ الباهر[٥٤].

ومن محاولات ابن الاثير المعروفة التي قصد منها توجيه النقد الى صلاح الدين مارواه عن حصار الموصل سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، وارسال الاتابك عزالدين مسعود

---

[٥١] البنداري، سنا البرق الشامي، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.
الروضتين ١ ـ ٢٥٥.
[٥٢] الكامل: ١١/ ٤٢٩.
[٥٣] الكامل: ١١/ ٤٢٩.
[٥٤] الباهر: ١٧٤.

وفدا من نساء ألبلاط اليه يطلبن منه المصالحة والكف عن حصار الموصل ويقول: لماوصل صلاح الدين الى مدينة بلد سير الاتابك عزالدين والدته اليه ومعها ابنة عمه نورالدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبون منه المصالحة وبذلوا له الموافقة والانجاد بالعساكر ليعود عنهم. وانما ارسلهن لانه ـ وكل من عنده ـ ظنوا انهن ادا طلبن منه الشام أجابهن الى ذلك، خاصة وان أبنة مخدومه وولي نعمته نورالدين كانت مع الوفد. فلما وصلن اليه انزلهن، واحضر أصحابه واستشارهم فيما ينبغي ان يفعله ويقول لهن، فأشار أكثرهم بأجابتهن الى ماطلبن منه، وقال له الفقيه عيسى وعلى بن أحمد المشطوب، وهما من أكراد بلد الهكارية من أعمال الموصل: (مثل الموصل لايترك لامرأة فأن عزالدين ماأرسلهن الا وقد عجز عن حفظ البلد). ووافق على هواه، فأعادهن خائبات، واعتذر بأعتذار غير مقبولة... ثم يضيف ابن الاثير قائلا: ولم يكن ارسالهن عن ضعف ووهن، انما ارسلهن طلبا لدفع الشر بالتي هى أحسن. فلما عدن رحل صلاح الدين الى الموصل وهو كالمتقين انه يملك البلد وكان الامر بخلاف ذلك[٥٥] فجرى بين الطرفين قتال أخفق صلاح الدين من تحقيق النصر فيه ثم ندم على ردّه النساء ندامة الكسعى حسب قول هذا المؤرخ، حيث فاته حسن الذكر وملك البلد، وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والتوبيخ[٥٦].

بينما نجد العماد الكاتب يعلن ان الوفد النسائي الاتابكي جاء الى صلاح الدين بعد عودته من بلاد أرمينيا ـ خلاط وميافارقين ـ إذ كان صلاح الدين قد غادر الموصل الى هذه البلاد لمابلغه خبر وفاة شاه ارمن، ثم ترك أرمينيا ـ بعد فتح ميافارقين ـ ورجع الى الموصل ثانية، عندها أتت نساء البلاط الموصلي يحملن كتابا متعرضات للشفاعه فأكرمهن السلطان ووعدهن بالاحسان وقال لهن: قد قبلت شفاعتكن لكن لابد من مصلحة تتم ومصالحة نفعها يعم، واستقر الامر على أن يكون عمادالدين زنكي صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطا في اصلاح ذات البين وحكما فبما يعود لمصلحة الجانبين فأنه كانت شفاعته سابقة ورأى بهذا الرأى قضاء الحقين، وتعطف وتلطف لأجلهنّ واجلالهن وأتى بالكرامة بما يليق بامثالهن،

---

[٥٥] الكامل: ١١/ ٥١٢.

[٥٦] ن. ص.

وكن ظنن انه لايقيم لحرمة قصدهن ولايصدق ظنونهن وانه لايعرف حقوقهن ويقضى بمكارمه ديونهن ولا يشتغل بأمر لايؤذن بمرادهن، فدخلن البلد متلومات متذممات وبلطف الله لائذات معتصمات[٥٧]. وبعد هذا الحادث تم الصلح وسوى النزاع واصبحت الموصل جزءا من دولة صلاح الدين[٥٨]. ولعل عقد مقارنة بسيطة بين رواية ابن الاثير وأقوال العماد الكاتب يظهر لنا الفارق بينهما.

وفي مكان آخر نرى ابن الاثير يصور صلاح الدين بمظهر العاجز عن منازلة الصليبيين، وانه كان يؤثر العمل السهل المنال ويضجر من العمل الصعب الذي يحتاج الى صبر وقوة ارادة، وانه لم يبذل جهدا كبيرا في فتحه لحصون وقلاع الصليبيين، بل انه أحرز تلك الانتصارات من غير تعب ولامشقة وقد ساعدته الاقدار.

ففي رواية له عن حصار مدينة صور خلال شتاء سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م يقول: لمارأى صلاح الدين أن أمر صور يطول رحل عنها، وهذه كانت عادته، متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه. وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة بل فتح الجميع في الايام القريبة بغير تعب ولا مشقة، فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملوها وطلبوا الانتقال عنها[٥٩].

في حين أننا لو ألقينا نظرة على ماكتبه العماد الكاتب الذي كان بصحبة صلاح الدين ـ لإتّضح لنا عكس ماذكره ابن الاثير. فيقول العماد: ان صلاح الدين قاد حملة صور مستصحبا معه خيرة قواده منهم أخاه الملك العادل أبا بكر الذي خلف صلاح الدين في حكم الدولة الايوبية بعد وفاته بفترة قصيرة ـ وكذلك الامير الكبير سيف الدين أبا الحسن علي بن ابي الهيجاء الهكاري المعروف بالمشطوب ـ لشرح أصاب وجهه في أحدى المعارك ـ وغيرهما. وأمر صلاح الدين بضرب الخيام قرب صور ـ وقد كست خيامه عرى العراء... فكأنما نفخ في صور، فحشر أهل جهنم وملأوا

---

[٥٧] الروضتين ٢/ ٦٤.

[٥٨] الكامل: ١١/ ٥١٧.

مرآة الزمان: ٨/ ٣٨٤.

الروضتين ٢/ ٦٤.

مفرج الكروب ٢/ ١٧٢.

[٥٩] الكامل ١١/ ٥٥٥.

السور[٦٠] ثم يتحدث باسلوبه المسجع الثقيل الذي عرف به ـ عن الاحتياطات الضخمة التي اتخذها الصليبيون ضد القوات الاسلامية. وأدرك صلاح الدين صعوبه منازلة الاعداء نظرا لحصانة أسوار البلد وموقعه الستراتيجي من البحر، ولان البلد كان ـ في البحر ثلاثه ارباعه وفي السماء ارتفاعه وطريقه الذي يسلك من البرّ إليه، قد أحاط به البحر من جوانبه، وقد قطعوه بخندق في عرضه، وعمّقوه ونزلوا في أرضه وكان من أحكام الحزم واتمام العزم، تكميل الآلات وتنميتها، وتحصيل المنجنيقات وتقديمها وتركيب الابراج والدبابات وتأليفها.. ثم يستمر العماد في وصف الاستحكامات والالات التي أستعملها الصليبيون ومع ذلك كان السلطان يزداد في حده حدة، وفي شده شدة، وفي جده جدة، يثبتهم ـ أي أصحابه بحثه ويحثّهم على الثبات، ويقويهم بجوده، ويوجدهم القوات، ويقول أن الله أمر بالمصابرة، ولا مصابرة الا بالمثابرة، فأصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا[٦١].

بيد ان محاولاته ذهبت أدراج الرياح حين قرر بعض القادة الامتناع عن الاستمرار في القتال[٦٢] لان العسكر قد الفوا تيسر الفتح[٦٣] ولم ينصاعوا لتوجيهات صلاح الدين وتمرّدوا عليه. في حين نجد ان ابن الاثير يتعمد قلب الحقائق، وتغيير النصوص التي ذكرها العماد حتى انه يظهر صلاح الدين وكانه هو الذي إتّخد قرار ايقاف حصار صور قبل تمرد القادة، واذا صح قوله فلماذا تمرّد قواده اذن، ورفضوا الاستمرار على القتال.

ثم يقول ابن الاثير: لم يكن لاحد ذنب غير صلاح الدين ـ لانه كان قد منح الصليبيين الامان في وقت سابق وارسلهم الى صور حيث أحتموا واعتصموا فيها وصاروا قوة لاتقهر نتيجة لتلك الاخطاء. وبعد هذا التقريع يقوم مؤرخنا بتوجيه النصائح ويقول ناصحاً وشامتا لماحصل: ليعلم أن الملك لاينبغي ان يترك الحزم وان ساعدته الاقدار، فلأن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطا مضيعا للحزم(!).

---

[٦٠] العماد الكاتب، الفتح القسي ص ٧٤.

[٦١] م. ن. ٧٨.

[٦٢] م. ن. ص: ٨٤ ـ ٨٥.

[٦٣] م. ن. ٧٨.

أما عن قرار صلاح الدين في ايقاف القتال فيقول لما أراد صلاح الدين الرحيل أستشار أمراءه فأختلفوا، فجماعة يقولون: الرأى أن نرحل، فقد جرح الرجال، وقتلوا وملّوا وفنيت النفقات، وهذا الشتاء قد حضر... وقالت الطائفة الثانية: الرأي ان نصابر البلد ونضايقه فهو الذي يعتمدون عليه من حصونهم... فبقي صلاح الدين مترددا بين الرحيل والاقامة، فلما رأى من يرى الرحيل إقامته أخال بما رد اليه من المحاربة والرمي بالمنجنيق واعتذروا بجراح رجاله... الى غير ذلك من الاعذار فصاروا مقيمين بغير قتال، فاضطر الى الرحيل[٦٤]. ويا عجبا كيف أمكن التوفيق بين كل هذه العبارات المتضاربة... فمن مقتل وجرح الكثيرين ـ بسبب الحرب طبعا ـ الى الملل الذي أصابهم، والى قرار صلاح الدين المسبق في الانسحاب.. ثم اضطراره الى الرحيل. ولكن سرعان مايزول العجب اذا أدركنا ان ابن الاثير أراد ان يبرهن مايضمره تجاه صلاح الدين بأي ثمن مهما بدا هذا البرهان هزيلا، الا انه لم يصب في موقفه ناهيك انه قلب المعادلة الى عكسها مرارا، ولننظر الى المثل التالى:

فبعد أن وصلت العلاقة بين الاتابك عزالدين مسعود وصلاح الدين الى حد خطير، اتصل الاتابك بالخلفية العباسي الناصر لدين الله علـه يتدخل في الامر ويستعمل نفوذه لدى السلطان صلاح الدين يوسف الذي كان يعتبر من أخلص اتباع الديوان العزيز. فوافق الخليفة ان يقوم بدور الوسيط بينهما لانهاء نزاعهما المستمر، وارسل مبعوثه شيخ الشيوخ صدرالدين عبدالرحيم بن اسماعيل الى الموصل على ان يلتحق به هناك رسول الاتابك قاضي القضاة أبو محي الدين محمد بن كمال الدين محمد الشهر زوري. فسار المبعوثان الى دمشق حيث كان صلاح الدين نازلا فيها[٦٥].

جرت بين الطرفين مفاوضات، الا أنها تعثرت بعد ان جرى من الشهر زورى ممثل الموصل كلام فيه اشتطاط واشترط اشياء غير مقبولة على حد قول ابن تقي الدين الايوبي[٦٦] الذي كان يصاحب السلطان في صولاته. وأهم تلك الشروط هو أعادة امارة اربيل وجزيرة ابن عمر الى حظيرة الموصل وان يتخلى صلاح الدين عنهما

---

[٦٤] الكامل ١١/ ٥٥٦.

[٦٥] مرآة الزمان ٨/ ٣٧٨.

مفرج الكروب: ٢/ ١٥٦.

[٦٦] مضمار الحقائق ١٦٢.

قبل البدء بإقامة العلاقات الطبيعية الايجابية بينهما. في حين رأى صلاح الدين ان تترك الحرية لصاحبي اربيل وجزيرة ابن عمر في اختيار الجانب الذي يودّان الانضمام اليه. فلم يوافق الشهر زورى على ذلك واصر على موقفه قائلا ـ لابد من ذكرهما في النسخة ـ[٦٧] اي عودتهما الى الموصل فتوقفت المفاوضات بعد ان وصلت الى طريق مسدود، ولان سلوك رسول الموصل جعل أمر التسوية اشبه بالمستحيل[٦٨].

والواقع ان الاتابك أراد بهذه المفاوضات ان يحسم الموقف مع صلاح الدين بأظهاره بمظهر الطامع في أربيل وجزيرة ابن عمر، وكسب تأييد بغداد بجانبه، الا انه أخفق في الوصول الى غايته. فضلا عن انه ـ أي الاتابك ـ أتصل بشمس الدين البهلوان محمد بن ايلدكز صاحب بلاد الجبل واخيه قزل ارسلان عثمان بن ايلدكز صاحب بلاد أذربيجان، وكانا من خصوم صلاح الدين، وأعلنا عن استعدادهما لمساعدة الاتابك اذا طلب منهما ذلك، وهذا ماجعل موقف الشهرزوري ـ ممثل الموصل في المفاوضات ـ قويا. ولما أدرك صلاح الدين سر تعنّت صاحب الموصل وسبب إصرار ممثله على موقفه البعيد عن التفاهم تبسم وقام بوداع شيخ الشيوخ صدر الدين مبعوث الخليفة[٦٩]

وقد أجمع على هذه الروايات كافة المؤرخين المعاصرين باستثناء ابن الاثير الذي حاول قلب المعادلة المعروضة على محي الدين الشهرزوري والمرفوضة من جانبه، فاستبدل نقطة الخلاف الحقيقية بين الطرفين بأخرى مختلفة لكي يتسني له ابراز صلاح الدين وكأنه على عداء راسخ لاية تسوية للخلافات مع الموصل، فيقول: أعلن صلاح الدين لمبعوثي بغداد والموصل ان ليس للموصل مع جزيرة ابن عمر واربيل حديث، فأمتنع الشهرزوى عن ذلك وقال: هما لنا. فلم يجب صلاح الدين الى الصلح الا بأن تكون أربيل وجزيرة ابن عمر معه، فلم يتم أمره[٧٠]. بل أن هذا المؤرخ يذهب الى أبعد من ذلك حين يعلن ان سبب اصرار صلاح الدين، يعود الى القاء

---

[٦٧] ابن شداد، سيرة صلاح الدين ٦٥.

[٦٨] جب ١٩٧.

[٦٩] مضمار الحقائق ١٦٣.

[٧٠] الكامل ١١/ ٥٠٠.

الاتابك القبض على نائبه ومستشاره المعروف مجاهد الدين قايماز مما أضعف موقف الموصل واستغل صلاح الدين هذا الضعف باصراره على موقفه.

وفي مكان آخر نجد ان ابن الاثير لم يستطع كبت مشاعره تجاه صلاح الدين بل دوَّن كل مامن شأنه الحط من مكانته سواء أكانت هذه الروايات هي من أقواله أو مما سمعها من الآخرين. والظاهر ان ابن الاثير احتفظ بمشاعره هذه حتى بعد انتهاء الصراع بين الموصل وصلاح الدين، بل لعل هذه المشاعر زادت حدتها بسبب انتهاء هذا الصراع لصالح صلاح الدين حين أصبحت أمارة الموصل جزءا من الدولة الايوبية الكبرى التي امتدت من شمال أفريقيا ومصر والسودان الى بلاد اليمن.

فذات يوم من أيام سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م واثناء حصار عكا الشهير الذي دام فترة طويلة، رام صلاح الدين ركوب خيله وكان يعاني من آلام، إضافة الى تقدّمه في السن، وكان بعض الامراء المسلمين وأولادهم حاضرين، فأرادوا معاونته في الركوب، فتقدّم معزالدين ابن الامير قلج ارسلان منه وعضده في الركوب، ثم تقدّم منه علاء الدين خرمشاه ابن اتابك الموصل عزالدين مسعود، وسوّى ـ شَدَّ وعدّل ـ ثيابه، فاوغر هذا الموقف صدر بعض الحاضرين كما يصورها لنا ابن الاثير، فما كان من هذا المؤرخ الا واظهر حسرته على مايرى ويسمع، فدون هذا الحادث بهذه الشاكلة في رواية ـ فريدة ـ له ويقول:

حدثني من أثق به (!) قال رأيت صلاح الدين وقد ركب ليودع معزالدين فترجل له معزالدين وترجل صلاح الدين وودعه راجلا، فلما أراد الركوب عضده معزالدين وأركبه، وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه بن عزالدين صاحب الموصل، قال: فتعجبت من ذلك، وقلت ما تبالي (يا ابن أيوب !) اى موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي وابن أتابك زنكي[٧١].

ولاشك ان ذكر اسم صلاح الدين بهذه الصيغة ـ يا ابن ايوب ـ يدل على ما كان يضمره ابن الاثير تجاهه. ومن ثم فأن من يسميه ابن الاثير ـ ملك سلجوقي ـ لم يكن ملكا، بل كان ابن ملك مطارد من اخيه قطب الدين، فلجأ الى صلاح الدين طالبا معونته، فأكرمه هذا وزوجه من أبنة اخيه الملك العادل، وعلى أثر دخوله تبعية

---

[٧١] ن. م. ١٢ ـ ٧٧.

صلاح الدين ((عم زوجته)) أمتنع قطب الدين من قصده ومطاردته كما يرويه ابن الاثير نفسه في مكان آخر[٧٢].

مع أن هذا المؤرخ ـ كغيره من المؤرخين المعاصرين ـ لم يقدر الا وان يشيد بأخلاق هذا القائد وتواضعه في سياق حديثه عنه بمناسبة وفاته ـ بعد سنتين – اي في سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م فعن تواضعه قال: انه لم يكن يتكبر على أحد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين، ولم يلبس شيئا مما ينكره الشرع. وكان عنده علم ومعرفة وسمع الحديث ورواه، وبالجملة كان نادرا في عصره، كثير المحاسن والافعال الجميلة، عظيم الجهاد في الكفار، وفتوحه تدلّ على ذلك[٧٣]. ثم يتحدث عن حلمه وكرمه وتغافله عن ذنوب اصحابه، فكان يسمع من أحدهم مايكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغيرّ عليه ـ ويضرب ابن الاثير بعض الامثلة على تسامحه وقلبه الكبير.

ومادمنا نتحدث عن وفاته، فنورد بعض الفقرات عن رواية ابن شداد الذي كان حاضرا يومها في دمشق فقال ـ كان يوما لم يصب المسلمون والاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمها الا الله. وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس انهم يتمنّون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وما سمعت هذا الحديث الاعلى ضرب من التجوز والترخص عدا ذلك اليوم، فانّي علمت من نفسي ومن غيري انه لو قبل الفداء لفدى بالنفس... وكان يوما عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر الى غيره... وارتفعت الاصوات عند مشاهدة جثته، وعظم الضجيج حتى ان العاقل يتخيل ان الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا، وغشى الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة... فما يوجد قلب الاحزين، ولا عين الا باكية، ثم رجع الناس الى بيوتهم أقبح رجوع[٧٤] بعد ان ودعوا قائدهم.

وقبل أن نأني الى ختام الحديث عن هذا القائد الاسلامي الكردي نقول ان صلاح الدين شأنه شان كل عظيم في فترات كبوة الامم لابد ان أخطأ ـ وقد أخطأ فعلا ـ والفرق بين أخطاء العظماء وأخطاء غيرهم هو انهم بحولّون أخطاءهم الى تجارب، ولان الخطأ هو الوجه الاخر للعمل سواء على النطاق العسكرى او السياسي أو

---

[٧٢] ن. م. ١٢ ـ ٧٦.

[٧٣] ن. م. ١٢ ـ ٩٧.

[٧٤] سيرة صلاح الدين: ٢٤٧.

غيرهما، والمهم ان لايقع مرة أخرى في الاخطاء التى أصابته واعاقت مسيرته.

والآن ولكى نكون على بينة على بعض اسرار هذه العظمة النادرة، نقتبس فقرات مما ذكره باحث مصري شهير الذي يقول: ان سر عظمة صلاح الدين هو انه تحدى الصليبيين وهم في اوج مجدهم، بعد أن بلغوا من القوة واتساع النفوذ في النصف الثاني من القرن الثاني عسر الميلادي ـ القرن السادس الهجري ـ درجة هددت اهل العراق والشام ومصر بل أهل الحجاز وسكان الحرمين. فصلاح الدين عندما أعلنها حربا دائبة على الصليبيين كان يعلم تماما انه سينازل خصما قويا مكن لنفسه في البلاد ومن خلفه الغرب الاوربي بأجمعه يمده بالعدة والعدد. واذا كان صلاح الدين قد بلغ درجة كبيرة من القوة فانه بنزوله الى المعركة تحدّى أكابر ملوك الغرب في أنجلترا وفرانسا والمانيا فضلا عن البابوية ذات النفوذ الروحي الواسع في غرب اوربا في العصور الوسطي. وبمعنى آخر فان الفارق واضح بين صلاح الدين من ناحية وغيره من زعماء الجهاد السابقيين واللاحقين من ناحية أخرى، لان اسلاف صلاح الدين من زعماء الجهاد نازلوا جموعا من الصليبيين مازالت في دور النضج والنمو والسعى لتفهم اوضاع البيئة الجديدة التي أستقرت فيها بالشرق، وخلفاء صلاح الدين من زعماء حركة الجهاد نازلوا جماعات صليبية هزتها حروب صلاح الدين وضرباته القوية[٧٥].

وفي مكان آخر يقول هذا المؤرخ: فلا عجب اذا أحتل صلاح الدين تلك المكانة الضخمة في تاريخ الشرق والغرب، وسيظل اسمه حيا ماثلا في القلوب والاذهان طالما رددت معاني البطولة والفداء من ناحية وطهارة الخلق ونقاوة النفس من ناحية اخرى[٧٦]. ولا أدل على عظمة الرجل حين أصبح انتسابه القومي رغم كرديته الواضحة، مثار جدل بين بعض المؤرخين وكتاب المقالات. لقد كان صلاح الدين الاستجابة المسؤولة لنداء المقاومة وتحرير الارض في أحلك لحظات التاريخ الاسلامي الوسيط.

---

[٧٥] عاشور، الناصر صلاح الدين ص ٦.

[٧٦] ن. م ص ٢٩٥.

مصادر البحث

أولا: المصادر القديمة

١- ابن الاثير، عزالدين علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م).

التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية (بالموصل) تحقيق د. عبدالقادر احمد طليمات، ط دار الكتب الحديثة القاهرة، ١٩٦٣.

٢- المؤلف نفسه.

الكامل في التاريخ، ط دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٦.

٣- ابن تغرى بردي، جمال الدين يوسف الاتابكي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩).

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

٤- ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع الاسدي (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م).

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د. جمال الدين الشيال، ط الدار المصرية ١٩٦٤.

٥- ابن كثير، اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م). البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٣٢.

٦- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م).

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣.

٧- ابن الوردي، زين الدين عمر بن الوردي (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).

تاريخ ابن الوردي (ذيل المختصر في أخبار البشر) المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٦٩.

٨- ابو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٢هـ/١٢٦٦م).

الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة وادي النيل، ١٢٨٨هـ.

٩- نفس المؤلف.

تراجم رجال القرنين السادس والسابع. أو (الذيل على الروضتين) بأعتناء محمد زاهد الكوثري، ط القاهرة ١٩٤٧.

١٠- الايوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م).

مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د. حسن حبشي، ط عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨.

١١- البنداري، قوام الدين الفتح بن علي (ت ٦٤٢هـ/١٢٤٣م).

سنا البرق الشامي. اختصار لكتاب (البرق الشامي) لعمادالدين الكاتب الاصفهاني، تحقيق رمضان ششن، ط دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧١.

١٢- الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م).

معجم الادباء (ارشاد الاريب الى معرفة الاديب) طبعة مرغليوث، مطبعة هندية بالموسكي، القاهرة.

١٣- العماد الكاتب، عمادالدين الاصفهاني (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م).

الفتح القسي في الفتح القدسي، ط ليدن ١٨٨٧.

ثانيا: المصادر الحديثة

١٤- جب، السير هاملتون الكسندر روسكين.

١٥- صلاح الدين الايوبي، ترجمة يوسف ايبش، ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٣.

١٦- الجميل، رشيد.

١٧- دولة الاتابكة في الموصل بعد عمادالدين زنكي (٥٤١ - ٦٣١هـ) ط دار النهضة، بيروت ١٩٧٠.

١٨- حسين، محسن محمد.

١٩- أربيل في العهد الاتابكي، بغداد، مطبعة أسعد، ١٩٧٦.

٢٠- الديوهجى، سعيد.

الموصل في العهد الاتابكي، مطبعة شفيق، بغداد ١٩٥٨.

٢١- سعداوي، د. نظير حسان سعداوي.

المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الايوبي، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٦٢.

٢٢- سوبر نهايم.

في (دائرة المعارف الاسلامية) مادة ((صلاح الدين الايوبي)) ط القاهرة ١٩٣٣.

٢٣– سيد الاهل، عبدالعزيز.

أيام صلاح الدين، ط القاهرة ١٩٦٤.

٢٤– طليمات، د. عبدالقادر أحمد.

ابن الاثير الجزري (المؤرخ) دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٩.

٢٥– عاشور، د. سعيد عبدالفتاح.

الناصر صلاح الدين، ط المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٦٥.

٢٦– العريني، د. السيد الباز.

مؤرخو الحروب الصليبية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦١.

٢٧– العمري، ياسين خيرالله الخطيب.

منية الادباء في تاريخ الموصل الحذباء. تحقيق سعيد الديوةجي، مطبعة الموصل – ١٩٥٥.

٢٨– لين بول:

Stanley Lane_Poole, Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem, London, 1914.

قراءة ثانية لماكتب عن تأريخ اربيل في العهد الاتابكيى[*]

من الامور المألوفة في تدوين الأخبار اختلاف المؤرخين فيما يوردونه من روايات، مما دفع المهتمين المحدثين بقضايا التأريخ ـ الاسلامي خاصة ـ الى اختلافهم في استنتاجاتهم واجتهاداتهم حول حدث معين. مع أن تباين الروايات ليس السبب الواحيد في هذا الاختلاف. والواقع ان المواضع الذي نبغي معالجته لاعلاقة له بموضوع اجتهاد المؤرخين، بل هو لالقاء الضوء على الروايات التي تشذ عن اجماع المؤرخين لتفردها، أو لخطأ وقع فيه المؤرخ لسبب ما، فيما يخص تأريخ أربيل في العهد الأتابكي.

فالمعروف انه ثمة اختلاف بين المؤرخين حول السنة التي تم فيها فتح أربيل في عهد عمادالدين زنكي ابن آق سنقر مؤسس أتابكية الموصل، فذكر بعضهم ان ذلك تم في سنة (٥٢٢هـ/١١٢٨م) كما في رواية ابي شامة[١]، وذكر آخرون ان ذلك تم في سنة (٥٢٦هـ/١١٣١م) كما في رواية ابن واصل[٢]. ونرى ان المؤرخ الدواداري ذكر حادث الفتح في كلا التأريخين المذكورين معا[٣]. ويعلن انه نقل من ابن واصل[٤] حين يجعل

---

[*] نشر في مجلة المجمع العلمي الكردي ـ بغداد ـ ١٩٧٦ ـ المجلد الرابع.

[١] ابو شامة، ابو محمد شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٢هـ/١٢٦٦م) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (طبعة القاهرة، مطبعة وادي النيل ـ ١٢٨٨هـ)، ج ١ ص: ٣٠.

[٢] ابن واصل، جمال الدين محمد ابن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م).
مفرج الكروب في اخبار بني ايوب (طبعة القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الاول ١٩٥٣) جـ ١ ص: ٩٧.

[٣] الدواداري، ابوبكر بن عبدالله بن آيبك (ت بعد سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م).
كنز الدرر وجامع الغرر، الدرة المضيئة في اخبار الدولة الفاطمية (طبعة القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦١) ص: ٥٠٢.

[٤] ابن الأثير، ابو الحسن عزالدين عزالدين علي بن ابي الكرم محمد الجزري الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م). الكامل في التاريخ (طبعة بيروت، دار صادر، دار بيروت ١٩٦٦)جـ ١١ ص: ٣٣١
وابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس أهرون الملطي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) تاريخ مختصر الدول (طبعة بيروت، المطبعة الكاثوليكية ـ ١٩٥٨) ص ٢١٢.

تـأريخ الفـتح يقـع في سـنة (٥٢٦هـ/١١٣١م). علمـا ان هـؤلاء المـؤرخين لم يكونـوا معاصرين لحادث الفتح، أما المعاصرون فلم يذكروا رواية تحسم هذا الاختلاف[٥].

وبعد فتح المدينة أقطعها الاتابك عمادالدين زنكي الى زين الدين علـي كجـك ابـن بكتكين قائد جيشه ورفيق صباه، الذي سرعان ما بدأ اسمه يلمع في الموصل سواء في عهد هذا الاتابك أو في عهد ولديه اللـذين حكمـا الموصـل مـن بعـده، وهمـا سـيف الدين غازي ثم قطب الـدين مـودود. وقـد توسـعت ممتلكـات زيـن الـدين علـي كجـك وصـارت تضـم ـ اضـافة اربيـل ـ منطقـة واسـعة تمتـد مـن تكريـت الى بـلاد الاكـراد الحميدية (عقرة والشوش) وقلاع الهكارية (العمادية وغيرها) ومـن حـران وسـنجار الى شهرزور وقلاعها وكذلك قلعة الموصل. وقد تنازل عن كافة ممتلكاته الى الاتابك قطب الدين مودود واكتفى بأربيل التى كان يعتز بها كـثيراً نظـرا لكونهـا قـد اقطعـه اياهـا الاتابك المؤسس عمادالدين زنكي، كما ذكرنا، ووضع فيها أولاده وخزائنه[٦].

وفي أواخر أيامه قـرر أن يسـتقر في أربيـل ويقضـي فيهـا أيامـه الباقيـة بعـد أن أصابه الطرش والعمى بسبب شيخوخته اذ تجاوز التسعين، فأستأذن الاتابـك قطـب الدين مودود وطلب منه السماح له بمغادرة الموصل قائلا: انك لا تنتفع بي بعد، فقد كبرت وضعفت قوتي وخانني سمعي وبصري[٧]. فوافق الأتابك على رغبته.

وفي الوقت الذي يجمع المؤرخون على أن مغادرته للموصل تمت بطريقة هادئـة، نجد أن مؤرخا معاصرا لتلك الفترة هو محمد بن علي الحمـوي يقـول: ان زيـن الـدين علي كجك خرج من الموصـل غاضـبا[٨]، أي أن علاقتـه قـد سـاءت مـع قطـب الـدين مودود، ويضيف هذا المؤرخ قائلا: ان زين الدين علي كجك مكث في أربيـل شـهرا ثـم ساءت صحته ومات. وكذلك يجمع المؤرخون المعاصرون والمتأخرون على ان وفاتـه كانت في سنة (٥٦٣هـ/١١٦٨م) الا المؤرخ الفارقي يقول انها كانت في سنة ٥٦٤هـ[٩].

---

[٥] وقد ناقشنا امر هذا الاختلاف في مؤلفنا (اربيل في العهد الأتابكي) بغداد، مطبعة أسعد ١٩٧٦ ص:٣٨.

[٦] ابن الأثير الكامل، ٣٣١/١١.

[٧] سبط ابن الجوزي، أبـو المظفـر شمـس الـدين قـز اوغلـي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) مـرآة الزمـان في تـأريخ الأعيان (مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٥٢) جـ ٨ ص: ٣٧٨.

[٨] الحموي، ابو الفضائل محمد بن علي (ت ٦٤٤هـ/١٢٤٦م).

[٩] انظر هامش كتاب ابن القلانسي، ابو يعلى حمـزة، ذيـل تـاريخ دمشـق، (طبعـة بـيروت، مطبعـة الآبـاء اليسوعيين ـ ١٩٠٨) ص: ٢٨١.

وكما ذكرنا كانت شهرزور من ضمن ممتلكات زين الدين علي، ثم تنازل عنها للأتابك يوم غادر الموصل، الا ان صلاح الدين الايوبي أضافها الى امارة اربيل بطلب من مظفر الدين گوگبورى ابن زين الدين علي، حين عاد هذا الى حكم امارة أربيل أثر وفاة أخيه زين الدين يوسف ينالتگين سنة (٥٨٦هـ/١١٩٠م). وظلت شهرزور جزءا من امارة اربيل الى وفاة مظفر الدين گوگبورى سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) حين الحقت الامارة بممتلكات الخليفة العباسي. الا ان مظفر الدين گوگبورى كان قد منح شهرزور لصهره عمادالدين ابن نورالدين أرسلان شاه قبيل سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م)[١٠]، ليحكمها نيابة عنه بعد أن فقد هذا ممتلكاته في عقرة والشوش بجبال الموصل نتيجة صراعة مع بدرالدين لؤلؤ حاكم الموصل وخليفة الأتابكة فيها.

بينما يذكر مؤرخ معاصر لتلك الفترة هو سبط ابن الجوزي[١١] ـ وينقل عنه ابن تغري بردي[١٢] ـ ان اتابك الموصل نورالدين ارسلان شاه منح إبنه المذكور (عمادالدين زنكي) بلاد شهرزور قبيل وفاته سنة (٦٠٧هـ/١٢١١م)، في حين ان تلك البلاد لم تكن من ممتلكات الموصل يومئذ لكي يمنحها أتابكها المذكور لابنه. والصحيح هو ان هذا الاتابك قسم بلاد الموصل بين ولديه (صهري مظفرالدين گوگبورى)، فمنح الموصل لإبنه الأكبر الملك القاهر عزالدين مسعود (الثاني) وأعطى لولده الثاني عمادالدين زنكي المناطق الجبلية من بلاد الموصل ومن ضمنها قلعتا عقرة والشوش[١٣]، ثم اضطر الى التنازل عن ممتلكاته الى بدرالدين لؤلؤ ـ كما ذكرنا ـ والتجأ الى أربيل فمنحه صاحبها بلاد شهرزور.

---

[١٠] لا يعرف بالضبط تاريخ بدء حكم عمادالدين زنكي لبلاد شهرزور، الا أن ذلك حصل في حدود سنة ٦٢٢هـ ونعرف ذلك من التاريخ المدون على الدينار الذي سكه باسمه واسم «ملك الامراء گوگبورى» والموجود في متحف القاهرة، انظر كتاب الدكتور محمد باقر الحسيني (العملة الاسلامية في العهد الاتابكي)، ص: ٦٨. وكذلك نعرف ماذكرناه من رواية الحموي الذي يقول: ان عمادالدين زنكي كان يحكم شهرزور سنة ٦٢٢هـ انظر كتابه: التاريخ المنصوري، ص: ٣٠٧.

[١١] مرآة الزمان: ٨/ ٥٤٦.

[١٢] النجوم الزاهرة: ٦/٢٠٠.

[١٣] الكامل: ١٢/٢٩٣

ابن خلكان، أبو العباس شمسالدين أحمد بن محمد بن أبي بكر الاربلي (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الاعيان وأنباء الزمان (طبعة القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٤٨/جـ٤ ص ٢٩٥) و ابو الفداء، عمادالدين

ويقع الدكتور سوداي عبد محمد الرويشدي الذي كتب عن تأريخ امارة الموصل، في خطأ من نوع آخر اذ يقول ان عمادالدين زنكي هذا كان يحتفظ بالقلعتين المذكورتين (عقرة والشوش) الى سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م)[١٤]. أي الى وفاته[١٥] ووفاة مظفرالدين گوگبورى، معتمداً - في فهم متسرع - على رواية الذهبي[١٦].

المعروف ان مظفر الدين كوكبوري حكم أربيل أثر وفاة والده مباشرة وظل يحكمها الى ان أُقصي عن الحكم[١٧] لخلافه مع مجاهدالدين قايماز الذي كان قد عيّنه زين الدين علي كجك ليحكم أربيل نيابة عنه منذ وفاة نائبه السابق سرفتكين الزيني سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م). فغادر مظفرالدين كوكبوري أربيل والتجأ الى بغداد وطلب من الخليفة أن يعينه في مسعاه ليستعيد عرشه المغتصب، وكانت هذه هي المرة الاولى التي يزور فيها بغداد، ثم زارها ثانية قبل وفاته بحوالي السنتين، أي في سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م). في حين يذكر صاحب كتاب ((الحوادث الجامعة)) ان زيارته لبغداد في سنة ٦٢٨هـ كانت الاولى اذ ((لم يكن مظفر الدين كوكبوري قد قدم بغداد من قبل[١٨] ومثله يقول ابن كثير الدمشقي))[١٩].

اسماعيل بن محمد بن عمر الايوبي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م). المختصر في اخبار البشر (طبعة القاهرة، المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٢٥هـ)، جـ ٣ ص: ١٢١.

[١٤] امارة الموصل في عهد بدرالدين لؤلؤ (٦٠٦ – ٦٦٠هـ/١٢٠٩ – ١٢٦١م) طبعة بغداد، مطبعة الارشاد: ١٩٧١، ص: ١٥٠.

[١٥] المعروف أن عماالدين زنكي توفي أيضا في سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م. انظر ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٢٩٦/٤.

[١٦] الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م). تاريخ الاسلام (مخطوط مصور في مكتبة الدراسات العليا، كلية الاداب، جامعة بغداد، قسم ٢ رقم ١٦٦٠) ورقة: ١٨٠.

[١٧] يخطيء الدكتور الحسيني حين يقول ان مجاهدالدين قايماز عزل مظفر الدين گوگبورى في سنة ٥٦٣هـ أي في نفس سنة وفاة والده زين الدين علي كجك، انظر كتابه: العملة الاسلامية في العهد الاتابكي، ص: ١٣٨.

[١٨] الحوادث الجامعة (تنتهي حوادثه عند سنة ٧٠٠هـ، لمؤلف مجهول) وكان الكتاب ينسب خطأ لابن الفوطي. طبعة بغداد، مطبعة الفرات ١٩٣٢، ص: ١٩ ويعتمد على هذه الرواية كل من: عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين. مطبعة بغداد، ٢١٦/١ علماً انه يشير في صفحة سابقة الى زيارة مظفرالدين كوكبوري الاولى.

(ب) د. ناجي معروف، تاريخ علماء المستصرية، ص: ٧٨.

(جـ) د. محمد صالح داود القزاز، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، ص: ٧٣.

وقد وقع مؤرخون محدثون في أخطاء تاريخية بسبب تسرعهم في اقتباس الرواية، وقلة التأني في الاستنتاج. فعلى سبيل المثال يذكر الدكتور عبدالقادر أحمد طليمات ان مدينة اربيل اتخذت اسمها من معركة (اربيلا) التي حدثت سنة ٣٣١ قبل الميلاد بين الاسكندر الأكبر وداريوس كودومانوس[٢٠]، معتمدا في استنتاجه على دائرة المعارف البريطانية Encyclopedia Britannica، ثم يعلن في فقرة تالية ان دائرة المعارف الاسلامية تتفق مع دائرة المعارف البريطانية في أن اسم هذه المدينة صار (اربلا) منذ أن حدثت وقعة الاسكندر الأكبر الشهيرة. في حين ان العكس هو الصحيح ـ كما لا يخفى على المهتمين بالأمر، اذ ان تلك المعركة سميت باسم هذه المدينة، نظراً لكونها وقعت بالقرب من هذه المدينة[٢١]، كما تسمى أحيانا بمعركة ((جوجميلا ـ گوگميلا)). أما عن تأريخ تسمية أربيل باسمها فقد ذكر الاستاذ طه باقر ان أقدم ما توفرت لدينا من نصوص عن ذكر أربيل هي ما وردت في سجلات ملوك سلالة أور الثالثة السومرية في فترة بين ٢١١٢ و ٢٠٠٤ قبل الميلاد، حيث ذكر اسمها بهيئة (اوربيلُم) وبهيئات أخرى شبيهة بها من المقاطع المسمارية[٢٢].

---

[١٩] ابن كثير، اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).
البداية والنهاية (طبعة القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣٢) ج ١٣ ص: ١٢٩.

[٢٠] د. عبدالقادر أحمد طليمات، مظفرالدين كوكبوري امير أربيل.
سلسلة اعلام العرب، القاهرة. مطبوعات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٦٣، ص: ١٨٩.

[٢١] انظر بهذا الصدد:
(أ) فؤاد جميل: اربان يدون أيام الأسكندر الكبير في العراق، في مجلة سومر، مجلة ٢١ لسنة ١٩٦٥، بغداد، ص ٢٦٩ وما بعدها.
(ب) الكاتب نفسه: حدياب ـ أربيلا، عشتار ـ أربيلا، في مجلة سومر، مجلد ٢١ لسنة ١٩٦٩، بغداد، ص: ٢٢٠.
(جـ) حنا خباز، المعارك الفاصلة في التاريخ، طبعة بيروت، دار الكتاب العربي. ص: ٢٩ ـ ٣٦.
(د) الجنرال برسي سايكس، تاريخ ايران، ترجمه من الانكليزية الى الفارسية سيد محمد تقي فخرداعي كيلاني، شركة سهامي، چاپ انتشارات ايران ـ تهران ص: ٣٤٢ ـ ٣٥٣.

[٢٢] طه باقر، مجلة المجمع العلمي الكردي، جولات تاريخية بين مواقع الآثار في شمالي العراق، المجلد الثالث ـ القسم الاول، لسنة ١٩٧٥ ص: ٦٣٤.
The Encyclopedia of Britannica (art. Irbil) v. 12, p, 538.

وعلى ذكر الاستاذ طه باقر فهو عندما يتطرق الى تـأريخ أربيـل الأتـابكي يعلـن انه في سنة (٥٦٣هـ/١١٦٧م) أسس زين الدين علي كوجـك في عهـد المستنصـر بـالله دويلات مهمة كانت عاصمتها مدينة أربيل. والصحيح ـ حسب ما تؤكده – المصادر كافة ـ وكما ذكرنا قبل قليل ـ ان تلك السنة كانت سنة وفاة الأمير المذكور، وليست سنة تأسيس الامارة، وكانت أربيل قد غـدت مـن ممتلكاتـه منـذ أن فتحهـا مؤسـس أتابكية الموصل عمادالدين زنكي ابن قسيم الدولة آق سـنقر، قبـل التـأريخ المـذكور (٥٦٣هـ) بنحو أربعين سنة.

ثم يتطرق الاستاذ باقر الى مظفرالدين گوگبـورى[٢٣] ويقـول ان هـذا اسـتطاع أن يخضع الاقاليم والامارات المجـاورة، فضـم اقلـيم شـهرزور واقلـيم الموصـل وسـنجار وحران والهكارية وتكريت وداقوق (دقوقا)[٢٤]، بينما المعروف عن مطفرالدين كوكبرى انه لم يحكم كل هذه المناطق، سواء قبل اقصائه عن عرش أربيل (بعد وفاة والـده) أو بعد أن عاد الى هذا العرش إثر وفاة أخيه زين الدين يوسف ينالتگين، حين عرض على صلاح الدين الايوبي رغبته في العودة الى عرش أخيه ووالـده مقابـل تنازلـه عـن امارته التي كانت تضم حران والرها والمـوزر وسميسـاط (مـن مـدن منطقـة الجزيـرة الفراتيـة) فوافـق السـلطان الايـوبي علـى طلبـه وأضـاف شـهرزور الى امارتـه (امـارة أربيل). اما المنـاطق الاخـرى (الموصـل وسـنجار والهكاريـة وتكريـت وداقـوق) فلـم يسبق له أن حكمها.

وبعـد هـذا يتطـرق الاسـتاذ الى هجـوم المغـول علـى منطقـة أربيـل في سـنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) ويقول ان هذا الهجـوم كـان آخـر هجـومهم[٢٥] في حـين أن هجـومهم الأخير ـ كما تؤكده أحداث التأريخ ـ كـان في سـنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وكـان بقيـادة (ارقيو نويـان) وأمـا بصـدد قولـه مـن ان المغـول رغـم محاصـرتهم للقلعـة، الا أنهـم أخفقوا في تحقيق النصر بفضل مقاومة المدافعين فالواقع ان المغول تمكنوا من اذلال

---

[٢٣] تجدر الاشارة الى ان الاستاذ باقر يعلن ان «گوگبورى» يعني بالتركية (الذئب الازرق، او الاغبر) والواقع ان هذا الاسم لايتحمل التأويل ف «گوك» يعنى (الازرق) فقط.

[٢٤] طه باقر، العدد نفسه من مجلة المجمع، ص: ٦٥٤.

[٢٥] ن. م. ص: ٦٥٥.

الاهلين وابادة أعداد هائلة منهم[٢٦]، ثم تركوا المدينة كجوف حمار على حد تعبير المؤرخ ابن ابي الحديد[٢٧] الذي عاصر احداث الفترة. والجدير بالتنبية ان الاستاذ باقر يحيلنا في ذكره لهذا الحادث الذي وقع سنة ٦٣٤هـ الى ابن الأثير في حين ان هذا المؤرخ توفي سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، وتوقف عن تدوين التاريخ قبل وفاته بسنتين.

ويعلن الاستاذ المرحوم عباس العزاوي ان زين الدين علي كجك، الذي ارسله الأتابك قطب الدين مودود لمناصرة السلطان محمد بن السلطان محمود في صراعه مع عمه سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه وحليف الخليفة المقتفي لأمرالله، كان (أي زين الدين علي) يميل الى الدولة العباسية (!) ويناصرها، وانه ـ رغم انضمامه الى خصم الخليفة ـ لم يقصد الوقيعة به، بل جرت بينه وبين الخليفة مراسلات اظهر فيها ميله الية[٢٨]. في حين ان وقائع الصراع الطويلة تثبت عكس ذلك، على الرغم من ان نشاط زين الدين علي قد فتر في مراحل الصراع الأخيرة، ولعل مردّ ذلك كان بدافع من نورالدين محمود ابن عمادالدين زنكي صاحب حلب، الذي قيل انه اتصل بزين الدين علي عن كثب وطلب منه التوقف عن محاربة خليفة بغداد[٢٩]. هذا ويحيلنا العزاوي الى بعض المصادر لتثبيت رأيه، في حين ان تلكم المصادر تفند رأيه (انظر ابن الأثير (الكمال) وابن القلانسي (ذيل تأريخ دمشق) والحسيني (اخبار الدولة السلجوقية).. ومهما يكن من امر فان زين الدين علي اذا كان قد توقف فعلا

---

[٢٦] ابن أبي الحديد، ابو حامد عزالدين عبدالحميد بن هبةالله المدائني (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) شرح نهج البلاغة (طبعة دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٣) جـ ٣ ص: ٨١

وللمزيد من المعلومات عن هذا الحادث انظر:

(أ) الحوادث الجامعة، ص: ٩٨

(ب) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان.

[٢٧] بشأن ذلك انظر ما كتبناه في كتابنا (موضوعان في التاريخ الكردي) ص: ٦٢.

[٢٨] عباس العزاوي، مقاله (آل بكتكين ـ امارة أربل في عهدهم) في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد ٢١، لسنة ١٩٤٦ ص: ٤١٥.

(ف ـ ٣٤)

[٢٩] ابن الجوزي، ابو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) المنتظم في تاريخ الملوك والامم (مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٣٩) جـ ١٠ ص: ١٧١.

ابن الأثير، الكامل: ٢١٤/١١

عن محاربة الخليفة، الا انه لم يناصره قط. بل ونرى ان الدكتور مصطفى جواد يصم زين الدين عليا بقبح السيرة بسبب موقفه المناهض للعرش العباسي عامة ويقول: انه كان عونا لعمادالدين زنكي وبني سلجوق على بني العباس وكفاه ذلك قبحا في السيرة[٣٠].

ويقول الدكتور ابراهيم علي طرخان في كتابه القيم الموسوم (النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى): انه في عام (٥٨٢هـ/١١٨٦م) ((أقطع صلاح الدين الايوبي أخاه (كذا) مظفر الدين اربل، وأضاف اليها شهرزور وأعمالها))[٣١]، ولا حاجة الى التأكيد الى أن مظفرالدين گوگبورى لم يكن الاّ صهرا لصلاح الدين، اذ تزوج اخته (ربيعة خاتون) التي عاشت معه فترة نصف قرن الى أن مات، عندها غادرت أربيل واستقرت في دمشق. هذا اضافة الى خطأ الدكتور طرخان حول تأريخ بدء حكم مظفرالدين گوگبورى لاربيل. ثم يقع الدكتور في خطأ آخر حين يجعل من مظفرالدين گوگبورى ابنا لقطب الدين بن ينال بن حسان المنبجي[٣٢]. ولاندري كيف وفق بين كون مظفرالدين أخاً لصلاح الدين الايوبي، وبين كونه ابناً لقطب الدين المنبجي (وكلاهما خطأ). أو ان المؤلف تصورّ وجود أكثر من شخص واحد يحمل اسم مظفرالدين گوگبورى، وقد حكم كل واحد منهم أربيل! كما يظهر من كلامه وهذا الأمر لم يحصل البتّة.

ويعلن شارلس ج. روزبولت Charles J. Rosebault في كتابه الذي وضعه تحت عنوان ((صلاح الدين أمير الشهامة Saladin Prince of chivalry ان مظفرالدين كان يحارب في صفوف صلاح الدين الايوبي في صدامه مع الموصل سنة (٥٧١هـ/١١٧٥م)[٣٣]. في حين ان العكس كان هو الصحيح، اذ كان يحارب في صفوف

---

[٣٠] انظر هامش صفحة (٧٢٨) من كتاب ابن الفوطي (تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب) طبعة دمشق، المطبعة الهاشمية، تحقيق الدكتور مصطفى جواد قسم ٤ حـ ٤.

[٣١] د. ابراهيم علي طرخان، النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، لاقاهرة ١٩٦٨، ص: ٣٧.

[٣٢] ن. م. ص: ٤١.

[٣٣] Charles j. Rosebault saladin prince of chivalry, first published, London 1930, p. 97.

أتابك الموصل سيف الدين غازي ضد صلاح الدين الايوبي، واستمر على هذا الوضع الى سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م) حين ادار ظهر المجن لأسياده اتابكة الموصل وانضم الى صلاح الدين وأصبح أحد أبرز أمراء جيشه.

ويذكر الدكتور ناجي معروف ان الفقيه الشيخ محمد بن أحمد بن عمر المعروف بابن الظهير الاربلي كان ضمن من درّسوا في المدرسة المجاهدية المعروفة[٣٤]، التي شيدها مجاهدالدين قايماز في أربيل، ويعتمد في ذلك على السلامي الذي ذكر في كتابه ((تأريخ علماء بغداد)) ان الفقيه المذكور درّس بالمدرسة القيمازية[٣٥]. والذي سبب هذا الالتباس عند الدكتور معروف هو اسم هذه المدرسة (القيمازية) التي أسمها في الواقع صارم الدين قايماز النجمي ـ وليس مجاهدالدين قايماز في دمشق وليس في أربيل[٣٦]. وقد ذكر عبدالقادر النعيمي في كتابه (الدارس في تأريخ المدارس): ان الفقيه ابن الظهير الأربلي درس في هذه المدرسة، ثم توفي في مدينة دمشق ودفن بمقابر الصوفية سنة (٦٧٧هـ/١٢٧٨م)[٣٧]، ولم يقم هذا الفقيه بأي نشاط علمي أو تدريسي في أربيل، رغم انتسابه الى هذه المدينة[٣٨].

---

[٣٤] د. ناجي معروف، علماء النظاميات ومدارس المشرق الاسلامي، مطبعة الارشاد بغداد، ١٩٧٣، ص: ١٩١، ١٩٢.

[٣٥] السلامي، ابو المعالي محمد بن رافع (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
المنتخب المختار او تاريخ علماء بغداد، (طبعة بغداد، مطبعة الاهالي ١٩٣٨) ص: ١٧٦.

[٣٦] اليونيني، ابو الفتح قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) ذيل مرآة الزمان (طبعة حيدر آباد، الهند، ١٩٥٤)، حـ ٣ ص: ٣٨٦ والنعيمي، عبد القادر محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م) الدارس في تأريخ المدارس (طبعة دمشق، مطبعة الترقي ـ ١٩٤٨) حـ ١ ص: ٥٧٢.

[٣٧] النعيمي، الدارس: ١/٥٧٤.

[٣٨] لهذا الفقيه الاربلي تراجم في:
(أ) الكتبي، محمد ابن احمد ابن شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) فوات الوفيات (طبعة القاهرة، مطبعة السعادة ١٩٥١) جـ ٢ ص: ٣٥٦.
(ب) الصفدي، صلاح الدين خليل بن آيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريتر (طبعة المانيا، دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن) ط ٢ لسنة ١٩٦١، جـ ٢ ص: ١٢٣ ـ ١٢٧.
(جـ) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ ص: ٢٨٢ ـ ٢٨٣.
(د) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ ٧ ص: ١٣٧ ـ ١٣٩.
اضافة الى كتابي اليونيني والنعيمي المذكورين.

العز الضرير الأربلي
(مفكر من ذلك الزمن)[*]

ازدهرت الحياة في أربيل (اربل ـ كما كانت تسمّى) في العهد الأتابكي، وانعكس هذا الازدهار على مختلف النواحي ومنها الفكرية، حيث ظهر فيها العديد من المؤسسات التعليمية كالمساجد والمدارس والخانقاهات ودور الحديث، وزخرت بالكثير من المفكرين، وبرزت أسر عديدة اضطلعت بدور ثقافي مجيد، ولا أدل على ذلك ظهور أسرة (ابن خلكان) وأسرة (ابن المستوفي) وأسرة (ابن منعة) الشهيرة وغيرها، اضافة الى العديد من الأسماء التي سطعت في مجال العلوم القرآنية والحديث والتأريخ واللغة والأدب والفلسفة والرياضيات وغيرها. ولا نغالي اذا قلنا ان هذه الفترة من تاريخ اربيل تعتبر أهم مراحلها في التاريخ الاسلامي[1].

الا ان الملاحظ ان الكثير من أبناء هذه المدينة غادروها بعد أن عاشوا فيها ردحاً من الزمن، وإنتشروا في الأمصار الاسلامية الأخرى، ولعل ذلك يعود الى ادراكهم بان مكوثهم في أربيل لن يحقق طموحهم الثقافي، ومن الضروري الاحتكاك بمن لهم اهتمامات متشابهة خارج هذه المدينة للاستزادة بالمعارف والانتفاع من خبرات غيرهم.

ومما يدعو الى التساؤل ان الكثير من أعلام الفكر والعلوم الاسلامية لا يزالون غير معروفين، على الرغم من المكانة المرموقة التي تمتعوا بها والمساحة الواسعة التي شغلوها، وليس العز الضرير الفيلسوف والشاعر الاربلي سوى واحد من هؤلاء. فباستثناء الشيخ عبدالله نعمة لم يتطرق ـ حسب علمنا ـ الى سيرته أحد من المعنيين بشؤون الثقافة الاسلامية. كما لم نتطرق نحن اليه في بحثنا الخاص ب(اربيل في العهد الأتابكي) في فصل الحياة الثقافية، لأنه لم يقم بأي نشاط علمي

---

[*] نشر في مجلة المجمع العلمي الكردي ـ بغداد ـ ١٩٧٧. المجلد الخامس.

[1] انظر بهذا الصدد كتابنا (أربيل في العهد الاتابكي) فصل الحياة الثقافية ص: ٢٤٥ ـ ٣٠٣.

يذكر في ذلك العهد في اربيل، حيث نشأ وترعرع فيها[٢] إلاّ أنه لم يكتب فيها في ذلك العهد.

إسمه عزالدين الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا الاربلي، أجمع المؤرخون الذين كتبوا عنه بانه كان أحد مفكري عصره، نال شهرة عريضة لاسيما في الفلسفة وكتابة الشعر، حتى كان يقرأ على يده المسلم وغير المسلم[٣]، وكما يصفه معاصره المؤرخ (أبو شامة) فقد كان ((يتردد اليه من أهل القلم مسلمها وكافرها ومبيتدعها، من الرافضة واليهود والنصارى والسامرة))[٤]. وكان يتمتع بحرمة عند الجميع اذ كان ((رأساً في العقليات وفي علوم الاوائل)) كما يقول اليونيني الذي كتب عنه سيرة مطولة[٥]. وعدّد هذا المؤرخ العلوم التي كان يعرفها وقال: ((كان عالماً بالنحو والأدب والفقه والخلاف والاصول والمنطق والطبيعي والالهي والمجسطي))[*]. وتصدر لقراءة العلوم والحكمة والاديبات والأصول والخلاف. وأضاف يقول: ((وكان حسن الأخلاق طيب العشرة لا تمل مفاكهته. ويصفه في مكان آخر بانه كان له ((ذهن خارق في كل فن))[٦].

ومع كل هذه الشهرة لم يترك أثراً علمياً مدوّناً، باستثناء بعض الأبيات التي نقلها المؤرخون ومحبّو الادب عنه. وقد يكون للعقائد الفلسفية التي اعتنقها دخل في الاهمال الذي لقيه نتاجه الفكري من لدن المؤرخين، اضافة الى كون البعض من

---

[٢] اليونيني، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٦٥.

[٣] الكتبي، فوات الوفيات جـ ١ ص ١٤٢.
الصفدي، نكت الهميان ص ١٤٢
ومخطوط (الوافي بالوفيات) جـ ١١ ورقة ٣٠
ابن كثير، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٥
الذهبي، العبر. جـ ٥ ص ٢٥٩

[٤] ابو شامة، الذيل على الروضتين ص ٢١٦
وانظر اليونيني ١٦٥/٢

[٥] اليونيني ١٦٧/٢

[*] المجسطي: علم الفلك او دراسة المجموعة الشمسية، ويسمى أحياناً ب((علم الهيئة)) والذي يبحث في القواعد التي يتوسل بها في أثبات الاوضاع الفلكية والارضية بادلتها التفصيلية.

[٦] اليونيني: ٥٠١/١.

العلوم التي كان يدرّسها، كالفلسفة والطبيعيات والحكمة، قد أصبحت في تلك الفترة من العلوم المهجورة. وكذلك الى موقفه المتعنت الذي عرف به تجاه كبار رجال المجتمع الذين كانوا يترددون الى مجلسه. يقول اليونيني والصفدي: ((اذا حضر اليه بعض الأكابر لا يرجعون عن التردد اليه))[٧]. بل انه كان يهين حتى القضاة ورجال الثقافة والعلوم، فقد ذكر هذان المؤرخان ان شمس الدين أحمد الشهير بابن خلكان صاحب كتاب (وفيات الاعيان) الذي كان قاضياً على دمشق زار العز الضرير الأربلي في بيته ((للبلدية ـ لانهما كانا من بلدة واحدة ـ وللفضيلة، فلم ينصفه، وعامله بما كان يعامله في حال صغر سن القاضي شمس الدين أحمد، وقبل ترقيَه بالعلوم والفضائل التي بزّ بها الأقران وتوليه المناصب الجليلة، فاهمله القاضي بالكلية ولم يعد اليه))[٨] ولم يترجم عنه في كتابه المذكور.

ومما يلفت اليه الانتباه ان ابن خلكان يستشهد بشعر العز الضير لدى مقارنته بشعر شاعر ضرير آخر هو (ابو العز موفق الدين مظفر بن ابراهيم المصري العيلاني الحنبلي (ت ٦٢٣هـ/١٢٢٥م) بشعر العز الضرير الاربلي اذ يقول ـ بعد أن يذكر أبياتاً من شعر الضرير المصري ـ: (٠ولقد ذكرتني هذه الأبيات أبياتاً لرجل(!) ضرير أيضاً والشيء يذكر))[٩]. ولا يعقل ـ كما نرى ـ أن يكون المؤرخ المعروف لايعرف شخص هذا الرجل الضرير الأربلي وهو ابن بلدته، وعاصره فترة من الزمن سواء في اربيل او خارجها. ولكنه شاء ألاّ يذكر اسمه على الرغم من أن ثمة ما يبرر عدم كتابته لسيرته في ترجمة خاصة. فالملاحظ على ابن خلكان انه لم يدوّن تراجم الأشخاص الذين توفّوا بعد سنة ٦٥٥هـ، على الرغم من انه (أي ابن خلكان) توفي سنة ٦٨١هـ/١٢٨١، أي انه توقف عن كتابه تراجم الأشخاص الذين ماتوا خلال ربع القرن الأخير من حياته. فلم يدوّن ـ مثلاً ـ سيرة بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل المعروف المتوفىّ سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م. أما وفاة العز الأربلي فكانت في سنة

---

[٧] ن. م. ١٦٥/٢

الصفدي، نكت الهميان، ١٤٢.

[٨] اليونيني ١٦٦/٢

وانظر الصفدي، نكتُ الهميان. والكتبي ٢٦٣/١

[٩] ابن خلكان، وفيات الاعيان ٣٠١/٤

٦٦٠هـ/١٢٦١م. ومهما يكن من أمر فان ابن خلكان لم يشر ـ لا من قريب ولا من بعيد ـ الى هذا الشاعر، رغم اشارته الى شعره.

ونجد أن المؤرخين قد أجمعوا على انه كان عالماً بكثير من المعارف والعلوم، وانه كان حسن الاخلاق وطيب العشرة، الا انهم ينعتوته بصفات غير حميدة، لا سيما من الناحية الدينية، فقد وصفه الصفدي بالمجرم لأنه كان لا يصلّى[١٠]. ووصفه أبو شامه بانه كان قليل الدين[١١]. اما الكتبي فقد قال عنه بأنه ((كان مخلاً بالصلوات))[١٢]. ووصفه الذهبي ب((فساد العقيدة وترك الصلاة))[١٣]. واليونيني قال عنه بانه ((كان عديم الدين زنديقاً))[١٤]. ونعتوه جميعاً ـ باستثناء أبي شامة ـ بأنه كان قذراً زرىّ الشكل قبيح المنظر لا يتوقىّ النجاسات[١٥].

يعلق الشيخ عبدالله نعمة على تصرفات العز الضرير قائلاً: ((ان تهمة ترك الصلاة ليست تهمة غريبة.. بل هي تهمة ممدودة بالتعصب. أما وصفه بانه كان يهين الرؤساء واولادهم فيدل دلالة واضحة على أنه كان نظيف الضمير متسامي النفس، صعب المراس بالحق، يجاهر المترفين بنقدهم وتقريعهم[١٦]. ونخال أن في كلام الشيخ نعمة شيئا من الصحة، على الرغم من انه مشوب بالعواطف. فلا يمكن أن نرمي جميع من كتب عن العز الاربلي بالتعصب، لاسيما وأنهم أشادوا بثقافته وغزارة علمه، بل أن منهم من ذكر تمسكه بأهداب الدين حتى آخر لحظة من حياته.

فقد ذكر الصفدي ـ نقلاً عن عزالدين ابن ابي الهيجاء الأربلي[١٧] الذي كان حاضراً لحظة وفاته ـ قائلاً: لازمت العز الضرير يوم وفاته فقال: هذه البنية قد

---

[١٠] الفدي، نكت الهميان، ١٤٢.

[١١] ابو شامة: ٢١٦.

[١٢] الكتبي، ٢٦٣/١.

[١٣] الكتبي ٢٥٩/٥.

[١٤] اليونيني ١٦٥/٢.

[١٥] المصادر السابقة. وانظر ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ٣٠١/٥.

[١٦] الشيخ عبدالله نعمة، فلاسفة الشيعة: ٢٩٦.

[١٧] عزالدين ابو المجد عبدالعزيز بن علي بن أبي الهيجاء الكردي الاربيلى الجلالي الكاتب. يقول عنه ابن الفوطي انه ((كان كاتباً حسن الكتابة)) (مجمع الآداب) قسم ١ جـ ٤ ص ٢٢٠ وهو من كتّاب اواخر القرن السابع الهجري. ولعله هو الوارد ذكره ضمن حوادث سنة ٦٨٧ هـ من كتاب (الحوادث الجامعة) ص: ٤٥٤.

تحللت، وما بقي يرجى بقاؤها. واشتهى رزّا بلبن، فعمل له، وأكل منه. فلما أحسّ بشروع خروج الروح منه، قال: خرجت الروح من رجلي، ثم قال: وقد وصلت الى صدري. فلما اراد المفارقة بالكلية تلا هذه الآية: ((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)) ثم قال: صدق الله العظيم، وكذب ابن سينا. ثم مات، ودفن بسفح جبل قاسيون بدمشق حيث قضى ردحاً طويلاً من سني حياته فيها[١٨].

وذكر اليونيني نقلاً عن عزالدين ابن ابي الهيجاء المذكور بان العز الضرير كان يبالغ في تعظيم الخلفاء الراشدين، ولكنه كان يصرح بتفضيل علي على الخلفاء الثلاثة[١٩] وهذان المثلان (تلاوة الآية، وتعظيم الخلفاء الراشدين) يدحضان تهمة الخروج عن الدين والزندفقة التي وجهت اليه، ويظهر ان المؤرخين ـ أو بعضهم على أقل تقدير ـ كانوا على جانب من الموضوعية بحيث ذكروا عنه مثالبه في وقت لم ينسوا أن يظهروا تمسكه بالدين، ويبدو لنا ان تردد غير المسلمين وحتى الخارجين عن الدين الى مجلسه، أو (أرباب العقائد المفسودة واليهود والنصارى والسامرة) على حد قول اليونيني، هو الذي حدا ببعض المؤرخين الى اتهامه ب((عدم الدين والزندقة)) اضافة الى موقفه المكابر المتعنت لدى حضور بعض الاكابر حيث لم يكن ((يعتني بهم ولا يوفيهم حقهم)) بل ((يهينهم بالقول)) ويجرح احساسهم. يقول اليونيني: الا ان هؤلاء الأكابر لم يكونوا ((يرجعون عن التردد اليه)) رغم ما كان يفعله العز الضرير وسوءاستقباله لهم، والظاهر ان هذا كان برماً بالحياة، لانه ((ابتلي بالعمى)) واصابت يده القروح، والقصائد التي نظمها تعكس نظرته وقرفه من الحياة منها هذان البيتان:

ذهبت بشاشات[٢٠] عهدتُ من الجوى وتغيَّـــرْت أحوالـــهُ وتنكّـــرا
وسلوتُ حتى لوسـرى مــن نحوكمْ طيفُ لما حيّاه طيفى من الكرى[٢١]

ويشبهه ابن كثير بابي العلاء المعري في صفاته ومواقفه وابتلائه بالعمى، الا ان هذا المؤرخ يقبّح كليهما وقلة دينهما[٢٢].

---

[١٨] الصفدي ١٤٢.
[١٩] اليونيني ١٦٨/٢.
[٢٠] (بشاشة ما) في اليونيني ٥٠٣/١ وابن العماد ٣٠١/٥.
[٢١] الصفدي، نكت الهميان ١٤٣.
[٢٢] ابن كثير: ٢٣٥/١٣.

قلنا ان جل ما تركه هذا الرجل من نتاج فكري مدوّن لا يتعدّى بعض القصائد الشعرية التي تناقلها المؤرخون ومحبو الأدب، ومن أشعاره الرقيقة:

توهّم واشينا بليلٍ مـــزاره[٢٣] فهَمَّ ليسعى بيننا بالتباعُدِ
فعانقْتهُ حتى أتحدنا تعانقاً[٢٤] فلمّا اتانا ما رأى غيرَ واحدِ

يقول اليونيني: لما ألقي هذا الشعر بحضرة الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن حفيد صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب حلب، ثم دمشق (٦٣٤ ـ ٦٥٨هـ/١٢٣٦ ـ ١٢٦٠م) استحسن الحاضرون ما أشار اليه من ضيق العناق وشدته. فعلق الملك الناصر قائلاً: لا تلومه فقد لزمه لزوم أعمى. فلما بلغ العز الضرير قول الملك الناصر قال: والله هذا الكلام أحلى من شعري.

وقد قلّده في معنى هذين البيتين العديد من الشعراء منهم سيف الدين بن المنشد ونفطويه النحوي وعزالدين او (غرس الدين)[٢٥] الشاعر الأربلي كما يقول ابن شاكر الكتبي[٢٦]. فمما قاله هذا الأخير:

همّ الرقيبُ ليسعى في تفرّقِنا ليلاً وقد بات من أهواه مُعتنقي
عانقته فاتحدنا والرقيبُ أتى فمذ رأى واحداً ولّى على حنق[٢٧]

ومن اشعار الضرير الجميلة:

وكاعبٌ قالت لأترابها يا قوم ما أعجبَ هذا الضرير
هل تعشقُ العيونُ ما لاترى فقلتُ ـ والدمع بعيني غزير:
ان كان طرفي لايرى شخصَها فانها قد صوّرت في الضمير[٢٨]

---

[٢٣] (مزارنا) في مصادر أخرى.
[٢٤] (تلازماً) في مصادر أخرى.
[٢٥] كما في اليونيني.
[٢٦] الكتبي ٢٦٤/١.
[٢٧] اليونيني ١٦٧/٢ والصفدي مخطوط (الوافي) ٣٠/١١.
[٢٨] الكتبي ٢٦٦/١
الصفدي، مخطوط (الوافي) ٣٠/١١ ـ ٣١
هذه الابيات استشهد بها ابن خلكان لدى مقارنته اياه بابيات الشاعر المصري الضرير المذكور (ابو العز مظفر). الا ان ابن خلكان ذكر هذه الابيات كالآتي:

ولعله تأثر بقول الشاعر المعروف (بشّار بن بُرد) كما يشير الى ذلك ابن خلكان، في قوله:

يا قوم اذني لظبي الحيّ عاشقةٌ والأذنُ تعشقُ قبل العينِ أحياناً

وللعز في الخمريات قوله:

قم يا نديم الى الابريقِ والقَـدَحِ — هات الثلاثَ وسلَّ ماشئتَ واقترحِ
وغنّ ان غادَرتنى الكاسُ مطرحاً — وانتَ ياصاحِ صاحٍ غيرِ مُطرحِ
عليكَ سقي ثلاثٍ غيرَ مازجها — وما عليك اذاً منىَّ ومن قَدَحي
انى لأفهمُ فـي الأوتارِ ترجمةً — ما ليس يفهمهُ النسّاكُ في السَبحِ[٢٩]

وله في الهجر والوصال:

تذلّلتُ لو ان التذلّل ينفعُ — وافرطتُ في الشكوى لو انك تسمعُ
وأمسى خوعي للحبيب سجيّتى — وهل نافعي للحبّ انى اخضعُ
ومن عجب انى بَحبّكَ مولعٌ — وانت بْبُغضي والقَطيعة مولعُ
نصيبكَ متّي الحب والوصل كلّه — ومنك نصيبى البغضُ والهجْر أجمعُ
فؤادكَ مما بي من الشوق فارغ — وقلبي ملآن من الحزن موجعُ
ووَجْدي وصبري في هواك تحالفا — فوَجْدي مقيمٌ واصطباري مودع
وقد كنتُ لا أرضى بوَصْلك غاية — وقد عدت مالي في خيالك مطمعُ[٣٠]

ومن شعره وهو يحلق بعيداً في العَلى، ويترفّع عن الحياة التي تكدره، اخترنا هذين البيتين:

(وغادة) قالت لأترابها .....
أيعشق الانسان مالايرى .....
أن لم تكن عيني رأت شخصها فانها قد (مثلت) في الضمير
وفيات الاعيان٤/٣٠٢

[٢٩] الصفدي، نكت الهميان: ١٤٣.

[٣٠] اليونيني ١/٥٠٤.

هذا الوجــود مكــدر فانهض الى أصفى وجـودِ
وطلب مقرك في العلى ان كُنت من أهل السعودِ

وهذا الأبيات التي يجيب فيها على معنى الوجود:

كمّل حقيقتَكَ التي لم تكمـــــل والجسمَ دعهُ في الحضيضِ الأسفلِ
أتكمل الفـــاني وتترك باقيـــــاً همــلا وانــت بــأمره لم تحفــلِ
الجســم للنفس النفيســة آلـــــة مــا لم تحصــلها بــه لم تحصــل
يفنى وتبقى بعده فــي غبطـــةٍ أبديـــة أو شـــقوةٍ لا تنجلـــي
شـــــرك كثيف انت خلقا[٣١] بــه بــادر الى وجــه الخــلاص وعجـل
لا يعقب التقصير غـير ندامـــة مــادام يمكنــك الخــلاص فافعــلِ
اعطيت جسمَك خــادماً فخدمته ونَسـيتَ عهـدَك في الزمــان الأولِ
ملكتَ رقّك مـــع كمالك ناقصــاً أيملـــك المفضـــول رق الفاضـــلِ
مــن يستطيع بلوغ أعلى منـــزل مـا بالـه يرضـى بـأدنى منـزلِ[٣٢]

* * *

[٣١] كذا مدوّن.
[٣٢] اليونيني ١/٣٠٥ ـ ٥٠٤.

المصادر

(١) أبن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبـي بكـر الاربيلـي (ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان ـ مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٤٨.

(٢) ابن العماد الحنبلي، ابو الفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) شذرات الذهب في أخبـار من ذهب، مطبعة القدسي، القاهرة، ١٩٣١.

(٣) ابن الفوطي، ابوالفضل كمال الدين عبدالرزاق البغـدادي (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م) تلخـيص مجمع الآداب في معجم الالقاب. المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٦٧.

(٤) ابن كثير، اسماعيل بن كـثير الدمشـقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البدايـة والنهايـة، مطبعـة السعادة، القاهرة، ١٩٣٢.

(٥) أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٢هـ/١٢٦٦م) الـذيل على كتاب الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) القاهرة ١٩٤٧م.

(٦) محسن محمد حسين. اربيل في العهد الأتابكي. مطبعة أسعد، ١٩٧٦.

(٧) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد الدمشقي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) العبر في خبر مـن عبر. مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٦.

(٨) الصفدي، صلاح الدين خليـل بـن آبيـك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٤م) نَكـث الهميـان في نُكـت العميان. المطبعة الجمالية، القاهرة، ١٩١١.

(٩) الصفدي نفسه. مخطوط الوافي بالوفيات. في المكتبة المركزية بجامعة بغداد تحت رقم ٩٢٠ ف.

(١٠) الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٤م) فوات الوفيات. مكتبـة النهضة، مطبعة السعادة، القاهره١٩٥١.

(١١) الشـيخ عبـدالله نعمـة. فلاسـفة الشـيعة، حيـاتهم – آراؤهـم. منشـورات دار الحيـاة، بيروت، بلا.

(١٢) اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسـى بـن محمـد بـن أحمـد البعلبكـي الحنبلـي (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م). ذيل مرآة الزمان. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آبـاد الدكن، ١٩٥٤.

مُظفرالدين گوگبورى حين طُرد من اربيل[*]

عرف عن مظفرالدين گوگبورى ابن زين الدين علي كچك بن بكتگين بن محمد، انه حكم امارة اربيل في العهد الاتابكي، بعد وفاة أخيه زين الدين يوسف ينالتگين سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م، واستمر حكمه الى أن توفي سنة ٦٣٠هـ/١١٣٣م، أي أن حكمه دام اربع واربعين سنة، وصلت اربيل خلاله أوج ازدهارها، واستحق عصره ان يسمى بعصر اربيل الذهبي في التاريخ الاسلامي.

عرف كذلك عن هذا الامير انه حكم هذه الامارة لاول مرة قبل التاريخ المذكور حين كان فتى يافعا لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره اثر وفاة والده مؤسس أتابكية اربيل سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، الذي قضى حياته في الموصل في خدمة ملوكها منذ تأسيس أتابكيتها الشهيرة بيد عماداليدن زنگى ابن آقسنقر قسيم الدولة سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م الى أن غادر الموصل في عهد قطب الدين مودود ليستقر في اربيل حيث مات ودفن فيها.

أي أن مظفرالدين گوگبورى تسنم عرش اربيل مرتين، الاولى اثر وفاة والده، والمرة الثانية اثر وفاة اخيه المذكور. وقد حكمها في المرة الاولى تحت رعاية مربيه (اتابكه)[١] مجاهدالدين قايماز بن عبدالله الزيني الذي كان ينوب عن صاحب اربيل زين الدين كچك في حكم هذه الامارة منذ وفاة النائب السابق سرفتگين ابي منصور بن عبدالله الزيني سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م.

الا ان خلافا[٢] نشب بين مظفرالدين گوگبورى ومجاهدالدين قايماز، أدى الى ابعاده عن عرش والده، وتعيين أخيه الاصغر زين الدين يوسف ينالتگين بدلا عنه. وكان ذلك في حدود[٣] سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م. واعقب ذلك طرده من اربيل.

---

[*] نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي ـ الهيئة الكردية. المجلد السابع ـ ١٩٨٠.

[١] تأتي كلمة (الاتابك) هنا بمعناها اللغوي، وتعني (الوالد المربي ـ المرشد) باللغة التركية.

[٢] بصدد هذا الخلاف انظر كتابنا (اربيل في العهد الاتابكي) ص ٦٣ ـ ٦٥.

[٣] لايعرف بالضبط تاريخ خروج مظفرالدين گوگبورى من اربيل، فحددنا هذا التاريخ بشكل تخميني.

الا انه لم يركن الى الهدوء طيلة فترة وجوده خارج اربيل، فبدأ يشترك في صنع أحداث عصره، لكنه مع كل هذا طل يرنو الى اربيل وينتظر الفرصة المؤاتية للعودة اليها، وعاد فعلا بعد حوالي عشرين سنة.

فحين طرد لم ير بدا من طلب المعونة من الخارج، علـه يستعيد عرشه، فبدأ يفكر في الجهة التي بمقدورها أن تسعفه. واتجه تفكيره أول ما اتجه نحو الخليفة العباسي، عله يعينه في محنته، الا ان الخليفة لم يفعل شيئا، ولعله رأى أن المسألة لاتستحق الاهتمام، لاسيما وأن الذي حل محل مظفرالدين گوگبورى ليس سوى أخيه.

والواقع اننا لانعرف من هو الخليفة الذي كان يحكم بغداد يومئذ، ولو عرف لاصبح بمقدورنا تحديد تاريخ نهاية حكم مظفرالدين گوگبورى الاول بدقة اكثر. ولكن يحتمل أن الخليفة كان المستنجد بالله الذي توفي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م بسبب اشتداد مرضه[٤]، فتعذر عليه مديد المعونة الى مظفراليدن، او ان الخليفة كان المستضيء بالله الذي بدأ يواجه تحديات البلاط في شخص الوزير والاستدار وامير العسكر[٥] في أولى أيام توليه الخلافة، ولعله كان معذورا هو الاخر في عدم استجابته لطلب أمير اربيل الطريد، بسبب حداثة توليه الخلافة ووضعه القلق مع رجالات البلاط.

عندها غادر مظفرالدين گوگبورى بغداد وتوجه نحو الموصل التي كان يحكمها سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود، وكان هذا قد تولى حكم اتابكية الموصل حديثا[٦]، ((فاتصل بخدمته))[٧]، الا ان سيف الدين غازي لم ينفذ رغبته في استعادة اربيل، بل اقطعه مدينة حران[٨] ليستقر فيها.

---

[٤] ابن الجوزي، المنتظم: ٢٣٢/١٠.

أبن الاثير، الكامل: ٣٦٠/١١.

[٥] ن. م. ص.

[٦] حكم سيف الدين غازي الموصل في الفترة بين ٥٦٥ ـ ٥٧٦هـ/١١٦٩ ـ ١١٨٠م.

[٧] ابن خلكان، وفيات الاعيان ٣٧١/٣.

الذهبي، مخطوط (تاريخ الاسلام) ورقة: ١٨١.

[٨] حران: مدينة عظيمة مشهورة، في منطقة الجزيرة الفراتية، بينها وبين الرها (اورفه ـ اديسا Edessa) مسافة يوم، ياقوت، معجم البلدان: ٢/ ٢٣٥.

ليست لدينا معلومات تخص حكم مظفرالدين ونشاطه في مدينة حران، سوى المتعلقة بالفعاليات العسكرية التي قام بها، سواء حين كان تابعا للموصل، أو حين غدا تابعا لصلاح الدين يوسف بن أيوب، على الرغم من أن حكمه لهذه المدينة (والذي شمل مدنا أخرى فيما بعد) قد استغرق حوالي عشرين سنة.

وحسب ما تذكره المصادر، فان أول فعالية عسكرية قام بها كانت قيادته لميمنة جيش الاتابك سيف الدين غازي في ربيع سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م في القتال الذي دارت رحاه بين الموصل وبين السلطان صلاح الدين يوسف، والذي انتصر فيه مظفرالدين گوگبورى على ميسرة جيش خصمه صلاح الدين، الا أن الاخير استطاع أن يدير دفة القتال ويلحق الهزيمة بجيش الموصل[٩].

والواقع ان مظفرالدين لم يتمتع بثقة سيف الدين غازي حسب، بل كان على علاقة طيبة مع خليفته صاحب الموصل وحلب عزالدين مسعود أيضا. فيذكر ابن العديم وابو شامة ان عزالدين مسعود لما سار في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م الى الرقة لقضاء فصل الربيع فيها، سلم أمر حلب الى مظفرالدين گوگبورى[١٠]، الا أن هذا ورط نفسه بعمل لايليق بمن تناط اليه الثقة، فلم يتورع عن اتخاذ موقف معاد من عزالدين مسعود، كمن يطعن سيده من الخلف.

وكان عزالدين مسعود قد اتفق مع أخيه عمادالدين زنگى صاحب سنجار، على اجراء تبادل بين حلب وسنجار[١١]. والظاهر انه فعل ذلك لعجزه عن الدفاع عن حلب أمام صلاح الدين، على الرغم من أن أخاه لم يقدر هو الاخر على الصمود امام زحف السلطان صلاح الدين يوسف[١٢].

---

[٩] ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص: ٤١.

[١٠] ابن العديم، زبدة الحلب: ٥٢/٣.

ابو شامة، الروضتين: ٢٢/٢.

[١١] ابن شداد: ٥٦.

ابو شامة: ٢٢/٢.

ابن الاثير: ٤٧٤/١١.

[١٢] د. رشيد الجميلي: ١٤٧.

تناهى نبأ اتفاق الاخوين الى أسماع مظفرالدين گوگبورى، فاعلن تمرده، واعتصم مع جماعة من أمراء حلب في القلعة، واستعدوا لمجابهة عزالدين مسعود، وكان البعض من الحلبين الذين استنكروا تنازل هذا الامير عن مدينتهم اذا رأوه صاحوا ((ياحمار.. يا من باع حلب بسنجار)) كما ذكر ذلك بعض المؤرخين[١٢]. ونظم البعض من العامة أشعارا في ذم هذا الاجراء، منها قولهم:

((وبعتَ بسنجار خيرَ القلاعِ ثكلَتْكَ منْ بائعٍ ومُشتري))

مهما يكن فان مظفرالدين گوگبورى قد أحس ـ ولا شك ـ أن ثمة من سيسانده اذا عصى أمر الاتابك في تسليم قلعة حلب التي كانت بيده واراد أن يمتلكها ويعتصم فيها.

تحدث ابن العديم بتفصيل عما حصل في حلب وقال: ان ((مظفرالدين ابن زين الدين طمع في أن يملك القلعة، ووافقه جماعة من الحلبيين كانوا بقربه في الدار المعروفة بدار شمس الدين علي ابن الدايه[١٤] وجماعة من الاجناد، ولَبِسَ هو (أي مظفرالدين) زردية[١٥] تحت قبائه، والبس جماعة من أصحابه الزرد تحت الثياب، ومع كل واحد منهم سيف وارسل الى شهاب الدين (اسحق بن اميرك الجاندار)[١٦]، وقال له: ((انه وصلني كتاب من أتابك عزالدين مسعود وأمرني أن أطلع في جماعة اليك، فأمره بالصعود، وكان جمال الدين شادبخت[١٧] في حوش القلعة الشرقي... فرأى الجند مجتمعين تحت القلعة، فسير شادبخت واحضر بوابا كان للقلعة، يقال له ((علي بن منيعة)) وكان جلدا يقظا، وأمره بالاحتراز.

فلما اراد أن يدخل من باب القلعة، تقدم اليه، وقال له: لاتدخل انت وحدك. وكان في ركابه جماعة فمنعوهم. فلم يتم له ما اراد[١٨].

---

[١٢] ابن واصل، مفرج الكروب: ١٤٢/٢.

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٩٥/٦.

[١٤] كان من اكبر امراء نورالدين محمود ابن عمادالدين زنگى صاحب حلب.

[١٥] زرديه: مايلبس تحت الثياب من دروع.

[١٦] الجاندار: ممسك السلاح: صبح الاعشى ٤٥٩/٥.

[١٧] وهو الاتابك او الخادم الهندي عتيق نورالدين محمود، متولي قلعة حلب.

[١٨] ابن العديم ٥٢/٣ ـ ٥٣.

الا ان مظفرالدين لم يقدر أن يحقق مبتغاه. فقد استطاع صاحب حلب أن يأخذ زمام الامور بيده، وصعد الى القلعة وتمكن من أن يقنع الامير المتمرد وينزع عنه وعن مؤيدية السلاح.

عندها أحس مظفرالدين گوگبورى بحراجة موقفه، فما كان منه الا ان يبعث معتذرا مبرّراً تصرّفه بقوله: ((ان الاسماعيلية او عدوني بالقتل، وما امكنني الا الاحتراز بالسلاح، أنا ومن معي))[١٩]. وقبل صاحب حلب اعتذاره، الا ان حسام الدين طُماي بن غازي ـ وكان اكبر قواد عمادالدين زنگى[٢٠] ـ القى القبض ((على الجماعة الذين كانوا معه، وحبسهم في القلعة، واطلع على ماكانوا أضمروه، وأطلقهم في اليوم التالي، وستر هذا الامر))[٢١] فعاد مظفرالدين الى حران.

ظل هذا الامير على تبعيته لاتابكية الموصل، الى ان حدث ما جعله يغير موقفه، وينحاز الى صلاح الدين الايوبي الذي ناصب الموصل العداء (لاسباب لا مجال لذكرها هنا)[٢٢] ويدير ـ أي مظفرالدين ـ ظهر المجن لاسياده السابقين الذين آووه ومنحوه إقطاعاً.

ولعل قيام صاحب الموصل باستدعاء مجاهدالدين قايماز ـ خصم مظفر الدين گوگبورى ـ كان له أثره السيء في نفس هذا الأخير، مما جعله يغير موقفه من الموصل. وكان عزالدين مسعود قد استدعى مجاهدالدين قايماز من اربيل ليستشيره في الامور المهمة ويعينه نائبا عنه ودزدارا (محافظا) لقلعة الموصل. وهذا يعني ان مظفرالدين گوگبورى صار ثانية في حكم التابع لمجاهدالدين قايماز، الشخصية الثانية في الموصل بعد اتابكها. ولكن ـ وهذا هو المهم ـ ادرك بثاقب بصره ان ميزان القوى صار يسير لصالح صلاح الدين يوسف الذي سرعان ما انضم اليه. ففي سنة

---

[١٩] ن. م. ص: ٥٣.

[٢٠] ن. م. ص: ٥٤.

[٢١] تجد تفاصيل هذه العلاقة في كتاب الدكتور رشيد الجميلي، والاستاذ سعيد الديوةجي (الموصل في العهد الاتابكي).

[٢٢] أبن شداد: ٥٧.
ابن واصل: ١١٦/٢.
ابن خلكان ٢٩٣/٤.

٥٧٨هـ/١١٨٢م عبر مظفرالدين گوگبورى قاطع الفرات والتحق بجيش السلطان يوسف[٢٣] بعد ان ظل على تبعيته للموصل قرابة اثنتى عشرة سنة.

أصبح مظفرالدين اعتبارا من هذا التاريخ أحد ابرز قواد صلاح الدين، وطفق يؤثر عليه وعلى نهجه وخاصة تجاه الموصل. يتحدث محمد بن تقي الدين عمر الايوبي، أحد المؤرخين المقربين الذين رافقوا صلاح في جولاته، عن اللقاء الذي تم بين السلطان وبين صاحب حران وقال: وصل مظفرالدين گوگبورى واجتمع بالسلطان منفردا، واشار عليه بعبور الفرات والاستيلاء على تلك الممالك وقال له: ((انا بين يديك وناصح لك ومحب لأيامك، وقد علمت ماالمواصلة عليه من نكث ايمانك وعهودك، واذا ملكت تلك البلاد واستوليت عليها يبقى من ورائك ذخيرة ونجدة وانت بعد ذلك على اثناء عزمك، وان قصدت حلب فانها تشغلك عن الامور ومهماتها والجزيرة وولاياتها وقد حصلت لك المحبة العامة والمهابة في قلوب الناس، ومتى عبرت الفرات سلمت اليك البلاد وأطاعتك العباد، فملكت حران والرها والرقة والخابور ونصيبين وسائر المواضع وملكت الموصل لامحالة، وما هناك في تلك الجهات أحد يقدر على عصيانك)).

فشكرة السلطان على ماظهر منه، واستوثق منه وودعه ورجع الى حران[٢٤]، ثم كافأه بان اقطعه الرها[٢٥]، فتوسعت بذلك ممتلكات مظرالدين گوگبورى، وأصبح صاحب حران والرها.

ويظهر من هذا ان الموقف من الموصل اصبح المسألة المركزية بالنسبة له، كما تبين ذلك المصادر التاريخية كافة، فأخذ يحث صلاح الدين الايوبي ويدفعه الى فتح الموصل. فنجد ان هذا السلطان حين ملك مدينة نصيبين سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م جمع

---

[٢٣] الايوبي، مضمار الحقائق: ١٠٢ ـ ١٠٣.

[٢٤] ن. م. ص: ١٠٣.

[٢٥] ن. م. ص: ١٠٥.

ابو شامة ٣٢/٢.

ابن الاثير ٤٨٤/١١.

ابن العديم ٥٨/٣.

ابن شداد، مخطوط (الاعلاق الخطيرة) ورقة ٢٩ ب.

كبار امرائه ليستشيرهم في أمر المدينة التي ينبغي البدء بفتحها قبل غيرها، لاكمال حلقات الجبهة وتضافر القوى الاسلامية ضد الصليبيين، وسألهم فيها اذا كان من الافضل أن يفتحوا الموصل اولا أم سنجار أم جزيرة ابن عمر؟ فاختلفت الاراء. عندها انبرى مظفر الدين گوگبورى وقال لصلاح الدين بالحرف الواحد: ((لاينبغي أن نبدأ الا بالموصل)) وسهل عليه أمر فتحها، واعلن ان عزالدين مسعود الاتابك ونائبه مجاهدالدين قايماز سيهربان الى الجبال للاعتصام بها متى ماسمعا نبأ قدوم الركب. ثم وضع تحت تصرف صلاح الدين يوسف مبلغا من المال للتخفيف من العبء المالي الذي ستحمله جراء هذه الحملة.

هذا وقد أيد بعض كبار الامراء رأي مظفرالدين، وكان من ضمنهم الامير ناصرالدين محمد بن شيركوه ابن عم صلاح الدين. ويذكر بعض المؤرخين ان هذا الامير قدم المساعدة المالية لصلاح الدين ((ليقطعه الموصل اذا ملكها))[٢٦]. عندها قام السلطان بالمحاولة الاولى من محاولاته الثلاث لفتح هذه المدينة المنيعة، الا انه أخفق في تحقيق النصر فرحل عنها قاصدا سنجار. وقد تألم كثيرا بسبب ذلك، وبدأ يلوم الاميرين المذكورين (مظفرالدين وناصرالدين) ويتهمهما بسوء التقدير وخطل الراي ويرميهما بالتغرير به قائلا:

(٠غررتمانى واطمعتماني في غير مطمع، ولو قصدت غيره قبله كان أسهل أخذا بالاسم والهيبة التي حصلت لنا في قلوب الناس، ومتى نازلناه وعدنا عنه ولم نأخذه ينكسر ناموسنا ويفل حدنا وشوكتنا))[٢٧]، وهذه الرواية ينفرد في ذكرها ابن الأثير، مؤرخ بلاط، الموصل خصم صلاح الدين يوسف.

عاد مظفرالدين گوگبورى يلح على صلاح الدين على فتح الموصل مستغلا التوتر الذي حصل في بلاطها باعتقال نائب الاتابك فيها مجاهدالدين قايماز[٢٨]، والفوضى التي عمت فيها لسوء تدبير الاميرين عزالدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن ابي الخير من كبار أمراء الموصل، وخصمي مجاهدالدين قايماز اللذين حلا

---

[٢٦] ابن الاثير ٤٨٧/١١.
ابن واصل ١١٩/٢.
[٢٧] ابن الاثير ٤٨٥/١١.
[٢٨] ن. م. ص: ٥٠١.

محله. فبعث مظفرالدين گوگبورى رسولا ليقول للسلطان يوسف على لسانه، انه اذا عبر نهر الفرات فانه سوف يقوم بتزويد جيشه بكل ما يحتاج اليه فتح بلاد الموصل من نفقات وتجهيزات، وسوف يقدم للسلطان مبلغ خمسين الف دينار يوم وصوله الى حران وهو في طريقه الى الموصل.

اطلع صلاح الدين على كتاب صاحب حران، وتوجّه نحو هذه المدينة، ولدى وصوله تبيّن له ان صاحبها ليس على وعده الذي قطعه له والذي اعلنه رسوله على لسانه، فتعجب السلطان من ذلك وارتاب من أمره، حتى ظن أنه - أي مظفرالدين - غير موقفه وصار يميل الى أتابك الموصل، خاصة وان البعض قد وشوا به عند السلطان وأظهروه على غير حقيقته، فاراد صلاح الدين أن ينتقم منه، حسب رواية ابن الأثير.

ولما علم مظفرالدين گوگبورى ذلك وادرك مدى حراجة الموقف ذهب الى صلاح الدين وبدأ يعتذر عما حصل، وحلف له معلنا انه لم يتغير عما كان عليه وان ما أعلنه رسوله لم يكن بأمره[٢٩]، بل كان وشاية القصد منها التأثير على السلطان، واعلى عن استعداده للعمل تحت امرته وفي خدمته كأي مملوك[٣٠].

الا ان صلاح الدين لم يأمن جانبه، وأخذ ينظر اليه بعين الحذر والشك، ثم ألقى القبض عليه ليتأكد من نواياه ويتبين أمره، وبدأ يشاور أصحابه عما يجب فعله. فاشار بعشهم الى ضرورة التخلص منه بقتله، لخياتنه. في حين اعلن البعض الاخر الاكتفاء بعقابه بانتزاع امارته منه. عندها اطلق سراحه، ثم جرده من امرة قلعتي (حران والرها). ثم قام السلطان بالتحقيق في الحادث، فتأكدت لديه براءة مظفرالدين گوگبورى. وأن خطأ ما قد حصل، وينبغي اعادة الحق الى نصابه، فما كان منه الا أن اعاد اليه ممتلكاته التي صادرها منه، وكان ذلك في أواخر سنة ٥٨١هـ/١١٨٣م[٣١]. ونجد ان ابن شداد المؤرخ القريب الصلة من السلطان يوسف ذكر

---

[٢٩] الايوبي: ٢١٢.
ابن العديم: ٨٠/٣.
ابو شامة: ٦١/٢.
[٣٠] الايوبي: ٢١٣.
[٣١] ن. م. ص.
ابو شامة: ن. ص.
ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٦/١٢.

انه أعاد اليه قلعة حران فقط، أما قلعة الرها فقد وعده بها، ثم قدم له الخلع وطيب قلبه[٣٢]، وزوجه أخته ربيعة خاتون، وأخيرا أعاد اليه الرها بعد أن عوفي من المرض الذي الم به[٣٣]. ونجد أن المؤرخ الشهير ابن الاثير الذي عاصر في شبابه صلاح الدين ينظر الى ماحدث من زاوية اخرى، وينفرد ـ كعادته في ذكر بعض الروايات الفريدة الخاصة بصلاح الدين –[٣٤] بذكر تعليل خاص بالحادث معلنا: ان صلاح الدين لم يطلق سراح مظفرالدين گوگبورى الا لخوفه من انحراف الناس عنه في اقليم الجزيرة، والذين كانوا على علم بالدور البارز الذي اضطلع به مظفرالدين في فتح مدن الاقليم التي امتلكها صلاح الدين يوسف الواحدة بعد الاخرى[٣٥].

مشاركة مظفرالدين گوگبورى في الحروب الصليبية:

اثر إنفصاله عن الموصل وانضمامه الى صلاح الدين، أصبح من المتوقع أن يشترك في الحروب الصليبية. وبهذا الصدد يذكر باحث مصري[٣٦]: ان المؤرخين لم يذكروا اسم هذا القائد صراحة الا في بعض المعارك الهامة، الا أننا نرجح ترجيحا يكاد يصل الى حد اليقين انه اشترك فعلا في معظم المعارك التي دارت بين صلاح الدين والصليبيين، وذلك استنادا على مايذكره هؤلاء المؤرخون من ان السلطان كثيرا ما كان يستدعي «عساكر الشرق» كلما عزم على القيام بحرب طويلة او اثارة معارك هامة ليشتركوا معه في القتال، وهم يعنون بالشرق اقليم الموصل والجزيرة الذي تقع فيه حران والرها اللتان يمتلكهما مظفرالدين گوگبورى.

ولعل أول اشارة تتضمن مشاركة هذا القائد الفعلية كانت في الهجوم الموفق الذي نظمه صلاح الدين يوسف على نابلس[٣٧]، اثر محاولته فتح حصن الكرك المنيع

---

[٣٢] ابن شداد، ٦٨.

[٣٣] ابن العديم: ٨٣/٣.

[٣٤] انظر ما كتبنا تحت عنوان (ابن الاثير واحداث عصره) وفي كراس (موضوعان في التاريخ الكردي).

[٣٥] ابن الاثير: ٥١١/١١.

[٣٦] د. عبدالقادر أحمد طليمات، مظفرالدين گوگبورى، ص: ١٤٩.

[٣٧] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٣٨٢/٨.

في شرقي البحر الميت سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م[٣٨]. وكان صلاح الدين يبغي من هذه المحاولة اقامة جسر بين جناحي ميدان القتال في الارض الاسلامية، باقامة اتصال بين مصر والشام، بفتح ذلك الحصن، الا أن محاولته باءت بالفشل.

ثم اشترك مظفرالدين گوگبورى في حصار الكرك الثاني بعد حوالي ثلاث سنوات أي في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، اثر تفاقم خطر الصليبيين حين أصبحوا يقطعون الطريق على الحجاج، بل يبغون احتلال مدن الحجاز المقدسة، فأهاب صلاح الدين بقواته لنهب وتخريب وحرق حصن الكرك وكذلك حصن الشوبك الواقع في جنوبي الاردن. ثم ارسل صلاح الدين يطلب من ولده الملك الافضل نورالدين علي أن يبعث بعض القطعات العسكرية للقيام بغزو ميناء عكا، فلم ير الملك الافضل خيرا من القائد مظفرالدين گوگبورى وصارم الدين قايماز النجمي ودلدرم الياروقي - وهم من كبار قادة الجيش الاسلامي المحارب - وساروا باتجاه صفورية[٣٩]، ووصلوها ليلا. فما كان على الصليبيين الا أن ياخذوا استعدادهم لمنازلة الزاحفين. فخرجوا في جمع الداوية[٤٠] والاسبتارية[٤١]، فتصادم الفريقان وجرت بينهما ((حرب تشيب لها المفارق السود)) على حد تعبير ابن الاثير[٤٢]. وكانت النتيجة انتصار المسلمين، وسيرت البشائر الى البلاد.

---

[٣٨] ابن الاثير: ٥٠٦/١١.

ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١٨٨/٦.

المقريزي، السلوك: ٨٣/١.

[٣٩] صفورية: بلدة من نواحي الاردن بالشام تقع قرب طبرية، ياقوت ٤١٤/٣.

[٤٠] الداوية: اسم اطلقه المسلمون على فرقة صليبية وقف افرادها أنفسهم على قتال المسلمين، وامتنعوا عن ملذات الحياة، وكانت تسمى باللاتينية Templars أي (الهيكليون) وقد تاسست سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م وكان الغرض من تأسيسها حماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا والقدس، ثم تحولت الفرقة الى جماعة محاربة كان لها شأنها في التاريخ الصليبي.

[٤١] الاسبتارية (الهسثتاليون Hospitallers فرقة أخرى تأسست سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وان كانت قد نشطت قبل ذلك، وكان يدفعها في البداية علاج المرضى وايواء الحجاج المسيحيين ومساعدتهم.

[٤٢] ابن الاثير ٥٣/١١.

الا أن مشاركة مظفرالدين گوگبورى في معركة (حطين) الفاصلة، فاقت فعالياتـه السالفة كافة، سواء من حيث دوره الحاسم فيها أو لاهمية هذه المعركـة الـتي تعتـبر احدى أهم المعـارك، ليسـت ضـمن معـارك الحـروب الصـليبية حسـب، بـل في تـاريخ المعارك الاسلامية كلها. وأبلى فيها مظفرالدين گوگبورى بـلاء حسـنا، بعـد أن قـدم على راس العساكر الشرقية.

ذكر عمادالدين الكتاب الاصفهاني الذي صاحب صلاح الدين يوسف في معاركـه، وهـو أبـرز مـن كتـب عـن تـاريخ هـذا السـلطان، يقـول: قـدم عسـكر الشـرق وعليـه مظفرالـدين گوگبـورى. ويصـفه هـذا المـؤرخ، باسـلوب السـجع الـذي عـرف عنـه ب ((المقدم المقدام والهمام والاسد الاشد والارشد الاشد))[٤٣] وقام صـلاح الـدين بتنظـيم الجيش وتعيين القـواد وتـوزيعهم توزيعـا جديـدا، فجعـل مظفرالـدين گوگبـورى علـى قيادة ميسرة الجيش، وتقي الدين عمر (ابن أخـي السـلطان) علـى الميمنـة، امـا هـو فكان في القلب[٤٤]. وهذا يعني ان مظفر الدين كان أحد أهم قادة معركـة حطـين، وقـد اولاه صلاح الدين ثقتـه الى هـذا الحـد الكـبير، ولا شـك في انـه لم يتمتـع بهـذه الثقـة اعتباطا.

التحم جيش المسلمين مع جيش الصليبيين و ((عطف مظفرالدين يشلهم ويفلـهم ولا يكترث بكثرتهم))[٤٥]. وبعد هذا الانتصار أسند صلاح الدين اليه مهمـة الـذهاب الى الناصرة، فذهب بجيشـه واسـتباح هـذه المدينـة واسـتبى دماهـا وحلـها واسـتحلها، وازالها واذلها[٤٦].

يتحدث ابن خلكان عن الدور المشرف الذي اضطلع به مظفرالـدين گوگبـورى في معركة (حطين) ويقول: ((لقد شهد مظفرالدين مع صلاح الدين مواقـف كـثيرة، وأبـان

---

[٤٣] عمادالدين الكتاب، الفتح القسى: ١٤.

[٤٤] ابن شداد: ٨٧.

ابو شامة: ٨٧/٢.

ابن واصل: ٢٥٦/٢.

[٤٥] عمادالدين: ١٤.

ابن تغري بردي: ٣٩/٦.

[٤٦] عمادالدين ٣٢.

فيها عن نجدة وقوة نفس وعزيمة، وثبت في مواضع لم يثبت فيها غيره... ولو لم يكن له الا وقعة (حطين) لكفته، فقد وقف ومعه الملك المظفر تقي الدين عمر، بعد أن هزم عسكر المسلمين بأسره، ثم أنهم لما سمعوا بوقوفهما وصمودهما تراجعوا، حتى كانت النصرة للمسلمين[٤٧].

ومن فعاليات هذا القائد الذكية التي قام بها عند طبرية انه أضرم النار في هشيم الحشيش الذي تأجج تحت حوافر خيل الصليبيين[٤٨]. يقول احد المعنيين بهذه الحرب نقلا عن مخطوطه (عقد الجمان) لبدرالدين محمود العيني: لما رأى القائد الصليبي الشهير (ريموند) الذي كان وصيا على عرش بيت المقدس، وصاحب امارة طرابلس" شدة حراجة الموقف حمل على جيوش المسلمين بقيادة مظفرالدين گوگبورى وتقي الدين عمر، فافسح له هذان القائدان طريق التقدم كي يخرج وأصحابه من دائرة حصار المسلمين، فخرجوا وهم يحسبون ذلك نصرا، ثم مالبث أن قام مظفرالدين گوگبورى بتطويق الصليبيين بمهارة، ولم يجد (ريموند) سوى محاولة الافلات والهرب الى صور ومنها الى امارته في طرابلس، وفنى جنوده وضعفت صفوف الصليبيين اثر ذلك، ثم لحق ب(ريموند) كل من (وليم بورل) رئيس الاسبتارية، و (باليان) أمير بيت جبريل و (ريموند) امير صيدا و (ريموند) الصغير ابن صاحب انطاكية[٤٩].

وفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م اشترك مظفرالدين في المعركة التي سميت بمعركة (البرج)، فاثر الانتصار الذي حققه المسلمون في مدينة طرطوس الساحلية الواقعة شمال طرابلس، والغنائم التي حصلوا عليها، اعتصم فلول الصليبيين الناجين من الموت ببرجين حصينين، وقد اعتصم رجال الفرقة (الداوية) في أحدهما، واعتصم بقية الفارين في البرج الثاني الذي توجه اليه مظفرالدين گوگبورى واقتحمه، الا انه لم

---

[٤٧] ابن خلكان: ٢٧٢/٣.

وينقل عنه كل من ابن ابي عذيبة في مخطوط (انسان العيون) والذهبي في مخطوط (تاريخ الاسلام) والفاسي المكي في (العقد الثمين)، وغيرهم.

[٤٨] سبط ابن الجوزي ٣٩٣/٨.

[٤٩] نظير حسان سعداوى، التاريخ الحربي: ١٨٣.

يمسهم بسوء، واعلن ان من يخرج ويسلم نفسه فهو آمن، فخرجوا منه كلهم، عندها أمر مظفرالدين گوگبورى بهدم البرج[٥٠].

وكذلك اشترك في المعركة التي دارت بين الطرفين عند عكا سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، عندما استدعى صلاح الدين أمراءه ودعاهم الى الحضور ((وكان الامير الاجل مظفرالدين بن زين الدين اول من وصل، ثم تبعه الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماه في جحفله، وتتابعت العساكر الاسلامية))[٥١]. وكانت هذه اخر معركة خاضها قبل ان يستعيد عرش اربيل اثر وفاة أخيه زين الدين يوسف ينالتگين صاحب اربيل الذي توفي بالحمى عند مدينة الناصرة بارض فلسطين، وهو في ريعان شبابه. وكان زين الدين يوسف قد استدعاه صلاح الدين في جملة من استدعاهم من الامراء للمشاركة في الجهاد، فغادر اربيل ووصل الميدان ((بعسكر حسن وتجمل جميل))[٥٢] وكان صلاح الدين قد هيأ لامرائه أماكن خاصة في صفوف جيشه ينزلهم فيها، ولما وصل صاحب اربيل أكرمه وانزله في الميسرة عند أخيه مظفرالدين گوگبورى، صاحب حران والرها.

وهكذا كان لمظفرالدين كل هذا الدور البارز في معارك الجهاد التي اشترك فيها المسلمون لطرد الصليبيين الغزاة الذين قذفت بهم اوربا ليحتلوا مدن الساحل الشامي وبيت المقدس ومدنا اخرى.

مات زين الدين يوسف فاسرع أخوه وذهب الى صلاح الدين وطلب منه الموافقة على العودة الى حكم اربيل بصفته الوريث لعرش امارة والده وأخيه والذي انتزع منه

---

[٥٠] عمادالدين: ١٣٤.
ابن شداد: ٨٨.
ابو شامة: ١٢٦/٢.
ابن واصل: ٢٥٧/٢.
ابن خلكان:١٨٩/٦.
[٥١] عمادالدين: ١٨٩.
ابن شداد: ١٠٥.
ابن الاثير: ٣٤/١٢.
ابو شامة: ١٤٢/٢.
[٥٢] ابن شداد: ١٢٣.

قبل حوالي عشرين سنة. فوافق السلطان على طلبه في الحال. ومقابل ذلك دفع هذا الى السلطان مبلغ خمسين ألف دينار، وتنازل عن امارته التي كانت تضم مدن (حران والرها وسميساط[٥٣] والموزر[٥٤]) ومدنا أخرى وسلمها الى صلاح الدين، وطلب منه أن تضاف بلاد شهرزور الى امارته فوافق على ذلك ايضا[٥٥]. الا ان السلطان أمهله وطلب منه التريث ريثما يصل الملك المظفر تقي الدين عمر ليحل محله[٥٦] ويسد الفراغ الذي يحدثه بذهابه الى اربيل.

ولما وصل تقي الدين عمر الى ميدان القتال أصدر السلطان منشورا اعلن فيه عن موافقته في تسليم اربيل الى مظفرالدين گوگبورى، وسمى هذا الاعلان ب (منشور اربل) وجاء فيه:

((لاشك في احاطة العلم بأن انتقال زين الدين (يوسف) الى جوار الله تعالى ومقر رحمته، مجاهدا في سبيله، شاكرا لانعمته، وهو من السعداء الذين انزل الله فيهم ((ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله))[٥٧]. فما أوجع القلوب بمصابه وما أنكي في النفوس أفول شبابه، ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته واعلاء درجته، لكن الله استأثر به قبل ظهور حسن الآثار في ايثاره، وبلى بدره التم بسراره في ضمير البلى من اسراره، وهذه اربل من انعام

---

[٥٣] سميساط: مدينة على شاطيء الفرات الغربي. ياقوت ٢٥٨/٣.

[٥٤] الموزر: مدينة بالجزيرة الفاتية بالقرب من نصيبين. ياقوت ٢٢١/٥.

[٥٥] عمادالدين: ٢٩٩.

ابن شداد: ١٤٤.

ابن الاثير: ٥٦/١٢.

ابن خلكان: ٢٧٢/٣.

[٥٦] عمادالدين: ن. ص.

ابن شداد: ن. ص.

ابو شامة:١٦٤/٢.

ابو الفداء، المختصر: ٧٩/٣.

[٥٧] سورة النساء، الاية: ١٠٠.

البيت الاتابكي على البيت الزيني[٥٨] منذذ سبعين عاما[٥٩]، لم يحلوا لعقد إنعامهم بها نظاما، ولم يزيدوا احكامه الا احكاما وابراما، وما رأى أن يخرج هذا الموضوع منهم، وان يصدف به عنهم، والامير الاجل مظفرالدين گوگبورى كبير البيت وحاميه، والمقدم في الولاية، بمقتضى وصية أبيه، وقد أنهض ليسد مسد أخيه))[٦٠].

فغادر مظفرالدين گوگبورى ارض المعركة وعاد الى اربيل بعد غيبة دامت حوالي عشرين عاما، اكتسب خلالها خبرة واسعة، وزاد نضجا.

---

[٥٨] نسبة الى مؤسس البيت الاتابكي في اربيل (زين الدين علي كچك).

[٥٩] والاصح (٦٤) عاما، اذا اعتمدنا على رواية ابي شامة (الروضتين) ٣٠/١.

[٦٠] هذا المنشور ورد نصه في:

ابو شامة: ١٦٤/٢ _ ١٦٥.

ابن واصل: ٣٣٩/٢ _ ٣٤٠.

ابن الفرات: مجلد ٤ ح ١ ص ٢٣٦.

المصادر

المصادر القديمة

(١) ابن ابي عذيبة، شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر (ت ٨٥٦هـ/١٤٥٢م) مخطوط (انسان العيون في مشاهير سادس القرون) في مكتبة الدراسات العليا لجامعة بغداد رقم: ٢٤٨.

(٢) ابن الاثير، عزالدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد الجزري الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر ـ دار بيروت، بيروت ١٩٦٦ جـ ١١ و ١٢.

(٣) ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف الاتابكي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، جـ ٦.

(٤) ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) المنتظم في تاريخ الملوك والامم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٥٨ ـ ١٩٣٩ جـ ١٠.

(٥) ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن ابي بكر الاربلي (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة الساعدة، القاهرة ١٩٤٨.

(٦) ابن شداد، بهاءالدين ابو المحاسن يوسف بن رافع الاسدي (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د. جمال الدين الشيال، ط الدار المصرية ١٩٦٤.

(٧) ابن شداد، عزالدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) الاعلاق الخيرة في أمراء الشام والجزيرة، قسم الجزيرة، مخطوط مصور، نسخة الدكتور صالح أحمد العلي عن نسخة باريس.

(٨) ابن العديم، كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) زبدة الحلب من تأريخ حلب، تحقيق الدكتور سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٨، ـ ٣.

(٩) ابن الفرات، ناصرالدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) تاريخ ابن الفرات، مجلد ٤ تحرير ونشر الدكتور حسن محمد الشماع، البصرة ١٩٦٧.

(١٠) ابن كثير، اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٢ جـ ١٣.
(١١) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال. القاهرة ١٩٥٧، جـ ٢.
(١٢) ابو شامة، شهاب الدين ابو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٢هـ/١٢٦٦م) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة وادي النيل ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨هـ، جزءان.
(١٣) ابو الغدا، عمادالدين اسماعيل بن محمد بن عمر الايوبي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) المختصر في اخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة ١٣٢٥ هـ جـ ٣.
(١٤) الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م) مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق الدكتور حسن حبشي، طبع عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨.
(١٥) الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان، طبعة دار صادر ـ دار بيروت، بيروت ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧.
(١٦) الذهبي، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد الدمشقي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) تأريخ الاسلام، مخطوط مصور في مكتبة الدراسات العليا.
(١٧) سبط ابن الجوزي، شمس الدين ابو المظفر قزاو غلي التركي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، مطبعة مجلس دار المعرف العثمانية حيدر آباد الدكن ـ الهند ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ جـ ٨ بقسميه.
(١٨) عمادالدين الكاتب الاصفهاني (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) الفتح القسى في الفتح القدسى، ط. ليدن ١٨٨٧.
(١٩) الفاسي المكي، تقي الدين ابو الطيب محمد بن احمد بن علي الحسني (ت ٨٣٢هـ/١٣٢٨م) العقد الثمين في تاريخ البلد الامين، تحقيق فؤاد سيد و جماعته، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٦٩.
(٢٠) المقريزي، تقي الدين ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق د. مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٤ جـ ١ ق ١.

المراجع:

(٢١)د. رشيد الجميلي
دولة الاتابكة في الموصل بعد عمادالدين زنگى. ط دار النهضة، بيروت ١٩٧٠.
(٢٢) محسن محمد حسين
اربيل في العهد الأتابكي، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٧٦.
(٢٣) سعيد الديوه‌جى
(٢٤) الموصل في العهد الأتابكي، مطبعة شفيق، بغداد ١٩٥٨.
(٢٥) د. نظير حسان سعداوي
التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٧.
(٢٦) د. عبدالقادر احمد طليمات
مظفرالدين گوگبورى امير اربل، سلسلة اعلام العرب، القاهرة ١٩٦٣.

المشطوب الهكاري ـ سيرة مُجاهيد

صفحة مشرقة من حياة أحد القادة الكرد

في الحروب الصليبية[*]

قد يتراءى لمن يمر بأحداث تاريخ المقاومة التي أبداها المسلمون ضد الاحتلال الصليبي مر الكرام، ان تسنم صلاح الدين قيادة الجبهة الاسلامية لمقارعة الصليبيين كان محض مصادفة، في حين تؤكد الاحداث ان مساهمة الكرد في المقاومة تعود الى عهود سابقة، مدفوعين بدافع الجهاد، كما انهم اشتركوا في الجيوش الاسلامية النظامية وغير النظامية، نظرا للمزايا القتالية العالية التي كانوا يتمتعون بها، اضافة الى انخراطهم في صفوف جيوش الامارات التي ظهرت في مناطق كردستان المختلفة.

ذكر المؤرخ ابو بكر الدواداري انه ((اجتمع مع السلطان السلجوقى الب ارسلان سنة ٤٦٣هـ/١٠٦٩م (أي قبل ابتداء الهجوم الصليبي باكثر من عشرين سنة) عشرة الاف من المقاتلين الكرد[١]، الذين عرفوا بقوة شكيمتهم وبكونهم رماة سهام ماهرين))[٢]. ويمتازون ب((الشجاعة والنجدة والحمية.. ليس فيهم حيل ولا مكر))[٣]. وقد وصف أحمد المؤرخين المهتمين بتاريخ الشرق وأحداث الحروب الصليبية وتاريخ صلاح الدين، الاكراد بأنهم عرفوا أصول استعمال السيف، شأنهم شأن أبناء المرتفعات السكوتلانديين، وهم نحيفو القوام سريعو الانفعال، لهم كل ما كان للاغريق من كبرياء، ويميلون جميعا للحرب سليقة، ويتعصبون للاسلام عادة وتقليدا[٤].

---

[*] نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي/ الهيئة الكردية ـ ١٩٨١/ المجلد الرابع.

[١] الدواداري، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، ص ٣٩٣.

[٢] المصدر السابق، ص ١٦٦.

[٣] الحسن بن عبدالله العباسي، آثار الاول، ص: ١٤٧.

[٤] هارولد لامب، شعلة الاسلام، ص: ٥٦.

وتطفح الكتب، التي أرخت احداث العصر، بأخبار الكرد ودورهم في محاربة المحتلين، ولاسيما كتاب ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق)، وأسامة بن منقذ الكناني في كتاب (الاعتبار)، وابن الاثير في (الكامل في التاريخ) وابي شامة في (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) وابن خلكان في (وفيات الاعيان)، والدوادراي في كتابيه (الدرة المضية) و (الدر المطلوب في أخبار بني ايوب) وغيرها.

ولسنا بصدد الحديث عن دور الاكراد في تلك الاحداث، بل ان مانبغيه هو تسليط الضوء على سيرة أحد قادة جيش صلاح الدين البارزين، هو سيف الدين علي بن أحمد بن ابي الهيجاء ابن مرزبان الهكاري المعروف بالمشطوب لشطبة كانت بوجهه اصابته اثناء احدى المعارك[٥]. ويذكر ان العديد من الهكاريين قاموا بادوار بارزة في احداث هذه الفترة، ولا سيما في ادارة دولة وقيادة جيش صلاح الدين. وكان الهكاريون يمتلكون عددا من المعاقل والحصون والقرى في منطقة الموصل من جهتها الشرقية[٦].

ومن الشخصيات البارزة من الهكاريين في دولة صلاح الدين، الامير (خوشترين الهكاري)[٧] والامير الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، الذي غدا أحد مستشاري السلطان الايوبي، وكان ((كبير القدر، وافر الحرمة، معولا عليه في الآراء والمشورات))[٨] وكان لهذا الامير أثره الكبير في اقناع أمراء نورالدين محمود الذين كانوا بصحبة القائد أسدالدين شيركوه ـ عم صلاح الدين ـ في مصر، بالموافقة على تولي صلاح الدين وزارة مصر اثر وفاة شيركوه سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م. فقد ذكر

---

[٥] ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١٨٠/١.
ابو شامة، الروضتين: ٢٠٩/٢.
وثمة أشخاص آخرون عرفوا بلقب المشطوب مثل غازى المشطوب (الاعتبار: ١٦٣) وسنقر المشطوب من أمراء صلاح الدين. (النوادر ٢٤٥، والروضتين: ٢١٣/٢).

[٦] وقد سموا بهذا الاسم نسبة الى منطقة هكاري الواقعة في القسم الشرقي من بلاد الاناضول. مينورسكي، الاكراد، ص: ١٧. ويقول ياقوت الحموي ان الهكارية بلدة وناحية وقرى فوق الموصل في بلد (جزيرة ابن عمر) يسكنها اكراد يقال لهم الهكارية (معجم البلدان ٤٠٨/٥) وهي اليوم جزء من ولاية جزيرة ابن عمر أي (جزره) في كردستان تركيا.

[٧] ابن شداد، النوادر، ص: ٢٤٥. الروضتين: ٢١٣/٢.

[٨] ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ ٣ ص ٤٩٧.

المؤرخون ان الخليفة العاضد لدين الله، آخر الخلفاء الفاطميين في مصر، لما عين صلاح الدين وزيراً خلفا لعمه، لم يطعه أمراء الجيش النوري لصغر مرتبته العسكرية وسنّه بينهم. ولأن هؤلاء الامراء كانوا ((يريدون الوزارة لانفسهم))[٩]، فقد كانوا أعلى مرتبة واكبر سنا من صلاح الدين الضابط الشاب في جيش نورالدين، الذي كان في بداية العقد الرابع من عمره يومئذ.

فقام الامير الفقيه عيسى الهكاري باجراء اتصالات مع امراء الجيش النوري ـ ولاسيما الاكراد منهم ـ لأخذ موافقتهم على قرار الخليفة الفاطمي، واتبع مع كل واحد منهم اسلوبا خاصا لاقناعه، يختلف عن الاسلوب الذي سلكه مع غيره. فاتصل أول ما اتصل بالأمير سيف الدين المشطوب (ملك الاكراد)[١٠] واستطاع أخذ موافقته قائلا له: ان أمر الوزارة لايصل اليك مع وجود الاميرين عين الدولة الياروقي التركماني أحد كبار أمراء نورالدين، وشهاب الدين محمود صاحب حارم (خال صلاح الدين). فتنازل سيف الدين المشطوب عن المطالبة بالوزارة، ووافق على تولي صلاح الدين هذ المنصب. عندها قصد الفقيه الهكاري الامير شهاب الدين محمود وقال له: هذا يوسف (صلاح الدين) وهو ابن أختك، وعزه وملكه لك، وقد استقامت له الوزارة، فلا تكن أول من يسعى في اخراجه عنها، ولاتصل ـ الوزارة ـ اليك، فمال شهاب الدين الى رأي الفقيه الحكيم. ثم عدل هذا الى الامير قطب الدين خسرو بن تليل ـ وهو ابن أخي ابي الهيجاء الذي كان صاحب اربيل[١١] وقال له: ((ان صلاح الدين قد اطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير عين الدولة الياروقي، وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين انه من الاكراد، فلا تخرج الامر عنه الى الاتراك))[١٢]. فما كان من خسرو الا الاقتناع برأي الفقيه عيسى. وأخيرا ذهب الى الامير عين الدولة، وحاول جهد امكانه لنيل تاييده، الاان محاولاته ذهبت ادراج الرياح، فابى أن يعترف بوزارة

---

[٩] ابن الاثير، الكامل: ٣٤٤/١١. ابن العديم، زبدة الحلب، ٣٢٩/٢. وفيات الاعيان: ١٥٤/٧. ابو الفداء، المختصر: ٦٣/٢.

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣٥٤/٥. الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٦٦.

[١٠] مرآة الزمان: ٢٧٨/٨. النجوم الزاهرة: ٣٥٤/٥.

[١١] ابن الاثير، الباهر: ١٤١ ـ ١٤٢. الروضتين جـ ١ ق ٢ ص: ٤٠٦.

[١٢] الباهر: ١٤٢. الروضتين: جـ ١ ق ٢ ص: ٤٠٧. وفيات الاعيان: ١٥٥/٧.

صلاح الدين، وقال: انا لا اخدم يوسف (يقصد صلاح الدين) فترك مصر ليعود الى نورالدين محمود في الشام ومعه بعض الامراء[١٣] مثل عزالدين جورديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش[١٤] وغيرهم، الا ان نورالدين محمود استنكر موقف الامراء العائدين الى الشام لتخليهم عن صلاح الدين في هذا الموقف الحرج[١٥].

وهكذا اضطلع هذان الاميران الهكاريان بدور مهم في ترسيخ صلاح الدين يوسف على دست الوزارة المصرية، كما اسهما بعدئذ في مساندته في صراعه المقبل الطويل مع الصليبيين والفئات الاسلامية المتواطئة مع الصليبيين، او المعارضة لسياسة صلاح الدين. ومما يذكر ان الفقيه ضياء الدين عيسى واخاه ظهيرالدين الهكاري قد وقعا في أسر الصليبيين في موقعة الرملة التي هزم فيها المسلمون بقيادة صلاح الدين في جمادي الاخرة سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م، ثم اطلق سراحهما بعد سنين مقابل ستين او سبعين الف دينار، واطلاق سراح جماعة من الصليبيين[١٦].

وقد تولى الاخوان اصلاح شؤون بيت المقدس بعد أن فتحه صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وأزالا الاثار التي تركها الصليبيون في هذه المدينة[١٧]. فقد ذكر العماد باسلوبه المسجع الذي عرف به، ان ((ولاية القدس مذ يسر الله فتحه، وحقق للأمل فيه نجحه" واطلع لليل النصر صبحه" الى الفقيه ضياء الدين عيسى مفوضة، وصعاب أعماله وشعاب أحواله بندرة آرائه ونصرة آلائه مروضة. وقد استناب فيه (الظهير) ظهيرا، ولم يزل رواؤه وبهاؤه به شهيا شهيرا، الى ان استشهد (الظهير) في شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة))[١٨].

أما ضياء الدين فقد اشترك مع صلاح الدين في حصارعكا فتوفي في أثنائه في أواخر سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م بمنزل (الخروبة) القريب من هذه المدينة، ثم أمر

---

[١٣] الكامل: ٣٤٤/١١. الباهر: ١٤٢. الروضتين: ج ١ ق ٢ ص ٤٠٧. وفيات الاعيان: ١٥٥/٧.

[١٤] ابن العديم، زبدة الحلب: ٣٢٦/٢.

[١٥] الروضتين: المصدر السابق. ابن كثير، البداية والنهاية: ٢٥٧/١٢.

[١٦] الكامل: ٤٤٣/١١. الروشتين جـ ١ ق ٢ ص: ٧٠١. مفرج الكروب: ٦١/٢. ابو الفداء، المختصر، ٨١/٥.

[١٧] مفرج الكروب: ٢١٩/٢.

[١٨] الفتح القسي، ص: ٥٧٩.

السلطان بحمل جثته الى القدس ليدفن في هذه المدينة المقدسة[١٩].

نعود الى الكلام عن المشطوب الهكاري، فهو سليل اسرة حاكمة، فجده ابو الهيجاء[٢٠] كان صاحب العمادية وعدة قلاع من بلاد الهكارية[٢١]. اما المشطوب ((فلم يكن بين أمراء الدولة الصلاحية أحد يضاهيه او يدانيه في المنزلة وعلو المرتبة، وكانوا يسمونه (الامير الكبير) وكان ـ هذا اللقب ـ علما عليه عندهم لايشاكه فيه غيره))[٢٢]. أي انه سمي لوحده بالامير الكبير، كما جاء على لسان القاضي الفاضل كبير مستشاري صلاح الدين[٢٣] وكذلك على لسان بهاءالدين ابن شداد مؤرخ سيرة صلاح الدين وقاضي عسكره[٢٤].

ولاشك في ان هذا الامير لم يحرز هذا القب الا بعد أن صار جديرا به، وبعد أن قام بسلسلة من الاعمال البطولية بوصفه أحد أمراء جيش نورالدين محمود، ثم جيش صلاح الدين، وقد اشترك في الحملات الثلاث التي بعث بها نورالدين الى مصر بقيادة شيركوه[٢٥]، لنصرة مصر لكيلا تقع فريسة للاحتلال الصليبي، واستقر في مصر مع صلاح الدين، ولم يتخل عنه الى نهاية عمره[٢٦]. واشترك في معارك الساحل الشامي وفتح بيت المقدس والحصون المنيعة وحصار عكا.

---

[١٩] المصدر السابق، الصفحة: ٣٥٥.

[٢٠] هو غير (ابو الهيجاء) الهذباني الذي كان صاحب اربيل قبل العهد الاتابكي، انظر كتابنا (اربيل في العهد الاتابكي، ص ٣٦ ـ ٣٧) وغير (ابو الهيجاء) السمين الذي كان من كبار قواد صلاح الدين ومقدما علي جنده (الكامل ٥٥/١٢ و ٧٤). والى القبيلة (الهذبانية) تنتسب اسرة صلاح الدين عن طريق انتسابها الى (الروادية) التي كانت احدى بطون القبيلة الهذبانية انظر:
الكامل: ٣٤١/١١. وفيات الاعيان ١٣٩/٧. مفرج الكروب ٣/٢.
المقريزي: السلوك ٤٢/١. والخطط ٢٣٣/٢. ابن اياس، بدائع الزهور ٦٩/١.

[٢١] الباهر: ١٤٢. وفيات الاعيان: ١٨١/١.

[٢٢] وفيات الاعيان: ١٨٣/١.

[٢٣] المصدر السابق والصفحة نفسها.

[٢٤] النوادر: ١١٠.

[٢٥] الروضتين: ٢٠٩/٢. البداية والنهاية: ٣٥٢/١٢.

[٢٦] الروضتين: المصدر السابق.

ومن الفعاليات العسكرية التي قام بها، اضطلاعه بمهمة الدفاع عن حماه التي تعرضت لهجوم قاده الامير الصليبي (فيليب فلاندر Philip of Flanders) الذي تسميه المصادر العربية (اقلندس)[٢٧]، مستغلا ((خلو الشام من ناصري الاسلام)) على حد قول عمادالدين الكاتب الاصفهاني[٢٨]، بعد ان استطاع الصليبيون الحاق الهزيمة بصلاح الدين في موقعة الرملة[٢٩]، بجنوبي فلسطين في سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م، وعاد صلاح الدين خئبا الى مصر[٣٠]. فهاجم الصليبي (اقلندس) المذكور بقواته حماه وصاحبها يومئذ خال صلاح الدين ـ شهاب الدين محمود ـ الذي لم يستطع الرد على عدوان اقلندس، لمرض الم به، فما كان من سيف الدين الا القيام بتنظيم الدفاع عن حماه، فافشل بذلك خطط الصليبيين في احتلال هذه المدينة المهمة، وقد علق أحد المؤرخين على هذا الحادث بأنه ((لولا المشطوب لملكوا حماه))[٣١]. وكتب القاضي الفاضل، كبير كتاب ومستشاري صلاح الدين، الى الخليفة العباسي يقول على لسان سيف الدين المشطوب: ((ان الفتلى من الفرنج تزيد على ألف رجل، مابين فارس وراجل))[٣٢].

وقد قاتل رجال سيف الدين الصليبيين باستماته، بعد أن استطاع هؤلاء احتلال جزء من المدينة، وكادوا يملكونها قهرا وقسرا، على حد قول ابن الاثير... وعظم الخطب على الفريقين، ودافع المسلمون عن باقي أجزاء المدينة ((وحاموا عن الانفس والاهل والمال، فاخرجوا الفرنج من البلد الى ظاهره، ودام القتال ظاهر البلد

---

[٢٧] ينفرد سبط ابن الجوزي بقوله: ان قائد الحملة كان الامير أرناط (رينو دي شاتيون) صاحب الكرك. مرآة الزمان: ٨/ ٣٤٣.

[٢٨] في الروضتين: جـ ١ ق ٢ ص ٧٠٦. وانظر الكامل: ٤٤٤/١١.

[٢٩] الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين، كانت سابقا قصبتها (عاصمتها). معجم البلدان: ٦٩/٣.

[٣٠] النوادر ٥٣. البنداري، سنا البرق الشامي ٢٥٧/١ ـ ٢٦٠. الكامل ٤٤٢/١١ ـ ٤٤٣. الذهبي، العبر ٢١٦/٤. ابو الفداء، المختصر: ٨٠/٥ المقريزي، السلوك جـ ١ ق ١ ص ٦٤.

[٣١] مرآة الزمان: ٣٤٣/٨. شفاء القلوب، ص: ٩٤. وانظر عن الحادث: مفرج الكروب ٦٤/٢. والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٧٠٦ ـ ٧٠٧. ويتحدث ابن الاثير عن الحادث دون التطرق الى دور المشطوب، او ذكر اسمه. الكامل: ٤٤٤/١١.

[٣٢] الروضتين: جـ ١ ق ٢ ص: ٧٠٧.

ليلا ونهارا، وقويت نفوس المسلمين... واكثروا فيهم القتل»[٣٣] فاضطر الصليبيون الى فك الحصار ومغادرة المدينة، بعد قتال وحصار دام اربعة أيام[٣٤]. ولعل شدة القتال وماسببته من متاعب عجلت في موت صاحب حماه المريض بعد مدة وجيزة، اضافة الى حزنه على ابنه «تكش» الذي مات قبله بثلاثه ايام. وقد أسهم هذا الحادث في اعلاء شأن الامير الهكاري، كما اسهمت الحوادث التالية فيه.

فبعد سنتين أي في سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م قاد هو والملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين الذي كان أشجع فرسان بني ايوب، كتيبة[٣٥] من الجيش فيها حوالي ألف مقاتل، وسارا بها نحو شمالي الشام للدفاع عن حصن رعبان القريب من حلب، الذي حاول الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان[٣٦] صاحب بلاد الروم (قونيه وآقسرا) في بلاد الاناضول، ضمه الى مملكته، فأرسل قوة ضخمة يقدرها المؤرخون بعشرين ألف جندي[٣٧] لحصار الحصن، بينهم ثلاثة الاف فارس[٣٨]. وحين وصلت الكتيبة الصلاحية، جرى قتال شديد بين الطرفين، واستطاعت الكتيبة ان تهزم صاحب بلاد الروم، باستعمال عنصر المباغتة، اذ «كبسوا الروميين بغتة. فركبوا خيولهم عريا ونجوا»[٣٩]. الا ان قسما منهم وقعوا في الاسر، فوضعهم تقي الدين عمر في الخيام، ثم منّ عليهم وسرحهم»[٤٠]. وكان تقي الدين عمر وسيف الدين المشطوب يفتخران «بهذه الوقعة» لانهما هزما «بألف مقاتل عشرين ألفا»[٤١].

---

[٣٣] الكامل: ٤٤٤/١١.

[٣٤] المصدر السابق، الصفحة نفسها. الروضتين: ص ٧٠٦. شفاء القلوب: ٩٥. يقول الذهبي ان الحصار دام اربعة أشهر: العبر: ٢١٧/٤.

[٣٥] الكتيبة: قطعة من العسكر تضم بين اربعمائة الى ألف جندي. الثعالبي: فقه اللغة: ٣٢٩.

[٣٦] كما في الكامل: ٤٥٨/١١. والروضتين: ٩/٢. وفرا ارسلان في الذهبي (العبر في خبر من عبر: ٢٢٢/٤) وابن كثير في (البداية والنهاية: ٣٠٢/١٢).

[٣٧] نرى ان هذا الرقم مبالغ فيه كثيرا.

[٣٨] الروضتين: ٩/٢.

[٣٩] الذهبي، العبر: ٢٢٢/٤. الروضتين: ١٠/٢.

[٤٠] المصدران السابقان في الصفحتين نفسيهما.

[٤١] الكامل: ١١/ ٤٥٨. البداية والنهاية ٣٠٣/١٢.

ولمكانة هذا الامير الخاصة في الدولة الصلاحية، أسبغ عليه السلطان تشريفا عاليا، فقلده امارة الحج، وهذا تكريم لاينعم به الا على ذوي الرتب العالية في الدول الاسلامية، وقد عينه صلاح الدين في هذه المهمة سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م، فحج بالناس فيها من الشام[٤٢].

ولعل ذهابه الى الحج كان احدى المناسبات القليلة التي ابتعد فيها عن جو المعارك وعن صحبة صلاح الدين، فالمعروف عن المشطوب انه لازم السلطان في حله وترحاله، وكان العنصر الفعال في مجلس حرب صلاح الدين الاستشاري الذي كان يضم القادة والامراء البارزين في الدوله، امثال القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني الذي كان ((صديق صلاح الدين وعضده ووزيره))[٤٣]. والذي قال عنه صلاح الدين ذات يوم ((لاتظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم القاضي الفاضل))[٤٤]. وضم هذا المجلس أيضاً القاضي بهاءالدين ابن شداد مؤرخ الركب الصلاحي منذ ان التحق بصفوف جيش صلاح الدين في ٥٨٤هـ/١١٨٨م[٤٥]. وكاتب الانشاء المعروف المؤرخ عمادالدين محمد (الكاتب الاصفهاني) الذي كان في معية صلاح الدين منذ وصوله الى الشام قادما من مصر سنه ٥٧٠هـ/١١٧٤م، فكان ((ينزل لنزوله، ويرحل لرحيله))[٤٦]، كما ضم هذا المجلس الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وبهاء الدين قراقوش وعلم الدين سليمان بن جندر ومظفرالدين گوگبورى وعزالدين جورديك وبدرالدين دلدرم الياروقي وابا الهيجاء السمين، اضافة الى رجال الاسرة الايوبية مثل الملك العادل أبي بكر أخي السلطان والملك المظفر تقي الدين عمر ابن شاهنشاه ابن ايوب، وأولاد السلطان الكبار، وغيرهم.

وكان اعضاء هذا المجلس الاستشاري يقدمون المشورة اللازمة الى السلطان كلما طلب منهم ذلك. وقد برز دور سيف الدين المشطوب في هذا المجلس في أكثر من مناسبة. ففي أثناء الحصار الذي فرضه صلاح الدين على الموصل للمرة الثانية،

---

[٤٢] مرآة الزمان: ٣٦١/٨.

[٤٣] السبكي، طبقات الشافعية: ١٦٧/٧.

[٤٤] النجوم الزاهرة: ١٥٧/٦. شذرات الذهب: ٣٢٧/٤.

[٤٥] النوادر السلطانية، ص: ٨٧.

[٤٦] ياقوت الحموي، معجم الادباء: ١٨/١٩.

أرسل أتابك الموصل عزالدين مسعود من نساء البلاط الى معسكر صلاح الدين للتأثير فيه عساه يرفع الحصار عن الموصل، ولوضع حد للقتال الدائر بين الطرفين الاسلاميين، فشاور صلاح الدين مجلس حربه لأخذ مشورته حول ماينبغي عمله للرد على الوفد النسائي، فتقدم الامير سيف الدين المشطوب والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، وقالا: ان مدينة عظيمة ((مثل الموصل لاتترك لأمرأة، فان عزالدين مسعود ما ارسلهن الاوقد عجز عن حفظ البلد)) حسب قول المؤرخ ابن الاثير الذي كان محاصرا داخل السور، كما يذكر بنفسه[٤٧]. فاستمر حصار الموصل بناء على رأي هذين الاميرين الهكاريين، الا ان صلاح الدين لم يحرز النصر على هذه المدينة لحصانتها. فما كان منه الا ارسال قواته لاحتلال جهات الموصل الجبلية، لعزل المدينة عن الاقاليم التابعة لها والمحيطة بها، ومن ثم توزيع هذه الجهات على الامراء والاجناد ((فسير الامير سيف الدين على بن أحمد المشطوب ومعه الامراء من قبيلته والاكراد من شيعته الى بلد الهكارية، وجماعة من الامراء الحميدية الاكراد الى العقر ((عقرة)) وأعمالها لاستفتاح قلاعها واستغلال ضياعها))[٤٨]. وبعد فتح بيت المقدس وفتوح الساحل عين السلطان الامير المشطوب نائبا عنه على صيدا وبيروت[٤٩]، فكتب الى صلاح الدين يحرضه على التوجه نحو صور التي كانت لاتزال بيد الصليبيين، وصارت حصنا قويا شديد المتانة[٥٠] ومزدحما بالصليبيين المستأمنين القادمين من المدن والحصون التي فتحها صلاح الدين. ومن مظاهر متانتها انها كانت محاطة بمياه البحر من جهاتها الثلاث، اما الجهة الرابعة فحفر فيها الصليبيون خندقا، من البحر الى البحر، فصارت المدينة وكأنها جزيرة وسط الماء، فلا يكاد الطير يطير عليها(!) فان المدينة كالكف في البحر، والساعد متصلة بالبر، والبحر من جانبي الساعد، وكان القتال يجري في الساعد[٥١].

---

[٤٧] الكامل: ٥١٢/١١.

[٤٨] الروضتين: ٦٢/٢ نقلا عن العماد الكاتب في كتابه (البرق الشامي) وانظر محمد الايوبي، مضمار الحقائق، ص: ٢١٤.

[٤٩] الروشتين: ١١٩/٢. مفرج الكروب: ٢٤٢/٢.

[٥٠] ابن جبير، الرحلة ٢٧٨. معجم البلدان: ٤٣٣/٣. الحميري، الروض المعطار، ص ٣٦٩. الروضتين: ١١٩/٢.

[٥١] الكامل: ٥٥٤/١١. الفتح القسي: ١٥٧.

ورغم هذا الموقع الستراتيجي، والمتاتة التي كانت تتمتع بها صور، فان سيف الدين المشطوب دعا صلاح الدين الى تنظيم الهجوم عليها ، وصار يستعجل السلطان ولا يمهله، ويحرض ويحذر من المكث، ويقول: الفرصة تدرك بالحث، وتفوت باللبث[٥٢]. فلبى السلطان نداء المشطوب، فجهز جيشه. فوصل الى صور بجحافله وجموعه، ونزل بعيدا عن سورها... وجاءه المدد ((واستحضر الات الحصار، واستكثر من المجانيق الصغار والكبار))[٥٣].

الا أن جيش صلاح الدين، وبسبب من حصانة صور او لاسباب أخرى، أخفق في أخذ هذه المدينة التي ظلت بيد الصليبيين. فرفع الحصار الذي دام زهاء خمسين يوما، رغم ان ((أتقياء امرائه كالفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وعزالدين جورديك وحسام الدين طمان))[٥٤] كان من رأيهم استمرار الحصار، لكي لا تبقى المدينة بيد العدو، وكان رأي صلاح الدين من رأي هؤلاء الأمراء، الا أنه أذعن لقرار أعضاء مجلس حربه الآخرين، لاسيما الاغنياء منهم ((على تمنع منه))[٥٥]، ورای أن من الخطأ أن يقف ضد رغبة الاكثرية. فأمر بفك آلات الحصار، واحراق ما يعجز نقله. وصارت هذه الهزيمة نقطة تحول خطيرة في تاريخ تحركات جيش صلاح الدين المقبلة[٥٦].

بيد أن المشطوب ـ وربما صلاح الدين ايضا ـ لم يحبّذ الاستمرار على حكم صيدا وبيروت، فآثر العودة الى صفوف الجيش، الا اننا لانعرف متى تم ذلك، لكن الواضح انه عاد ليقود مع اتباعه وجماعته ميسرة الجيش الصلاحي، كما حصل في المعركة الشهيرة التي يسميها المؤرخون ب(المصاف الاعظم على عكا)[٥٧] الذي حدث

---

[٥٢] الفتح القسي: ١٥٣.

[٥٣] المصدر السابق، ص ١٥٤.

[٥٤] الروضتين: ١١٩/٢. مفرج الكروب: ٢٤٥/٢ ـ ٢٤٦.

[٥٥] البداية والنهاية: ٣٢٧/١٢.

[٥٦] د. سعداوي، التاريخ الحربي: ١٩٨. Lone ـ Poole, Saladin, p. 241

د. عبدالقادر اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب: ١٤٣.

قدري قلعجى، صلاح الدين ٣٦٠.

وانظر بحثنا (مسؤولية صلاح الدين في فشل حصار صور) المنشور في المجلة العربية للعلوم الانسانية. التي تصدرها جامعة الكويت. العدد (٢٦) المجلد (٧) ربيع ١٩٨٧، ص ص: ٢٨ ـ ٤٣.

[٥٧] النوادر: ١٠٩ ـ ١١٠. الفتح القسي: ٣٠٨.

الروضتين: ١٤٤/٢.

في شعبان ٥٨٦هـ/١١٩٠م. فبعد أن يتحدث المؤرخون عن ميمنة الجيش يقولون: والميسرة، التي تلي القلب كان عليها ((سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الاكراد ومقدميهم وجماعة المهرانية والهكارية))[٥٨]. وتكرر ذلك في الصدام التالي الذي وقع بين الطرفين في شوال من العام نفسه ((فكان في الميسرة سيف الدين على المشطوب ـ الذي تشب بناره الحروب، وتصب على العدا منه الكروب[٥٩]، ومعه الهكارية والمهرانية والحميدية والزرزارية و (خشترين) وغيرهم من الامراء[٦٠] الاكراد، أقتال[٦١]، وأجادل[٦٢] الجلاد[٦٣]))

وأثناء حصار عكا الطويل الذي دام حوالي السنتين، ابدى المشطوب صنوف البطولة، كما هو متوقع. فبعد ان تعب المدافعون عنها داخل المدينة، فكر صلاح الدين في ((اخراج من كان بها من الامراء لعظم شكايتهم من طول المقام ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا))[٦٤]. وكان في عكا ((زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندي واسطولي وبحري... وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا.. فرأى السلطان أن يفسح لهم في الخروج، رفقا بهم ورأفة))[٦٥]. ولم يكن بالامكان اخراج كل المحاربين، نظرا لصعوبة العثور على البديل الذي يوافق على الدخول الى المدينة المطوقة من جانب القوات الصليبية برا وبحرا. وعرض صلاح الدين الفكرة على أمرائه. فقرر الامير سيف الدين المشطوب أن يكون على رأس الداخلين، ليحل محل الامير حسام الدين ابي الهيجاء السمين، مقدم الاكراد الاسدية (نسبة الى أسدالدين شيركوه) الذي ولاه صلاح الدين مدينة القدس، وقد خرج أبو الهيجاء ومعه ستون

---

[٥٨] النوادر: ١١٠. الروضتين: الصفحة السابقة.

[٥٩] الفتح القسي: ٤٤٢.

[٦٠] المصدر السابق في الصفحة نفسها. النوادر ١٤٧. الروضتين: ١٧٩/٢.

[٦١] اقتال: شجاع مقاتل.

[٦٢] اجادل: صقور.

[٦٣] الفتح القسي: ٤٤٢.

[٦٤] النوادر: ص ١٥٢.

[٦٥] الفتح القسي: ٤٥٦. الروضتين: ١٨١/٢.

البداية والنهاية: ٣١٩/١٢.

أميرا، في حين لم يبلغ عدد الداخلين اكثر من عشرين أميرا[٦٦]، وهذا ما أحدث خللا داخل المدينة، أو كما يقول ابن شداد انه بهذا ((دخل على المسلمين وهن عظيم، وحرج السلطان بذلك حرجا شديدا.. وكان ذلك اولى علائم أخذ البلد والظفر به))[٦٧]، لانه اضافة الى قلة عدد الداخلين، فقد كانت تعوزهم الخبرة ((فدخل من لم يجرب حصارها))[٦٨]. فضلا عن أنهم كانوا ((شبه مكرهين)) في الدخول الى عكا[٦٩]. وكان دخول البدل في بداية سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م.

ورغم ما أحدثته عملية تبديل القوات من ضعف في جبهة المسلمين المدافعين عن عكا، داخل المدينة وخارجها، الا ان الامير سيف الدين المشطوب ومعه الامير البارز بهاء الدين قراقوش الاسدي[٧٠] وغيرهما، لم يألوا جهدا في تنظيم الدفاع عن المدينة التي نال منها التعب كثيرا، ولم يعد بوسع المسلمين ايقاف زحف الصليبيين المتوالي عليها بقيادة ريتشارد قلب الاسد ملك انكلترا الشاب و فيليب اوغست ملك فرنسا. يقول ابن الاثير ان الصليبيين ((قد زحفوا من خنادقهم ومالوا الى جهة البلد، فقرب المسلمون ـ الذين كانوا يحاصرون الصليبيين خارج عكا ـ من خنادق الصليبيين، حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم[٧١]. الا انهم لم يستيطيعوا الحيلولة دون توالي زحف العدو على البلد، ((وجاء الليل فحال بين الفريقين، فلما أصبح الصباح خرج أمير المسلمين، (حسب قول ابن كثير)، سيف الدين أحمد المشطوب من عكا، ومعه ترجمان، وذهب واجتمع بملك الافرنسيس (فيليب اوغست) وطلب منه الامان على أنفسهم، وقال له المشطوب: ((انا قد أخذنا منكم بلادا عدة، وكنا نهدم البلد وندخل فيه، ومع هذا اذا سألونا الامان أعطيناهم وحملناهم الى مأمنهم واكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا))[٧٢].

---

[٦٦] الفتح القسي: ٤٥٧. الكامل: ٥٥/١٢. الروضتين: ١٨١/٢.

[٦٧] النوادر: ١٥٣. الروضتين: الصفحة نفسها. وانظر الفتح القسي، ص ٤٥٨.

[٦٨] الروضتين: الصفحة نفسها. البداية والنهاية: ٣٣٩/١٢.

[٦٩] الروضتين: ١٨١/٢.

[٧٠] لقب بالاسدي نسبة الى اسدالدين شيركوه الذي كان قراقوش مملوكه.

[٧١] الكامل: ٦٧/١٢.

[٧٢] النوادر: ١٦٨. الروضتين: ١٨٧/٢.

مفرج الكروب: ٣٥١/٢. ابن الوردي: ١٤٧/٢.

وهذا العرض يدل على أن مقاومة المسلمين قد انهارت، ولم يعد بمقدورهم مجابهة الصليبيين كما ينبغي.

حين ترجم مطلب الامير سيف الدين المشطوب الى اللغة الفرنسية، واطلع عليه فيليب اوغست، رد عليه بغطرسة المنتصر قائلا له: ((ان هؤلاء الملوك الذين أخذتموهم منا، وأنتم أيضا مماليكي وعبيدي، فارى فيكم رأيى من وعدي ووعيدي)) فقام المشطوب وقطع المفاوضات مغتاظا، وأغلظ له في القول وأعلن: نحن لن نسلم البلد حتى نقتل باجمعنا، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا. ولايقتل منا واحد حتى يقتل خمسون، ومتى عرف ان الاسد يسلم العرين، حسب تعبير العماد الكاتب[٧٣].

عاد الامير المشطوب الى داخل عكا، وبعد أيام قليلة بعث بيد أحد العوامين (رجال البريد البحري) رسالة الى صلاح الدين الذي كان مخيما خلف القوات الصليبية، يقول فيها: ((انا قد تبايعنا على الموت، ونحن لانزال نقاتل حتى نقتل، ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء، فابصروا كيف تصنعون في شغل (أي في اشغال) العدو عنا، ودفعه عن قتالنا، فهذه عزائمنا، واياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له، فأما نحن فقد فات أمرنا))[٧٤].

الا ان المشطوب أعاد الكرة مع العدو، وخرج من عكا ومعه الامير حسين بن باريك المهراني، وطلبا استئناف المفاوضات ((وأخذا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وانفسهم على تسليم البلد)) مع اعطاء مائتى ألف دينار اليهم، واطلاق سراح ألف وخمسمائة أسير صليبي، اضافة الى مائة أسير آخرين من المعروفين (الامراء والقادة) واعادة صليب الصلبوت الذي صلب عليه السيد المسيح، وكان بحوزة المسلمين، وغيرها من التنازلات التي استنكر صلاح الدين تقديمها الى العدو. ومع هذا، وفي وقت كانت المفاوضات مستمرة، اذا بالأعلام الصليبية البيضاء ذات الصليب الاحمر في الوسط ترفرف على المباني العامة في عكا، وانزلت رايات صلاح

---

[٧٣] الفتح القسي: ٥٠٥. وانظر النوادر: الصفحة نفسها. الروضتين: الصفحة نفسها. مفرج الكروب: ٣٥٧/٢.

مفرج الكروب: ٣٥٧/٢. البداية والنهاية: ٣٤٣/١٢.

[٧٤] النوادر: ١٧٠. الروضتين: ١٨٨/٢.

الدين الصفراء ((وعظمت المصيبة على المسلمين... ووقع في المعسكر الاسلامي الصياح والعويل والبكاء والنحيب))[٧٥].

ووقع كل من كان في المدينة أسرى في أيدي الصليبيين، واستطاع البعض منهم تحرير أنفسهم بهروبهم من عكا بطرق شتى، كما فعل الامير شيركوه بن باخل الزرزاري الكردي، حين استطاع الهرب بطريقة عجيبة[٧٦].

وسار حتى وصل الى خدمة السلطان، وأخبره ان الصليبيين قد ضيقوا الخناق على الامير سيف الدين المشطوب حتى اضطر أن ((يقطع عن نفسه قطيعة عظيمة من خيل وبغال، وأنواع أموال، وان ملك الانكتار ـ أي ريتشارد ملك انگلترا ـ أتى عكا، وأخذ كل ما كان لة بها من خدمه ومماليكه وأقمشته))[٧٧].

الا ان الامير سيف الدين استطاع أن يحرر نفسه من قيد الاسير لقاء خمسين ألف دينار، على أن يدفع من هذا المبلغ ثلاثين ألف دينار مقدما، وأعطى رهائن على عشرين ألف دينار، ووصل الى القدس ((ودخل على السلطان بغتة، وعنده أخوه الملك العادل، فنهض اليه واعتنقه (عانقه) وسر به سروراً عظيما، وأخلى له المكان)) وأجلسه جنبه وتحدث معه طويلا[٧٨] وهذا الاستقبال الحار والترحيب البالغ من لدن صلاح الدين ليدل على ما كان يتمتع به هذا الامير من مكانة ومنزلة رفيعة في قيادة الدولة. وقد تحدث المؤرخ عمادالدين الكاتب تحت عنوان ((نكتة)) عن هذه النادرة الطريفة، وقال: لما خرج المشطوب من الاسر تلقاه ولده، الا ان ما أثار دهشته حين وجد ابنه على زي اولاد الاتراك، مضفور الشعر، فبدا منه الانكار والاكبار، خاطب ابنه قائلا له: ((ما للاكراد في شعورهم هذا الشعار)) فقطع ضفيرته، وقصر وفرته[٧٩].

---

[٧٥] النوادر: ١٧١. الروضتين: ١٨٨/٢.

[٧٦] النوادر: ١٩٤ ـ ١٩٥. الروضتين: ١٩٣/٢.

[٧٧] النوادر: ١٩٥. الروضتين ١٩٣/٢.

[٧٨] النوادر: ٢٠٧. الفتح القسي: ٥٨٧. الروضتين: ١٩٦/٢. وفيات الاعيان: ١٨٢/١. اليونيني، ذيل مرآة الزمان: ٢٢٥/٢.

[٧٩] الفتح القسي: ٥٨٨. الوفرة: ما سال من الشعر على الأذنين.

بعد اطلاقه استأنف الامير المشطوب دوره كعضو بارز في مجلس حرب صلاح الدين الاستشاري، فاشترك، اول ما اشترك، في الجلسة المهمة التي عقدها المجلس في ١٩ جمادي الاخرة سنة ٥٨٨هـ/ حزيران ١١٩١م، حين عزم الصليبيون على غزو بيت المقدس، فحضر اعضاء المجلس وعلى رأسهم الامير ابو الهيجاء السمين الذي وصل بمشقة كبيرة نظرا لمرضه، وجلس على كرسي قرب صلاح الدين، وحضرها كذلك أمراء الفرقة الاسدية والصلاحية، وطلب السلطان من القاضي المؤرخ بهاءالدين ابن شداد أن يفتتح الجلسة بكلمة مناسبة يبين فيها فضل الجهاد وثوابه عند الله. ثم تناول صلاح الدين الحديث بعد صمت ساد المجلس للحظات ((كأن على رؤوسهم الطير)) وخطب فيهم قائلا ((... اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته، وان دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم، وان هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه الا أنتم، فان لويتم أعنتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد طي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم فانكم انتم الذين تصديتم لهذا... فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام))[٨٠].

فانبرى الامير المشطوب للجواب على كلمة السلطان، وقال: ((يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك، وانت الذي انعمت علينا وكرمتنا وعظمتنا واعطيتنا واغنيتنا، وليس لنا الا رقابنا، وهي بين يديك، والله مايرجع أحد منا عن نصرتك الى ان يموت)) فانبسطت بذلك نفس صلاح الدين. ولعل هذه المناسبة كانت المرة الاخيرة التي عقد فيها مجلس حرب صلاح الدين اجتماعا، بسبب تلاحق الاحداث، والتوقيع على معاهدة صلح الرملة في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ أيلول ١١٩٢م، بين المسلمين والصليبيين والتي أنهت حالة الحرب بينهما لمدة ثلاث سنوات وبعض الاشهر[٨١]، ومن ثم مغادرة ريتشارد قلب الاسد لارض فلسطين عائدا الى بلاده، وأخيرا وفاة صلاح الدين في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/٣ مارت ١١٩٣م.

وكان سيف الدين المشطوب أحد الموقعين على معاهدة الصلح المذكورة، الى جانب كبار رجالات الدولة الصلاحية من امثال الملك العادل، والملك الافضل

---

[٨٠] النوادر: ٢١٦. الروضتين: ١٩٨/٢ ـ ١٩٩. مفرج الكروب ٣٨٧/٢.

[٨١] النوادر: ٢٣٣. الفتح القسي: ٦٠٥. الكامل: ٨٥/١٢. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ٢٢٣. الروضتين: ٢٠٣/٢. السلوك: ١١٠/١.

نورالدين علي ابن صلاح الدين، وابنه الاخر الملك الظاهر شهاب الدين غازي صاحب حلب، والملك المنصور محمد ابن الامير البارز تقي الدين عمر، والامير بدرالدين دلدرم الياروقي وغيرهم[٨٢].

موت سيف الدين المشطوب:

بعد هذه السيرة الزاخرة بالشجاعة والمواقف الجريئة التي اتخذها للدفاع عن الاراضي والمقدسات الاسلامية، والتضحية بكل ما يحتاج اليه الجهاد المضني الطويل الذي اشتركت فيه الشعوب الاسلامية في المنطقة، بعد كل هذا كان من المتوقع أن ينال هذا القائد الكبير تقدير السلطان صلاح الدين يوسف، فاقطع عليه نابلس وأطرافها في بلاد فلسطين[٨٣]، على أن يخصص ثلث واردها على مصالح القدس، ويرثه ابنه عمادالدين أحمد الذي عرف ب (ابن المشوب الهكاري).

أما عن مكان وفاة الامير المشطوب، فثمة اختلاف في روايات المؤرخين، فمنهم من ذكر انه توفي بالقدس، كما في رواية ابن شداد الذي كان في معية صلاح الدين، وقال: ان ((المشطوب تخلف بالقدس مع جملة العسكر المعين له.. وتوفي فيها يوم الثالث والعشرين من شوال ٥٨٨هـ/ مارت ١١٩٢م، ودفن في داره بعد أن صلوا عليه في المسجد الاقصى، رحمه الله))[٨٤]. في حين ذكر مؤرخون غير معاصرين انه توفي بنابلس[٨٥]. ونخال ان ما ذكره ابن شداد هو الصائب. وقد لاحظ سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) وكذلك ابو شامة (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) هذا الفارق في أقوال المؤرخين حول مكان وفاة هذا الامير الكبير. ونسب الاول منهما الى العماد الكاتب قوله ان المشطوب مات في نابلس[٨٦]. في حين ان العماد لم يذكر شيئا عن مكان

---

[٨٢] النوادر: ٢٣٥. الروضتين: ٢٠٣/٢.

[٨٣] الفتح القسي: ٥٨٧. الروضتين ٢٠٩/٢. ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٥٢/١٢. ابن الوردي ١٥٠/٢.

[٨٤] النوادر، ص ٢٤٠. ونقل هذه الرواية بعض المؤرخين فيما بعد مثل الذهبي (العبر في خبر من عبر): ٢٦٧/٤. وابن كثير: المصدر السابق في الصفحة نفسها. واليونيني، ذيل مرآة الزمان: ٢٢٥/٢.

[٨٥] الروضتين: ١٩٦/٢ و ٢٠٩/٢. وفيات الاعيان: ١٨٣/١. ابن الوردي: ١٥٠/٢.

[٨٦] مرآة الزمان: ٤٢/٨.

وفاته في كتابه (الفتح القسي) واكتفى بالقول انه عند بلدة (جنين) القريبة من نابلس ((ودعنا المشوب وداع الأبد، فانه انتقل بعد أيام الى رحمة الواحد الصمد))[٨٧].

وهكذا انتهت حياة قائد كرس جهودة، وجهود بني قومه وعشيرته، لدحر الهجوم الصليبي. انتهت حياة أمير لم يكن في امراء صلاح الدين أحد يضاهيه ولا يدانيه في المنزلة على حد قول ابن خلكان، كما ذكرنا، وقد انهى هذا المؤرخ كلامه بكلمة رثاء، ليس رثاء المشطوب او ابن المشطوب فحسب، بل أبناء الاسرة الهكارية كلها قائلا: بوفاته ((تهدم بنيان قوم، والدهر قاض ما عليه لوم))[٨٨]. رغم مافي كلام ابن خلكان من تهويل، اذ ان ولده عمادالدين أحمد واصل نهج والده، واضطلع بدور بارز في الاحداث المرتقبة، ولاسيما مع الملك الكامل والفائز والاشرف أولاد الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن أيوب.

---

[٨٧] انظر ص: ٦١٣.

[٨٨] وفياتالاعيان: ١٨٣/١.

مصادر البحث

أ- المصادر القديمة:

١- ابن الاثير، ابو الحسن عزالدين علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الجزري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م).

التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية (بالموصل وحلب) تحقيق: د. عبدالقادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٣.

٢- المؤلف نفسه:

الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٩٦٦.

٣- ابن أياس، ابو البركات محمد بن أحمد بن اياس الحنفي المصري (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٢م).

تاريخ مصر (بدائع الزهور في وقائع الدهور) المطبعة الكبرى الاميرية. بولاق، مصر ١٣١١هـ.

٤- ابن تغري بردي، ابو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي، (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٣٨.

٥- ابن جبير، ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م).

رحلة ابن جبير، دار صادر بيروت، بيروت ١٩٦٤.

٦- ابن خلكان، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر الاربلي (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م).

وفيات الاعيان وانباء الزمان، تحقيق د. احسان عباس. مطبعة الغريب، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨ – ١٩٧١م.

٧- ابن شداد، ابو المحاسن بهاءالدين يوسف بن رافع الاسدي (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م).

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د. جمال الدين الشيال. طبعة الدار المصرية. القاهرة ١٩٦٤.

٨- ابن العبري، ابو الفرج غريغوريوس اهرون الملطي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) تاريخ مختصر الدول. المطبعة الكاثوليكية. ط. بيروت ١٩٦٨.

٩- ابن العديم، ابو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله الحلبي، (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م).

زبدة الحلب من تاريخ حلب. تحقيق د. سامي الدهان. المطبعة الكاثوليكية. بيروت جـ ٢ سنة ١٩٥٤ و جـ ٣ ط ١٩٦٧.

١٠- ابن العماد الحنبلي، ابو الفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) شذرات الذهب في اخبار من ذهب، مطبعة القدسي، القاهرة ط ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.

١١- ابن كثير، ابو الفداء عمادالدين اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).

البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٢م.

١٢- ابن منقذ، ابو المظفر، مؤيدالدين اسمامة بن مرشد بن منقذ الكناني الشيزري (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م).

الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، مطبعة جامعة برنستون. الولايات المتحدة ١٩٣٠.

١٣- ابن واصل، جمال محمد بن سالم الحموي (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال. جـ ٢ المطبعة الاميرية. القاهرة ١٩٥٧.

١٤- ابن الوردي، ابو حفص زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م). تاريخ ابن الوردي (ذيل المختصر في أخبار البشر) المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف ١٩٦٩.

١٥- ابو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م).

كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (النورية والصلاحية) (جـ ١ ق ١) نشر وتحقيق محمد حلمي أحمد. مطبعة لجنة التأليف والترجمة واالقاهرة ١٩٥٦.

(جـ ١ ق ٢) تحقيق د. محمد حلمي محمد احمد، مرأجعة د. محمد مصطفى زيادة. المؤسسة المصرية العامة التأليف والترجمة والطباعة والنشر. القاهرة ١٩٦٢. الكتاب نفسه بجزأيه. مطبعة وادي النيل. القاهرة ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨م.

١٦- ابو الفداء، عمادالدين اسماعيل بن محمد بن تقي الدين عمر الايوبي، صاحب حماه (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م).

المختصر في اخبار البشر، مطبعة دار الكتاب، بيروت.

١٧– الاصفهاني، عمادالدين الكتاب، ابو عبيدالله محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م).
الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة ١٩٦٥.
١٨– الايوبي: الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب، صاحب حماه (ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م).
مضمار الحقائق وسر الخلائق. تحقيق د. حسن حبشي. دار الهنا، طبع عالم الكتب. القاهرة ١٩٦٨.
١٩– البنداري، قوام الدين الفتح بن علي (ت ٦٤٢هـ/١٢٤٣م).
سنا البرق الشامي (تلخيص البرق الشامي – للعماد الكتاب الاسفهاني) تحقيق د. رمضان ششن. دار الكتاب. بيروت ١٩٧١ جـ ١.
٢٠– الثعالبي، ابو منصور عبدالملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٦م). فقه اللغة وسر العربية. مطبعة الاستقامة. القاهرة ١٩٥٩.
٢١– الحموي، ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م).
معجم الادباء. نشر د. احمد فريد رفاعي. مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.
٢٢– المؤلف نفسه:
معجم البلدان. دار صادر ودار بيروت. بيروت ١٩٥٥ – ١٩٥٧.
٢٣– الحميري، ابو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالمنعم (عاش في القرن التاسع الهجري).
الروض المعطار في خبر الاقطار. تحقيق د. احسان عباس. مكتبة لبنان. طبع دار القلم للطباعة. بيروت ١٩٧٥.
٢٤– الحنبلي، ابو البركات عزالدين احمد بن ابراهيم بن نصرالله العسقلاني المصري (ت ٨٧٦هـ/١٤٧١م).
شفاء القلوب في مناقب بني ايوب. تحقيق د. ناظم رشيد. مطبوعات وزارة الثقافة والفنون. دار الحرية للطباعة. بغداد ١٩٧٨.
٢٥– الدواداري، ابو بكر بن عبدالله بن ايبك (ت بعد سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م) الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية. تحقيق د. صلاح الدين المنجد. مطبعة المعهد الالماني للاثار بالقاهرة ١٩٦١.

٢٦- المؤلف نفسه:
الدر المطلوب في اخبار ملوك بني ايوب. تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور مطبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة ١٩٧٢.
٢٧- الذهبي، ابو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد الدمشقي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).
العبر في خبر من عبر. تحقيق د. صلاح الدين المنجد. مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٣.
٢٨- سبط ابن الجوزي، ابو المظفر شمس الدين قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م).
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان. مطبعة مجلس دار المعارف العمانية، حيدراباد. الهند ١٩٥١ جـ ٨ قسم أول.
٢٩- السبكي، ابو نصر تاج الدين عبدالوهاب ابن تقي الدين (ت ٧٧١هـ/١٣٧٠م). طبقات الشافعية الكبري، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو. مطبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة ١٩٧٠.
٣٠- العباسي، الحسن بن عبدالله (بدأ بتأليف الكتاب سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م). آثار الاول في ترتيب الدول. مطبعة بولاق ١٢٩٥هـ.
٣١- المقريزي، أبو العباس تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م).
السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق د. محمد مصطفى زيادة. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٤.
٣٢- المؤلف نفسه:
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ويعرف اختصارا ب الخطط).
مطبعة بولاق ١٢٩٤. او فست مكتبة المثنى.
٣٣- اليونيني، أبو الفتح قطب الدين بن موسى بن محمد البعلبكي (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م).
ذيل مرآة الزمان. طبعة حيدراباد، الدكن، الهند، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

ب- المراجع الحديثة:

٣٤- جب، السير هاملتون أ. ر.
صلاح الدين الايوبي، دراسات في التاريخ الاسلامي. حررها يوسف ايبش. طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٣.
٣٥- سعداوي، د. نظير حسان.

التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين. مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٥٧.

٣٦- مينورسكي، البروفسور ظ. ف.

الاكراد، ملاحظات وانطباعات. ترجمه عن الروسية وعلق عليه د. معروف خزندار. مطبعة النجوم. بغداد ١٩٦٨.

٣٧- اليوسف، د. عبدالقادر احمد.

علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر.

منشورات المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت ١٩٦٩.

٣٨- لين پول، ستانلي.

Lane ـ Poole, Stanley, saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, khayats, Beyrut, 1964. P. 241

إبن الاثير الجزري
يؤرّخ حوادث عصره غير السياسيّة(*)

يتمتع ابن الاثير الجزري[1] بمكانة مرموقة بين كافة المؤرخين المسلمين، لم يبلغها أحد، ربما باستثناء المؤرخ العظيم محمد بن جرير الشهير بالطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م). والمعروف عن أبناء اسرة ابن الاثير الثلاثة[2]، انهم عاشوا في مدينة (جزيرة ابن عمر) الكردية، ثم استقروا في الموصل في كنف امرائها الأتابكة، وبدأ ابن

(*) نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي / الهيئة الكردية. المجلد (١٥) بغداد ـ ١٩٨٣.

(١) نسبة الى مدينة (جزيرة ابن عمر) الواقعة في منطقة الجزيرة الفراتية العليا، في كردستان تركيا حاليا. يقول المؤرخ الكردي المعروف محمد أمين زكي أن أبناء الاثير ينتسبون الى الاكراد (انظر كتابه مشاهير الكرد) أي ان انتساب هذه الاسرة الى بني شيبان انتساب بالولاء.

(٢) وهم ثلاثة اخوة، يعتبرون من مشاهير العلماء المسلمين وأعاظم مؤلفيهم في عصرهم، أي في النصف الثاني من القرن السادس والثلث الاول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، واكبر الثلاثة:

١– ابو السعادات مجدالدين المبارك بن محمد.

ولد في ٥٤٤هـ/١١٤٩م وتوفي بالموصل سنة ٦٠٦هـ/١٢١٠م وكرس حياته لدرسة القرآن والحديث والنحو. وتولى ديوان الرسائل في البلاط الاتابكي الموصلي.

والاخ الثاني هو ابو الحسن عزالدين علي بن محمد.

ولد عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م وتوفي بالموصل سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م وهو المؤرخ الكبير صاحب السفر المعروف ب(الكامل في التاريخ) و كتاب (الباهر في التاريخ الاتابكي) وصنف كتبا اخرى منها «أسد الغابة في معرفة الصحابة» وفي الأنساب لخص كتاب السمعاني المعروف، مع بعض الاضافات وسماه «اللباب في تهذيب الأنساب».

جـ والاخ الثالث هو ابو الفتح ضياءالدين نصر الله بن محمد.

ولد عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م وأشتهر بجودة اسلوبه، وله في البلاغة: (المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر) اتصل بالقائد الشهير صلاح الدين الايوبي، ثم صار وزير الملك الافضل علي ابن صلاح الدين.

انظر تراجمهم في كتب السير والتاريخ منها (ابن خلكان، وفيات الاعان) وانظر دائرة المعارف الاسلامية.

الاثير المؤرخ بكتابة سفره الشهير (الكامل في التاريخ) بتكليف من صاحب الموصل بدرالدين لؤلؤ[٣] الذي خلف أتابكة الموصل من بني زنگى[٤].

لانبغي في بحثنا ابراز مكانة هذا المؤرخ بين بقية المؤرخين، ولامقارنته باحد منهم، وكذلك لن نتحدّث عن فلسفته التاريخية، او تعليلاته للاحداث التي هي أشبه بالتصوّرات التي تتردد على ألسنة جمهرة علماء عصره والتي لايصوّبها النقد العلمي الحديث، ولكن نريد ان نتناول هذا المؤرخ من جانب لايستهان به في الدراسات التاريخية الحديثة، وهو كيفية قيامه برصد وتدوين الحوادث الطبيعية، والوقائع غير السياسية، كالفيضانات وبثوق السدود والزلازل وهجوم أسراب الجراد وهبوب العواصف المدمرة، وما تسببه هذه الحواث من مجاعات واهوال وأوبئة، والحوادث الفلكية والاجتماعية الطريفة وغيرها... تلك الحوادث التي وقعت في الفترة التي عاش فيها المؤرخ، او التي سبقته بحوالي ربع قرن، أي تلك التي رواها نقلا عن مؤرخين سبقوه، او نقلا عن والده، وهذا يعني اننا لن نكتفي بعرض الحوادث التي رواها كشاهد عيان في الموصل ومنطقة الجزيرة، لان المؤرخ وسع نطاق اهتماماته، فدون حوادث منطقة واسعة شملت بغداد والبصرة واربيل وشهرزور وحلب ودمشق وديار بكر ومصر، وكذلك اذربيجان ونيسابور[٥] وخراسان[٦] وهراة[٧] وأرض الشراة[٨]، بل حتى بلاد الروم وصقلية وقبرص[٩] وغيرها الا ان اكثر معايناته كانت في الموصل وديار الجزيرة، بل يكاد يحصر اهتمامه في السنوات القليلة الاخيرة من عمره بما كان يحصل في هذه الديار فقط، الا انه خصّ بغداد بأهمية استثنائية، لكن دون أن يبيّن المصادر التي إستقى منها معلوماته، ولعل ذلك كان عبر احد المؤرخين، او انه دونها

---

[٣] الكامل جـ ١ ص ٥ المقدمة.

[٤] انقرض حكم اسرة بني زنكي سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م.

انظر كتاب د. رشيد الجميلي، دولة الاتابكة في الموصل. ط ١٩٧٠ بيروت و د. سوادي عبد محمد الرويشدي. امارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ.

و د. محسن محمد حسين، اربيل في العهد الاتابكي، ص ١٢٥ ـ ١٢٩، مطبعة أسعد. بغداد ١٩٧٦.

[٥] الكامل ٢٨٨/١١ و ٢٨٣/١٢.

[٦] ن. م: ٢٨٣/١٢.

[٧] ٢٠٦/١٢.

[٨] ١٧٢/١٢.

[٩] ١٩٨/١٢.

سماعا من الذين كانوا يترددون بين الموصل وبغداد. ولكن بعقد مقارنة بسيطة يمكن الوصول الى المصدر الذي اعتمد عليه في نقوله عن حوادث بغداد في الفترة التي دون فيها مؤرخ بغداد الشهير ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) تاريخة العام (المنتظم في تاريخ الملوك والامم)، حتى ان نقولات مؤرخنا تصل الى حد التطابق احيانا مع روايات شيخ مؤرخي بغداد[١٠] هذا. والواقع لم يكن بوسع ابن الاثير ـ مادامه يتحدث عن حوادث بغداد ـ سوى ان ينقل من ابن الجوزي، وبهذه الدقة والتطابق، اذ لايستطيع أن يضيف الى رواية مؤرخ بارز عاش في هذه المدينة، ويذكر حواثها كشاهد عيان. اما أن ابن الاثير لم يذكر اسم المؤرخ البغدادي فهذا ينسجم مع منهجه العام في النقل[١١]. ومع ذلك فان مؤرخنا كان يضطر الى ذكر اسم المنقول عنه أحيانا، حين لم يكن بوسعة سوى ان يفعل ذلك، كأن يتخذه شاهدا على مايذكره من مبالغات. فقد ذكر، نقلا عن ابن الجوزي، انه ((وقع ببغداد برد كبار ما رأى الناس مثله، فهدم الدور وقتل جماعة من الناس وكثيرا من المواشي، فوزنت بردة منها فكانت سبعة ارطال. وكان عامته كالنارنج يكسر الاغصان[١٢]. ولان هذا الخبر

---

[١٠] انظر على سبيل المثال الكامل ٢٤٨/١١ والمنتظم ١٨٩/١٠.

وكذلك انظر الكامل ١/١١ والمنتظم ١٤٦/١٠.

والكامل ٢١٦/١١ والمنتظم ١٦٥/١٠.

والكامل ٢١٨/١١ والمنتظم ١٧٦/١٠.

والكامل ٢٨٨/١١ والمنتظم ٢٠٣/١٠.

والكمال ٣٩٤/١١ والمنتظم ٢٤١/١٠.

والكامل ٤٠٩/١١ والمنتظم ٢٤٢/١٠.

والكامل ٤١٠/١١ والمنتظم ٢٤٤/١٠.

[١١] انظر د. سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ط القاهرة ١٩٦٢ ص ٩ الذي يقول فيه: ان من عيوب هذا المؤرخ انه لم يذكر مصادره الاصلية التي اعتدى على روايتها بالتعديل الكثير، لدرجة بات البحث عنها من اشق الامور واعزها منالا.

وانظر مقالنا ((ابن الاثير واحداث عصره)) ضمن كراس ((موضوعان في التاريخ الكردي)) مطبعة الحوادث ١٩٧٦ بغداد ص ١٠ ـ ١١.

[١٢] انظر الكامل ٤١٠/١١ والمنتظم ٢٤٤/١٠.

والرطل البغدادي يساوي (٤٠٨) غرامات. وقد عد د. فيصل السامر (١٧) نوعا من الارطال يتراوح وزنها بين (١٢٠) و (١٢٠٠) درهم، انظر مجلة كلية الاداب/ العدد ١٤ لسنة ١٩٧١ مقال: ملاحظات في الاوزان والمكاييل الاسلامية واهميتها ص ٧٠٦ ـ ٧٠٧.

يحمل في طياته عنصر المبالغة، او عدم التصديق، لذا لجأ ابن الاثير الى ذكر المصدر الذي نقل عنه الخبر، فختم خبره هذا بقوله: ((هكذا ذكره ابو الفرج ابن الجوزي في تاريخه والعهدة علية))[١٣] الا انه حين تحدث عن سقوط البرد في البصرة سنة ٦١٣هـ ١٢١٦م بكميات هائلة وبأحجام كبيرة حاول أن يداري عنصر المبالغة خشية عدم تصديق الناس بما يقوله، فأورد عبارة شبيهة بما نقله عن ابن الجوزي[١٤]، دون ذكر المصدر، فقال: قيل كان أصغره مثل النارنجة الكبيرة، وقيل في اكبره مايستحي الانسان أن يذكره، فكسر كثيرا من رؤوس النخيل[١٥]. ومادمنا في ذكر البرد الكبير، والمبالغة في تقدير حجمه ووزنه، فقد تحدث عن برد سقط سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م وقال: ((اختلفت اقاويل الناس في اكبره، كان وزن بردة مائتي درهم، وقيل رطل[*]، الا انه اهلك كثيرا من الحيوان[١٦]. وأثّر على الغلاء الذي حصل في الموصل والبلاد الجزرية في ذلك العام.

ونلاحظ من جانب آخر ان مؤرخنا يتكلم عن حوادث وقعت في بغداد لم يتطرق اليها المؤرخ البغدادي، على الرغم من انه عاصرها. فقد تحدث عن انقطاع الغيث ببغداد والعراق، وكيف أثر ذلك على حدوث الغلاء.

★ ★ ★

وهنا نشير الى اننا لن نتطرق الى كافة الحوادث التي دونها مؤرخنا نظرا للتشابه بين تفاصيلها، ولكننا نختار البارزة منها، تلك التي كان لها تأثيرها الواضح على الاوضاع الاقتصادية والسياسية او غيرها، او الحوادث الطريفة التي جلبت انظار مؤرخنا فسجلها في مدوناته، والتي صار مغرما بجمعها في سني حياته الاخيرة، وقد ذكرنا قسما منها دون ان نضيف عليها شيئا من التعليق.

★ ★ ★

كانت الزلازل ابرز الحوادث التي أرخ ابن الاثير وقوعها، ولدى توفر التفاصيل عنها كان يذكر عدد مرات حدوثها وتاريخها واماكن وقوعها والآثار الخطيرة التي

---

[١٣] الكامل ٤١٠/١١.

[١٤] كما ذكرنا فان ابن الجوزي توفي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م.

[١٥] الكامل ٣١٤/١٢.

[*] في الاصل ((رطل)) والصحيح ((رطلا)).

[١٦] ن. م. ٤٦٧/١٢.

نجمت عنها، دون ذكر الارقام، الا انه كان يلجأ الى ذكرها أحياناً، لكن يجب أخذ هذه الارقام بحذر، لانه لايمكن الركون اليها بسهولة.

ذكر انه في شوال من عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م ((زلزلت بالعراق والموصل وبلاد الجبل وغيرها، وكانت شديدة هلك منها كثير من الناس))[١٧].

وتحدث عن ((زلازل هائلة دمرت بلاد الشام والجزيرة وكثيراً من البلاد..)) لاسيما حلب، فان أهلها لما كثرت عليهم فارقوا بيوتهم، وخرجوا الى الصحراء، وعدوا ليلة واحدة جاءتهم ثمانين مرة)) واستمرت هذه الزلازل ستة عشر يوما من (٤) صفر الى التاسع عشر منه (كانتن اول ١١٣٤م). ((وكان معها صوت وهزة شديدة))[١٨].

وقال عن زلزال أدى الى تخريب اكثر أجزاء بلاد الشام، حسب تعبيره، ((فهلك فيها مالايحصى كثرة فخرب منها (بالمرة) حماه وشيزر وكفر طاب والمعرّة وأفاميه وحمص وحصن الاكراد وعرفه واللاذقية وطرابلس وانطاكية)) أي أن هذه المدن الشامية الهامة دمرت عن بكرة ابيها ((بالمرة)) ان صح مايقوله المؤرخ، في حين ان مدنا أخرى شملها الخراب بدرجة أقل، فتهدمت أسوارها وقلاعها، وهذا مادفع الصليبيين الى أن يمدوا أعناقهم نحو المدن التي تهدمت أسوارها، فما كان من صاحب الشام نورالدين محمود الا أن يغير على المدن التي كانت بأيدي الصليبيين ((فجمع عساكره وأقام باطراف بلاده يغير على بلاد الفرنج ويعمل في الاسوار في سائر البلاد))[١٩]. ويسرد ابن الاثير حادثا حصل في هذا الزلزال يدل على ضخامة عدد الضحايا ويقول ((ومن كثرة القتلى يكفي ان نقول: ((ان معلما كان بمدينة حماه فارق المكتب لمهمة عرضت عليه، فحدثت الزلزلة المخربة أثناء غيابه، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم. قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له))[٢٠].

ويتكرر مثل هذا الحادث في سنة ٥٩٧هـ ١٢٠١م الا ان تأثيره كان اكثر اتساعا، فشمل مدن الشام من حماه وحمص ودمشق والساحل الشامي مثل طرابلس وصور

---

[١٧] ١٢/٣٤.

[١٨] ١١/٧١.

[١٩] ١١/٢١٨.

[٢٠] ن. ص.

وعكا، ومنطقة بصرى حيث ((انخسفت فيها قرية من قراها)) اضافة الى انه شمل الموصل وديار الجزيرة وديار مضر[٢١]، اي بين النهرين، وكانت قاعدتها الرقة.

ولعل الزلزال الشنيع الذي ضرب مدينة شهرزور الكردية واطرفها سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م كان السبب في ازالة هذه المدينة، او في انحطاط مكانتها بين مدن تلك المنطقة المعروفة يومئذ، حتى صارت اثرا بعد عين، اذ ان مدينة شهرزور لم تعد تتمتع بتلك المكانة التي عرفت بها طيلة القرون الستة الاولى في التاريخ الاسلامي، وغدت لايعرف موقعها في الوقت الحاضر[٢٢].

فضمن أحداث ذلك العام (٦٢٣هـ) وفي يوم الاربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة نهاية (شباط ١٢٢٦م) ضحوة النهار[٢٣]، زلزلت الارض بالموصل وكثير من البلاد العربية والعجمية، وكان اكثرها بشهرزور، فانها خرب اكثرها، ولاسيما القلعة، فانها اجحفت بها، وخرب من تلك الناحية ست قلاع، وبقيت الزلزلة تتردد فيها نيفا وثلاثين يوما، ثم كشفها الله عنهم، وأما القرى بتلك الناحية فخرب اكثرها))[٢٤].

ورغم طابع المبالغة الواضح في التعابير التي استعملها المؤرخ، الا اننا نستنتج ما كان للزلازل من تأثير بين على مجمل أوضاع المنطقة، والآثار المدمرة التي تركتها، بل في تاثيرها على الوسائل الدفاعية بهدم اسوار الحصون والمدن المنكوبة المحاذية للارض التي كانت تحتلها قوات الفرنجة مثل حصن الاكراد وحماه، وفي إحداث التغييرات في مواقع وأبنية ومصير بعض المدن مثل شيزر وكفر طاب في الشام او مدينة شهرزور في كوردستان.

* * *

ورصد ابن الاثير أحداث الفيضانات الشهيرة التي وقعت في بغداد في الفترة المذكورة آنفاً والتي سببت في الحاق الاضرار بشتى نواحي الحياة.

---

[٢١] ١٢/١٧٠.

[٢٢] انظر كتاب د. حسام الدين النقشبندي. (الكرد في الدينور وشهرزور) ص ٤٨ ـ ٥٦ و ٦١ ـ ٦٥. اطروحة ماجستير بغداد. مطبوعة بالرونيو ١٩٧٥.

[٢٣] هذا التحديد يدل على مدى دقة ابن في ذكره للحوادث التي عاصرها.

[٢٤] الكامل ١٢/٤٦٧ – ٤٦٨.

وابرز حوادث الفيضانات ما حدث سنة ٥٥٤هـ/١١٥٨م[٢٥] تحت عنوان ((ذكر غرق بغداد)) حين ((كثرت الزيادة في دجلة وخرق القورج[٢٦] فوق بغداد، واقبل المد الى البلد فامتلأت الصحاري وخندق البلد، وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة فوقع بعض السور عليها فسدها. ثم فتح الماء فتحة اخرى، واهملوها ظنا انها تنفس عن السور لئلايقع، فغلب الماء وتعذر سده، فغرق قراح ((بئر)) ظفر والاجمة والمختارة والمقتدية ودرب القيار، وخرابة ابن جردة والريان وقراح القاضي، وبعض القطيعة، وبعض باب الازج، وبعض المأمونية، وقراح ابن الشحم، وبعض قراح ابن رزين، وبعض الظفرية))[٢٧].

وفي فيضان سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م ((اشرفت بغداد على الغرق)) فقام الاهلون بسد أبواب الدروب للحيلولة دون هجوم السيول على البيوت والمحال، واشتغلوا بالعمل في القورج ((ووصل الماء الى قبة أحمد بن حنبل والمدرسة النظامية ورباط شيخ الشيوخ)) رغم ان ان هذه المرافق كانت بعيدة عن شواطىء النهر.

---

[٢٥] عد هذا الفيضان أول حادث مهم في تاريخ فيضانات بغداد لما احتوى عليه من الاهوال كما يقول الدكتور احمد سوسة، ويضيف ان أهل بغداد وحكومتهم اخذوا يشعرون بجدية خطر الفيضان منذ النصف الاخير من القرن الخامس الهجري وذلك بعد أن أخذت مشاريع الري تضمحل الواحد بعد الآخر فشعروا بالخطر الحقيقي.. وكذلك الانحلال الذي ساد جهاز الدولة في هذه الفترة... وبذلك صارت كل مياه دجلة وروافده تنحدر الى جهة مدينة بغداد فتهددها بخطر الغرق.. وأدى بالتالي الى هلاك المزارع والبساتين التي كانت تروى من أمام السدود. انظر ص ١١٥ ـ ١١٦ من كتاب بغداد. تاليف: الدكاترة مصطفى جواد. احمد سوسه. محمد مكية و د. ناجي معروف. ط. بغداد ١٩٧٠.

[٢٦] القورج: نهر كان يستمد المياه من نهر دجلة في نقطة بين سامراء وبغداد، وكان قد حفر زمن كسرى انو شروان لايصال المياه الى اراضي النهروان السفلى في موسم شح المياه، وأصبح في الادوار الاخيرة مصدر خطر على مدينة بغداد الشرقية من الغرق. ولكثرة ذكر القورج في حوادث فيضان بغداد صار اسما عاما، أي اسم جنس للمواضع الضعيفة التي تنكسر عند فيضان دجلة. انظر د. احمد سوسه: فيضانات بغداد في التاريخ. القسم الاول، ص: ٢٩٩.

وقد وصف ياقوت (القورج) فقال: هو نهر بين القاطول وبغداد، منه يكون غرق بغداد كل وقت تغرق... وهو بلاء على أهل بغداد فانهم يجتهدون في سده واحكامه بغاية جهدهم، واذا زاد الماء فافرط بشقه وتعدى الى دورهم وبلدهم فخربه. معجم البلدان مجلد ٤ ص ٤١٢.

[٢٧] الكامل ٢٤٨/١١ عن هذه المحال انظر (دليل خارطة بغداد المفصل تأليف: د. مصطفى جواد و د. أحمد سوسه).

وحسب تاريخ ابن الاثير كان اخطر فيضان شهدته بغداد في ذلك العهد هو الذي حصل في العام التالي على فيضان ٥٦٨هـ اي فيضان سنة ٥٦٩هـ نيسان ١١٧٤م[٢٩] حين زاد الماء فيها زيادة ((على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد)) واستمر سقوط الامطار مدة اربعين يوما، واحتجبت الشمس بحيث انهم لم يروها طيلة تلك المدة سوى مرتين، كل مرة مقدار لحظة، حسب تعبير المؤرخ، وخاف الناس الغرق، وخرجوا من بيوتهم وغادروا المدينة، واقام الرجال عند الشاطيء يراقبون النهر الغاضب ويخشون من انفتاح القورج وغيره، وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسده، ونبع الماء من البلاليع، وخرب كثيرا من الدور، ودخل الماء الى البيمارستان (المستشفى) العضدي، ودخلت السفن من منافذ الشبابيك التي قلعها الفيضان الجارف[٣٠]. ولم تقتصر هذه الامطار الغزيرة على منطقة بغداد، بل انها شملت منطقة الموصل والجزيرة وديار بكر كذلك.

هذا وكانت الفيضانات المدمرة من المناسبات النادرة التي يضطر الخليفة فيها أن يظهر للناس، مما يدل على مدى خطورتها وتأثيرها الشديد على اقتصاد البلاد، ففي فيضان عام ٦٠٤هـ/١٢٠٨م زادت دجلة زيادة، ودخل الماء في خندق بغداد من ناحية باب كلواذي، فخيف على البلد من الغرق، فاهتم الخليفة بسد الخندق، وركب فخرالدين نائب الوزير وعزالدين الشرابي ووقفا ظاهر البلد))[٣١].

ويلاحظ ان ابن الاثير مأخوذ بالفاظ مخيفة، فيذكر عن فيضان دجلة سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م انه (٠لم يشاهد في قديم الزمان مثله، واشرفت بغداد على الغرق)) مما اضطر الوزير والامراء والاعيان كافة ومعهم خلق عظيم من العامة لعمل القورج حول المدينة ((وقلق الناس لذلك وانزعجوا وعاينوا الهلاك، واعدوا السفن لينجوا فيها، وظهر الخليفة للناس وحثهم على العمل، وكان مما قال لهم: لو كان يفدى ما أرى بمال او غيره لفعلت، ولو دفع بحرب لفعلت، ولكن أمر الله لايرد))[٣٢].

---

[٢٩] يقول د. سوسه: ان أعلى منسوب لفيضانات بغداد هو ما دوّن عن فيضان سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م فسجل منسوب المياه ٢٣ ذراعا. دليل خارطة بغداد المفصل، ص: ٢٨٤.

[٣٠] الكامل ٤٠٩/١١.

[٣١] ن. م.: ٢٧٨/١٢.

[٣٢] ن. م.: ٣٣٢/١٢.

اما الآثار المخربة التي تركها هذا الفيضان انه دمر جزءا من الجانب الشرق، واغرق بعض ابرز معالم بغداد مثل مشهد ابي حنيفة (الامام الاعظم) وجامع المهدي وقرية الملكية والكشك، وانقطعت الصلاة بجامع السلطانية، واما في الجانب الغربي، فقد تهدم اكثر القرية ونهر عيسى، ومشهد باب التبن ومقبرة أحمد ابن حنبل والحريم الطاهري وبعض باب البصرة والدور التي على نهر عيسى واكثر محلة قطفتا، وخرب الشطيات والبساتين[٣٣].

وكما تحدث المؤرخ عن فيضانات بغداد، فانه تحدث احيانا عن حوادث الصيهود، أي نقص منسوب الماء، في نهر دجلة، وما كان يسببه من مشاكل، والاجراءات التي كانت الدولة تتخذها للحد من الاضرار التي نجمت عنه، وقد بلغ نقص الماء ذات مرة درجة بحيث ان الناس ((كانوا يخوضون دجلة فوق بغداد، وهذا مالم يعهد مثله))[٣٤].

وكذلك كان مؤرخنا يسرد أخبار تساقط الثلوج وموجات البرد، الا ان الملاحظ عليه انه كان يستعمل التقويم الشمسي، أي يذكر تاريخ اليوم والشهر حسب التقويم الميلادي، في رصده للحوادث الخاصة باحوال المناخ. فقد ذكر انه ((نزل بخراسان برد كثير عظيم المقدار اواخر نيسان (عام ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م) وكان اكثره بجوين ونيسابور وما والاهما، فاهلك الغلات)) واعقب ذلك سقوط امطار غزيرة دامت عشرة ايام[٣٥]. كما وقع الثلج بمدينة هراةسنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م مدة أسبوع كامل، وسبب في

تقول د. ناجية عبدالله ابراهيم: لم نلحظ طوال العهد الاخير للدولة العباسية مايشير الى التقاعس في تلك الاعمال، خاصة في اصلاح القورج الذي كان البلاء الاكبر على مدينة بغداد، يهددها دوما... وقد جرت محاولات عديدة لاصلاحه. كتابها (ريف بغداد) اطروحة دكتوراه سنة ١٩٨١ ص ٣٨٥.

[٣٣] الكامل ٣٣٢/١٢.

ونظرا لتشابه تفاصيل بعض هذه الحوادث نرى من الضروري الاكتفاء بالحوادث المذكورة وللمزيد انظر ٤٢٤/١٢ و ٤٤٩/١٢، ونشير هنا الى الامطار العنيفة وما صاحبها من رعد وبرق شديد، والتي سقطت صيف عام ٦٢٢هـ/ شهر آب ١٢٢٥م وعمت العرق والجزيرة وديار بكر وكان المؤرخ يومها في الموصل يستقصي اخبار هذه الامطار من القادمين اليها من تلك المناطق ويقول: لم يصل الينا بالموصل احد الا وأخبر ان المطر كان عندهم مثله في ذلك التاريخ. الكامل ٤٤/١٢.

[٣٤] الكامل ٢٩٤/١٢ ـ ٢٩٥.

[٣٥] ن. م. ٢٨٨/١١.

سقوط حصن المدينة، واعقبه سقوط برد شديد أهلك الثمار، حتى لم يكن بها في تلك السنة شيء من المحاصيل الا اليسير[٣٦].

وذكر ان السحاب الاسود الذي ظهر في الشام سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م كان في الرابع عشر من آيار، دون ذكر اسم الشهر حسب التقويم الهجري، باستثناء ذكر السنة[٣٧]. وان الامطار التي سقطت في بغداد في صيف عام ٦٢١هـ كانت اول شهر آب (١٢٢٤م)[٣٨]. وكذلك الامطار الشديدة التي سقطت في عموم العرق والشام والجزيرة وديار بكر في صيف ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) كانت في شهر آب أيضاً[٣٩]. ويبدو ان هذه الأمطار الصيفية (المتأخرة) جاءت في اعقاب شتاء جاف، اذ يذكر ابن الأثير ضمن احداث ٦٢١هـ انه في هذا العام ((قلت الامطار في البلاد ـ يقصد في الموصل ومنطقة الجزيرة ـ فلم يجيء الى شباط، ثم انها كانت تجيء في الاوقات المتفرقة مجيئاً قليلا لايحصل منه الري للزرع، فجاءت الغلات قليلة))[٤٠]، فكانت السبب في الغلاء الشهير الذي عم الموصل وديار الجزيرة في ذلك العام. وجاء سقوط الثلج في ذلك العام ليزيد في الطين بلة، فسبب في موت جماعة من الفقراء حين ((برد الماء برداً شديداً))[٤١]..

ان استعمال ابن الأثير الشمسي لدى متابعاته لأخبار المطر لا يعني انه كان ملماً بالحسابات الفلكية، الا انه كان يرى ـ كغيره ـ ان رصد مثل هذه الحوادث المناخية بالتقويم القمري لايصح، وان تعاقب الفصول يتم عبر التقويم الرومي الشمسي، لكن حدث ان اتفق بدء سنة ٥٨٣هـ، اي اول محرم من هذه السنة، مع يوم ١٤ آذار[٤٢] وهو اليوم الذي تبدأ فيه السنة الشمسية حسب التقويم الشرقي (في سنة ١٤٩٨ اسكندرية) وكذلك اتفقت بداية السنة في التقويمين المذكورين مع بدء

---

[٣٦] ن. م. ٢٠٦/١٢.

[٣٧] ن. م. ٥٤/١١.

[٣٨] ن. م. ٤٢٤/١١.

[٣٩] ن. م. ٤٤٩/١١.

[٤٠] ن. م. ٤٢٤/١١.

[٤١] ن. م. ٤٤٩/١١.

[٤٢] ١٣ أذار حسب ماورد في كتاب (التقويمان الهجري والميلادي) تأليف فريمان ـ جرنفيل. مطبوعات وزارة الثقافة والاعلام. ط ١/١٩٧٠/ بغداد، ص: ٧.

السنة الفارسية. ويقول المؤرخ ((اتفق اول هذه السنة يوم السبت[٤٣])، وهو يوم النوروز السلطاني، والرابع عشر من آذار سنة ١٤٩٨ اسكندرية، وكان القمر والشمس في الحمل، واتفق اول سنة العرب (يقصد السنة الهجرية) واول سنة الفرس التي جددوها اخيراً، واول سنة الروم والشمس والقمر في اول البروج، وهذا يبعد وقوع مثله)) حسب قول المؤرخ[٤٤].

وارخ ابن الأثير حدوث ((الاهوال)) الطبيعية مثل هبوب العواصف المدمرة وحدوث ظاهرة الكسوف وغيرها، وتأثيرها النفسي مثل تصور حدوث القيامة الذي كان يعقب حدوثها، نظرا لجهل الناس بأسباب حدوثها. ففي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩ هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الجزرية والعراق وغيرها، وعمت اكثر البلاد من الظهر الى ان مضى من الليل ربعه، وبقيت الدنيا مظلمة يكاد الانسان لايبصر صاحبه، ويقول: ((وكنت حينئذ بالموصل، فصلينا العصر والمغرب والعشاء على الظن والتخمين، واقبل الناس على التضرع والتوبة والاستغفار، وظنوا ان القيامة قد قامت، فلما مضى مقدار ربع الليل زال ذلك الظلام والعتمة التي غطت السماء، فنظرنا فرأينا النجوم، فعلمنا مقدار مامضى من الليل، لأن الظلام لم يزدد بدخول الليل، وكل من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك[٤٥]. وحدث مثل ذلك في مطلع سنة ٥٩٢هـ/ نهاية سنة ١١٩٥م حين ((اسودت الدنيا، ووقع رمل أحمر، واستعظم الناس ذلك وكبروا، واشتعلت الاضواء بالنهار))[٤٦].

ورصد مؤرخنا حوادث الكسوف والخسوف والحوادث الفلكية الاخرى دون ان يذكر ما كان الناس يعتقدونه في سبب حدوثها، او ما كانوا يفعلونه حين وقوعها، ويكتفي بذكر حال الخوف التي كانت تنتاب الناس. ففي ضحوة يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر رمضان ٥٧١هـ/١١٧٥م ((انكسفت الشمس جميعها، واظلمت الارض حتى بقي الوقت كأنه ليل مظلم، وظهرت الكواكب)) ويردف المؤرخ قائلا ((وكنت حينئذ صبياً بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من العلماء اقرأ عليه

---

[٤٣] الخميس حسب كتاب (التقويمان..) ن. ص. ونخال ان حساب ابن الاثير كان أصح.

[٤٤] الكامل ٥٢٩/١١.

[٤٥] ن. م. ٤٦٠/١١.

[٤٦] ن. م. ١٢٣/١٢ وللاطلاع على المزيد انظر ١١/ ٥٤.

الحساب، فلما رأيت ذلك خفت خوفاً شديداً، وتمسكت به، فقوي قلبي، وكان عالما بالنجوم))[٤٧].

ويذكر ابن الاثير حادثا حاول ان يكذب به المنجمين الذين كانوا يبثون أفكارا غير علمية سرعان مادحضها الواقع، فيقول ضمن أحداث سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م ان المنجمين كانوا ((قديما وحديثا قد حكموا ان هذه السنة التاسع والعشرين من جمادي الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة في برج الميزان، ويحدث باقترانها رياح شديدة، وتراب يهلك العباد ويخرب البلاد، فلما دخلت هذه السنة لم يكن لذلك صحة، ولم يهب من الرياح شيء البتة حتى ان غلال الحنطة والشعير تأخر انجازها لعدم الهواء الذي يذري به الفلاحون، فاكذب الله أحدوثة المنجمين وأخزاهم))[٤٨].

وتحدث عن مذنب بقي في عرض السماء مدة اربعين يوما، وقال: في العشرين من شهر شعبان سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م ظهر كوكب كبير في في السماء في الشرق له ذؤابة طويلة غليظة، وكان طلوعه وقت السحر، فبقي كذلك عشرة أيام، ثم انه ظهر اول الليل في الغرب مما يلي الشمال، فكان كل ليلة يتقدم الى جهة الجنوب نحو عشرة أذرع في رأي العين، فلم يزل يقرب من الجنوب حتى صار غرباً محضاً، ثم صار غرباً مائلا الى الجنوب، بعد أن كان ممايلي الشمال، فبقي كذلك الى شهر رمضان من السنة ثم غاب))[٤٩].

والطريف ان ابن الأثير يتحدث عن كوكب عظيم شوهد لعدة اسابيع مرات عديدة وباتجاهات مختلفة، ويبدو من وصفه وكأنه يتحدث عما سمي بالصحن الطائر الذي أثار اهتمام طائفة من علماء الفلك، وغيرهم، في العقود الأخيرة، اذ قال: في شوال من سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م ظهر كوكب عظيم له ذنب، من جانب المشرق، وبقي الى نصف ذي القعدة ثم غاب، ثم طلع من جانب الغرب، فقيل هو هو، وقيل بل غيره))[٥٠].

★ ★ ★

---

[٤٧] ن. م. ١١/ ٤٣٣.

[٤٨] ن. م. ٥٢٨/١١.

[٤٩] الكامل ٤١٢/١٢ وانظر ايضا ٤٥٧/١١ و ١٠٤/١٢.

[٥٠] ن. م. ١٠٣/١١.

ولم يفت مؤرخنا ان يتحدث عن الحرائق التي حدثت في تلك الفترة، الا انه اكتفى بذكر حرائق مدينة بغداد دون المدن الأخرى، ودون ذكر أسباب حدوثها، باستثناء الحريق الذي حصل في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م الذي وقع في ((الحظائر واحترقت أحطاب كثيرة، وسببه ان فقيها بالمدرسة النظامية كان يطبخ فغفل عن النار والطبيخ، فعلقت النار واتصلت الى الحظائر، فاحترقت جميعها، واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره))[٥١].

وحدث في عام ٥٥١هـ/١١٥٦م ان نشبت النار في مناطق واسعة من بغداد اذ قال: ((في هذه السنة احترقت بغداد، وكثر الحريق بها، واحترق درب فراشا، ودرب الدواب، ودرب اللبان، وخرابة ابن حربة والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب الازج وسوق السلطان وغير ذلك))[٥٢].

ولاشك ان هذا الحريق كان حريقا هائلا بحيث أتى على كل هذه الاماكن والاحياء، حتى شمل دار الخلافة نفسها. وهذا يعني ان الحرئق الى جانب حوادث الطبيعية واحوال المناخ والتخريب المتعمد، قد سببت في ازالة الكثير من معالم بغداد العباسية، على الرغم من محاولة اعادة بعض هذه المعالم فيما بعد، ولاريب ان الخسائر المادية والبشرية التي الحقت بعاصمة الخلافة جراء هذه الحوادث المؤسفة كانت كبيرة.

اما في حريق سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م فقد نشبت النار في ((سوق الطيوريين والدور التي تليه مقابلة الى سوق الصفر الجديد والخان الذي في الرحبة، ودكاكين البروزيين وغيرها))[٥٣].

وفي عام ٥٦٨هـ/١١٧٢م هبت النار في كلا جانبي بغداد ((من درب بهروز الى باب جامع القصر، ومن الجانب الاخر من حجر النحاس الى دار ام الخليفة[٥٤]. ويصف ابن

---

[٥١] ن. م. ٥٦٢/١١.
[٥٢] ن. م. ٢١٦/١١.
[٥٣] ن. م. ٢٨٨/١١.
[٥٤] ن. م. ٣٩٤/١١.

الاثير حريق سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م بانه ((حريق عظيم)) احرق عقد المصطنع والمربعة القريبة منه، ودكان ابن البخيل الهراس الذي كان ابتداء الحريق منه[٥٥].

هذا وحدث ان احترقت محلة الظفرية ببغداد مرة أخرى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م واحترق اكثر ما فيها، اضافة الى مواضع اخرى، ودام الحريق فيها الى اليوم التالي[٥٦].

ووقع حريق خطير عام ٦٠١هـ/١٢٠٤م في بغداد، وانتشر خبره في الاقاليم الاخرى، لانه أتى على خزانة سلاح الخليفة ((فاحترق فيها منه شيء كثير، وبقيت النار مشتعلة يومين)) فما كان من ملوك الاطراف الا وهبّوا يساعدون الخليفة فحملوا ((من السلاح الى بغداد شيئا كثيرا)) للتعويض عن الخسائر الفادحة التي وقعت في دار السلاح[٥٧].

ورصد ابن الاثير بقلمه مجموعة من الاحداث المتفرقة التي كان لها تأثيرها الاقتصادي الواضح، مثل هجوم أسراب الجراد، كما حصل في سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م وسبب في هلاك ((كثير من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر وكثير من الشام وغيرها))[٥٨] وكذلك ماحصل في العام التالي (٦٢١ هـ) حين هاجمت اسراب الجراد على الزرع وقضمته في اعقاب الموسم المار الذكر الذي شح فيه المطر ((وجاءت الغلات قليلة، ثم خرج عليها الجراد، ولم يكن في الارض من النبات مايشغل به عنها، فاكلها الا القليل، وكان (الجراد) كثيرا خارجا عن الحد، فغلت الاسعار في العراق والموصل وسائر ديار الجزيرة، وديار بكر وغيرها، وقلت الاقوات، الا ان اكثر الغلاء كان بالموصل وديار الجزيرة))[٥٩].

وتحدث عن انتشار الاوبئة في بعض الاقاليم، دون ذكر نوع الوباء، ففي سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م ((كثرت الامراض ببغداد وكثر الموت فجأة باصفهان وهمدان))[٦٠]. كما

---

[٥٥] ن. م. ١٢٠/١٢.
[٥٦] ن. م. ٤٠٩/١١.
[٥٧] ن. م. ٢٠٦/١٢.
[٥٨] ن. م. ٤١٨/١٢.
[٥٩] ن. م. ٤٢٤/١٢.
[٦٠] ن. م. ٥٩/١١.

انتشر وباء عظيم بمصر عام ٥٣٧هـ/١١٤٢م واهلك اكثر اهل البلاد))[٦١]. ووقع في سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م ((في بني عنزة بارض الشراة بين الحجاز واليمن وباء عظيم، وكانوا يسكنون في عشرين قرية، فوقع الوباء في ثماني عشرة قرية، فلم يبق منهم أحد، وكان الانسان اذا قرب من تلك القرى يموت ساعة ما يقاربها، فتحاماها الناس، وبقيت ابلهم واغنامهم لامانع لها، واما القريتان الاخريان فلم يمت فيهما أحد، ولا أحسوا بشيء مما كان فيه اولئك))[٦٢] نظرا لصعوبة نقل الاخبار في ذلك العصر، حتى بين قرى قريبة يعيش فيها أبناء قبيلة واحدة.

وكان مؤرخنا يتابع أخبار الغلاء في ارجاء العالم الاسلامي، ويبين ـ في بعض الاحيان ـ[٦٣] اسبابه، والاوضاع الاقتصادية السيئة التي تنجم عنه، واثر ذلك على الفئات الفقيرة، فقد ذكر ضمن أحداث سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٦ ـ ١١٣٧م انه حدث في خراسان ((غلاء شديد طالت مدته، وعظم امره، حتى اكل الناس الكلاب والسنارنير وغيرهما من الدواب، وتفرق اكثر أهل البلاد من الجوع))[٦٤]. الا انه لم يذكر سبب هذا الغلاء، في حين ذكر انه انقطع الغيث، طيلة شتاء سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م ببغداد والعراق، بحيث لم يسقط ((غير مرة واحدة في شهر آذار، ثم انقطع))، وأدى ذلك الى غلاء المحاصيل الزراعية حتى ((عدمت الاقوات بالعراق))[٦٥]. ويبد و ان اعتماد منطقة بغداد (والعراق بمفهومه الجغرافي الضيق يومئذ) على مياه الامطار كان كبيرا في الزراعة، بحيث أدى انقطاعها الى هذا الغلاء، ولعل ذلك كان لتعطيل بعض المشاريع الاروائية في المنطقة.

ويلاحظ ان تناول لحوم الحيوانات المحرمة ـ حسب روايات المؤرخ ـ كاد أن يغدو امرا طبيعيا في سني القحط، بل حدت ان أكل الناس لحم بعضهم، وهذا من

---

[٦١] ن. م. ٩٢/١١.

[٦٢] ن. م. ١٧٢/١٢.

[٦٣] يقول د. بدري محمد فهد: ان الغلاء في بعض السنين كان بسبب الفيضان وقلة الامطار وحدوث الجدب. في حين لم يذكر المؤرخون سبب حدوث الزيادة في الاسعار في بعض السنين. انظر كتابه (تأريخ العراق في العصر العباسي الاخير). ص ٣٧٩.

[٦٤] الكامل: ٦٦/١١.

[٦٥] ن. م. ٧٧/١١.

الاعاجيب ولاشك. ففي تونس (افريقية) اشتد الغلاء عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م ((ودامت أيامه، فان اوله كان سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م) وعظم الامر على أهل البلاد حتى اكل بعضهم بعضا، وقصد أهل البوادي المدن من الجوع، فاغلقها اهلها دونهم، وتبعه وباء وموت كثير، حتى خلت البلاد. وكان اهل البيت لايبقى منهم أحد)) واضطر كثير من الناس الى الهجرة الى جزيرة صقلية القريبة من تونس[٦٦].

وفي مصر حدث غلاء شديد، ليس بسبب انقطاع الغيث بل ((لعدم زيادة النيل)) كما حصل في موسم سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م حين ((تعذرت الاقوات حتى اكل الناس الميتة، واكل بعضهم بعضا، ثم لحقهم عليه وباء وموت كثير)) وافنى كثير من الناس[٦٧].

والواقع ان الظروف السياسية قد عمقت من تأثير المجاعة (وما للمجاعة ـ اساسا ـ من تأثير على تفاقم الوضع العام)، فتدهورت الاحوال، كما حدث في تونس في مجاعة سنة ٥٤٣هـ المذكورة، حين ملك الفرنجة مدينة المهدية التي كان يحكمها بنو صنهاجة يومئذ، وأدى ذلك الى سقوط الدولة الصنهاجية[٦٨].

او كما حصل في تلك السنة نفسها في بغداد حين هجم عليها الامراء السلاجقة ((ولما بلغوا حلوان خاف الناس، وغلت الاسعار)) ولم يستطع الخليفة المقتفي ولا عامة بغداد مقاومة هؤلاء الامراء الذين ((وضعوا السيف فيهم فقتل من العامة خلق كثير، ولم يبقوا على صغير ولا كبير، وفتكوا بهم، فاصيب أهل بغداد بما لم يصابوا بمثله))[٦٩].

وكذلك كان الغلاء في اكثر البلاد الاسلامية في خراسان وبلاد الجبل واصفهان وديار فارس والجزيرة والشام، اما المغرب فكان اشد غلاء بسبب انقطاع الغيث ودخول العدو اليها[٧٠] وكان الغلاء وحدوث المجاعة يؤثر في بعض السنين على انقطاع الناس عن اداء فريضة الحج، او عدم اكمال مراسيمه، اضافة الى ماتسببه ظاهرة

---

[٦٦] ن. م. ١٢٤/١١.
[٦٧] ن. م. ١٧/١٢.
[٦٨] ن. م. ١٢٥/١١.
[٦٩] ن. م. ١٣٢/١١.
[٧٠] ن. م. ١٣٧/١١.

الغلاء من انتشار الاوبئة وهلاك حيوانات الركوب. فقد ذكر ضمن حوادث ٥٥٩هـ/١١٦٤م انه ((وردت الاخبار ان الناس حجوا، ولقوا شدة، وانقطع منهم خلق كثير في ((فيد)) و ((الثعلبية)) و ((واقصة)) وغيرها، وهلك كثير، ولم يمض الحاج الى مدينة النبي (صلعم) لهذه الاسباب، ولشدة الغلاء فيها، وعدم ما يقتاتون عليه، ووقع الوباء في البادية، وهلك منهم عالم لايحصون، وهلكت مواشيهم، وكانت الاسعار بمكة غالية))[٧١].

وأُعتبرت سنة ٥٧٤هـ ١١٧٨م سنة ((الغلاء والوباء العام)) بسبب انقطاع المطر بصورة كلية في سائر البلاد الشامية والجزيرة والبلاد العراقية والدياربكرية والموصل وبلاد الجبل وخلاط، وغير ذلك، واشتد الغلاء)) وسبب في انتشار الامراض والابئة في أقطار الارض وتعذرت الاقوات، وأكلت الناس الميتة وما ناسبها، ودام الى آخر سنة ٥٧٥هـ، ثم تبعه وباء شديد عام ـ كالعادة ـ وكثر فيه الموت، وكان مرض الناس شيئا واحد وهو السرسام[٧٢]. وكان الناس لايلحقون يدفنون الموتى[٧٣].

ثم سقط المطر في اواسط الربيع، ورخصت الاسعار تدريجيا بعض الشيء. وهنا يحاول ابن الاثير ان يفسر سقوط المطر وكأنه حصل استجابة لشكوى وبكاء هذا الرجل الفقير الآتي ذكره. فقد روى المؤرخ مارآه حين قصد مع جماعة من أترابه رجلا من العلماء الصالحين ليسمع منه شيئا من حديث النبي (صلعم) و ((الناس في أشد ماكانوا غلاء وقنوطا من الامطار.. فبينما انا جالس.. اذ أقبل انسان تركماني قد أثر عليه الجوع، وكأنه قد أخرج من قبر، فبكى وشكى الجوع، فارسلت من يشتري له خبزا، فتأخر احضاره لعدمه، وهو يبكي ويتمرغ على الارض، فلم يبق فينا الا من بكى رحمة له وللناس، ففي الحال تغيمت السماء وجاءت نقط من المطر متفرقة فضج الناس واستغاثوا، ثم جاء الخبز، فأكل التركماني بعضه، وأخذ الباقي ومشى، واشتد المطر، ودام تلك الساعة))[٧٤].

---

[٧١] ن. م. ٣٢٠/١١.

[٧٢] لفظ كردي يعني بالعربية مرض الذهول.

[٧٣] الكامل ـ ٤٥١/١١ ـ ٤٥٢.

[٧٤] ن. م. ٤٥٢/١١.

هذا واذا كان الغلاء وما كان يعقبه من وباء قد عم مناطق شاسعة في تلك السنة، الا ان الملاحظ على مؤرخنا حصر اهتمامه في الاعوام القليلة الاخيرة بتعقيب أخبار الموصل والبقاع المحيطة بها، بصورة عامة، عكس ما كان يفعله سابقا، اضافة الى انه صار مولعا بذكر اسعار المواد بتفصيل احيانا، وكذلك صار يربط بين ظاهرة الغلاء وما يترتب عليها من ظواهر يومية من معايناته. فذكر ان الغلاء عم الموصل وديار الجزيرة سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ((فأكل الناس الميته والكلاب والسنانير، فقلت الكلاب والسنانير بعد ان كانت كثيرة)). ثم يقارن هذه الظاهرة مع ما كان يحصل في السنوات السابقة، فيقول: انه دخل ذات يوم الى داره فرأى الجواري يقطعن اللحم ليطبخنه، ((فرأيت سنانير استكثرتها فعددتها فكانت اثنى عشر سنورا)) ويقارن بين هذا المشهد وبين ما شاهده في ٦٢٢هـ ويقول: ((ورأيت اللحم في هذا الغلاء في الدار وليس عنده من يحفظه من السنانير لعدمها، وليس بين المرتين كثير))[٧٥]. اي ان الفقراء من الناس صاروا يتناولون لحم السنانير حتى اختفى هذا الحيوان من الموصل، ولم يعد يراقب اللحوم التي تقطعها الجواري في بيوت الاثرياء. ولا ندري لماذا حسب المؤرخ عدد السنانير في المرة السابقة، وهل كان يعلم ان غلاءا سيحصل وان السنانير ستختفي، وعليه ان يعدد سنانير بيته في سنة الرخاء فعددها ((فكانت اثنى عشر سنورا)).

وشمل الغلاء المواد الغذائية جميعها اذ ((غلا مع الطعام كل شيء فبيع رطل الشيرج ـ الذي عرفت الموصل بانتاجه دائما ـ بقيراطين[٧٦] بعد ان كان بنصف قيراط قبل الغلاء، واما قبل ذلك فكان ستين رطلا بدينار)). ويردف ابن الأثير قائلا: ومن العجب ان السلق والجزر والشلجم بيع كل خمسة ارطال بدرهم، وبيع البنفسج كل سته ارطال بدرهم، وبيع في بعض الأوقات كل سبعة ارطال بدرهم، وهذا ما لم يسمع بمثله (!) فان الدنيا ما زالت قديما وحديثا ـ حسب قوله ـ اذا غلت الاسعار، متى جاء المطر رخصت، الا هذه السنة، فان الامطار ما زالت متتبعة من اول الشتاء الى آخر الربيع، وكلما جاء المطر الاسعار، وهذا ما لم يسمع بمثله (!)، فبلغت الحنطة، مكوك وثلث بدينار وقيراط، يكون وزنه خمسة واربعين رطلا دقيقا

---

[٧٥] ن. م. ٤٤٧/١٢.

[٧٦] القيراط ـ ١٢/١ الدرهم (الدرهم يساوي ١٢ قيراط. المناوي ص ٣٥.

بالبغدادي، وكان الملح مكوك بدرهم، فصار المكوك بعشرة دراهم، وكان الارز، مكوك باثني عشر درهما، فصار المكوك بخمسين درهما، وكان التمر كل اربعة ارطال وخمسة ارطال بقيراط، فصار كل رطلين بقيراط[٧٧].

وبعد هذه التفاصيل الممتعة عن الاسعار، وما حصل من عجائب مما لم يسمع بمثله، يورد المؤرخ حالة عجيبة أخرى تعكس ما تتركه حالة الغلاء من مفاهيم جديدة غريبة يسخر منها المؤرخ ومن مروجيها، فيقول: ومن عجيب ما يحكى ان السكر النادر الاسمر كان كل رطل بدرهم وربع، وكان السكر الابلوج المصري النقي كل رطل بدرهمين، فصار السكر الاسمر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف والسكر الابلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع، وسببه ان الامراض لما كثرت واشتد الوباء، قالت النساء: هذه الامراض باردة والسكر الاسمر حار فينفع منها، والابلوج بارد يقويها، وتبعهن الأطباء استمالة لقلوبهن، ولجهلهن، فغلا الاسمر بهذا السبب، وهذا من الجهل المفرط، كما يقول.

والواقع ان ما حصل سنة ٦٢٢هـ من غلاء كان شديد الوطأة، وقد تحدثنا عن بعض مظاهره في مجال سابق، وما زال مؤرخنا يورد امثلة صارخة عنه، فيقول: ((وما زالت الاشياء هكذا الى اول الصيف، واشتد الوباء، وكثر الموت والمرض في الناس، فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى))[٧٨].

ولا يتحدث ابن الأثير عما حصل في السنة التالية في الموصل واطرافها، الا أنه يعود ليخبرنا عن موسم شحة لحم الغنم وغلاء ثمنه في سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م ((حتى بيع كل رطل لحم بالبغدادي بحبتين بالصنجة، وربما زاد في بعض الايام على هذا الثمن)) وكان مؤرخنا يجمع ملاحظاته اليومية ويسجل الظواهر التي يسببها ارتفاع أثمان اللحم فنجده يقول: ((حكى له من يتولى بيع الغنم بالموصل انهم باعوا يوما خروفا واحدا لا غير، وفي بعضها خمسة ارؤس، وفي بعضها ستة، وأقل واكثر، وهذا ما لم يسمع بمثله، ولا رأيناه في جميع اعمارنا، ولا حكى لنا مثله (!) لأن الربيع

---

[٧٧] الكامل ـ ٤٤٨/١٢.

[٧٨] ن. م. ص.

مظنة رخص اللحم بها... وكان اللحم كل سنة في هذا الفصل كل ستة ارطال وسبعة بقيراط، صار هذه السنة الرطل بحبتين[٧٩].

ولم يكن هذا الغلاء بسبب انقطاع الامطار فحسب، بل لسقوط الثلج في الايام الاخيرة من شتاء ذلك العام حين ((سقط الثلج بالموصل مرتين، وهذا غريب جدا، لم يسمع بمثله (!) فاهلك الازهار التي خرجت كزهر اللوز والمشمش والاجاص والسفرجل وغيرها)) من فواكه الموصل المعروفة. وكان مؤرخنا ينتظر ان تأتيه أخبار المناطق الاخرى، فجاءته لتقول: ما حصل في الموصل، حصل مثله في العراق، وأدى سقوط الثلج الى هلاك الازهار والأثمار[٨٠].

اما في ديار الجزيرة فقد دام الغلاء وارتفاع الاسعار لأن انقطاع الغيث قد استمر الى من اذار، فبلغت الحنطة كل مكوكين بدينار وقيراطين بالموصل، والشعير كل ثلاثة مكاكيك بالموصلي بدينار وقيراطين ايضا. ويختتم المؤرخ كلامه بقوله: ((وكل شيء بهذه السنة في الغلاء))[٨١].

ولم تكن الدولة تقف مكتوفة الأيدي دائما حيال ارتفاع الأسعار، بل كانت تمد السوق بالغلات الموجودة في خزائنها لمساعدة المعوزين في الحصول على القوت اليومي باثمان مناسبة. ففي حلب واعمالها ـ مثلا ـ وحين ((قلت الامطار بديار الجزيرة والشام، وغلت الاسعار بالبلاد أخرج الأتابك (شهاب الدين) والي الامر بحلب، والمرجع الى امره ونهيه (الوصي على ابن الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين يوسف) أخرج من المال والغلات كثيرا، وتصدق صدقات دارة، وساس البلاد سياسة حسنة بحيث لم يظهر للغلاء أثر، فجزاه الله خيرا))[٨٢].

ومقابل ظاهرة الغلاء المتكررة تحدث ذات مرة عن انخفاض اثمان الغلات في منطقة الجزيرة في أعقاب سنوات الجفاف وارتفاع الأسعار. فيقول ضمن حوادث سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م ان الاسعار رخصت ((بديار الجزيرة جميعها، وجاءت الغلات من الحنطة والشعير جيدا، الا ان الرخص لم يبلغ الأول الذي كان قبل الغلاء، انما

---

[٧٩] ن. م. ٤٧٣/١٢.
[٨٠] ن. م. ص ١٠.
[٨١] ن. م. ص.
[٨٢] ن. م. ٥٠٤/١٢.

صارت الحنطة كل خمسة مكاكيك بدينار، والشعير كل سبعة عشر مكوكا بالموصلي بدينار))[٨٣].

* * *

هذا ولا يفوتنا أن نشير الى بعض الحوادث الطريفة التي دونها، والتي جلبت انتباهه، على الرغم من ان قسما منها تعتبر حوادث لا أهمية لها في السياق العام، ومن هذه الحوادث كثرة الذئاب والخنازير والحيات في صيف عام ٦٢٢هـ (عام القحط) وبعده. ولعل ذلك حدث بسبب الجفاف وهجوم الجراد في اعقاب موسم الغلاء الذي حصل عام ٦٢١هـ وبعده، مما ادى الى ان تغادر هذه الحيوانات الغابات والجحور وتهاجم المدن القريبة عساها تحصل على ما تقيم به اودها، ويقول المؤرخ: بلغني ان ذئبا دخل الموصل فقتل فيها، وحدثني صديق لنا له بستان بظاهر ((أطراف)) الموصل انه قتل فيه في صيف سنة ٦٢٢هـ حيتين، وقتل السنة الى اول حزيران سبع حيات لكثرتها[٨٤].

ونقل عن المؤرخ البغدادي ابن الجوزي ((ان ديكا باض بيضة في بغداد وباض بازي بيضتين، وباضت نعامة لا ذكر معها بيضة[٨٥] ورأى في الموصل عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م خروفا ((ببطن واحد ورأسين ورقبتين وظهرين وثماني قوائم، كانهما خروفان ببطن واحد، وجه احدهما الى وجه الآخر، وهذا من العجائب))[٨٦].

وفي عام ٥٨٣هـ/١١٧٨م ولدت امرأة من سواد بغداد بنتا لها اسنان[٨٧] وحدث في بغداد سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م ان ولد طفل له رأسان[٨٨]، وكذلك ولدت امرأة في هذه المدينة سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م ولدا له رأسان واربع ارجل ويدان، ومات في يومه[٨٩]. ويضفي مؤرخنا تعابير المبالغة والدهشة على مسائل لم تكن مدهشة الى هذا الحد،

---

[٨٣] ن. م. ٤٨١/١٢.
[٨٤] ن. م. ٤٦٦/١٢.
[٨٥] الكامل: ١٧٥/١١ والمنتظم ١٤٦/١٠.
[٨٦] الكامل: ٤٤١/١١.
[٨٧] ن. م. ٥٦٣/١١.
[٨٨] ن. م. ١٧١/١٢.
[٨٩] ن. م. ٢٠٦/١٢.

فيقول: ان انسانا في الموصل ذبح غنما سنة ٦٢٣هـ ((فوجد لحمه مرا شديد المرارة حتى رأسه واكارعه ومعلاقه وجميع اجزائه، وهذا ما لم يسمع بمثله))[٩٠].

وهكذا صار ابن الأثير في سني حياته الاخيرة مغرما بجمع الأخبار الطريفة، والحوادث النادرة، فيتحدث في سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م عن ارنب خنثى، ثم يقارنه بالانسان الخنثى (!) ويذكر صديقا له اصطاد ارنبا فرآه وله ذكر وفرج انثى، ((فلما شقوا بطنها رأوا فيها حريفين)) ويردف قائلا: ((ما زلنا نسمع ان الارنب يكون سنة ذكرا وسنة انثى، ولانصدق ذلك، فلما رأينا هذا والا فيكون في الأرنب كالخنثى في بني آدم، يكون لأحدهم فرج الرجل وفرج الانثى، كما ان الارانب تحيض كما تحيض النساء، فاني كنت بالجزيرة، ولنا جار له بنت اسمها صفية، فبقيت كذلك نحو خمس عشرة سنة، واذا قد طلع له ذكر رجل، ونبتت لحيته، فكان له فرج امرأة وذكر رجل))[٩١].

ومن الحوادث الطريفة يسجل ما حصل من كثرة ((الفار ببلدة دجيل من اعمال بغداد، حتى كان الانسان لا يقدر ان يجلس الا ومعه عصا يرد الفأر عنه، وكان يرى الكثير منه ظاهرا يتبع بعضه بعضا))[٩٢] ورصد المؤرخ اخبار الحوادث المنكرة التي حصلت لا سيما في بغداد، واضطر حاجب الباب الخليفي ان يعين جماعة واجبهم ((اراقة الخمور، واخذ المفسدات، فبينما امرأة منهن في موضع، علمت بمجيء اصحاب حاجب الباب، فاضطجعت، واظهرت انها مريضة، وارتفع انينها، فرأوها على تلك الحال، فتركوها وانصرفوا، فاجتهدت بعدهم ان تقوم فلم تقدر، وجعلت تصيح: الكرب الكرب، الى أن ماتت، وهذا من اعجب ما يحكي))[٩٣].

ومن الاعاجيب التي استحقت اهتمام المؤرخ الكبير ((كانت اعجوبة بالقرب من الموصل، وكان فيها حامة (عين ماء ساخن) تعرف بعين القيارة، شديدة الحرارة، تسميها الناس عين ميمون، ويخرج مع الماء قليل من القار، فكان الناس يسبحون فيها دائما في الربيع والخريف، لأنها تنفع من الامراض الباردة كالفالج وغيره، نفعا

---

[٩٠] ن. م. ١٢/٤٦٧.
[٩١] ن. م. ص.
[٩٢] ن. م. ١٢/٣٣١.
[٩٣] ن. م.١٢/٤٧٦.

عظيما، فكان من يسبح فيها.. يجد الكرب الشديد من حرارة الماء، ففي هذه السنة برد الماء فيها، حتى كان السابح فيها يجد البرد، فتركوها وانتقلوا الى غيرها))[٩٤].

ومن جرائم القتل التي حصلت بكثرة في بغداد في تلك الفترة، كما يبدو، سجل مؤرخنا بعضا منها، لعل اطرفها مقتل شاب، بيد أحد أترابه وكان يجيد نظم الشعر، وحدثت الجريمة اثناء ما كانا يتعاشران وعمر كل واحد منهما يقارب عشرين سنة، فقال احدهما للآخر مازحا: الساعة اضربك بهذه السكين، واهوى نحوه بها، فدخلت في جوفه فمات، فهرب القاتل، ثم أخذ وأمر به ليقتل، فلما ارادوا قتله طلب دواة وورقة بيضاء وكتب فيها من قوله:

قدمت الى الكريم بغير زاد　　من الاعمال بالقلب السليم
وسوء الظن أن تعتدّ زادا　　اذا كان القدوم على كريم))[٩٥]

والحادث الثاني الجدير بالذكر: ان اعميين ببغداد قتلا اعمى ثالثا في احد المساجد طمعا في ماله، الا انهما لم يعثرا لديه على شيء يأخذانه، ثم ((ادركهما الصباح، وهربا من الخوف يريدان الموصل، ورؤى الرجل مقتولا)) ولم يعرف قاتله، وصادف ان بعضا من اصحاب الشحنة (الشرطة) وصلوا الى مكان الحادث ورأوا الجثة، فقال احد رجل الشحنة لصاحبه مازحا ـ وهو يشير الى الضريرين ـ: ((هؤلاء الذين قتلوا الاعمى)) فاضطرب الضريران وظنا ان امرهما قد انكشف، ولا مجال لهما لانكار ما ارتكباه، فرد احدهما على رجل الشحنة معلنا انه لم يقتله، واتهم صاحبه قائلا: ((هذا والله قتله)) فانبرى الضرير الآخر مدافعا عن نفسه قائلا: ((بل انت قتلته)). عندها تاكد لاصحاب الشحنة انهما القاتلان فعلا: ((فاخذوهما الى صاحب الباب، فأقرا، فقتل احدهما، وصلب الآخر على باب المسد الذي قتلا فيه الرجل))[٩٦].

---

[٩٤] ن. م. ٤٦٦/١٢.
[٩٥] ن. م. ٢٥٧/١٢.
[٩٦] ن. م. ٢٠٧/١٢.

المصادر

(١) ابن الاثير، ابو الحسن عزالدين علي بن ابي الكرم محمد الجزري الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) الكامل في التاريخ. طبعة دار صادر.. دار بيروت. لبنان (١٣٨١هـ ١٩٦٦م) جـ ١١ و ١٢.

(٢) ابن الجوزي، ابو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) المنتظم في تاريخ الملوك والامم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) جـ ١٠.

(٣) المناوي، محمد عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي (ت ١٠٣١ هـ/١٦٢٢م) النقود والمكاييل والموازين. تحقيق د. رجاء محمود السامرائي.
منشورات وزارة الثقافة والاعلام. بغداد. سلسلة كتب التراث (١٠٧) دار الحرية ١٩٨١.

(٤) د. احمد سوسة: فيضانات بغداد في التاريخ. القسم الاول. مطبعة الاديب البغدادية. بغداد ١٩٦٣.

(٥) د. بدري محمد فهد: تاريخ العرق في العصر العباسي الاخير (٥٥٢ ـ ٦٥٦هـ/١١٥٧ ـ ١٢٥٨م) مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٩٧٣.

(٦) فريمان ـ جرنفيل: التقويمان الهجري والميلادي. ترجمه عن الانكليزية د. حسام محي الدين الآلوسي مطبوعات وزارة الثقافة والاعلام. بغداد. مطبعة الجمهورية ١٣٨٩ هـ – ١٩٧٠م.

(٧) د. فيصل السامر: مقال (ملاحظات في الاوزان والمكاييل الاسلامية وأهميتها) مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد. مطبعة المعارف ١٩٧١.

(٨) د. مصطفى جواد و د. أحمد سوسه: دليل خارطة بغداد المفصل. مطبوعات المجمع العلمي العراقي. بغداد ١٩٥٨.

(٩) د. مصطفى جواد و د. احمد سوسه و د. محمد مكية و د. ناجي معروف. د. دليل خارطة بغداد. طبعة مؤسسة كولبنكيان: ١٩٧٠.

(١٠) د. ناجية عبدالله ابراهيم: ريف بغداد. دراسة تاريخية لتنظيماته الادارية واحواله الاقتصادية في الفترة مابين ٥٧٥ ـ ٦٥٦هـ/١١٧٩ ـ ١٢٥٨م. اطروحة دكتوراه. مطبوعة على الآلة الكاتبة (الرونيو) بغداد ١٩٨١.

(١١) حسام الدين علي غالب النقشبندي: الكرد في الدينور وشهرزور خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين. اطروحة ماجستير. مطبوعة على الآلة الكاتبة. بغداد ١٩٧٥.

اضواء جديدة على نواب (زين الدين علي) في أربيل[*]

المقدمة:

كانت تواريخ المدن ـ عبر الزمان ـ من المواضيع التي استرعت اهتمام المؤرخين، ولم يكن المؤرخون المسلمون قاصرين في هذا الصدد ان لم يكونوا بالعكس. فقد ظهرت بينهم نخبة ممن كتبوا عن تواريخ مدنهم بطريقة أو اخرى، مثل تاريخ مدينة بغداد ودمشق والموصل و (مصر والقاهرة) وحلب ومكة والكوفة والواسط وبخاري وحران، ومدن عربية واسلامية اخرى[1].

وقد ظهرت هذا التواريخ حين صارت هذه المدن تتبوأ مكانة مرموقة، على الرغم من ان هذه المكانة لم تستمر سوى بعض العشرات من السنين بالنسبة لبعض المدن، وهذا ما ينسحب على (اربل ـ اربيل) حين صنف أحد ابنائها (شرف الدين ابو البركات المبارك بن أحمد) المعروف بـ(ابن المستوفي الاربلي) المتوفى سنة (٦٣٧هـ/ ١١٣٩م) كتابه الموسوم (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الاماثل ـ في تأريخ اربل) حين غدت هذه المدينة مركزاً لاحدى الامارات في الفترة التي يطلق عليها المؤرخون اسم "الفترة الاتابكية[2]"، وغدت قاعدة بلاد شهرزور[3]، منذ أن انتهى حكم الاسرة الهذبانية[4] في هذه المدينة.

---

[*] نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي ـ الهيئة الكردية ـ المجلد (١١) بغداد/ ١٩٨٤.

[1] عن تواريخ المدن ودوافع ظهورها انظرمقدمت كتاب (ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد) للحافظ ابن الدبيثي، للمحقق الدكتور بشار عواد معروف، ص ـ ١٢.

[2] انظر كلود كاهين، مادة "أتابك" في "دائرة المعارف الاسلامية" ط ١٩٦٩ ج٢ ص ٤٦.

Lane _ Poole, Saladin, p. 15.

[3] أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤١٣.

القلقشندي، صبح الاعشى، ٤/ ٣٦٦.

[4] الهذبانية: قبيلة كبيرة من الاكراد. وفيات الاعيان ط ١٩٤٨ القاهرة، جـ ٦ ص ١٣٩. وهذه القبيلة التي حكمت اربيل ينتسب اليها الايوبيون (اسرة صلاح الدين وشيركو) الذين كانوا من الرواداية احدى

البحث

لا نريد الدخول في تفاصيل الفترة المبكرة في تاريخ اربيل، وتفاصيل القضاء على الحكم الهذباني فيها، وضمها الى امارة الموصل الزنكية (الاتابكية)[٥] في العقد الثالث من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). ولكن يجدر القول ان مؤسس اتابكية الموصل (عماد الدين زنكي ابن قسيم الدولة اقسنقر) سلم أمر اربيل بعد فتحها الى قرينه وأحد مماليك والده الامير زين الدين على بن بكتكين بن محمد الذي تبوأ منصب قائد جيش الموصل ودزدارية قلعتها.

وحين عجز زين الدين علي عن مواصلة العمل بسبب شيخوخته واصابته بالعمى والطرش، بعد ان بلغ من العمر عتيا[٧]، وبعد أن قدم خدمات جليلة الى الدولة الاتابكية في الموصل طيلة اكثر من نصف قرن، استأذن قطب الدين مودود (أتابك الموصل ٥٤٤ ـ ٥٦٥هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٦٩م) ابن عماد الدين زنكي، وطلب منه السماح له بمغادرة الموصل، متخلياً عن كافة ممتلكاته المذكورة، مكتفياً باربيل التي كان يعتز بها لكونها قد أقطعها اياه الاتابك عماد الدين زنكي[٨]، وقد وضع فيها اولاده وخزائنه[٩].

الا انه لم ينعم بالحياة في مدينة اربيل، فمات بعد أشهر من وصوله اليها، وذلك في أواخر سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م، ودفن في التربة التي عرفت باسمه ـ يومئذ ـ والتي كانت تجاورالجامع العتيق داخل سور المدينة، على حد قول المؤرخ الاربيلي ابي

بطون القبيلة الهذبانية. انظر اين واصل، مفرج الكروب ٣/١. والمقريزي في كتابه السلوك جـ١ ق١ ص ٤٢ والخطط ٢/ ٢٣٣).

[٥] للمزيد انظر الى كتابنا (اربيل في العهد الاتابكي) ص٣٥ ـ ٣٨، ٣٩ ـ ٤٢.

[٦] معجم البلدان ٤٢/ ١٤٩.

[٧] يقول ابن خلكان انه جاوز مائه سنة. وفيات الأعيان ط القاهرة ١٩٤٨، ٣/ ٢٧٠ وأنظر الذهبي، العبر، ٤/ ١٨٢.

[٨] ابن العبري. The Chronography.., V. l. p. 292.

[٩] الكامل ٣٣١/١١. ابن واصل، مفرج الكروب: ١٥٤/١.
ابن العبري، تاريخ مختصر الدول: ص٢١٢.
ابن الفرت، مجلد ٤ حـ ١ ص ١٤.

خلكان[١٠]، والتي تعرف ـ في الوقت الحاضر ـ باسم ابنه (قبر السلطان مظفر)[١١]. وهذا يعني أن زين الدين علي صاحب اربيل لم يسكن في هذه المدينة منذ أن امتتلكها قبل حوالي اربعين سنة من وفاته، الا الأشهر الاخيرة من عمر. وفي غضون هذه الفترة الطويلة (التي امتدت من سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨، او ٥٢٦ هـ/ ١١١٣م[١٢] الى سنة وفاته) كان يعين بعض مماليكه نواباً يتولون ادارة شؤون اربيل نيابة عنه.

والواقع ان الحصول على معلومات متسلسلة دون عناء، عن تواريخ تولى نواب زين الدين علي لمهامهم يعد أمرا غير يسير. وليس ثمة اشارة الى وجود نائب سبق (سرفكتين بن عبدالله الزيني)، ويحتمل ان يكون هذا أول من عينه صاحب اربيل نائباً عنه في حكم هذه المدينة، بل اننا لم نعثر ـ لحد الان ـ حتى بالنسبة لهذا النائب ـ على مايشير الى بداية تعيينه، والمعلومات لاتزال شحيحة، فلم يتحدث عنه احد من المؤرخين المعاصرين له سوى (ابن الشعار)[١٣] الذي اشار الى (سرفكتين) والى نائبه (الحسين بن كرجي بن هارون الاربلي) اشارة متواضعة لاتفي بالغرض[١٤]. يقول ابن الشعار: كان هارون من اولاد الأمراء الأجناد، وذوى العُرّة والعتاد. وكان ابوه ـ رحمه الله – وأدركتهُ، من المشهورين باربل في زمن الحاجب أبي منصور

---

[١٠] وفيات الاعيان، ط القاهرة ٣/ ٢٧٠.

[١١] عالجنا موضوع القبر المنسوب الى مظفر الدين گوگبورى الذي ليس الاقبر (زين الدين علي) والد گوگبورى، في مقالنا "مدفن السلطان مظفر الدين بين الحقيقة والوهم" المنشور في مجلة "كاروان ـ المسيرة" التي تصدرها الامانة العامة لادارة الثقافةوالشباب في اربيل – العدد ١ ـ تشرين الاول ١٩٨٢ ص٧٧ ـ ٨١.

[١٢] عن هذه الاختلاف في سنة فتح أربيل وضمها الى امارة الموصل الاتابكية، ومنحها الى الامير زين الدين علي انظر الى كتابنا (اربيل في العهد الاتابكي) ص ٣٨ ـ ٤٠.

[١٣] ابن الشعار، كتابه مخگوگ "عقود الجمان فى شعراو هژا الزمان"، ونرجو ان يتم تحقيق هژا الكتاب اليمين، ففيه معلومات هامه عن تاريخ هژه الفتره ورجالها.
والمخگوگ يقع فى پمانيه اجزاو فى مكتبه (اسعد أفندى) باستانبول، اچافه الى جزئين منه ما يزالان مفقودين، وقد استفدنا من نسخ الدكتور بشار عواد معروف المصوره بالمايكروفيلم، مشكورا.
"وقد تم گبع الّجزاو كافه فى دار الكتب العلميه ـ بيروت، سنه ٢٠٠٥، بتحقيق الاستاژ كامل سلمان الجبورى، فشكراُ له، ونقوم حالياً باجراو دراسه بگلب من لجنه الوپائق والمخگوگات، فى الاكاديميه الكرديه ـ اربيل، لما فى الكتاب من معلومات حول تاريخ اربيل والكرد.

[١٤] عقود الجمان جـ ٩ ص: ١٨٢. ترجمه هارون الامير الحسين بن كرجى الاربلى.

سرفتكين إبن عبدالله – متولّيها ـ يقوم مقامه اذا غاب عنها ـ عن المدينة ـ ولا يتخلّف عنه إذا عاد اليها".

اذن، وحسب رواية ابن الشعار، كان لسرفتكين بن عبدالله نائب يتولى أمور اربيل لدى غيابه.

أما المؤرخون الاخرون الذين تحدثوا عن (سرفتكين) فلم يكونوا معاصرين له، ولعل ابرزهم وأقربهم اليه، والى عصره هو ابن خلكان الذي ولد في اربيل بعد وفاة سرفتكين بنصف قرن، وتحدث عن هذا الوالي، وذلك في ذيل ترجمة الخضر بن نصر الاربلي[١٥]، وتحدث عنه "الصفدي" (النصف الثاني من القرن الثامن الهجري)[١٦]. وهذا يعني أن مؤرخي الحوادث لم يتحدثوا عن هذا الحكم، بينهم (ابن الاثير) الذي أولى اربيل اهتماماً جيداً في تلك الفترة (فترة النصف الثاني من القرن السادس والعقود الثلاثة الاولى من القرن السابع الهجري) التي عايشها ودوّن أحداثها بوعي، الا ان اكثر المعلومات التي ذكرها تتعلق بفعاليات زين الدين علي، وبفترة حكم ابنيه، لا سيما مظفر الدين گوگبوري، وحوادث الصراع والمصادمات بين صاحب اربيل هذا وأصحاب الموصل من آل زنكي وبدر الدين لؤلؤ.

وأبرز عمل قام به (سرفتكين بن عبدالله) على نطاق اربيل، حسب ما يذكره ابن خلكان، انه شيد أول مدرسة في هذه المدينة في العهد الاتابكي، سنة ٣٣٥ هـ/ ١١٣٨م، تلك التي سميت بمدرسة القلعة، او مدرسة الخضر بن نصر ابن عقيل المذكور، المتوفي سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م. وقد ذكرنا هذه المدرسة هنا لعلاقتها بتاريخ تولي (عزالدين الياس بن عبدالله) حكم هذه الامارة، كما سنرى بعد قليل.

توفي سرفتكين في أربيل سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤م، اي قبل وفاة زين الدين علي باربع سنوات، فولى الاخير مكانه عتيقه ومربي اولاده (مجاهد الدين قايماز بن عبدالله الزيني) الذي ظل يحكم اربيل حتى بعد وفاة صاحباربيل زين الدين علي، على الرغم من ان هذا الصاحب كان له أولادهم (مظفر الدين گوگبوري) و (زين الدين

---

[١٥] وفيات الاعيان گ بيروت، ٢/ ٢٣٩.

[١٦] مخگوگ (الوافى بالوفيات) جـ ٨ ورقه ١٨.

يوسف ينالتگين)[١٧] اللذان حكما اربيل، كما هو معروف، وابن ثالث مغمورهو (آق بوري ـ الذئب الأشهب)[١٨].

اضطلع (مجاهدالدين قايماز) بدور بارز ـ ضمن نواب زين الدين علي ـ على الرغم من حراجة وقصرالفترة التي قضاها في حكم اربيل، والتي دامت قرابة اثنتي عشرة سنة (٥٥٩ – ٥٧١ هـ/ ١١٦٣ ـ ١١٧٦م)، انتهت باستدعائه الى الموصل ليتولى أمرة قلعتها، ويكون نائباً للاتابك سيف الدين غازي (الثاني) فيها.

والأمر مع هذا النائب المملوك لايختلف كثيراً عن سابقه في شحة معلوماتنا عنه. أما حراجة الفترة فتكمن في الصراع الذي دار بين مجاهد الدين قايماز من جهة، وبين مظفر الدين گوگبوري أكبر أولاد زين الدين علي، الذي أراد أن يتولى الحكم الفعلي خلفاً لوالده، صاحب اربيل الحقيقي، من جهة اخرى. يذكر المؤرخ ابن الاثيران حكم اربيل (في أعقاب وفاة زين الدين الوالد) كان "لمظفرالدين گوگبوري اسماً لا معنى تحته، ولمجاهد الدين قايماز صورة ومعنى"[١٩].

---

[١٧] ينفرد العماد الكاتب الاصفهاني – المؤرخ المعاصر– بين كل المؤرخين بتسمية هذا الامير بلفظ (ينالتگين) التركي. انظر (الفتح القسي. ط ليدن. (ص ٢٩٨) يقول براون Browne: واضح ان الاسم الذي نهايته (تگين) مثل (البتگين، سبكتگين، اتمتگين... الخ) اسم تركي. انظر ص ١٠٨ – ١٠٩ من المقالة الاولى في كتاب (جهار مقالة – المقالات الاربع) للنظام العروضي السمر قندي. وكان اسم والد زين الدين علي (بكتگين). أما (سرفتگين) فكان أرمنيا ثم اسلم.

[١٨] لا نعرف عن (آق بوري) شيئاً سوى انه له ولدان عرفا بنظم الشعر، احدهما الامير الشاعر (عيسى بن آقبوري بن زين الدين علي)الذي عاش في كنف عمه مظفرالدين گوگبورى (ابن الشعار ـ عقود الجمان ٥/ ٢٣٨) والثاني (موسى بن آق بوري) الذي يقول عنه (ابن الفوطي ـ مجمع الاداب ق ٤ جـ ٤ ص ٧٢٥) انه كان شاعراً جواداً. ويبدو ان (آق بوري) مات في وقت مبكر من حياته، أو انه لم يدخل في الصراع الذي ذر قرنه في اربيل، بين الاخوين، گوگبورى وينالتگين حول كرسي الحكم، والذي انتهى بتولي يوسف ينالتكين ـ الابن الاصغر لزين الدين علي، وأبعاد مظفر الدين گوگبورى عن الحكم وعن اربيل. وما يؤكد وفاة (آق بورى) في وقت مبكر قول ابن الاثير نقلاً عن العماد في كتابه (البرق الشامي) ان مظفرالدين گوگبورى حين مات أخوه (يوسف ينالتكين) سنة ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠م، لم يكن له اخ غير هذا المتوفى (الكامل ٥٦/١٢) الا ان (آق بوري) أو غيره من اولاد زين الدين علي، كان موجوداً ـ حياً ـ لدى وفاة ابيهم، اذا يقول ابن الاثير نفسه: لما مات زين الدين علي (سنة ٥٦٣ هـ) بقي هو ـ أي مجاهدالدين قايماز – الذي سنتحدث عنه بعد قليل ـ الحاكم فيها، (في اربيل) ومعه من يختاره من "اولاد" زين الدين، ليس لواحد منهم معه حكم، الكامل: ١٥٣/١٢.

(١٩) الباهر: ١٧٧.

ويبدو أن هذا الصراع قد حصل لأن قايماز رأى ان من غيرالصواب تسليم شؤون اربيل الى حاكم قاصر، اذ لم يكن مظفرالدين قد جاوز اربع عشرة سنة لدى وفاة والده[٢٠]. وليس من الضروري ـ هنا ـ ان ندخل في تفاصيل ما حصل بين الطرفين، الا أنه انتهى بطرد مظفر الدين من اربيل[٢١]، وتولى زين الدين يوسف الحكم تحت اشراف اتابكه مجاهدين قايماز.

وما يهمنا هنا هو الحديث عن حكم ولاة زين الدين علي لاربيل، قبل تولي ولديه، والواقع ان كتاب (ابن المستوفي) المذكور، على الرغم من ان الأجزاء الثلاثة الاخرى لاتزال في عداد الكتب المفقودة، قد فتح مجالا لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع. الا ان الكتاب ليس كتاب تاريخ، بالمعنى المتداول، بل انه كتاب لتراجم الاربيليين، أو الذين زاروا اربيل الى ذلك العهد. لهذاوجدنا صعوبة جمة في استنباط الحقائق التاريخية المتسلسلة من هذا الكتاب. فقد انفرد ابن المستوفي بذكر اسم (عزالدين الياس بن عبدالله) ضمن من تولى الحكم اربيل، الى جانبالنائبين المذكورين (سرفتكين وقايمان)، الا ان هذا المؤرخ لايذكر متى تولى (الياس) حكم اربيل، ومتى توفي، بل ان الدكتور سامي السيد خميس الصفار ـ محقق الكتاب ـ يعلن بانه لم يهتد "الى تحقيق شخصية وتاريخ تولى الياس بن عبدالله الحكم في اربل"[٢٢].

وقبل الخوض في غمار تحديد هذه الفترة، نحاول ان نلقي بعض الضوءعلى خلفيات هؤلاء النواب. وكما يبدو من اسمائهم، ومن روايات مؤرخي زمانهم، فقد كانوا من العناصر المجلوبة من الخارج فـ"سرفتكين" كان ارمنبياً ثم اسلم، واعتقه سيده زين الدين علي، ورباه تربية اسلامية صحيحة، كما يقول ابن خلكان. وهذه الصفة تنطبق على (قايماز) ايضاً الذي ينسبه المؤرخون الى بلاد الروم، فيسمى (الرومي)[٢٣]، على الرغم من ان ابن خلكان يقول انه كان من بلاد (سجستان)[٢٤] ولعل هذا وهم منه[٢٥].

---

(٢٠) وفيات الاعيان، ط القاهرة، ٣/ ٢٧١.

(٢١) انظرمقالنا: مظفرالدين گوگبورى حين طرد من اربيل. مجلة المجمع العلمي العراقي، الهيئة الكردية. المجلد السابع ١٩٨٠. وكتابنا (اربيل في العهد الاتابكي): ص ٦٣ – ٦٥.

(٢٢) تاريخ اربل جـ ٢ ق ٢ ص٧٦هامش ١٢.

(٢٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٢١/١٣.

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦/ ١٤٤.

(٢٤) وفيات الاعيان ط بيروت ٢/ ٢٣٩.

لقد اخذ قايماز من بلاده صغيراً، وصار في عهدة زين الدين علي ومن ممالكه، وتربى تحت رعايته، ولما كبر وتوسم فيه مخايل النجابة والذكاء ـ على حد تعبير ابن الأثيروغيره– اعتقه زين الدين علي وجعله اتابك اولاده في اربيل[٢٦].

اما (الياس بن عبدالله) فلا نعرف عن اصله اي شيء، كما ان ابن المستوفي ـ وهو اربيلي عريق ـ لا يذكر مع اسمه اية صفة تنم عن موقعه الاجتماعي قبل توليه حكم اربيل، عكس ما يفعله مع (سرفتكين) الذي يصفه بـ(الحاجب)[٢٧]. في حين يوصف (قايماز) بالخادم[٢٨]، ثم ينسب الى زين الدين علي "الزيني"[٢٩]، لانه كان عتيقه، وكذا ينسب (سرفتكين)[٣٠]. الا ان ابن المستوفي يصف (الياس) بين نواب زين الدين علي بـ"متولي اربل"[٣١].

والملاحظ على هؤلاءالثلاثة ان المؤرخين ينسبونهم الى اسم اب واحد هو "عبدالله" فـ"سرفتكين بن عبدالله" و "قايماز بن عبدالله" و "الياس بن عبدالله" ولعل هذايجعلنا نرجح ان المتولي الثالث (الياس) كان من اب غير مسلم ايضاً، على غرار المتوليين السابقين، ثم دخل الاسلام واعتقه صاحبه، فصار ابن (عبدالله)، دون ذكر اسم ابيه الحقيقي.

هذاوالذي اوقعنافي حيرة اكثر، هو ابن الأثير، ليس في سكوته عن سرد الاحداث، وعدم تطرقه الى حكم هذا المتولي، فقد سكت عن سرد الاحداث الخاصة

وسجستان ناحية كبيرة وولاية واسعة بينها وبين هراة عشرة ايام، تعرف اليوم باسم سيستان، ثمانون فرسخاً. ياقوت: معجم البلدان، ٣/ ١٩٠.

[٢٥] انظر ط بيروت من وفيات الاعيان جـ ٤ ص٨٢ هامش ٢.

[٢٦] الكامل: ١١/ ٣٣١. وانظر ابن العبري، تاريخ مختصرالدول: ٢١٢.

وفيات الاعيان ط ١٩٤٨، ٣/ ٢٤٦، وابن الفرات مجلد ٤ جـ ١ : ١٤.

[٢٧] تاريخ اربل ص: ٢٦٤.

[٢٨] تاريخ اربل ص: ٦٣، ٢٣٩.

وفيات الاعيان: ٣/ ٢٤٦ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ق ١ جـ ٨ ص ٣٣٥ و ٣٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٦/ ١٤٤.

[٢٩] تأريخ اربل، ص ٦٣، ٧٦. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٣/ ٣٤٦، ابن الفرات مجلد ٤ جـ ٢ ص١٦٨.

[٣٠] تأريخ إربل، ص ٣٥٢.

[٣١] ن. م. ق م ص: ١٧٣، ن ١ ص ٣٦٦.

بـ"سرفتكين" كذلك. وليس لسكوته في موضوع حكم هذه المدينة في اعقاب وفاة زين الدين علي. بل ان هذا المؤرخ الكبير اوقعنا في حيرة فيما يتعلق بحكم هذه المدينة في اعقاب استدعاء مجاهدالدين قايماز الى الموصل اولاً، ثم حين القى الاتابك عزالدين مسعود القبض على مجاهدالدين قايماز ثانياً.

ففي الموضوع الاول (استدعاء قايماز) الذي تم في سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٦م في عهد أتابك الموصل سيف الدين غازي (الثاني)، وتعيينه دزداراً "محتفظاً" لقلعة الموصل، قال ابن الأثير: ان مجاهد الدين "كان بيده مدينة اربل واعمالها، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين علي ولقبه ايضاً زين الدين (يقصد يوسف ينالتگين) وكان البلد لولد زين الدين (علي كوچك) اسماً لامعنى تحته، ولمجاهدالدين صورةومعنى"[٣٢].

لكن ابن الأثيرلم يقل ماذاحصل في اربيل بعد ذهاب قايماز الى الموصل، ولامن تولى الحكم فيها، وهل عهدت مهمة الاشراف على الحكم الى شخص ما، والمفروض ان يحصل هذا لصغر سن زين الدين يوسف، لكن من كان هذاالشخص؟

ثم ننتقل الى سنة ٥٧٩ هـ/ ١١٨٢م لنرى ان اتابك الموصل التالي عزالدين مسعود قد القى القبض على مجاد الدين قايماز. عندها ينبري ابن الأثير ليقول: "فحين قبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين علي باربل، وكان فيها لا حكم له مع مجاهدالدين"[٣٣]. وهذا يعني ان مجاهدالدين قايماز رغم ابعاده عن اربيل سنة ٥٧١ هـ ظل يوجه سياستها واستمرار تبعيتها الى الموصل، الا ان الوضع تغير في سنة ٥٧٩ هـ فرأي زين الدين يوسف ان عليه ان يتصرف لا سيما وانه شب عن الطوق، ولم يعد بحاجة الى اتابك يوجهه، حتى انه تمرد ليس على مجاهد الدين قايماز ـ السجين ـ بل اعلن انه في حل عن الارتباط بالموصل، فصار "اضرشيء على صاحبالموصل"[٣٤]. ثم ارسل الى السلطان صلاح الدين الايوبي يخبره بما أقدم عليه، ويعلن دخول امارة اربل في طاعته[٣٥].

---

[٣٢] أبن الاثير، الباهر: ١٧٧.

[٣٣] ن. م. ضص: ١٨٣.

[٣٤] ابن الاثير، الكامل: ١١/ ٥٠٠.

[٣٥] ن. م. ص.

والامر المحير الاخير في اقوال هذا المؤرخ هو روايته الفريدة التي ذكرهابمناسبة وفاة زين الدين يوسف في ارض فلسطين سنة ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠م[٣٦]، اذ قال: "لما مات زين الدين (يوسف) كاتب من كان باربل مجاهد الدين قايماز لهواهم فيه "[٣٧]. الا ان قايماز رفض العودة الى هذه المدينة "فجاء مظفر الدين (گوگبوري) اليها، وملكها، وبقي غصة في حلق البيت الاتابكي (فيالموصل) لايقدرون على اساغتها"[٣٨].

اذن ـ وحسب روايات ابن الاثير ـ لم يكن ثمة من يحكم اربيل، منذ أن توفي سرفتكين الزيني سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣م، والى أن عاد مظفر الدين گوگبوري اليها سنة ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠م سوى مجاهدالدين قايماز، الى ان استدعي الى الموصل ، عندها بدأ يحكمها زين الدين يوسف حتى وفاته، ثم عاد گوگبوري ليبدأ عهده الزاهر.

فمتى تولى عزالدين الياس ين عبدالله حكم اربيل؟

الواقع انه لولا روايات مؤرخ اربيل (ابن المستوفي) المبتورة، ولولا العثور على هذا الجزء الثاني من كتابه، لما كان بوسعنا ان نضيف شيئاً، ولا ستمر التسلسل الذي اورده ابن الاثير دون ان ننتبه الى وجود متول ثالث لاربيل في العهد الاتابكي (من غير اولاد زين الدين علي المذكورين). الا ان مؤرخ اربيل لم يحدد لنا الفترة التي تولى خلالها الياس الحكم، وهذا ما جعلنا نقوم بعملية الكشف عن هذه المسألة قدر الامكان، لكننا نبقي لانعرف الكثيرعن شخصيته.

ونقول: ان من المرجح ان يكون الياس بن عبدالله قد تولى حكم اربيل اثر استدعاء مجاهدالدين قايماز، ليحكمها بدلاعنه، ويتولى أمر زين الدين يوسف القاصر فيها. اما كيف نثبت انه لم يتول أمر اربيل قبل هذا التاريخ؟ فنقول: ان ابن المستوفي يذكرفي ترجمة (احمد بن محمد بن نوري المرندي) انه "ورد اربل... ونزل بالمدرسة التي تحدثنا عنه، وقلنا انها شيدت في عهد سرفتكين سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨م، والمعروف ان هذا النائب مات سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣م، كما ذكرنا، وتولى

---

[٣٦] الكامل ٥٦/١٢ العماد الكاتب الاصفهاني ط القاهرة ١٩٦٥ ص٤٣٨.

ابن شداد، النوادر: ١٤٤.

[٣٧] الكامل: ١٢/ ٥٦.

[٣٨] ن. م. ص.

[٣٩] تاريخ اربل، جـ ٢ ق ١ ص: ٣٦٦.

امراربيل بعده مباشرة مجاهدالدين قايماز الذي ظل يحكم المدينة بعد وفاة زين الدين علي سنة ٥٦٣ هـ/ ١١٦٨م والى ان استدعي الى الموصل في التاريخ الآنف.

والذي يدعم هذا الترجيح ان احد الشعراء الاربيليين "جبريل بن محمد بن منعة بن ملك" المتوفي سنة ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣م كان قد وضع قصيدة يمتدح فيها مجاهدالدين قايماز، ثم غير القصيدة لتكون في مدح الياس بن عبدالله، ويقول ابن المستوفي: "كان بخطه اولا (كف قايمان) والذي يتفاصح يدعوه (قايمان) فكأن لم يصح له الوزن، فقال قامان"[٤٠]، والقصيدة:

لا علىَ الا علىَ يكتبها
لُهْدُمُ اللَدْن[٤١] وحدُّ الهِندواني
وندىً الاّ ندىً تسكُبه
كفُ "الياس" على مرِّ الزمانِ
ماجدٌ نجدته كافيةٌ
في الوغى قَبْلُ تَراءى الفئتان[٤٢]

أي ان الشاعر كان قد وضع قصيدته ـ في الاصل ـ في مدح قايماز، وحين ذهب هذا الى الموصل، وحل محله المتولى الجديد (الياس بن عبدالله) رأي ـ الشاعر ـ ان من الافضل تحويل القصيدة لتكون في مدح الجديد، وهذايعني ان حكم الياس اعقب حكم قايماز. ونرى ان ليس ثمة ما يدحض هذا الترجيح.

اما الجوانب الاخرى من شخصية الياس، او المنشآت التي شيدت في اربيل في عهده فلا نعرفعنها اي شيء، ربما الى أن يتم العثور على أجزاء كتاب (ابن المستوفي) الاخرى، او يتم الكشف عن معلومات جديدة في بطون كتب اخرى، في المستتقبل.

---

[٤٠] ن. م. ص: ٧٥.

[٤١] لهذم اللدن: سن الرمح

[٤٢] ن. م. ص: ٧٨.

المصادر:

ابن الأثير، ابو الحسن عزالدين علي ابي الكرم محمد الجزري (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م).

(١)التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل. تحقيق د. عبدالقادر احمد طليمات، طبعة دارالكتب الحديثة– القاهرة ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣.

(٢)الكامل في التاريخ. ط. دار صادر ـ دار بيروت. لبنان ١٩٦٦. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف الاتابكي (ت ٨٧٥ هـ/ ١٤٦٩م).

(٣)النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة.

ابن خلكان، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان الاربلي (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢م).

(٤)أ– وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان. تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد. مطبعة السعادة. القاهرة ١٩٤٨.

ب– نفس الكتاب، تحقيق د. احسان عباس. مطبعة الغريب. دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧١.

ابن شداد، أبو المحاسن بهاءالدين يوسف بن رافع الاسدي، (ت ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤م).

(٥)النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية "سيرةصلاح الدين".

تحقيق د. جمال الدين الشيال. ط. الدارالمصرية. القاهرة، ١٩٦٤.

ابن الشعار، ابو البركات كمال الدين المبارك بن ابي بكر بن حمدان الموصلي (ت ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦م).

(٦) مخطوط (عقود الجمان شعراء هذاالزمان) نسخة الدكتوربشارعواد معروف المصور بالميكوفيلم عن النسخة الفريدة الموجودة في مكتبة السليمانية باستانبول، ٨ أجزاء.

(٧) تاريخ مختصر الدول. المطبعة الكاثوليكية. ط. ٢ بيروت ١٩٥٨.

(٨) نفس المؤرخ،

ابن الفرات، ناصر الدين محمد عبدالرحيم (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤م).

(8) Bar Hebraeus,

The Chronography ofGregory Abul Faraj.

Translated from the Syriac by Ernest A Wallis Budge.

Oxford University Press London, 1932, 2 Volnme.

(٩)تاريخ ابن الفرات، تحرير ونشر د. حسن محمد الشماع. البصرة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠.
ابن الفوطي، ابو الفضل كمال الدين عبدالرزاق البغدادي (ت ٧٢٣ هـ/ ١٣٢٣م).
(١٠) تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب. تحقيق د. مصطفى جواد. المطبعة الهاشمية. دمشق ١٩٦٧.
ابن كثير، اسماعيل بن كثير الدمشي (٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢م).
(١١) البداية والنهاية، مطبعة السعادة. القاهرة ١٩٣٢.
ابن المستوفي، ابو البركات شرف الدين المبارك بن احمد الاربلي (ت ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩م).
(١٢) نباهة البلد الخامل بمن ورده من الاماثل (تاريخ اربل)
تحقيق وتعليق د. سامي بن السيد خماس الصقار. منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الرشيد للنشر ١٩٨٠ الجزء الثاني. قسم ١ –٢.
ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧م).
(١٣) مفرج الكروب في أخبار بني ايوب. تحقيق د. جمال الدين الشيال. القاهرة ١٩٥٣ جـ (١).
ابو الفداء، عمادالدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢م).
(١٤) تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠.
سبط ابن الجوزي، ابو المظفر شمس الدين قزاوغلي التركماني (٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦م).
(١٥) مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٥١، ١٩٥٢، جـ ٨.
العماد الكاتب الاصفهاني (ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠م).
(١٦) الفتح القسي في الفتح القدسي، طبعة ليدن ١٨٨٧.
الكتاب نفسه. تحقيق محمد محمود صبح. طبعة الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.
القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م).
(١٧) صبح الاعشي في صناعة الانشا، المطبعة الاميرية. القاهرة.
المقريزي، ابو العباس تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢).
(١٨) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق د. مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤.
(١٩) نفس المؤلف.
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. مطبعة بولاق ١٢٩٤ هـ.

(٢٠) النظامي العروضي السمرقندي، چهار مقالة ـ المقالات الاربع. ترجمة عبدالوهاب عزام ويحيى الخشاب. ط١. القاهرة ١٩٤٩.
ياقوت الحموي، ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م).
(٢١) معجم البلدان، دار صادر ـ دار بيروت.
(٢٢) مقدمة كتاب ابن الدبيثي (تاريخ مدينة السلام بغداد).
مطبعة دار السلام ـ بغداد ـ ١٩٧٤ المجلد الاول.
(٢٣) دائرة المعارف الاسلامية، مادة اتابك، ترجمة ابراهيم زكي خورشيد، طبعة ٢. مطبعة دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩، مجلد ٢.
د. محسن محمد حسين.
(٢٤) اربيل في العهد الاتابكي، مطبعة اسعد، بغداد ١٩٧٦.
(٢٥) نفسه مقال: مظفر الدين گوگبورى حين طرد من اربيل.
مجلة (المجمع العلمي العراقي/ الهيئة الكردية. المجلد السابع ١٩٨٠.
(٢٦) مقال: مدفن السلطان مظفر الدين بين الحقيقة والوهم.
مجلة (كاروان — المسيرة) الامانة العامة لادارة الثقافة والشباب. اربيل ، العدد (١) تشرين الاول ١٩٨٢.
(27) Lane ـ Poole, Stanley. Saladin and the fall of Kingdom of Jerusalem, London, 1914

محاولات لإنقاذ مثوى الرسول الكريم(*)
بين الخيال والحقيقة

مدخل:

ما صحة حكاية انقاذ مثوى الرسول من ايدي بعض الكارهين؟ هنا نحاول ان نعرف حقيقة ماجرى، إن كان ثمة محاولات من هذا القبيل قام بها هذا الحاكم او ذاك قبل قرون، والدور الذي اضطلع به المؤخرون، لاسيما بعض المؤرخين المحليين، او الذين كانوا ينزعون الى اضفاء هالة من الاجلال والقدسية على بعض الحكام، خاصة بعد وفاتهم، فنحاول – قدر الامكان – ان نجلي الغموض عن هذه الحكاية، والبيئة التي ظهرت فيها وظروف تأليفها، وكيف تم غرسها في اذهان الناس وصارت تروى كحقيقة واقعة، والتأثير الذي تركته حروب العدوان الفرنجي (الصليبي) في خلق مناسب للحكاية، والمحاولة الغادرة التي قام بها احد القادة الصليبيين في هذا الصدد والتي دحرها القائد الكبير صلاح الدين يوسف بن ايوب.

ضمن القصص الدينية التي تضمنها كتب المنقبة النبوية والتي تقرأ لحد الآن في المناسبات في اربيل، ثمة قصة شيقة تقول ان السلطان مظفر الدين كوكبوري(1)

(*) نشر في مجلة الرسالة الاسلامية. تصدرها وزارة الاوقاف والشؤون الدينية بغداد ١٩٨٥ العدد ١٧٨ – ١٧٩.

(1) اخباره في كتب التاريخ، انظر على سبيل المثال:

ابن الاثير في (الكامل في التاريخ) و (التاريخ الباهر)، ابن شداد (سيرة صلاح الدين)، العماد الكاتب (الفتح القسي)، سبط ابن الجوزي (مرآة الزمان)، ابو شامة (كتاب الروضتين)، ابن واصل (مفرج الكروب)، ابن العبري (تاريخ مختصر الدول) و (تاريخ الدول السرياني)، اليونيني (ذيل مرآة الزمان)، الذهبي (تاريخ الاسلام) و (العبر في اخبار من غبر) وغيرها كثير، وكتب ابن خلكان ترجمة مطولة له في (وفيات الاعيان).

كما كتب الدكتور عبدالقادر احمد طليمات كتابه (مظفر الدين كوكبوري امير اربل) ضمن سلسلة اعلام العرب، القاهرة ١٩٦٣.

ابن زين الدين على كوجك بن بكتگين بن محمد صاحب اربيل رأى في منامه الرسول الكريم (صلعم) يطلب منه الحضور الى المدينة المنورة لانقاذه من براثن رجلين غريبين ينويان حفر لحده واخراج رفاته الطاهرة والتصرف بها كما يشاءان. استيقظ صاحب اربيل وفرائصه ترتعد من هول مارأى، وتعوذ وتبسمل، وعاوده النعاس، ورأى الحلم ثانية. جلس فزعا، فتوضا وصلى ونام. ثم حلم بمثل مارأى، فاستيقظ ولم ينم بعده، لأن مارآه اشبه بالرؤيا عنه بالحلم. فقرر ان يغادر بلاده، بعد ان شاور بعض رجال دولته واتباعه، وسافر الى المدينة المنورة، ومعه مقدار من المال وبعض الرجال.

وبوصوله أخذ قسطا من الراحة، ثم خرج ليطلب من الناس ان يجتمعوا، وراح يعطي كل واحد منهم شيئا من المال، بعد أن يفحص سحناتهم عله يعثر بينهم على الرجلين الغريبين اللذين رآهما في منامه، ولم يكن الرجلان حاضرين، لانهما خشيا ان يفتضح امرهما وتظهر حقيقتهما. اصر السلطان على احضار كل من في المدينة المنورة، فقيل له: لم يبق أحد سوى رجلين غريبين، وهما لايقبلان صدقة او مساعدة من أحد، لأنهما من الموسرين، وقد انقطعا عن الدنيا لخدمة الضريح الشريف. انشرح صدر السلطان حين تناهي الى سمعه خبر وجود هذين الرجلين، فطالب باحضارهما في الحال، وحين مثلا أمامه بدأ باستجوابهما، الا انهما انكرا التهمة، واعلنا انهما قدما للحج، ولاشأن لهما بما يقوله هذا السلطان. عندها ذهب هذا بنفسه الى الضريح الطاهر، ووجد الآثار الدالة على جرمهما، وعثر على السرداب الذي يفضي الى اللحد (الحجرة الشريفة) وقد غطياه بالحصير للحيلولة دون انكشاف أعمال الحفر، وليستكملا عملهما بروية. فما كان من السلطان الا أن أمر بضربها ضربا مبرحا، فلم يجدا بدا من الاقرار والاعتراف على ما نويا فعله. وتنتهي الحكاية بالاقتصاص من الغريبين جراء نواياهما العدوانية التي لاتغتفر. وقبل ان يغادر السلطان مظفرالدين كوكبوري المدينة المنورة قام ببناء ضريح محكم وصب حواليه بمادة الرصاص للحيلولة دون تكرار مثل هذه العملية النكراء، ثم عاد الى اربيل.

و(كوكبوري) مكون من لفظين هما (گوگ) يعنى (ازرق) و (بورى) يعني (ذئب) باللغة التركية القديمة، انظر ابن خلكان (وفيات الاعيان: ٢٧٧/٣) واسماعيل غالب (مسكوكات تركمانية قتالوغي) ط استانبول ص ١٤٢)

اذن فهذه المدينة فعلت شيئا مجيدا في تاريخها الاسلامي تستحق عليه الشكر، ممثلة بحاكمها البار الذي وقع عليه اختيار الرسول الأكرم (صلعم) دون غيره من الحكام المسلمين لانقاذه من عبث الكارهين، وهذا شرف لم ينله سواه، مما دفعه الى تكريمه (صلعم) تكريما يليق بمقامه، بأن يحيي ذكرى مولده في احتفالات مهيبة تقام سنويا في اربيل، تلك الاحتفالات التي كانت تستمر أياما، والتي انفرد باقامتها هذا السلطان، ولم يسبقه اليها أحد من الملوك والخلفاء – كما اكد ذلك (المبارك ابن الشعار كمال الدين الموصلي) الذي قال: لم يسمع في قديم الزمان وحديثه من الملوك والسلاطين من إنتدب لهذا الامر سوى السلطان مظفر الدين[٢].

كان هذا الحدثان – انقاذ المثوى الشريف واحتفالات ذكرى المولد – ضمن مسائل أخرى – دفعتنا لدراسة تاريخ اربيل، في عهد هذا السلطان الزاهر[٣] وعهد ابيه واخيه، في المرحلة الماجستيرية، وفيها قدر لنا أتنجلي الغموض عن كواهل هذه المدينة المضنية[٤]، وكان مؤرخها في العهد الأتابكي (المبارك ابن المستوفي) مصيبا

---

[٢] ابن الشعار، كمال الدين ابو البركات المبارك. كتابه (قلائد الجمان في قرائد شحراء هذا الزمان) تحقيق كامل سلمان الجبوري . طبعة دار الكتب العلمية بيروت/ ٢٠٠٥ ج ٦ ص ١٩٣.

وانظر ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٣/٢٧٥.

وسبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ ص ٦٨١ والفاسي المكي، شفاء الغرام، ج٧ ص ١٠٥.

[٣] وصلت اربيل في عهد هذا السلطان عصرها الذهبي في تاريخها الاسلامي، انظر (م . سترك) في (دائرة المعارف الاسلامية) مطبعة الشعب طبعة ١٩٥٩ مادة اربل، وانظر عباس العزاوي (آل بكتكين – امارة اربل في عهدهم) مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) مجلد (٢١ – ٢٢) لسنة ١٩٤٦.

[٤] ان اربيل الحالية هي نفس (اربائيلو) الواردة في النقوش السومرية والبابلية والاشورية. انظر (م. سترك) دائرة المعارف. طبعة ١٩٣٣، ج١ ص ٥٧٠ وانظر عبدالرزاق الحسني مجلة (لغة العرب) ج ص ٦٠٩ و(العراق قديما وحديثا) ص ٢٣٦، وعبدالرزاق الهلالي، معجم العراق ١/٦٧.

وبشير فرنسيس وكوركيس عواد (اصول اسماء الامكنة العراقية مجلة سومر مجلة ٨ لسنة ١٩٥٢ ص ٢٥٠.

وتقول (دوروثي مكي) في كتابها (مدن العراق القديمة) ان اربيل هي المدينة الاشورية الوحيدة التي لا تزال آهلة بالسكان وتعرف باسمها القديم، انظر مجلة (لغة العرب) مجلد ٩ لسنة ١٩٣١ ص ٦٦٤ وانظر مجلة (سومر) بحث فؤاد جميل (حدياب ... اربيلا – وعشتار ... اربيلا) مجلد ٢٥ لسنة ١٩٦٩ ص ٢٢٠. رغم ان المدينة كانت موجودة، ربما قبل السومريين.

حين سمى مدينته (البلد الخامل)[٥]. لكن هذه المدينة دب في عروقها النشاط مرة اخرى، وصارت تنجب الفضلاء.

لكن من اين استقى كتّاب المنقبة خبر هذا الحلم فيما رووه عن مظفر الدين؟

عجرنا عن العثور عما يخبرنا بحقيقة الحلم، ضمن مصادر دراستنا المذكورة، فآثرنا الصمت في حينه، ولم يكن بوسعنا غير ذلك لأننا ايقنا ان مادّون ومايقرأ، في كتب المولد عن الحلم ليس سوى من تأليف بعض المعجبين بسلطان اربيل من الكتاب، وبالتالي ليس للحلم (ومعه الزيارة) اساس تاريخي. يومها تمنينا لو وصلنا (كتاب التنوير في مولد السراج المنير) الذي الفه ابو الخطاب عمر بن الحسن المعروف بـ(ابن دحية) البلنسي الاندلسي، أثناء زيارته لاربيل ووجوده في ضيافة صاحبها سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م حين رآه مولعا الى هذا الحد باقامة احتفالات المولد النبوي، وقد حصل المؤلف الاندلسي لقاء عمله على مبلغ الف دينار حين تلاه في حضرة صاحب اربيل[٦]، ولايعرف إلى متى استمر القراء يتلون هذا الكتاب في مثل تلك المناسبات، وماذا كان يحوي من مواد، وكيف، ومتى ضاع هذا الكتاب.

اكملنا تأليف كتابنا عن (اربيل في العهد الاتابكي)، ولكن السؤال الملحاح ظل مستمرا، والذي يقول: كيف تسنى لمؤلف ما أن يرتب قصة حلم بهذا المستوى ينسبها الى حاكم، وتظل القصة تقرأ في المناسبات الدينية، ربما طيلة قرون، في حين ان هذا الحالم لم يحظ بزيارة المدينة المنورة، او يحج، رغم المشاريع الخيرية الهامة التي انفق اموالا طائلة على اقامتها في ارض الحجاز، مثل الآبار العديدة التي امر بحفرها، وايصال الماء الى جبل عرفات، ووضع الاعلام (الاشارات المرورية) لارشاد الحاج الى طريق المدينتين المباركتين[٧]. وقد ذكر المؤرخ المكي الفاسي ان مجاري (عين زبيدة) قد خربت فعمرها مظفر الدين گوگبورى صاحب اربل في سنة ٦٠٥هـ – ١٢٠٨م. واعلن مؤرخ اربل ابن المستوفي المذكور ان السلطان مظفر الدين قد انفذ الى

---

[٥] اشارة إلى كتاب المبارك ابن المستوفي (نباهة البلد الخامل، بمن ورده من الاماثل في تاريخ اربل) الوارد ذكره ضمن قائمة المصادر. ولفظ (الخامل) قد يأتي بمعنى (الخمائل) ويعني البساتين والخضرة.

[٦] ابن خلكان، وفيات الاعيان، ١٢٢/٣ و ٢٧٥/٣ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣٧/١٣ الفاسي المكي، شفاء الغرام ١٠٥/٧ انظر ترجمته في ابن الشعار، ١٩٢/٥ – ٢٠٧.

[٧] كتاب (اربيل في العهد الاتابكي) ص ١٨٩ – ١٩٢.

مكة المعظمة الفقيه عمر بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان (عم مـؤرخ السـير الشـهير مؤلف كتاب (وفيات الاعيان)) وعلى يده مال يتصدق به، وينفقه على قنوات يخـرج ماءها، فيشرب منه الحاج تحت الجبل، الى غير ذلك من ابواب البر[٨].

كل هذه الاعمال الخيرية النافعة لاتبرر اصطناع حكاية الحلم والزيارة، ورحـم الله صاحب اربيل المحسن، هل وضع في حسبانه ان محبيه سيؤلفون عنه حكايـة كهـذه من بعده وتتلى في مناسبة المولد النبوي، في حين ينسى الناس أمر (كتـاب التنـوير) الذي ألف تكريما لاحتفالاته، ودفع ثمنه غاليا، ثم ضاع في وقت تال وعجبي متى ثـم تأليف القصة؟ إذ لا يعقل ان يكون تأليفها قد حصل في حياته، وهو (اي السـلطان) يعرف انه لم يزر المدينة المنورة!

ثم عثرنا على أثر للحلم. وزال بعـض دهشـتنا وتسـاؤلنا. لكننـا قرأنـا العجـب، حين وجدنا ان الحلم بتفاصيله منسوب ليس الى صاحب اربيل بل الى صاحب الشـام الشهير المجاهد نور الدين محمود ابن عمـاد الـدين زنكـي مؤسـس أتابكيـة الموصـل وحلب، الذي عرف بتدينه الشديد، وروحه القتالية العالية في صـد الهجـوم الصـليبي، واقتداره الفذ في تنظيم امور الدولة والرعية على نحو لم يسبق له مثيل الا نادرا. وقد ذكر المؤرخون هذا القائد الشهير مع صفات التكريم، وأعلنوا انهم لم يروا بعد الخلفاء الراشدين والخليفة عمر بن عبدالعزيز (رضوان الله تعـالى علـيهم) ملكـا أحسـن سـيرة منـه واكثـر تحريـا للعـدل والانصـاف وان مجلسـه كـان كصـفة مجلـس رسـول الله (صـلعم)، مجلـس حكـم وحيـاء، لايـذكر فيـه الا العلـم والـدين واحـوال الصـالحين، والمشورة في امر الجهاد وقصد بلاد العدو الصليبي[٩]. وحين مات نـور الـدين محمـود سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م دفن مع رفاته ثلاث شعرات من شـعر لحيـة الرسـول (صـلعم)، وينبغي – كما يقول المؤرخون – لمن يزور قبره في دمشـق (ان يقصـد زيـارة شـيء منه (صلعم) ولهذا فالدعاء عند قبره مستجاب). هكـذا يصـف التـاريخ هـذا الرجـل. إذن فحاكم هذه صفاته تليق به حكايـة الحلـم والزيـارة، اكثـر مـن غـيره، اكثـر مـن

---

[٨] ابن المستوفي (تاريخ اربل) قسم ١ ص ٢٨٣.

[٩] انظر مثلا ابن الأثير في التاريخ الباهر ص ١٧٣ والكامل حوادث سنة ٥٦٩ وابن واصل: مفرج الكروب، ٢٨٥/١.

ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص ٣١ – ٣٢.

السلطان مظفر الدين – مثلا – بل واكثر من صلاح الدين بن ايوب الذي خلف نور الدين محمود حكم الشام، اضافة لحكمه لمصر.

أتممنا قراءة تفاصيل الحلم الشهير، وما فعله نور الدين حين استيقظ في المرة الثالثة، وشاور وزيره جمال الدين الموصلي، وطلب منه الوزير ان يسرع في الذهاب الى المدينة المنورة لتنفيذ المهمة التي انيطت اليه في الحلم، ورأينا ان الحلم والمهمة وما فعله في المدينة المنورة شبيه، بل مطابق، لما نسب الى السلطان مظفر الدين كوكبوري في كتب المولد النبوي التي تقرأ في اربيل.

والمدهش حقا أن هذه الحكاية تجدها في مصادر متأخرة، اي في كتب الفت بعد وفاة نور الدين محمود بفترة تصل الى اكثر من قرن ونصف. واقدم هذه الكتب – حسب علمنا – هو كتاب (التعريف) بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة)[١٠] الذي صنفه (محمد بن احمد بن خلف الانصاري) المعروف بـ (جمال الدين المطري) المتوفى سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، الذي ذيل به كتاب (الدرة الثمينة في تاريخ المدينة)، وذكر فيه حكاية الحلم الزيارة[١١] ونقل الحكاية من جمال الدين المطري المؤرخ (بدر

---

[١٠] طبع هذا الكتاب سنة ١٣٧٢هـ، وقام بتحقيقه الشيخ محمد بن عبدالمحسن الخيال، القاضي بالمدينة المنورة.

[١١] وقصة الحلم هي كالتالي: (ان السلطان نور الدين محمود رأى النبي (صلعم) ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة: يامحمود انقذني من هذين الشخصين، يشير الى شخصين اشقرين تجاهه. فاستحضر (محمود) وزيره قبل الصبح فذكر له ذلك، فقال له: هذا أمر قد حدث في مدينة النبي (صلعم) ليس له غيرك، فتجهز على عجل بمقدار الف حمل بعير راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك حتى دخل المدينة على غفلة من اهلها والوزير معه وزار وجلس في المسجد لايدري ما يصنع فقال له الوزير: اتعرف الشخصين إذا رأيتهما؟ قال: نعم. فطلب الناس عامة للصدقة وفرق عليهم ذهبا كثيرا وفضة، وقال: لا يبقين احد بالمدينة الا جاء. فلم يبق الا رجلين مجاورين من اهل الاندلس نازلين في الناحية التي تلي قبلة حجرة النبي (صلعم) من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب (رضي) التي تعرف اليوم بدار العشرة فطلبهما للصدقة فامتنعا وقالا: نحن على كفاية ما تقبل شيئا، فجد في طلبهما فجئ بها. فلما رآهما قال للوزير: هما هذان. فسألهما على حالهما وما جاء بهما؟ فقالا لمجاورة النبي (صلعم). فقال: اصدقاني، وتكرر السؤال حتى افضى الى معاقبتهما، فأقرا أنهما من النصاري وانهما توصلا لكي ينقلا من في هذه الحجرة المقدسة باتفاق ملوكهم. ووجدهما قد حفرا نقبا من تحت الارض من حائط المسجد القبلي، وهما قاصدان الى جهة الحجرة الشريفة ويجعلان التراب في بئر عندهما في البيت الذي هما فيه. فضرب اعناقهما عند الشباك الذي في شرقي حجرة رسول الله

الدين بن تقي الاسدي) المعروف بـ (ابن قاضي شهبة) الدمشقي المتوفى سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م في كتابة (الكواكب الدرية في السيرة النورية)[١٢] اي سيرة نور الدين محمود" ونقلها ايضا (حسين بن محمد بن الحسن الديار بكرى) المتوفى سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م في كتابة (تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس)[١٣]، كما نقلها (ابو الفلاح عبدالحي) المعروف بـ (ابن العماد الحنبلي) المتوفى سنة ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م في كتابة (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)[١٤].

كذلك ذكر هذه الحكاية بشيء من التفصيل مؤرخ ثان هو (نور الدين ابو الحسن علي بن القاضي عفيف الدين عبدالله المعروف بـ (السمهودي المصري) المتوفى سنة (٩١١/ ١٥٠٥م في كتابة (وفاء الوفا باخبار دار المصطفى)[١٥] الذي خصه للكلام عن تاريخ المدينة المنورة. وقد نقل (الديار بكري) المذكور هذه الرواية[١٦] اضافة الى رواية المطري السالفة.

كل هذا ولا تذكر المصادر المعاصرة لنور الدين محمود شيئا عن موضوع الحلم والزيارة وانقاذ رفات الرسول الكريم، فلم يتحدث المؤرخ الشهير ابن الأثير الجزري شيئا لا في كتابه المعروف (الكامل في التاريخ) ولا في كتابه (الباهر في التاريخ الأتابكي) الذي خصه للحديث عن اسرة عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود،

(صلعم) خارج المسجد، ثم احرقا بالنار آخر النهار وركب متوجهاالى الشام. فصاح به من كان نازلا خارج السور (سور المدينة) واستغاثوا وطلبوا ان يبني لهم سورا لحفظ أبنائهم وماشيتهم، فأمر ببناء هذا السور الموجود اليوم، فبني في سنة ٥٥٨ أي قبل مولد گوگبورى بتسع سنين! وكتب اسمه على باب البقيع، فهو باق الى تاريخ هذا الكتاب، والله اعلم).

المطري، التعريف بما آنست الهجرة، ص ٧٦/٧٧.

[١٢] انظر هذا الكتاب في ص ٧٢ – ٧٣. وقد حقق هذا الكتاب الدكتور محمود زايد. طبع بيروت ١٩٧١.

[١٣] انظر هذا الكتاب جـ٢ ص ٣٦٤ – ٣٦٥. طبع الكتاب في المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م وقد قام فراس سليم السامرائي، باجرا، دراسة عن هذا الكتاب لنيل درجة الماجستير/ قسم التاريخ/ كلية التربية لابدرشد – جامعة بغداد، عام ١٩٩٤، تحت إشرافنا، تحت عنوان (الديار بكرى: ومنهجه التاريخي من خلال كتابه تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس).

[١٤] انظر هذا الكتاب جـ٤ ص ٢٣٠. طبع في القاهرة. مطبعة القدسي" سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.

[١٥] طبع هذا الكتاب في القاهرة. مطبعة السعادة. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. ويقع في اربعة أجزاء.

[١٦] الديار بكري، تاريخ الخميس، جـ٢، ص ٣٦٣ – ٣٦٤.

والذي تحدث فيه بتفصيل شديد عن الاعمال العمرانية والعسكرية والعلمية والدينية والخيرية) التي اقامها هذا الحاكم العظيم بينها الاسوار العديدة التي شيّدها في مختلف مدن الشام، وكذا المدارس والجوامع والبيمارستانات (المستشفيات) والخانات والابراج ودار الحديث والخانقاهات[١٧]، وكذلك لم يتحدث المؤرخ ابن الجوزي في كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والامم)[١٨] عن موضوع الزيارة.

وينطبق هذا على المؤرخين القريبين عن عصر نور الدين محمود ونذكر منهم (سبط ابن الجوزي)[١٩] و(ابن العديم)[٢٠] و(ابن خلكان)[٢١] و (ابو شامة)[٢٢] و (ابن واصل)[٢٣] وغيرهم. وحتى بين المؤرخين المتأخرين – نسبيا ممن فمن تحدث عن دولة نور الدين محمود لم يتطرقوا الى قصة الزيارة نذكر منهم (ابن كثير) و(ابو الفداء) و(ابن الوردي) من مؤرخي القرن الثامن، وبعدهم (ابن خلدون) و(المقريزي) و(ابن تغري بردي)، وكذلك الفاسي المكي الذي خص كتابه (العقد الثمين في تاريخ البلد الامين) للحديث عن زوار المدينة المنورة من كافة الطبقات.

ومن المؤرخين المحدثين الذين كتبوا عن سيرة هذا المجاهد دون ان يشيروا الى هذا الموضوع الدكتور حسن حبشى في كتابه (نور الدين والصليبيون)[٢٤]، والدكتور حسين مؤنس في كتابه (نور الدين محمود)[٢٥]، والدكتور عماد الدين خليل في كتابة

---

[١٧] الباهر، ص ١٧٠ – ١٧١ الكامل ١١/ ٤٠٤.

[١٨] كتابة المنتظم في تاريخ الملوك والامم جـ ١٠ ص ٢٤٨ – ٢٤٩.

[١٩] كتابه (مرآة الزمان) جزء (٨).

[٢٠] ابن العديم الحلبي الذي وجه اهتمامه نحو تاريخ حلب عاصمة دولة نور الدين محمود الزاهرة وبين ما ألفة (زبدة الحلب من تاريخ حلب) وغيره.

[٢١] ابن خلكان الاربلي في ترجمته لنور الدين محمود.

[٢٢] ابو شامة مؤلف (كتاب الروضتين في اخبار الدولتين) يقصد دولة نور الدين محمود ودولة صلاح الدين يوسف بن ايوب.

[٢٣] ابن واصل الذي خصص الجزء الاول من كتابه (مفرج الكروب) للكلام عن دولة زنكي وولده نور الدين محمود.

[٢٤] طبع دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٨.

[٢٥] مطبعة مصر القاهرة ١٩٥٩.

(نور الدين محمود الرجل والتجربة)[٢٦]، هذا اضافة الى الكثيرين الذين كتبوا عن فترة الحروب الصليبية. ان عدم تطرق المحدثين الى الحدث المنسوب الى نور الدين ليدل اما على عدم اطلاعهم على موضوع الحلم والزيارة، او انهم لم يهتموا به اساسا، وهذا مستبعد، نظرا لأهمية الحدث ليس حدث الحلم، بحد ذاته، انما حدث الزيارة والقيام بتحصين اطراف الضريح حين أمر نور الدين (باحضار رصاص عظيم، وحفر خندقا عظيما الى الماء حول الحجرة كلها، واذيب ذلك الرصاص وملئ به الخندق فصار حول الحجرة سورا رصاصا الى الماء)[٢٧]، ثم تحصين المدينة المنورة نفسها حين انفق نور الدين مبالغ طائلة على بناء السور المحيط بالمدينة، ولحفظ ابناء سكانها وماشيتهم، حسب المصادر المذكورة[٢٨].

ايعقل ان يقوم نور الدين محمود بهذا العمل الهام، ولا يتطرق اليه – في الاقل ابن الاثير، وهو الذي ذكر دقائق الاعمال – حتى الصغيرة منها التي قام بها هذا الملك الشهير؟

وأيعقل الا يتطرق الى هذا العمل المؤرخ الفاسي المكي – وهو الذي اشار الى كافة الاعمال العمرانية التي قام بها اي كان من المسلمين في هذه المدينة المقدسة؟ ايعقل ألا يذكروا عملا من اجل الاعمال يقوم به رجل من اجل الرجال في مدينة الرسول، (رجل كان في الاولياء معدودا من الاربعين)[٢٩]؟

وهذا ما يجعلنا ننفي قيام اي من الرجلين (مظفر الدين گوگبورى ونور الدين محمود) بهذه الزيارة، ولكن نظرا لجلال مكانة نور الدين محمود، هذه المكانة التي ازدادت اجلالا بعد وفاته، مما اضفى عليه المزيد من صفات التقدير كلما توغلنا في اعماق التاريخ، نقول نظرا لهذه المكانة رأى المؤرخون اللاحقون ان من غير المناسب ان يكون ثمة رجل في مستواه لم يقم بزيارة مدينة الرسول الكريم (صلعم)، فما كان منهم الا أن رتبوا له زيارة تنسجم مع مكانته، زيارة ينبغي ان يسبقها حلم،

---

[٢٦] طبعة دار القلم دمشق – بيروت ١٩٨٠.

[٢٧] الديار بكرى، تاريخ الخميس، جـ٢ ص ٢٦٤.

[٢٨] المطرى، التعريف بما آنست الهجرة، ص: ٧٧ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص: ٧٣ الديار بكري، تاريخ الخميس، جـ ٢ ص ٣٦٤.

[٢٩] الديار بكري، تاريخ: جـ ٢ ص ٣٦٥.

حلم يرى فيه نور الدين الرسول (صلعم) يستنجد به لينقذ رفاته، ويقع اختياره (صلعم) على نور الدين دون بقية حكام العالم الاسلامي، فيلبي نور الدين النداء مع فجر ذات اليوم، ويأخذ طريقه نحو المدينة المنورة. فدخلت الزيارة وموضوع الحلم المهيب الى التاريخ كحقيقة واقعة في كتب بعض المؤرخين اللاحقين، وهي غير واقعة أصلا – وياعجبي – مرة اخرى – كم من احداث من هذا القبيل نسبت بطريقة او باخرى، الى العديدين، وتداوله الناس دون روية وتمحيص؟

وما دامت المسألة بهذه الشاكلة – احيانا فلماذا لا تنسب الحكاية الى غير نور الدين ايضا؟ فما كان على كتاب المولد النبوي في اربيل الا ونسبوها الى سلطان مدينتهم، وصارت القصة تقرأ، ولحد الآن، في المناسبات الدينية.

اذن، وفي سياق هذه الحكاية، نسأل: ياترى هل جرت محاولة (او محاولات) من قبيل اخراج الرفاة الطاهرة من مثواه؟

الجواب، وحسب معرفتنا، هو ان فترة الحروب الصليبي، لا سيما خلال الحملات الاولى، بين الحملات الثمانية التي استغرقت حوالي القرنين (٤٩٠ – ٦٩٠هـ/ ١٠٩٧ – ١٢٩١م) جعلت الصليبيين تتصاعد لديهم وتيرة روح التعصب ضد المسلمين، هذه الروح التي كانت غريبة على سكان المنطقة الاصليين – مسلمين ونصارى – كما تشهد بذلك حوادث التاريخ. وهذا التعصب دفع الصليبيين الى التحرش بالمقدسات الاسلامية، وهل ثمة ما هو أجل من مزار الرسول الكريم؟ اذن ليكن هذا هو هدفهم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا، حين يصبح بوسعهم ارتكاب مثل هذه الفعلة.

فتخبرنا المصادر ان احد الامراء الصليبيين واسمه (رينو – ريجنالد – دي شاتيو) الفرنسي، والمعروف في المصادر العربية باسم (ارناط) عرف عنه تعصبه الشديد وسلوكيته الرعناء حتى وصفه احد المؤرخين الاوربيين الحديثين (بانه كان نموذجا للفارس اللص في الجشع وعدم الوفاء والغدر والوحشية والتعصب، وكان بذلك اشد زعماء اللاتين مغامرة واكثرهم غدرا).

مما حدا بالحاكم المجاهد نور الدين محمود، حين اسره، ان يسجنه مدة خمس عشرة سنة من سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م إلى سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، اي ان (ارناط) كان ما يزال سجينا حين توفى نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، ثم اطلق سعد الدين كمشتكين وحكام الموصل سراحه نكاية بخصمهم صلاح الدين يوسف خليفة نور

الدين محمود، عندها غادر الامير الصليبي سجنه وتزوج ارملة امير صليبي كان صاحب حصن الكرك. ومن هذا الحصن المنيع الواقع في الجنوب الشرقي من البحر الميت – في الطريق الذي يوصل الاقسام الجنوبية من بلاد الشام (الاردن) ببلاد مصر، بدأ (أرناط) بقطع الطريق على المسلمين، ليس على القادمين والذاهبين من والى مصر فحسب، بل وطريق الحاج الذاهبين الى ارض الحجاز كذلك، ثم بدأمع شلة من اعوانه بالزحف على المدينة المنورة (في حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة، لأنهم عزموا على الدخول الى مدينة الرسول (صلعم) واخراجه من الضريح المقدس)[٣١] كما عزموا على نقل (جسده الشريف الى بلادهم ويدفنونه عندهم، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته الا بجعل)[٣٢] أي مقابل دفع أجرة وامر ارناط قراصنته بانزال سفنهم في ميناء العقبة على رأس الخليج، وبدأوا بنهب ميناء عيذاب على الساحل المصري من البحر الاحمر، ثم حاصرت هذه السفن ميناء (ايلات) في أعلى خليج العقبة وسارت في اتجاه مدينة الرسول. الا ان صلاح الدين يوسف اوعز إلى قواته وقائد بحريته الشجاع حسام الدين لؤلؤ بتعقيب المعتدين. وقد فزع المسلمون اشد الفزع لمشاهدتهم الصليبيين في هذه المنطقة وبهذه المباغتة (وماظن المسلمون – حسب قول بعض المؤرخين – الا انها الساعة، اي القيامة، إذ لم يسبق لهم مشاهدة مثل هذا الوضع، او ان يعهد بحرهم تاجرا اوربيا، ولا دخل عليهم صليبي. وبهذا الصدد قال ابن جبير وغيره: ان الصليبيين احدثوا حوادث لم يسمع مثلها في الاسلام، ولا وصل قبلهم رومي الى ذلك الموضع، فانه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم واحد، ومضوا الى الحجاز يريدون المدينة النبوية[٣٣].

لا ذت الفلول الصليبية بالفرار برأ – أمام النجدات التي بعثها صلاح الدين – تاركين سفنهم، فلحقت بهم قوات حسام الدين لؤلؤ، فابادت قسما منهم، واسرت قسما آخر، اما (ارناط) فقد نجا بنفسه، في حين ارسل اثنين من الاسرى الى (منى)

---

[٣١] ابن جبير، الرحلة، ص: ٣٥.

[٣٢] المقريزي، الخطط، طبعة بولاق: جـ٢ ص ٨٦.

[٣٣] ابن جبير، ن . م . ص.

ابن الاثير، كامل جـ ١١ ص٤٩٠

المقريزي، السلوك، جـ١ قسم١ ص: ٧٩/٧٨.

في مكة للاقتصاص منهما. اما باقي الاسرى فقد تم استعراضهم في مدينة الاسكندرية بمصر والمدن الاخرى ليشهر بهم وهم يمتطون الابل والحمير ووجوههم الى اذنابها وكان الرحالة الشهير (بن حبير) حاضرا هذا المشهد.

ومني (ارناط) بهزيمة نكراء – وذهبت أتعابه التي استمرت اشهرا كثيرة، ادراج الرياح، وعاد الى قلعته في الكرك كذئب كسيح يلعق جروحه، كما يقول هارولد لامب[٣٤]. عاد الى حصنه لكن همته لم تفتر، وبدأ يعاود الكرة في الاعتداء على القوافل. فقرر صلاح الدين ان يقتص منه. فكان ان قتله بيده بيدقواده غداة انتصار حطين الشهير، كما تؤكد على ذلك المصادر. يقول (ابن العديم) كان صلاح الدين وقد نذر مرتين إن ظفره الله به ان يقتله، احداهما لما اراد المسير الى مكة والمدينة وبعثرة قبر النبي (صلعم)، والمرة الاخرى حين غدر بالقوافل المترددة بين مصر والشام، وقال لرجال القوافل المسلمين بشكل سافر: (قولوا لمحمد يجئ وينصركم!)[٣٥].

ان هذه المحاولة الشنيعة التي قام بها هذا الصليبي ظلت عالقة في اذهان المسلمين والفضل في قمعها يعود الى صلاح الدين يوسف ورجاله الشجعان، لاسيما بحريته المقتدرة، وقائدها المحنك المذكور. ومن ثم فان النصوص السابقة تؤكد على انه لم يسبق لأحد من الصليبيين، قبل ارناط ورهطه، ان تجرأ ووصل الى هذه المنطقة وقد قمع صلاح الدين محاولته وانقذ قبر النبي (صلعم) بالصورة المذكورة، لكن دون ان يزور المدينة المنورة، وكانت الزيارة (الحج) امنيته التي لم تتحقق، وعن هذا الموضوع تحدث كاتب سيرته بهاء الدين ابن شداد قائلا: كان صلاح الدين (لم يزل عازما (على الحج) وناويا له، لاسيما في العام الذي توفي فيه، فانه صمم العزم عليه، وأمر بالتأهب، وعملت الزوادة، ولم يبق الا المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت، وفراغ اليد عما يليق بامثاله، فأخّره الى العام المقبل، فقضى الله ما قضى، وهذا اشترك في العلم به الخاص والعام)[٣٦].

---

[٣٤] لامب، شعلة الاسلام، ص: ٩٦.

[٣٥] زبدة الحلب جـ٣ ص ٩٦.

وانظر ابن شداد: النوادر (سيرة صلاح الدين) وابو شامة، كتاب الروضتين جـ ٢ ص: ٨١.

[٣٦] ابن شداد، النوادر، ص: ٩.

الخاتمة:

من كل ما ذكرناه ظهر انه لم يتفق لاحد من هؤلاء الثلاثة من القادة ان يزور المدينة المنورة سواء في موسم الحج او غيره، وبالتالي لم يتم انقاذ مثوى الرسول الكريم (صلعم) لابيد السلطان مظفر الدين گوگبوري صاحب اربيل، كما يروى في كتب المنقبة النبوية في اربيل، ولا بيد الملك العادل المجاهد نور الدين محمود، كما يذكر ذلك بعض المصادر التاريخية المتأخرة، بل تم بيد القائد الشهير صلاح الدين يوسف بن أيوب الروادي الهذباني، كما تجمع على ذلك مصادر ذلك العصر، وبالصورة التي اوردناها، كما انه نفذ بيده حكم الاعدام على من سولت له نفسه على ارتكاب مثل تلك الفعلة الشنيعة.

المصادر

(١) ابن الأثير، عز الدين علي بن ابي الكرم محمد الجزري الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) التاريخ الباهر في الدولة الآتابكية بالموصل. تحقيق د. عبدالقادر احمد طليمات، ط. دار الكتب الحديثة. القاهرة ١٩٦٣.

(٢) ابن الأثير نفسه:

الكامل في التاريخ. طبعة دار صادر – دار بيروت لبنان – ١٩٦٥.

(٣) جبير، ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) رحلة جبير، دار صادر دار بيروت، لبنان ١٩٦٤.

(٤) ابن خلكان، شمس الدين احمد بن خلكان الاربلي (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م وفيات الاعيان، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. ط مطبعة السعادة. القاهرة ١٩٤٨.

(٥) ابن الشعار، ابو البركات كمال الدين المبارك بن ابي بكر بن حمدان (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) عقود الجمان في شعراء هذا الزمان. مخطوط مصور عن النسخة الفريدة الموجودة في مكتبة السليمانية – وقد ذكرنا تفاصيل عن طبع هذا الكتاب في الهامش (٢).

(٦) ابن العماد، ابو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨) شذرات الذهب في أخبار من ذهب. مطبعة القدسي. القاهرة، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١.

(٧) ابن قاضي شهبة، ابو الفضل بدر الدين محمد بن تقي الدين الاسدي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) الكواكب الدرية في السيرية النورية. تحقيق د. محمود زايد. بيروت ١٩٧١.

(٨) ابن المستوفي، ابو البركات شرف الدين المبارك بن احمد الاربلي (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) نباهة البلد الخامل بمن ورده من الاماثل في تاريخ اربل. تحقيق د. سامي بن السيد خماس الصقار. وزارة الثقافة والاعلام، بغداد ١٩٨٠.

(٩) ابو شامة، ابو محمد شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، مطبعة وادي النيل ١٢٨٧/ ١٢٨٨.

(١٠) الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م) تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، المطبعة الوهبية. القاهرة ١٢٨٣هـ.

(١١) السمهودي، نور الدين علي بن احمد بن عفيف الدين المصري (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) وفاء الوفا باخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة. القاهرة ١٩٤٨.

(١٢) الفاسي المكي، ابو الطيب تقي الدين محمد بن احمد بن علي الحسني (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. تحيقي فؤاد سيد وأخرين مطبعة السنة الحمدية، القاهرة ١٩٥٩ – ١٩٦٩.

(١٣) المطري، ابو عبدالله جمال الدين محمد بن احمد (ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة. تحقيق الشيخ محمد بن عبد المحسن الخيال. ط ١٣٧١ (مكان الطبع بلا).

(١٤) المقريزي، ابو العباس تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق د. مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٤.

(١٥) المؤلف نفسه، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة بولاق ١٢٩٤هـ.

مصادر حديثة.

(١٦) د. محسن محمد حسين.
اربيل في العهد الاتابكي مطبعة اسعد. بغداد ١٩٧٦.

(١٧) كذلك موضوعان في التاريخ الكردي. مطبعة الحوادث. بغداد ١٩٧٦.

(١٨) مقال: مدفن السلطان مظفر الدين بين الحقيقة والوهم مجلة (كاروان) العدد (١) تشرين الاول ١٩٨٢.

(١٩) هارولد لامب، شعلة الاسلام. ترجمة محمود عبدالله يعقوب مطبعة الارشاد. منشورات مؤسسة فرانكلين ودار المتنبي بغداد ١٩٦٧.

(٢٠) King (E.j), the knights Hospitallers in the Hoiy land, London 1931.

(٢١) اضافة الى الكتب الواردة في الهوامش: (١، ٥) و (١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧).

جيش صلاح الدين(*)

المقدمة

المعروف ان الدولة الايوبية قد قامت على انقاض الدولة الفاطمية في مصر، والدولة النورية الزنكية في الشام واطراف العراق. الا انها تأثرت في مجال نظمها الحربية بشكل مباشر او غير مباشر، بما كان معمولا به في الدولة الزنكية نظراً الى ان الايوبيين الاوائل قد نشأوا في كنف عماد الدين زنكي، كما نشأ الرعيل الثاني من بني ايوب من صلاح الدين واخوته وبني عمومته في كنف نورالدين ابن زنكي.

ولهذا فان البحث عن التشكيلات العسكرية وادارتها والاسلحة والمعدات التي استعملها جيش صلاح الدين لم تكن الا استمرار لما كان موجوداً من قبل، مع بعض الاضافات التي استحدثت بفعل حالة الاحتراب المستمر مع الصليبيين، وبفعل منطق التطور. اما بالنسبة للمؤثرات المصرية (الفاطمية) على الجيش الذي استحدثه صلاح الدين فكانت ملحوظة اكثر، كما اثبتت ذلك مصادر العصر، بل نكاد نزعم ان تسنم صلاح الدين لحكم مصر لم يكن بمثابة انقلاب سياسي فحسب، بل كان انقلاباً في المجالات العسكرية كذلك، سواء أكان ذلك في العناصر التي ابعدها صلاح الدين عن تشكيلات جيشه، او العناصر الجديدة التي اعتمد عليها في تكوين جيش دولته الفتي.

وفي هذا البحث نحاول ان نعالج جملة مسائل تخص هذا الجيش، سواء في التغييرات التي استحدثها فيه، او ما ثبته فيه من امور، مثل التموين والتعبئة العسكرية وكذلك في المؤسسات المتعلقة بامور البريد، والاستخبارات ووضع الكمائن، كذلك المتعلقة بمجلس حرب الجيش وخطط القتال في جيش صلاح الدين.

البحث

اولاً: تشكيل نواة الجيش الايوبي:

(*) نشر في مجلة (المورد) تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة – بغداد. المجلد (١٦) العدد الرابع ١٩٨٧.

كان نور الدين محمود، صاحب الشام، قد بعث قائد جيشه اسد الدين شيركو الى مصر على رأس قوة عسكرية في ثلاث حملات متتالية للحيلولة دون وقوع مصر تحت السيطرة الصليبية. وكان عدد فرسانه يزداد في كل حملة عما سبقتها، حتى بلغ في الحملة الثالثة (والاخيرة) ثمانية الاف فارس[1]. الا ان المصادر لم تشر الى عدد الجنود المشاة الذين صاحبوا الحملة، على الرغم من ان عدد المشاة كان اكبر من عدد الفرسان، في كافة جيوش تلك الفترة. وقد ذكرت بعض المصادر المتأخرة ان جيش شيركو كان في (سبعين الفاً ما بين فارس وراجل[2])، وان صح هذا القول فان عدد المشاة يكون ضخما.

هذا وقد خلف اسدالدين شيركو، الذي صار وزيرا للخليفة الفاطمي العاضد، بعد وفاته، فرقته الخاصة التي سميت باسم (الفرقة الاسدية) وقد اضطلعت هذه الفرقة بدور واضح في تنصيب صلاح الدين وزيرا، خلفا لعمه، وكان عدد افرادها لا يقل عن خمسمائة فارس[3]، وشكلوا نواة الجيش الايوبي في مصر، وظهرت فرقة ثانية على مسرح الاحداث عرفت باسم (الفرقة الصلاحية) وكان افرادها من خواص صلاح الدين، يقودهم الامير ابو الهيجاء السمين الهذباني. وقد قامت هاتان الفرقتان بدور بارز في تاريخ الجيش الايوبي، وانجبتا امراء وقادة كبار.

وكما هو متوقع، فقد قام صلاح الدين، بعد ان قضى على الجيش الفاطمي، باحلال عناصر جديدة محل عناصر ذلك الجيش، فقد ذكر ذلك مؤرخ مصر الكبير المقريزي[4] وابن اياس[5].

---

[1] ابن الاثير، الكامل، ١١/ ٣٣٨. الباهر ١٣٩.
ابن العديم الحلبي، الزبدة، ٢/ ٣٢٦.
ويقول الدواداري المصري: صارت (عدة جيش اسدالدين شيركو عشرة الاف فارس شجعان) الدر المطلوب ص: ٣١. وانظر الذهبي، دول الاسلام: ٥٦/٢.

[2] ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص ١١٧.
ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٤/ ١١١.

[3] ابو شامة، الروضتين، ج١ ق٢ ص: ٤٣٨. ابن الفرات، ج١ ق٤ ص: ٥٦.

[4] المقريزي، الخطط. اوفيست بغداد) ٩٤/١.

[5] بدائع الزهور، ١/ ٧٠.

واعتمد اسد الدين شيركو وصلاح الدين على العرب كذلك في تشكيل القوة العسكرية الايوبية، ويذكر ان شيركوه حين اضطر الى الالتجاء الى الجيزة، خلال صراعه مع الصليبيين استمال العرب القاطنين هناك ولاسيما (الاشراف الجعفريون والطلحيون والقرشيون)[٩] والجذاميون وغيرهم ويبدو ان العرب انضموا الى الجيش الايوبي بصفة جنود نظاميين، ففي العرض العسكري الذي اقيم يوم ٨ محرم ٥٦٧هـ/ ١١ ايلول ١١٧١م، أي اثر قطع الخطبة الفاطمية، قبيل وفاة الخليفة العاضد الفاطمي بيومين، اشترك في العرض (العرب الجذاميون)[١٠]، وكانت عدتهم – عددهم – سبعة الاف فارس، في بداية التحاقهم بالجيش، ثم انخفض عددهم في المراحل التالية. وكذلك انضمت جماعات من المغاربة الى الجيش الايوبي، والراجح انهم انضموا اليه بصفتهم جنوداً متطوعين (غير نظاميين)، تطوّعوا بدافع الجهاد. فعن وجود المغاربة في صفوف هذا الجيش ذكر الرحالة المغربي (ابن جبير) الذي زار مصر والشام: ان أهل البر والاحسان من الاثرياء والخواتين (النساء النبيلات) كانوا يخصصون جزءاً من ثروتهم لتحرير المغاربة الذين وقعوا في اسر الصليبيين[١١]. واثناء حصار عكا الطويل، الذي دام حوالي سنتين، كان المغاربة يديرون شؤون الحمامات الخاصة بالجيش الايوبي[١٢].

حجم الجيش الايوبي وتطوره:

ذكر المقريزي نقلا عن عبدالرحيم البيساني مستشار صلاح الدين المعروف بـ(القاضي الفاضل) انه جرى في مستهل عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م عرض هسكري اشترك فيه مختلف صنوف الجيش الايوبي، قديمها وحديثها، باسلحتها وخيولها وعدتها الحربية. وقد تتابع وصول القوات الى مكان العرض في القاهرة. ومن طريف ما يروى انه قد دعي لمشاهدة العرض رسل الروم البيزنطيين ورسل الفرنج الصليبيين. وكان

---

[٩] الروضتين، ج١ ق٢ ص: ٤٢٥.

المقريزي، البيان والاعراب، ص: ٢٢.

[١٠] المقريزي، السلوك، ١/ ٤٧. الخطط (ط. اوفيست) جـ١ ق١ ص ١٦.

[١١] رحلة ابن جبير، ص ٢٨٠.

[١٢] المقريزي، السلوك، ١/ ٩٤ نقلا عن عبداللطيف البغدادي في كتابه (الافادة والاعتبار).

عرضا عسكريا ضخما سارت المواكب فيه موكب اثر موكب، وطلب بعد طلب[١٣]. والطلب – بلغة الغزو (أي الترك) – كما يقول المقريزي – هو الامير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب، وعدة من مائتي فارس الى مائة الى سبعين. وقد استمر العرض الى ان انقضى النهار، ودخل الليل دون ان يكمل عرضهم. وكان عدد الاطلاب المشتركة مائة وسبعين واربعين طلبا، اضافة الى عدم اشتراك عشرين طلبا كانت غائبة. ويضيف القاضي الفاضل قائلا: وتقدير العدة يناهز اربعة عشر الف فارس اكثرها طواشية[١٤]. والطواشي من كان رزقة سبعمائة الى الف الى مائة وعشرين ديناراً، وله برك (دواب) الى عشرة رؤوس ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل، وللطواشي غلام يحمل له سلاحه. اما باقي الجند المشتركين في العرض، كما ذكر القاضي الفاضل، فكانوا (قراغلامية)[١٥].

ويبدو من هذا الكلام – الذي يشبه عملية احصائية – ان الجيش الايوبي صار تعداد الخيالة فيه حوالي ستة عشر الف فارس، الا ان القاضي الفاضل، ومن ثم المقريزي، لم يبين لنا عدد الطواشية وعدد القراغلامية الذين كانوا في هذا الجيش، واكتفى بالقول: ان اكثر ما في الاطلاب كانوا من الطواشية.

وبعد عشر سنوات من التاريخ المذكور، أي في سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، قام السلطان الايوبي بعملية حسابية جديدة لمعرفة قوة جيشه، وخلال هذه السنوات حصلت تطورات هامة في تاريخ المنطقة – ولا سيما في مصر والشام – واثرت على

---

[١٣] طلب وجمعه (اطلاب) معناه الامير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال، ويطلق ايضا على قائد المائة وكذلك السبعين. واول استعمال (الطلب) كان بمصر والشام أيام صلاح الدين. انظر: السلوك جـ١ ق١ ص ٢٤٨. ومفرج الكروب جـ٢ ص ٥٩ هامش٢.

[١٤] يرد لفظ (طواشي) بمعنى فارس، كما في ابن الاثير (الكامل، ١٢/ ٣٧٩) وابن واصل (مفرج الكروب ٤/ ٤٩) ويرى (لينبول – Lane – pool, Saladin, p. 154 ان طواشية اصلها طواويس Toassin على قول المؤرخ الصليبي المعروف (وليم الصوري). والطاووس يعبر عن الرجل الوسيم او (ذو القيافة الكاملة) وكان الطواشية يختارون من فئات راقية، وصار بعضهم قواداً في الجيش الايوبي. د. سعداوي، التاريخ الحربي، ص: ١١٠.

[١٥] المقريزي، الخطط (طبعة المعهد) جـ٢ ق١ ص ١٦ والقراغلامية تعني بالتركية (ولد اسود) ولعلها كانت تطلق على المجندين الزنوج (السودان) ثم تطورت وصارت تطلق على باقي الفرسان الذين كان مستواهم دون مستوى الطواشي.

مكونات وقدرات وحجم هذا الجيش وخبراته، منها: ارسال حملة الى بلاد اليمن بقيادة شمس الدين توران شاه بن ايوب في رجب ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م[١٦]، ثم الانزال الصقلي البيزنطي الواسع على ثغر الاسكندرية في نهاية عام ٥٦٩هـ وبداية ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م[١٧]، وثورة بقايا الجيش الفاطمي بقيادة الكنز سنة ٥٧٠[١٨]هـ، ثم قيام صلاح الدين بقيادة حملته الاولى على بلاد الشام وفتح بعض مدنها الداخلية، ثم عودته الى مصر، وتجريده حملة عسكرية على جنوبي فلسطين، وهزيمته عند بلدة الرملة[١٩]. كل هذه الاحداث وغيرها، قد سبب – كما يبدو لنا – في انخفاض عدد الجيش الايوبي خلال تلك الفترة، الا انه سرعان ما عوض هذا النقص، كما يظهر من الارقام الجديدة التي ذكرها المقريزي ضمن متجددات السنة المذكورة ٥٧٧هـ/ ١١٨١ وقال: ان صلاح الدين قام للنظر في امور جيشه لمعرفة الزيادة والنقصان الحاصلين في عدد جنده، واستقرت العدة على ثمانية الاف وستمائة واربعين (٨٦٤٠) فارساً، بينهم الامراء، وستة الاف وتسعمائة وستة وسبعون (٦٩٧٦) طواشيا[٢٠]، اما القراغلامية فكان تعدادهم الفا وخمسمائة وثلاثة وخمسين (١٥٥٣)[٢١] ويصبح المجموع اكثر من سبعة عشر الف مقاتل، أي اكثر مما كانوا عليه في العرض الاحصائي السابق الذي جرى في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، هذا وقد بلغت نفقات الجيش السنوية (٣,٦٧٠,٠٠٠) دينار، وهذا مبلغ كبير بالنسبة لنفقات جيش في ذلك العصر.

---

[١٦] ابن شداد، النوادر، ص: ٤٦.

ابو مخرمة، تاريخ عدن، جـ١ ق٢ ص: ٣٧.

ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص ٢٢١ – ٢٢٢.

[١٧] ابن الاثير، الكامل: ١١/٤١٢.

ابن واصل، مفرج الكروب: ٢/ ١١

النويري، كتاب الالمام بالاعلام، جـ١ ص ١٦٣ – ١٦٥.

[١٨] الكامل ١١/ ٤١٤.

النوادر: ٤٧ – ٤٨. المقريزي، الخطط (ط. المعهد الفرنسي) جـ ق٢ ص: ٢٨٤.

[١٩] البنداري، سنا البرق الشامي: ١/ ٢٥٧ – ٢٦٠ الروضتين، جـ١ ق١ ص: ٦٩٩ – ٧٠٣. الذهبي العبد: ٤/ ٢١٦ السلوك، ١/ ٦٤ – ٦٥.

[٢٠] هنا نجد التمييز بين الفارس والطواشي.

[٢١] المقريزي، الخطط (ط . المعهد) جـ٢ ق١ ص: ١٦.

ثانيا: تنظيمات الجيش الايوبي

مركز تحشدات الجيش (دمشق)

كانت بلاد الشام مركزاً للمقاومة ضد الصليبيين، ولاسيما في عهد نورالدين محمود الذي ملك دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م حين كانت بيد الاتابگ مجدالدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين[٢٢]. ولما توجه صلاح الدين الى الشام سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م جعل من دمشق مركزا للحكم. ولا شك ان موقع هذه المدينة القريب من الاقاليم التي صارت بحوزة الصليبيين، وبعد المراكز الاخرى ولاسيما حلب، اضافة الى متانة اسوار دمشق وتوفر وسائل العيش فيها ولطف هوائها، كل هذه العوامل جعلت من هذه المدينة مركزاً لا يعوض بالنسبة لصلاح الدين ليقوم بجهوده الرامية لتوحيد الجبهة الاسلامية، ويتحرك لاسترداد الارض الاسلامية. فمن دمشق انطلقت القوات الايوبية مراراً للاغارة على حصن الكرك المنيع، والى جهات الشمال نحو انطاكية واعمالها وقلاعها، والى الجنوب نحو صفد وكوكب وبيسان وغيرها[٢٣]. وكان يعود الى دمشق بقواته حين الانتهاء من عملياته الحربية[٢٤]. وقد يحدث ان يجتمع في هذه المدينة جميع عساكر الجيش الايوبي، كما حصل في سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م[٢٥]، وسنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وهذا يعني ان المشرفين على شؤون هذا الجيش قد وفروا المعسكر اللازم الذي يأوي اليه هذا العدد الغفير من الجنود، ووفروا في المعسكر ما يحتاجون اليه من الطعام واماكن لراحتهم وراحة دوابهم وغيرها. والواقع ان معسكراً ضخما كهذا كان موجودا في دمشق قبل العهد الايوبي بمئات السنين، وهو معسكر (الجابية) الشهير الذي كان في الاصل ضيعة قربية من دمشق[٢٦] قبل الاسلام، ثم

---

[٢٢] الكامل: ١١/ ١٩٧.

[٢٣] بهذا الصدد يقول (جان سوفاجيه) ان اتابگ السلاجقة والايوبيين وسموا دمشق بسمة خاصة دائمة، اذ جعلوها موقعاً حربيا. وانظر كتابه (دمشق الشام) ص: ٣٤.

[٢٤] انظر على سبيل المثال: الكامل ١١/ ٤٥٢، ١٢/ ٦٢ وابن العديم، زبدة الحلب: جـ٣ الصفحات التالية ٩ – ٢١، ٢٦ – ٢٧، ٥٥، ٥٦، ٧٢ – ٧٣، ٧٤، ٧٩، ٨٤، ٩١، ١٠١، ١٠٨.

ابو الفدا، المختصر، جـ٥ ٨٧، ٩٠، ٩١، ٩٨.

[٢٥] الايوبي، مضمار الحقائق، المقريزي، السلوك، ١/ ٨٤.

[٢٦] معجم البلدان، ٣/ ٩١.

تحولت بعد الاسلام إلى معسكر من اكبر المعسكرات في بلاد الشام ومركزاً لجندها، وامتازت الجابية بمناخها الصحي حتى اتخذت مصحاً للجند[٢٧].

ولعل القلعة كانت ابرز معالم دمشق العسكرية والادارية، فكان فيها مرافق الدولة من مخازن السلاح والسجن (الزرد خاناه) وبيت المال ودواوين الدول[٢٨].

وكانت دمشق بمثابة مخزن للاحتياطي من الذخيرة والسلاح[٢٩]، ومأوى للاسرى الصليبيين[٣٠] نظرا لقربها من ميادين القتال وسهولة ارسالهم اليها وتبادلهم مع الاسرى المسلمين.

ديوان الجيش:

كان هذا الديوان مسؤولا عن الشؤون الخاصة بالجيش، ويتولى امره احد المطلعين على قضايا هذه المؤسسة، شرط ان يكون مسلماً وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة[٣١]. وهذا الديوان كان اشبه بوزارة الدفاع في الوقت الحاضر، والمتولي عليه مسؤول عن معرفة احوال الاجناد وتسجيل الامور الخاصة بحضورهم وغيابهم واوضاعهم الصحية وموتهم[٣٢].

والمرجح ان يكون ثمّة ديوانان للجيش الايوبي، احدهما خاص بمصر والثاني بالشام، الا اننا لا نعرف من الذي تولى أمر هذا الديوان في الشام، اما في مصر فقد تولاه احد النصارى هو (المهذب بن ابي المليح مماتي) منذ اواخر العهد الفاطمي، واستمر على هذه المهمة ايام صلاح الدين، بعد ان اعلن – مع اسرته – عن اسلامه، وتولاه بعد ابنه (الاسعد) مصنف كتاب (قوانين الدواوين)، واستمر على تولى مهمته

---

[٢٧] دائرة المعارف الاسلامية. ط ١٩٣٣ جـ٦ ص ٢٣٣. وعن اهمية الجابية انظر: الكامل ٢/ ٥٠٠ – ٥٠١، ٥٣٥، ٥/ ٥٨٦ وصبح الاعشى، ١/ ٣٩٤.

[٢٨] الحموي، دمشق في العصر الاموي، ص ٣٠.

[٢٩] الكامل: ١١ك ٤٨٧.

[٣٠] مضمار الحقائق، ص ٢٩.

[٣١] صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٨.

[٣٢] ن . م . ص.

طيلة فترة صلاح الدين وابنه وخليفته في حكم مصر الملك العزيز عماد الدين عثمان، حين تولى ديوان المال اضافة الى ديوان الجيش[٣٣].

زي الاجناد:

تحدث مؤرخون عديدون – وفي طليعتهم القلقشندي – عن مواصفات زي الاجناد في العصر المملوكي في مصر ذلك العصر الذي نضجت فيه واستقرت الكثير من التقاليد الخاصة بمختلف شؤون الحكم والادارة والكتابة والجيش والمال وغيرها، والذي يعده المؤرخون استمراراً للعهد الايوبي، بل انهم يعتبرون هذا العهد حلقة وصل بين العصر السلجوقي والاتابگى من جهة، والعصر المملوكي من جهة اخرى، ولاسيما في التقاليد العسكرية، في حين نرى ان العصر الفاطمي الذي استمر في مصر اكثر من قرنين لم يترك ذلك الاثر في كيان الدولة الايوبية، ومن ثم المملوكية، على الرغم من ان الايوبيين كانوا ورثة الفاطميين.

عن زي القادة العسكريين والجنود الايوبيين تحدث القلقشندي وقال: ان الدولة الايوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة، وغيرت غالب معالمها، وجرت على ما كانت عليه الدولة في عهد عماد الدين زنكي – مؤسس اتابگيه الموصل وحلب الشهيرة – ثم ولده نور الدين محمود بالشام وما معه، وكان من شأنهم انهم يلبسون الكلوتات[٣٤] الصفر على رؤوسهم مكشوفة بغير عمائم، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها، سواء في ذلك المماليك والامراء وغيرهم[٣٥].

الا ان تغييراً جرى في غطاء الرأس في بعض الفترات الاتابگيه والايوبية، فسيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي، ثاني اتابگه الموصل (٥٤١ – ٥٤٤هـ/ ١١٤٦ – ١١٤٩م) استحدث حمل السنجق على رأسه، وقلده الملوك في ذلك، والزم الاجناد ان

---

[٣٣] وفيات الاعيان: ١/ ٢١٠.

[٣٤] الكلوتات: ضرب من غطاء الرأس (كلاو) كان الامراء يلبسون في مصر وغيرها. انظر: دوزي كتابه (المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب) ص ٨٥.

[٣٥] صبح الاعشى: ٤/٥، ٤/٣٩.

يشدوا السيوف في اوساطهم، ويجعلوا الدبابيس تحت ركبهم عند الركوب[٣٦]، وحين ملك صلاح الدين الديار المصرية، جرى على النهج نفسه او ما قاربه[٣٧].

واستحدث الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ابو بكر بن ايوب، صاحب دمشق (٦١٥ – ٦٢٤هـ/ ١٢١٨ – ١٢٢٧م) عادة لبس الكلوته الصفراء بلا شاش[٣٨]، كما ذكر القلقشندي[٣٩]، فالكلوته في عهد صلاح الدين كانت تلبس وعليها شاش، الى ان رفعه الملك المعظم المذكور، واستمر هذا التقليد الى العهد المملوكي حين أمر الملك الأشرف خليل ابن السلطان محمد بن قلاوون باعادة الشاش على الكلوتة، كما كانت عليه في عهد صلاح الدين[٤٠].

وقد استحدث صاحب الموصل المذكور (سيف الدين غازي) تغييرات في لباس الجند وقلده باقي الامراء والمقدمون واعيان الجند، فكانوا يلبسون الاقبية[٤١] الواسعة والتكلات فوقها، ثم القباء الاسلامي فوق ذلك، أي أنهم كانوا يلبسون قباءين تكون اكمام القباء الفوقاني أقصر من اكمام القباء التحتاني واوسع منه[٤٢]. ويشد السيف من جهة اليسار والصولق[٤٣] والكزلك[٤٤] من جهة اليمين، حسب ما ورد في كتاب القلقشندي[٤٥].

---

[٣٦] الكامل: ١١/ ١٣٨. المختصر. ٤/ ٣١.

[٣٧] صبح الاعشى: ٤/ ٦.

[٣٨] الشاش: قطعة من البز تلف حول طاقية او عرقية او حول الرأس، وهي كلمة معادلة للعمامة. دوزي، المعجم المفصل، ص ١٩٧ – ١٩٩.

[٣٩] صبح الاعشى: ٤/ ٥.

[٤٠] ن . م . ص: ٦.

[٤١] القباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

[٤٢] صبح الاعشى: ٤/ ٤٠.

[٤٣] الصولق: جراب او كيس من جلد يربط على الجانب الايمن من الحياصة توضع فيه حاجات السفر من الزاد. المقريزي السلوك، جـ١ ق٣ ص ٧٨٩. واللفظ التركي يعني: (الذي في جهة اليسار) ويبدو انهم كانوا يعلقون الكيس على الرقبة من جهة اليمين ليتدلى من جهة اليسار. فـ(صول) يعني (يسار).

[٤٤] الكزلك: الخنجر والسكين. الديوهجى، الموصل في العهد الاتابگى، ص ٧٢. د. الجميلي دولة الموصل، ص ٢٥٨.

[٤٥]

التموين:

كـان التمـوين يشـكل احـدى اهـم مشـاكل تعبئـة الجيـوش، نظـراً لصـعوبة المواصلات، والاعتماد في حمل المواد على حيوانات النقل البطيئة الحركة، اضافة الى تلف المؤن، وكذلك لصعوبة الاتصال بالمراكز لتوفير المؤن، ولهذا فكـثيرا مـا كانـت مسألة التموين تحدد مصير الحملات، وتسرع في حسم نتائج المعركة لصـالح الطـرف الذي اخذ احتياطه الكافي من الزاد والماء. فكان على القائد ان يمون جيشـه بالكميـة اللازمة التي تكفي المدة التي يقضيها في الطريق الى ميدان المعركـة ثـم العـودة منـه، وان يضع في حسابه استمرار التزود بالمؤن عند الحاجة، ولا يقطع عنه خط التمـوين ما استطاع الى ذلـك سـبيلا. واذا ادركنـا ان حالـة العطـش الشـديد الـتي عـاني منهـا الصليبيون يوم حطين كانت في طليعة اسـباب هـزيمتهم الشـنيعة في ذلـك القـيظ مـن شهر تموز، ادركنا اهمية سلاح الماء في رجحان كفـة طـرف دون آخـر، ولعـل صـعوبة تزويد عكا بالمؤن اللازمة كانـت اهـم اسـباب سـقوطها بيـد الصـليبيين بعـد صـمود طويل دام نحو سنتين.

وكانت مواد التموين تحمل في مؤخرة الجيش عادة، أي في الساقة، وكانت تسمى بـ(الثقـل). ولكـن حـدث في بعـض الحمـلات ان وضـعوا الثقـل في وسـط الجـيش، أي بالقرب من قلب العسكر. ويحتمل ان يكون سبب ذلـك خشـيتهم مـن اسـتيلاء العـدو عليه والظفر به. ففي اواسط جمادي الاولى سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م (رحل السـلطان الى تعبئة لقاء العدو، ورتب الاطلاب، وسارت الميمنة اولاً والقلب في الوسـط والميسـرة في الاخير.. وسار الثقل في وسط العسكر)[٤٦].

ونجد ان الجند من جهتهم كانوا يحملون معهم مواد التموين الضرورية في الجراب – الصولق – المعمول من الجلد الذي يعلق على الكتف. ولـدى التهيـؤ للسـير يتعبـأ الجند بنزولهم الى السوق والتزود بالضرورات، ولعلها لم تتعد الخبـز والجـبن والبصـل وبعض اللحوم المجففة وشيء من الحبوب والبقول والاثمار والتمور. فلدى الاسـتعداد للقيام بنوية الرملة التي انتهت بهزيمـة صـلاح الـدين سـنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م يتحـدث

---

[٤٦] ابن شداد، النوادر (سيرة صلاح الدين) ص ٨٧. ابن واصل، مفرج الكروب، ٢/ ٢٥٦.

عماد الدين الكاتب ويقول: نودي في الجنود: (خذوا عشرة ايام اخرى زيادة للاستظهار، فركبت الى سوق العسكر للابتياع، وقد أخذ السعر في الارتفاع..)[٤٧].

وفي الغزوات التي اعقبت موقعه حطين، وقيام الجيش الايوبي بالاغارة على الساحل في منطقة امارة طرابلس الصليبية سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م نودي في الجنود: (انا داخلون الى الساحل، وهو قليل الازواد، والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر)[٤٨]. وحين اشتدت الضائقة على اهل عكا في الحصار الشديد الطويل، بعث الامير بهاء الدين قراقوش من داخل المدينة يشكوا الى السلطات قلة الميرة، فرتب لهم هذا بطسة (سفينة ضخمة) كبيرة وارسلها، ولكي يتم دخولها الى عكا بسلام، وضع على البطسة بعض النصارى من اهل بيروت الذين كانوا قد اسلموا، لكي يستطيعوا التفاهم مع الاعداء المحاصرين ويموهو عليهم بلغتهم ولبسهم وبذقونهم الحليقة، وللزيادة في التمويه امرهم السلطان ان يرفعوا الصلبان على سارية البطسة، ويضعوا الخنازير على سطحها، وساروا نحو عكا، وفي الطريق اعترضهم الصليبيون، الا انم استطاعوا تمرير الخديعة، وايهامهم بأنهم صليبيون ودخلوا الميناء المحاصر[٤٩]، ومعهم الميرة وهي اربعمائة غرارة قمح وكميات من الجبن والبصل والغنم وسائر ما يحتاجون اليه[٥٠].

وقد تكرر ارسال المؤن الى عكا نظراً لطول مدة الحصار، وكانت تأتيها من مصر، ذات الثروة الطائلة، اضافة الى ما كان يرسل اليها من بيروت[٥١]. وابتداع المسلمون من اجل ذلك مختلف (السبل للحيلولة دون سقوطها، ثم حلت بهم الهزيمة وسقطت عكا، وكانت صعوبة التموين اهم اسباب ذلك، كما اسلفنا.

وحدث لبعض المدن التي بيد الصليبيين، ان سقطت بيد الجيش الايوبي بسبب انقطاع الميرة عنها، بل ان حصن كوكب المنيع القريب من طبرية، قد سقط بيد المسلمين حين (اعوز سكانها الملح! فخرجوا منها أذلة، وسلموه) الى الجيش

---

[٤٧] سنا البرق الشامي: ١/ ٢٥٣ الروضتين جـ١ ق٢ ص ٦٩٧.

[٤٨] النوادر، ص ٨٦.

[٤٩] الفتح القسي: ٤١٧، مرآة الزمان ٨/ ٤٠٤، مفرج الكروب ٢/ ٣٣٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٣٧.

[٥٠] النوادر: ١٣٥، الفتح القسي ٤١٧، الروضتين: ٢/ ١٦٠ – ١٦١، مفرج الكروب ٢/ ٢٢٠.

[٥١] النوادر: ١١٧، الفتح القسي: ٤١٩.

الايوبي[٥٢]. رغم ما في هذا السبب من طرافة. ونجد ان الجيش الايوبي كان يلجأ في الحروب الى قطع طرق التموين عن عدوه لتجويعه، ومن ثم اضعافه وتسليمه. كما قام بافساد زرع الصليبيين وكرومهم، وقطع اشجارهم في منطقة الكرك في محاولة لاضعاف صاحبها (رينودي شاتيو) المعروف بـ(ارناط) في المصادر العربية[٥٣]. وقام ايضا بحصد غلات العدو.. حتى جف زرعهم[٥٤].

التعبئة العسكرية:

تعني التعبئة مجموع الاعمال التي يقوم بها الجيش في مجال تحشيد القوات في ميادين المعارك، وسوقها الى خطوط القتال، او تنسيق القوات للرد على هجمات العدو والانتصار عليه[٥٥] ولم يخرج عن هذا المعنى مفهوم التعبئة قديماً وحديثاً، الا ان اساليبها وصنوف جيشها والالات والمعدات التي يستعملها هي التي تغيرت.

وما يعنينا في التعبئة العسكرية للجيش الايوبي، هو ما كان عليه يؤمئذ فعلاً، دون أن ندخل في تفاصيل الانظمة التي كانت عليها الجيوش العربية الاسلامية في العهود السابقة، الا اننا نذكر ان ابرز اشكال تنظيم الجيوش هو نظام الصفوف المتراصة ثم نظام الكراديس[٥٦]. اما النظام الذي سار عليه الجيش الايوبي فهو نظام التخميس والذي لم يختلف صلاح الدين عمن سبقه من القادة المعروفين الذين طبقوا هذا النظام من حيث الاساس. ولدى دراستنا تواجهنا مشكلة تحديد نوعية التخميس الايوبي، او طريقة رص اطراف هذا النظام – ولاسيما الجناحين، الميمنة والميسرة – وموقعهما بالنسبة لجذعه (لقلب الجيش). فالكتب التي اعتمدنا عليها، والتي صنفت في مجال ترتيب الجيوش، تذكر عدة أنساق سارت عليها الجيوش الاسلامية في العصر الوسيط. والواقع ان تلك الكتب لا تشبع نهم الباحث من الناحية العملية،

---

[٥٢] الهروي، التذكرة، ص ٨٦.

[٥٣] مفرج الكروب ٢ك ١٨٦.

[٥٤] الروضتين: ٢/ ٨.

[٥٥] الزعيم طه الهاشمي، الجغرافية العسكرية، ص ٨٣.

[٥٦] عن نظام الكراديس انظر: مقدمة ابن خلدون. ط الهيئة المصرية ص ١٩٠ – ١٩١.

اذ هي تتحدث عن قضايا من المحتمل انها لم تحدث في العصر الذي تبحث عنه، ليس في مجال تنظيم الجيش فحسب، بل بالنسبة للقضايا العسكرية الاخرى كذلك.

وتنظيم الجيش الايوبي كان على نسق كتائب يشبه ترتيب اعضاء جسم الانسان الرئيسية، او يشبه الصليب، فالجذع في الوسط بمثابة قلب العسكر، والرأس في المقدمة بمثابة طليعة العسكر او المقدمة، واليدان في الجهتين بمثابة جناحي الميمنة والميسرة، ثم الساقين معا في الخلف بمثابة مؤخرة او ساقة الجيش. ومن هذا نرى ان التنظيم على هذا النسق قائم على خمسة اجزاء، ومنها تسمية الجيش بـ(الخميس)[٥٧].

ويرى ابن منكلي المصري ان الصفوف كان يتم ترتيبها بثلاثة اشكال، الفرق بينها هو موقع الجناحين من القلب، وفيما اذا كانتا تتقدمان على القلب، او يتقدم القلب على الجناحين، او كان القلب والجناحين على مستوى واحد في خط مستقيم، وهو ما يسمى بالصف المستوى، ويقول ان هذا الصف هو اوثق الصفوف، ولعله اشهرها ايضاً كما نرى، وكان ينظم في ستة صفوف، في كل صف مائة وأحد عشر فارساً. اما الشكل الاخر فيسمى بالصف الهلالي، وهو خارج الجناحين، وكانوا يضعون في كل طرف من الجناحين الخارجين كردوسا من الخيل المقوية له.

والشكل الثالث كان على عكس الشكل الهلالي، ويسمى بالصف المعطوف، وهو داخل الجناحين، وكان المسلمون لا يتخذون هذا النوع من الترتيب الا عند الضرورة، حيث يجعلون اهل البأس والقوة في الميمنة والميسرة، او يقوون القلب بكردوسين من الخيل، وكان يراعي في تنظيم الصفوف ان يكون قصار القامة من الرجال قبل اطولهم[٥٨]. وكان ثمة اشكال اخرى لتنظيم الجيش اقل اهمية وشهرة[٥٩].

ويرى الطرسوسي المعاصر لصلاح الدين ان الجنود المشاة (الرجالة) ينبغي وضعهم (أمام الفارس ليكون له كالحصن المانع) على ان يكون الراجل محمياً

---

[٥٧] الطرسوسي، مخطوط تبصرة ارباب الالباب ورقة ١٩٠ أ. الفتح القسي ٨٩، ١٥٤. معجم (الافصاح في فقه اللغة) جـ ١، ص ٦١٩

[٥٨] د. جهادية القرة غولي، التنظيمات الادارية والعسكرية، نقلا عن ابن منكلي _الادلة الرسمية في التعابي الحربية) مخطوط،ورقة ١٣ – ١٤.

[٥٩] للمزيد من التفاصيل انظر جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، جـ ١ ص ١٩٩.

بستائر يتخذها امامه تكف عنه شر من يضرب بالسيف او الرمح او يرمى بسهم واقع من الاعداء، ويجعل بين كل راجلين احد رماة النبال ليرمي اذا لاحت له فرصة في الاعداء، او تبين له من الجمع اختلاله[٦٠].

وموضع القائد كان في القلب عادة[٦١]، ومعه الاعلام حتى يراه جميع امراء المراتب لتنفيذ التوجيهات التي تصدر منه، الا انه كان يغير موضعه احياناً ويميل الى احد الجناحين لتقويته، او لاعادة تنظيمه حين يضطرب لسبب ما، وفي بعض الاحيان كان يتحول الى المقدمة لاثارة حماس الجند، وليلقي الرعب في نفوس المقابل. وكان صلاح الدين يضع القادة والامراء المعروفين على رأس الجناحين، اما على رأس المقدمة (الطلائع) فكان يضع اصحاب الخيول: السبق والرمي والخفة في الطراد والمقابلة[٦٢]. ففي (الوقعة العظمي) التي حدثت بمرج عكا في شعبان ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، والتي سخّر لها الصليبيون كل قوتهم بعد هزيمتهم الشنيعة في حطين والقدس وغيرها، نظم صلاح الدين قواته للمسير، ووضع في الميمنة ولديه الملك الافضل علي والملك الظافر خضر ثم عسكر الموصل بقيادة ابن البلتكري، وعسكر ديار بكر بقيادة قطب الدين نور الدين صاحب (حصن كيفا) وآمد، ثم حسام الدين لاشين (ابن اخت صلاح الدين)، صاحب نابلس، وصارم الدين قايماز النجمي، وجموعاً عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان يقودها جميعاً ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر، ابرز ابناء الاسرة الايوبية شجاعة وجرأة.

اما الميسرة فكان عليها الامير علي بن احمد المشطوب الهكاري مقدم الاكراد، والامير مجلي بن مروان، وجماعة من المهرانية والهكارية، وبرتقش مقدم عسكر سنجار، وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين گوگبورى (صاحب الرها وحرّان يومئذ) بعسكره، وفي مؤخرة الميسرة كبار الاسدية، مثل يازكوج وارسلان بغا. وفي مقدمة

---

[٦٠] الطرسوسي، التبصرة، ورقة ١٩٠ ب.

[٦١] مفرج الكروب، ٢/ ٢٩٥. الحسن بن عبدالله العباسي، آثار الدول، ص ١٧٥.

[٦٢] آثار الدول، ن . ص . ويرى الطرطوشي ان من الحزم ان تكون حماة الرجال والابطال في القلب، فانه مهما انكسر الجناحان فالعيون ناظرة الى القلب.. واذا انكسر القلب تمزق الجناحان. انظر (سراج الملوك) ص: ١٧٥.

القلب الفقية عيسى الهكاري وجمعه، اما صلاح الدين نفسه فكان يطوف على الاطلاب ويحثهم على القتال[٦٣].

يظهر من ذلك ان العبء الاكبر كان يقع على الجناحين، بوضع ابرز الامراء على قيادتهما، في حين ان المقدمة وكذلك القلب لم يكن فيهما احد من القادة الكبار. وقد تكرر هذا الترتيب في شتى معارك هذا الجيش مع إحداث بعض التغيير في هذا الجناح او ذاك[٦٤]. الا ان السلطان كان – في كل الحالات – يعبئ العسكر ويتفقد الصفوف بنفسه[٦٥]، ويبقى على اتصال وثيق باجزاء الجيش كلها ومحافظاً على الارتباط بأمراء التعبئة ويشرف على سير المعركة، ليقدر الموقف اللازم اتخاذه حين تضطرب الصفوف، ولذلك فانه يستخدم احتياطه في الا ماكن الضرورية، ويكشف قواته لمقاومة العدو[٦٦].

الاطلاب واصناف الجيش حسب كل صنف:

كان الجيش الايوبي قد عرف نظام الاطلاب، الذي تحدثنا عنه من قبل، وهو قائم على اساس تقسيم الجيش الى مجاميع، كانت بمثابة كتائب يكون على رأس كل مائتي فارس، او مائة او سبعين فارساً، امير مقدم[٦٧]. فيقال ان الحملة الفلانية تضم كذا من الاطلاب، الا اننا لا نستطيع ان نجزم بان الجيش الايوبي اتبع نظام الاطلاب بتلك الدقة التي عرف بها الجيش المصري في عهد المماليك، رغم ان لفظ الاطلاب يرد كثيراً في كتب المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين[٦٨] وخلفائه. لكنه يرد احيانا وكأن القصد منه هو ترتيب الصفوف دون ان يقصد عدداً معيناً.

وكان لكل صنف من الصنوف المقاتلة والمساعدة مزاياه يتميز بها من الصنوف الاخرى، وهذا التميز يظهر بنوع السلاح الذي يستعمله والعتاد الذي يتجهز

---

[٦٣] النوادر ص ١١٠ مفرج الكروب، ٢/ ٢٩٥ – ٢٩٦.

[٦٤] الفتح القسي ٣٠٨.

[٦٥] ابن منكلي، التدبيرات السلطانية، مخطوط، ورقة ٢٧.

[٦٦] التذكرة الهروية، ص ٩٩.

[٦٧] المقريزي، الخطط (طبعة المعهد) جـ٢ ق١ ص ١٦.

[٦٨] النوادر، ص: ٧٦، ١٤٨، ١٦٠، ١٨٥. الفتح القسي: ٦٩، ٧٠، ١١٥، على سبيل المثال.

به، والواجبات الملقاة على عاتقه. ولا يمكن للجيش ان يتحرك بنجاح في العمليات العسكرية ما لم يعمل جميعا بوفاق وتنسيق تامين، ويساعد بعضها البعض الاخر في حالات الاشتباك. وكان هناك صنفان اساسيان في الجيش الايوبي، اضافة الى الاصناف الجانبية، وهما:

(أ) صنف الفرسان (الخياله) ويؤلف هذا الصنف قسماً ملازماً لكل جيش، ويقوم بأعمال مجيدة، وهو عصب الجيوش في حروب العصور الوسطى، وكانت من مهماته الرئيسة: القتال والاستطلاع (او الاستكشاف) نظرا لما تتطلب هاتان العمليتان من سرعة الحركة الضرورية في الهجوم والكشف ومطاردة العدو وقطع طرق العودة عليه للتزود بالقوت والمؤن. وكانوا يختارون – عادة – أهل النصيحة والنجدة والتجربة في الحرب للقيام بهذا الواجب، ويتفادون الاشتباك مع العدو حين القيام بمهمة الاستكشاف، فالهدف من عملهم – في الاساس – هو تقدير قوة العدو، ومعرفة مواطن الضعف فيه[٦٩]. وكذلك يقوم الفرسان بنجدة المواضع المعرضة للخطر المفاجئ. الا انهم كانوا يوضعون خلف المشاة في ترتيب الصفوف، كما يذكر الطرطوسي بقوله: (ولتكن الخياله والابطال من وراء الرجالة.. ينتظرون الحملة فاذا همّوا بها، فتح لهم باب يحملون منه بالتعاون مع الرجالة[٧٠].

اما المزايا التي كان ينبغي ان تكتمل في الفارس، فكانت تحدد من ناحية الترويض الجسدي بالقوة البدنية والالمام بفن مواجهة العدو، كفن المصارعة (المنازلة) ومعرفة استعمال الرمح، وفن الرماية[٧١]. وكان الفرسان يتسلحون بالسيوف والحراب الطويلة، ويرتدون الزرد والترس والخوذ، اما خيولهم فمن الراجح انهم كانوا يضعون عليها التجافيف والسروج[٧٢].

(ب) **صنف المشاة** (**الرجالة**): وكان يؤلف القسم الاعظم من قوة الجيش، ويقوم باعباء القتال وتحمل مشقاته ونتائجه. وكانت الاسلحة التي يحملها افراد الصنف اسلحة خفيفة، لانهم يسيرون على اقدامهم، فكانوا يستعملون السيف

---

[٦٩] الهرثمي، تفريج الكروب، ص: ٥١.

[٧٠] التبصرة، ورقة: ١٩١ أ.

[٧١] بولياك، الاقطاعية: ص ٥٤.

[٧٢] احسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص: ١٦٦.

والاقواس والرماح القصيرة. كما كانوا يقومون باخراج افراد العدو من خنادقهم ويقضون عليه[٧٣]، ويكلفون بحماية الجيش اثناء المسير للحيلولة دون مداهمته من قبل العدو، وحراسة القوافل التي تحمل المؤن والعتاد اثناء تنقلها. وفي ترتيب صفوف الجيش كان المشاة يوضعون في الصفوف الامامية، وخلفهم الخيالة والابطال، كما ذكر الطرسوسي[٧٤].

(ج) **الصنوف الاخرى المساعدة:**

وتعرف باسماء الاسلحة والاعتدة التي كانت تستعملها، والواجبات التي يقوم بها كل صنف، كصنف المنجنيقيين والدبابيين (قائدي الدبابات) والنفاطين وصنف المخابرات وصنف التموين وغيرها.

وقبل التوجه الى ساحة القتال كان القائد يقوم بعرض الجيش وتعيين مواضع الاطلاب وسد الثغرات والخروق والتأكد من صلاحية الاسلحة التي يحملها المحارب. فقبيل التوجه الى حطين مثلاً (وقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيباً ويبوّبه تبويباً ويعّبؤه بعيدا وقريباً. وقرر لكل امير امرا ولكل مقدام مقاماً، ولكل موفّق موقفا ولكل كمين مكانا.. وعين لكل امير موضعا في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه، ولا يغيب جمعاً ولا يبرح أحد منه. واخرج الجاليشية[٧٥] الرماة الكماة من كل طلب" وقال: (اذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا وصورة مواردنا ومصادرنا، ومواضع اطلابنا، ومطالع ابطالنا)[٧٦].

وكان ثمة شخص في الجيش مهمته النداء واستنفار الجند للقتال، وشحذ الهمم، وكان موضعه قريباً من القائد عادة، فكل ما يصدر منه من اوامر يبلغه بصوت عال الى عموم الجيش، ويسمى (الجاووش)[٧٧]. وكان ينادي بالقوم ان يستعدوا، ا وان

---

[٧٣] طه الهاشمي، دروس المعلومات الجغرافية، ص: ١٨.

[٧٤] الطرسوس، التبصرة، ورقة ١٩١ أ.

[٧٥] الجاليشية: الاصل في معناها هو الراية العظيمة التي في رأسها خصلة من الشعر، ثم اطلقت على مقدمة القلب في الجيش او على الطليعة منه. صبح الاعشى، ٤ ك ٨.

[٧٦] الفتح القسي، ٦٩ — ٧٠.

[٧٧] الجاووش (او الجاويش — الشاويش) لفظ تركي انظر: مفرج الكروب ٢/ ٢٩٥ هامش ١ والمقريزي، السلوك، ١/ ٨٧٠ هامش ٢.

الحاجة تدعو الامير الفلاني بالانتقال باطلابه لتقديم المساعدة الى الجهة الفلانية اثناء القتال، بعد ان احدث العدو ثغرة فيها، او يذكي حماس المقاتلين بنداءات مثيرة خاصة من مثل (ياللاسلام وعساكر الموحدين)[٧٨]. والملاحظ ان هذه المهمة (مهمة النداء) ظهرت بوضوع بعد سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، أي بعد موقعة حطين، فلم نعثر من خلال النصوص، على وجود الجاووش في الجيش قبل التاريخ المذكور[٧٩]. ولعل تفسير ذلك هو ان الجيش الايوبي زاد حجمه فبات من الضروري وجود من يقوم بهذه المهمة لتعميم الاوامر السلطانية على الفرق والاجنحة، ونرى – ايضا – ان اذكاء حماس المقاتلين أصبح ضرورة اكثر من ذي قبل في الفترات التي لم يعد بوسع الجيش ان يحرز الانتصارات كالسابق، بعد ان ضعفت لديه قدرة الاقتحام بعد ان تلاحقت الامدادات الواسعة الى الصليبيين الذين كانوا لايزالون يستولون على بعض المواقع الحصينة في الارض الاسلامية في فلسطين والساحل الشامي.

(د) **الفرق الملحقة بالجيش**:

١– **الفرقة الهندسية:** وكانت تقوم بمهمات تتطلب معرفة خاصة بشؤون الهندسة العسكرية التي يلزمها القتال، ولاسيما قتال الاسوار والخنادق، مثل نصب المعدات الحربية الثقيلة، كالمنجيق والدبابات والاقواس الثقيلة مثل قوس الزيار والچرخ والقوس المتعددة الاتجاه وقاذفات النفط، ثم بناء المعسكرات والاسوار، ولاسيما في الاماكن ذات الميزة العسكرية الحساسة، وتشييد الجسور ونسفها وردم الخنادق وحفرها، وحفر الابار وتعيين مواقع ضرب الحصار حول اسوار المدينة المنوي فتحها، وتهشيم هذه الاسوار وتغيير مجاري الانهار، وغيرها من الاعمال الهندسية التي كانت ضمن واجبات هذه الفرقة.

فلدى حصار بيت المقدس ظل صلاح الدين وجيشه يطوفون حوله طيلة خمسة ايام، واخيراً استطاع الملمون بشؤون هندسة الاسوار، العثور على المكان المناسب في الجهة الشمالية من السور، نحو باب عمودا وكنيسة صهيون، فأمر صلاح الدين بنصب معدات الحصار عند هذا الموضع[٨٠].

---

[٧٨] النوادر: ١٠٩ مفرج الكروب، ٢/ ٢٩٥، ٣٢٦.

[٧٩] انظر: الفتح القسي: ٢٣٥. النوادر: ٩٨، ١٠٩، ١٤٧، ١٥٩، ١٧٨، ١٨٥، ١٩٧. مفرج الكروب ٢٩٥.

[٨٠] الكامل: ١١/ ٥٤٧. الروضتين: ٢/ ٩٢. النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٦.

وفي عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، ولدى حصار الموصل، الذي عجز جيش صلاح الدين من احراز نصر عسكري مباشر فيه، رغم تكرار محاولاته بسبب متانة اسوار هذه المدينة، اشار عليه بعض رجاله الى تعطيش المدينة بتمويل مجرى دجلة، وعرضت الفكرة على فخرالدين ابن الدهان البغدادي، مهندس زمانه، لابداء رأيه، فقال: (هذا ممكن ولا يتعذر، ويتيسر ولا يتعسر)[٨١]. وجاء في كتاب بعث به صلاح الدين الى الخليفة العباسي، والذي كتبه مستشاره القاضي الفاضل: (وذكر المهندسون اهل الخبرة انه يسهل تحويل دجلة عن الموصل بحيث يبعد مستقى الماء منها، وحينئذ يضطر أهلها تسليمها بغير قتال، ولا حصول ضرر في تضييق ولا نزال)[٨٢]. الا ان صلاح الدين لم ينفذ المشروع، ولعل ذلك كان لصعوبته وارتفاع تكاليفه وضيق الوقت.

٢- الفرقة الطبية:

مصاحبة الفرقة الطبية للجيش الى ميدان القتال لمعالجة الجرحي والمرضي كانت امراً ضروريا. وكان الاطباء ومساعدوهم يشكلون ما يشبه مستوصفا متنقلا، فيه ما يحتاجون اليه من ادوية وادوات ونقالات، وكانت هذه المعدات تحمل على ظهور الحيوانات، ثم ينصب المستوصف داخل خيام يبيت فيه المحتاج الى العلاج. والظاهر ان عهد صلاح الدين كان فترة انتعاش للشؤون الطبية، وذلك لكثرة الحاجة اليها، واغداق المال عليهم بسخاء، والواقع ان الاهتمام بشؤون الطب وتشجيع القائمين عليها بدأ منذ وقت مبكر من العهد الايوبي، وقد أولى صلاح الدين الاطباء الذين خدموا البلاط الفاطمي بمصر او البلاط النوري الاتابگى في الشام اهتماماً كبيراً، ومن هؤلاء الاطباء ابو البيان بن المدور الذي كان له جامكية (مرتب) تصل اليه كل شهر، وبقي على تلك الحال نحو عشرين سنة. ولابي البيان مصنفات طبية[٨٣]. والطبيب (حكيم الزمان) عبدالمنعم بن عمر الغساني الذي كان علامة زمانة في صناعة الطب والكحل واعمالهما، وقد استقر في دمشق يعالج مرضاه، وكان صلاح

---

[٨١] الروضتين، ٢/ ٦٢ – ٦٣.

[٨٢] ن . م ص: مفرج الكروب: ٢/ ١٦٧.

[٨٣] ابن ابي صبيعة، عيون الانباء. جـ٣ ص ١٩١.

الدين يجله كثيراً[٨٤].. ومن اطباء هذا العهد ابو الحسن على بن ابي عبدالله عيسى المعروف بابن النقاش البغدادي الدمشقي[٨٥]، وعفيف الدين بن عبدالقادر الذي الف كتاباً أهداه الى صلاح الدين. وكان الاطباء يصحبون الجيش في تنقلاته حين تقتضي الضرورة. ويلاحظ ان الاطباء كانوا يستقرون في دمشق بسبب وجود المستشفى النوري الكبير فيها، وقد اختيرت بسبب قربها من ميدان القتال، فكان جرحى ومرضى الحرب يرسلون اليها بيسر. هذا وكان لصلاح الدين طبيبه الخاص يصحبه في حملاته، لانه كان يعاني من آلام والتياث مزاج، وتظهر دمامل في ظهره، حتى لامه اصحابه على قلة اعتنائه بصحته، وعدم اخذ قسط من الراحة، فكان يرد عليهم بقوله: اذا ركبت للجهاد زال عني الالم حتى انزل.

٣- فرقة الموسيقى العسكرية:

بعد ان ينادي الجاووش بالعسكر ان يستعدوا، تشد الرايات وتبدأ الكوسات[٨٦] بالضرب، وكان هذا بمثابة الموسيقى العسكرية، او المارشات في الوقت الحاضر، كجزء من عملية اثارة حماس المقاتلين[٨٧]. وتثبت وقائع التاريخ الايوبي ان الموسيقى العسكرية كان لها شأنها في الجيش وخصص لها مكان خاص يسمى (الطبلخاناه) أي (مكان الطبل)، ويذكر المقريزي بهذا الصدد انه بعد ان استقر صلاح الدين في مصر وانتهت الدولة الفاطمية (رتب نوب الطبلخاناه) ونظم شؤونها[٨٨]. ويشرح القلقشندي معنى هذا المصطلح ويقول: (ومعناه بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والابواق وتوابعها من الالات) وقد كانت هذه الالات تضرب في اوقات القتال، وفي بقية الايام (ثلاث مرات في كل يوم)[٨٩]، وكان الذي ينقر على الطبل

---

[٨٤] ن . م، ٣/ ٢٥٩.

[٨٥] ن . م ٣/ ٢٦٥.

[٨٦] الكوسات، صنوج تشبه الترس الصغير يدق باحدهما على الاخر بايقاع مخصوص. صبح الاعشى ٤/ ٦.

[٨٧] النوادر: ١٤٩.

[٨٨] الخطط (ط. الاوفيست. بغداد) ٢/ ٢٣٣.

[٨٩] ن . م ص:

يسمى (دبندار) والنافخ في البوق يسمى (منفر) اما الذي يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض، فكان يسمى (كوسي)[٩٠].

وكانت العادة ان تضرب على الكوسات لدى قدوم شخصية عسكرية هامة، وتنشر معها الاعلام والبيارق وتنعر البوقات، كما حصل – مثلا – لدى قدوم واستقبال الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين[٩١]. كما كان لكل مناسبة ايقاعها الخاص، يتمرّن على عزفها العازفون، وعلى سماعة المقاتلون، فثمة ضربات خاصة حين تدعو الحالة الى عدم التوقف عن القتال، رغم الهزيمة التي لحقت بهم فكان (الكوس يدق ولايفتر). وكذلك ضربات خاصة ببشائر النصر، فحين وصل الخبر في شوال ٥٨٧هـ/ ١١٩١م بان الاسطول الايوبي قد استولى على مراكب الفرنج التي كانت تحمل اكثر من خمسمائة نفر منهم (سر المسلمون بذلك، وضربت بشائر النصر، ونعق بوق الظفر)[٩٢].

٤– حملة اعلام الجيش:

وكان ضمن الجيش جماعة مهمتها حمل الراية والحفاظ عليها. والراية او العلم بمثابة الشارة التي تميز جماعة عن جماعة اخرى، وتتخذ من لون معين. وكان لون راية صلاح الدين اصفر، وفي وسطه صورة النسر علامة القوة والثقة في النصر. وبين الرايات (راية عظيمة من حرير اصفر مطرزة بالذهب عليها القاب السلطان واسمه، وتسمى العصابة، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى السناجق)[٩٣]، وكانت الراية الكبيرة تحمل عادة في ركب السلطان.

ووضع صورة النسر على الراية ينحدر اصله الى عهود قديمة، إذ وجد مرسوماً على رايات كثير من الدول القديمة[٩٤]. وفي التاريخ الاسلامي نقشه عماد الدين زنكي على النقود، ثم اتخذه الارتقيون شارة مميزة لهم، واخذ صلاح الدين هذا التقليد

---

[٩٠] النوادر: ١١٩.

[٩١]

[٩٢] ن . م ص: ١٨٣ – ١٨٤.

[٩٣] صبح الاعشى: ٤/ ٨.

[٩٤] يقول فيليب حتى ان اصل استعماله يعود الى العراقيين السومريين، كتابه (تاريخ سورية ولبنان) ص ٢٥١.

ورسمه على رايته. ولعل صلاح الدين كان مبتكرا في اتخاذ الاصفر لونا لرايته[٩٥]، وعن الراية الايوبية يتحدث العماد الكاتب لدى فتح الجيش لصيدا سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، ويقول: جاء رسل صاحب صيدا بمفاتيحها، واذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصابيحها، وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها[٩٦]، ويقول العماد في مكان آخر (كانت الاعلام السلطانية صفرا)[٩٧].

هذا وقد ورد وصف الراية الايوبية في مجموعة من قصائد شعراء ذلك العصر في مناسبات النصر على الصليبيين، ورفع العلم الايوبي. ففي معركة (بيت الاحزان) سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، هنأه جماعة من الشعراء بالفتح، منهم بهاءالدين ابو الحسن علي الساعاتي (ت. ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م) بقوله:

وما رفعت اعلامك الصفر ساعة

الا أن غدت اكبادها السود ترجف[٩٨]

ومدحه الشاعر الحسن المعروف بـ(العلم الشاتاني)

بقصيدة مطلعها:

ارى النصر مقروناً برايتك الصفرا

فسر وأملك الدنيا فانت بها احرى[٩٩]

وكانت الراية – بوصفها رمزاً للسيادة – ترفع في الاماكن الهامة كالحصون والسفن والمؤسسات الحربية الرئيسة، وحين يهزم احد الطرفين، فان اول ما كان يفعله الجانب المنتصر هو نزع راية المهزوم وانزالها ورفع رايته مكانها، كما فعل المسلمون في الحصون التي حرروها والتي كانت بيد الصليبيين، او كما فعل الصليبيون في عكا" فحين هزموا المسلمين واخذوا هذه المدينة المهمة (دخل

---

[٩٥] يقول د. الباز العريني: ان استعمال الالوان (الرنوك) في الشرق والغرب ساد منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، كتابه (المماليك) ص ٢٢٧.

[٩٦] الفتح القسي: ص ١٠٣.

[٩٧] سنا البرق الشامي، ١/ ٢٥٠ انظر (ديوان القاضي الفاضل) ص ٣٩.

الروضتين جـ١ ق٢ ص ٦٩٧.

[٩٨] مفرج الكروب، ٢/ ٨٣ – ٨٤.

[٩٩] سنا البرق ١/ ٢٥٠ وفيات الاعيان، ٧/ ٢١١. الروضتين، جـ١ ق٢ ص ٦٩٦.

المركيس البلد ومعه اربعة اعلام.. فنصب علماً على القلعة، وعلماً على مئذنة الجامع! وعلماً على برج الداوية، وعلماً على برج القتال، عوضا عن علم الاسلام الايوبي)[١٠٠].

ثالثا: المؤسسات الخاصة بادارة شؤون المعارك:

١- البريد والاستخبارات (تنظيم امور البريد) والكمائن

اقتضت ظروف الحرب، واشتداد الصراع مع الصليبيين وجود مؤسسة تهتم باستطلاع احوالهم، ومعرفة مدى قوته من حيث التعبئة وانواع الاسلحة والاعتدة، ورصد تحركاته. وتهتم كذلك بارسال الاخبار وتسلمها من اطراف البلاد. وكان اولو الامر في الدولة يحرصون على سرية المعلومات وعدم تسرب الانباء الخاصة بالجيش الى الاعداء.

وكان تنظيم امور البريد يجري بواسطة ديوان خصص لهذا الغرض سمي بديوان البريد، وضع تحت اشراف بعض الموظفين، وكلت اليهم ادارة شؤون هذه المؤسسة. وكانت الاخبار ترسل بخيول مقصوصة الاذناب ليكون ذلك علامة تميزها عن غيرها من الخيول. وبقي امر البريد على هذه الحال الى ان جاء بنو زنكي وبنو ايوب، فانهم اعدوا لذلك النجب[١٠١] المنتخبة، وما زال الامر كذلك الى ان انقرضت دولتهم وجاءت الدولة التركية[١٠٢] (أي دولة المماليك).

وكان المتولون على شؤون هذه المؤسسة يرسلون البريدي ليقطع مسافة الى ان يصل الى محطة من المحطات التي وضعت بين اطراف واقاليم البلاد. وكانت (المحطات) تزود بالماء الكافي والزاد والعلف، ويوفر فيها المكان الخاص ليقيهم برد الشتاء وحر الصيف، ومن هذه المحطات يستطيع البريديون ان يستبدلوا هجنهم المتعبة باخرى مستريحة، تعينهم على تأدية واجبهم بأقصر وقت وأيسر سبل[١٠٣].

---

[١٠٠] النوادر، ١٧١ الروضتين، ٢/ ١٨٨.

[١٠١] النجب من الابل، هو القوي منها، الخفيف السريع. تاج العروس: ١/ ٤٧٧.

[١٠٢] العمري، التعريف، ص: ١٨٦ – ١٨٧ صبح الاعشى: ١٤/ ٣٧٠. الاوسي تفريج الكروب، ص: ١٤ محمد كرد علي، خطط الشام، جـ٥ ص ١٨.

[١٠٣] د. عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين، ١٣٢

ويختار البريدي عادة من اشخاص عرفوا بالكفاءة والامانة والذكاء ومعرفة طبيعة الارض التي يعملون فيها، نظرا لاهمية العمل الذي انيط تنفيذه اليهم، لذا قال القلقشندي: ينبغي ان يكون البريدي (قديرا على تنميق الكلام وتحسين العبارة، وان يكون صحيح الفكرة والمزاج، ذا بيان وعارضة ولين واستحكام منعة.. صدوقاً بريئا من الطمع)[١٠٤].

ويفرد الاوسي الانصاري صفات كثيرة يلزم توفرها في البريدي (في العيون والجواسيس) كأن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه، وذا حدس صائب وفراسة تامة، ليدرك بوفور عقله وصائب حدسه من احوال العدو، وبالمشاهدة ما كتمه العدو عن النطق به فيستدل ببعض الامور على بعض وان يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة، وله دربة بالاسفار ومعرفة بالبلاد التي يتوجه اليها، وعارفا بلسان اهل البلاد التي يتوجه اليها، ليلتقط ما يقع من الكلام الذي يسمعه ممن يخالطه من العدو، على الا يكون من جنس العدو، فان الجنس يميل الى الجنس بالطبع. واخيرا ان يكون صبورا على ما لعله يصير اليه من العقوبة إذا ظفر به العدو، حتى لا يخبر باحوال مرسلة، ولا يطلع على وهن فيه وفي عسكره[١٠٥]. ولا شك انه كان من الصعب توفر كل هذه الصفات في رجل المخابرات، وإذا وجد رجل كهذا، فلابد ان هذا يعني انه رجل استخبارات مثالي.

والواقع ان بريد واستخبارات الجيش الايوبي اشتهر دائماً بالتفوق[١٠٦] على ما كان عند الصليبيين. ففي وقعة الرملة التي حدثت سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م بجنوبي فلسطين، والتي انتهت بهزيمة الجيش الايوبي، اثبتت احداثها اللاحقة ان هذا الجيش يملك بريدا فعالاً، استطاع بسرعة تحركه ان يقضي على الشائعات التي انتشرت في مصر، والتي افادت بمقتل صلاح الدين، وقضت سرعة هذا البريد على طموح الرجال الذين مدوا اعناقهم للانقضاض على الحكم الايوبي في مصر، وكان ذلك حين ارسل قادة الجيش من الحدود المصرية رسلاً على الهجن إلى القاهرة ليؤكّدوا لكل من سوّلت

---

[١٠٤] صبح الاعشى: ١١٦.

[١٠٥] الاوسي، تفريج الكروب، ص: ١٧.

[١٠٦] رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ص ٦٧١ . Henny Treece, The Crusades, N . Y . 1962, p 131

له من سولت له نفسه التمرد على حكمه: ان القائد صلاح الدين ما زال قيد الحياة، وحمل الحمام الزاجل بطائق البشرى بعودته الى القاهرة[١٠٧].

وبلغت دقة وسرعة مخابرات الجيش الايوبي حداً من الدقة والسرعة ان (اخبار العدو كانت تتواصل اليه ساعة فساعة الى الصبح)[١٠٨]، ولاسيما خلال حصار عكا الطويل. وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبيين المستأمنين. وتكمن اهمية هؤلاء انهم كانوا يعرفون لغة المحتل، ولا يشك بهم بسبب سحنتهم ومظهرهم. فكانوا يزوّدون الجيش الايوبي بالأخبار التي يصعب الحصول عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين، فذات مرة أخبر هؤلاء صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به من (كبس العسكر الاسلامي ليلا)[١٠٩]. وكذلك زودوا الجيش بتفاصيل عن المنجنيق الصليبي الهائل الذي انفقوا عليه الفا وخمسمائة دينار، والذي اعدوه للهجوم على عكا[١١٠]، وكذلك زودوا الجيش باخبار الحملة الالمانية[١١١].

وقد استعمل في البريد في حصار عكا السبل كافة للاتصال بالمحاربين المحاصرين للاطلاع على اوضاعهم الصعبة، وكذلك لارسال المال اللازم اليهم، فكان يتصل بهم بوساطة الحمام الزاجل والسباحين، ولعل من اشهر قصص البطولة في البريد الايوبي العوام عيسى الذي اعتاد الدخول الى عكا رغم الحصار الصليبي البحري المضروب حولها، لايصال توجيهات القائد في كتب يشدها على وسطه مع مبلغ من المال، ولدى وصوله الى عكا كانوا يطلقون طائراً لاعلام صلاح الدين بسلامة وصوله. ثم غرق عيسى في ساحل عكا[١١٢].

---

[١٠٧] سنا البرق، ١/ ٢٦٠ الروضتين جـ١ ق٢ ص ٧٠٢، رنسيمان، ٢/ ٦٧٣ نقلا عن المؤرخ الصليبي (وليم الصوري).

[١٠٨] النوادر، ص ١٤٨.

[١٠٩] ن . م. ص: ١٣١.

[١١٠] ن . م . ص: ١٣١.

[١١١] ن . م . ص: ١٤٠.

[١١٢] ن . م . ص: ١٣٥، والفتح القسي: ٤٢٣ الروضتين ٢ ك ١٦٢.

٢– اليزك (فرق الاستطلاع):

اليزك: ومعناه (طلائع الجيش)[١١٣]. وينبغي التمييز بين ما يعنيه اليزك بهذا المعنى وبين (الجاليش) الذي يعني مقدمة القلب في الجيش، او الطليعة منه. فالجيش هو الجزء الامامي من مركز القلب، او قلب الجيش الذي يسير برمته نحو القتال، اما اليزك فهو جماعة الاستكشاف التي ترسل الى جهة العدو قبل توجه الجيش نحوه. والمهمة التي يقوم بها محاربو اليزك كانت جزءاً من نظام الاستخبارات، وايصال المعلومات العسكرية الآنية الى قيادة الجيش بالسرعة الممكنة. اذن فبوسعنا ان نقول ان اليزك عبارة عن الفعالية البريدية اليومية التي يقوم بها افراد مختصون يكونون تحت الطلب. ليذهبوا ويتعرفوا عن كثب على ما يفعله العدو او ينوي القيام به.

وكان افراد اليزك يختارون من بين اهل النصح والنجدة والتجربة في الحرب للقيام بهذا الواجب. وكان هؤلاء يتحاشون الاشتباك بالعدو عند الاستطلاع، لان الهدف من واجبهم هو (تقدير قوة العدو وكشف مواطن الضعف فيه، لذلك فانهم كانوا لا يلبسون الدروع او التروس وغيرها من الاثقال التي تعيق حركتهم، ويختارون الجياد الهادئة السريعة، الجيدة الحوافر والظهر، التي لاتتهيج بسهولة)[١١٤]. ويلاحظ ان المؤرخين المعاصرين، وخاصة ابن شداد ثم العماد الكاتب، يذكرون لليزك في سياق رواياتاهم مهمات كثيرة كان يقوم بها، وصار ارسال الاخبار احدى تلك المهمات[١١٥]. ولا ادل على اهمية وحظوة اليزك في عهد صلاح الدين وخلفائه حين وضع على قيادته شخصيات عسكرية كبيرة من امثال الملك العادل اخي صلاح الدين[١١٦]، وابنه الاكبر الملك الافضل[١١٧] وكبار امرائه مثل بدرالدين دلدرم اليساروقي[١١٨] وعزالدين ابن

---

[١١٣] ادي شير، الالفاظ الفارسية المعربة، ص ١٦٠ محمد التونجي، المعجم الذهبي، ص ٦١٩. مفرج الكروب ١/ ٣٨ هامش ٣.

[١١٤] الهرثمي، مختصر سياسة الحروب، ص ٤٨ – ٤٩. الاوسي، تفريج الكروب: ٥١.

[١١٥] النوادر: ١٤٧، ٢٣٢، الكامل: ١٢/ ٢٩. الروضتين ٢/ ٢٠١.

[١١٦] النوادر: ١٩٢.

[١١٧] الكامل: ١٢/ ٦٩.

[١١٨] النوادر: ٢١٢، ٢٣٢.

المقدم[١١٩] وعزالدين جورديك[١٢٠]، وعلم الدين سليمان ابن جندر[١٢١] وغيرهم. وكان هؤلاء الامراء يقودون اليزك بالتناوب، فكل منهم له نوبته[١٢٢].

ومن المهمات التي اوكلت الى اليزك تفقد احوال المدن، ولاسيما بيت المقدس حين هدده الصليبيون باعادة احتلاله ثانية بعد تحريره في سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، فما كان على الملك العادل الا وذهب على رأس يزك للاطلاع على قدرة هذه المدينة الدفاعية، في رمضان ٥٨٧هـ/ ١١٩١م[١٢٣]، وكذا ما فعله الامير عزالدين جورديك وجمال الدين فرج حين سارا ليكونا قريبين من (يافا) في صورة يزك، ويطلعا على حجم القوات الصليبية الموجودة فيها[١٢٤].

وحدث ان قام اليزك بمهمة الكمين، كما حدث في طريق يافا، وقد اوكلت المهمة الى بدر الدين دلدرم، حين (كمن حول الطريق مع جماعة جيدة، فمر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة). وجرى بين الفريقين قتال كانت الدائرة فيه على العدو، وقتل ثلاثون نفرا منهم وأسرت جماعة[١٢٥]. وصار اليزك يقاتل الصليبيين في مناسبات عديدة، وكاد في احدى مصادماته ان يلقي القبض على الملك ريتشارد قلب الاسد بعد أن اصابته طعنة، وحال احد المقاتلين الصليبيين دون اعتقاله حين فداه بنفسه.. وافلت الملك واخفي أثرة)[١٢٦]. وكذلك قام اليزك بحماية الجيش الايوبي من هجوم مباغت كان يقوم به الصليبيون، كما حصل عند انطاكية[١٢٧].

ان تلك المسؤوليات المتعددة الجوانب التي انيط تنفيذها الى اليزك لتدل على مكانة هذا التنظيم العسكري الصغير الفعال ضمن الجيش الايوبي. وهذا يعني ان هذا

---

[١١٩] الفتح القسي: ٥٤١.

[١٢٠] النوادر: ٢١٧، ٢٣١.

[١٢١] الفتح القسي: ٥٤٢، النوادر: ١٨٢.

[١٢٢] النوادر: ١٨٢.

[١٢٣] ن . م . ص: ١٩٢.

[١٢٤] ن . م ص: ٢٣١، الروضتين: ٢/ ٢٠٣.

[١٢٥] النوادر: ٢١٢.

[١٢٦] الفتح القسي: ٥٥٢ وانظر النوادر: ١٩٠ الروضتين: ٢/ ١٩٢.

[١٢٧] النوادر: ٩٣.

التنظيم كان يضم في صفوفه بعض خيرة الجنود واشجعهم، كما رأينا، وكان حجمه يتوقف على المهمة العسكرية التي يقوم بها.

٣- حمام البريد:

من ابرز سبل الاتصال في العصور القديمة والوسطى، استعمال الحمام الزاجل، او ما يسمى بالحمام الهوادي لقدرته الفائقة على الاهتداء الى عشه رغم ابتعاده عنه مسافات شاسعة[١٢٨] وبسب هذه القدرة اطلق عليه (الدميري) اسم الشيطانه[١٢٩] في حين وصف القاضي الفاضل هذا الطير بانه (ملائكة الملوك) يشير الى نزوله على الملك من الجو نزول الملائكة على الانبياء من السماء، مع فرط ما فيه من الامانة، لا يتوهم من جهتها خيانة[١٣٠] ويضيف صاحب الروضتين الى كلام القاضي الفاضل قوله: (لقد أحسن فيما وصف، وابدع فيما استنبط وانصف، وهو بذلك اولى واعرف[١٣١].

ان هذا النوع من الحمام، اضافة الى اهتدائه الى وكره، اشتهر بسرعة طيرانه[١٣٢]، وربما اصطيد وغاب عن موطنه عشر سنين فاكثر، ثم هو على ثبات عقله وقوة حفظه ونزوعه الى وطنه، حتى يجد فرصة ليطير اليه[١٣٣] ولهذا بلغت اثمان الحمامة مبالغ مرتفعة جداً، وصل الى سبعمائة دينار، واحياناً الف دينار، وبلغ ثمن البيضة الواحدة من هذا النوع الفاخر عشرين دينار[١٣٤].

---

[١٢٨] الجاحظ، الحيوان، جـ٣ ص ٢١٤.

[١٢٩] حياة الحيوان، جـ ص ٢٩٦.

[١٣٠] الروضتين جـ ق٢ ص ٥٢١. السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١٦٦.

[١٣١] الروضتين: ن . ص.

[١٣٢] يقول امين الخولي: ان من الحمام ما يقطع ثلاثة الاف فرسخ في يوم واحد (الجندية والسلم ص ٧٢) أي حوالي الف كيلومتر في الساعة، وهذا غير معقول، إذا إعتبرنا ان الفرسخ يساوى ثمانية كيلومترات.

[١٣٣] البستاني، دائرة المعارف، مجلد ٧ ص ١٦٨. امين الخولي، الجندية والسلم، ص ٧٢.

[١٣٤] صبح الاعشى: ١٤/ ٣٩٠.

وكان للحمام البريدي مطارات منتظمة هي اوكارها[١٣٥] وقد عين عليها براجون او حراس برعوا في الاعتناء بشؤونه، وفي تدريبه واطعامه وراحته، واطلاقه واستقباله. لكن جرت العادة ان الطائر اذا هبط بالبطاقة لا يقطعها البراج بيده، بل يأخذه الى القائد، خشية ان يكون في البطاقة سر، ينبغي عدم اطلاع احد عليه، حتى ولو كان الوقت غير مناسب، كأن يكون القائد يتناول طعامه او نائما، فيترك طعامه او يوقظ من نومه، حتى لا يفوت على نفسه ورعيته الامور الهامة العاجلة، فيفك الرسالة بنفسه[١٣٦]، او يقوم رئيس الحرس بهذه المهمة[١٣٧].

لا نريد الدخول في تفاصيل تاريخ استعمال حمام البطائق في العصور المختلفة، لكننا نقول انه كان له شأن كبير في مخابرات الامم القديمة، الا ان المسلمين كانوا اكثر عناية به من سواهم[١٣٨] ورغم اعتناء العباسيين به؟، الا ان المصادر تؤكد ان أتابكه الموصل كانوا اكثر من اولى الحمام اهتمامهم، وهذا ما يقال بالنسبة لنورالدين محمود، ثم صلاح الدين، نظرا لظروف الصراع مع القوى الصليبية التي اقتضت الاهتمام بالبريد الجوي، وكذلك عرف الحمام الزاجل في مصر الفاطمية[١٣٩].

لقد استعمل الحمام على نطاق واسع في عهد نور الدين محمود منذ توليه حكم الشام وحلب[١٤٠] وفي سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م – أي قبل وفاته بسنتين – نظم شؤون الحمام على اسس جديدة، وشدد الاهتمام بأمره. فكانت لرعايته به وتنظيم مهابطه في انحاء الدولة النورية، ووريثتها الدولة الايوبية، وتعيين البراجين وتقاليد كتابة الرقع وكيفية ربط البطاقة واستقبال الحمام، وفك وقراءة الرسالة، كل هذه الامور كانت موجودة حين استلم صلاح الدين مقاليد الامور، وكل ما فعله هذا القائد انه زاد في ربط مصر بالشام بواسطة البريد الطائر، حتى صارت هناك شبكة من المهابط في

---

[١٣٥] ويذكر ابن فضل الله العمري ان المسافة بين مطار وآخر كانت اربعة فراسخ (التعريف ص ١٨٤) أي حوالي ٣٢ كيلومترا.

[١٣٦] السيوطي، حسن المحاضرة، ٢/ ١٦٦.

[١٣٧] ميخائيل صباغ، مسابقة البرق والغمام في سعاة الحمام مجلة (المورد) مجلد (٢) عدد (٣) ص ١٤٤.

[١٣٨] جري زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ١/ ٢٣٣.

[١٣٩] العمري، التعريف، ص: ١٩٦، الظاهري، زبدة كشف، ص ١١٧.

د. عطية مشرفة، نظم الحكم، ص: ١٣٢ – ١٣٦.

[١٤٠] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص: ٣٤٠ – ٣٤١.

تلك البلاد، تمتد من اقصى جنوبي مصر من اسوان الى الصعيد، وعيذاب على البحر الاحمر الى القاهرة، ومن القاهرة الى السويس والى بلبيس، ومنها الى الشام، ومن بليس ايضا الى الصالحية والى قطيا[١٤١]، ومن قطيا الى الورادة في الطريق الى غزة. أي ان بلبيس الواقعة شرقي القاهرة كانت مركز المهابط في مصر، ومثلها كانت غزة في جنوبي فلسطين على الساحل حيث يبدأ منها خط الى الخليل والى اللد، ومنها الى قاقون[١٤٢]، ثم جنين فصفد فبيسان فاربد فطفس، ومنها الى الصنمين[١٤٣]. فدمشق، ومن كل من هذه المراكز[١٤٤] الى قارة[١٤٥]، ومن الأخيرة الى حمص، ومنها الى حماه فالمعرة فحلب فالبيرة، وهكذا بقية مدن الجزيرة الشامية[١٤٦].

ان هذه المحطات الكثيرة كانت تضم ولاشك عدداً كبيراً من الحمام، وقد قدر في وقت لاحق عدد ما كان موجوداً في برج قلعة القاهرة وحده بحوالي الفي طائر[١٤٧]. وصارت مهنة تربية الحمام مهنة مربحة، نظراً للاقبال الشديد عليه، ولاسيما اثناء حصار الصليبيين لعكا. ويقول العماد الكاتب: صرنا نحبو صاحب الطيور بالاطراء ونخصه بالمدح والثناء، ونأمره بالاستكثار، ونطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها عنده لكثرة الارسال[١٤٨]، وكان الجيش يصحب معه حمام الجهة او الجهات التي ينوي الاتصال بها، او حين كان يبغي طلب المعونة منها، كما حدث في سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م حين اجتمع الصليبيون وساروا نحو دمشق مع ملكهم، فاغاروا على اعمالها ونهبوها واسروا وقتلوا وسبوا، فارسل صلاح الدين ابن اخيه عزالدين فرخشاه في جمع من العسكر اليهم، وطلب منه ان يكون على اتصال دائم به عبر

---

[١٤١] قطيا: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما. معجم البلدان: ٤/ ٣٧٤.

[١٤٢] قاقون: حصن بفلسطين قرب الرملة. ٤/ ٢٩٩. رحلة بنيامين ص: ٩٥.

[١٤٣] اذرعات: بلد في اطراف الشام، يجاور ارض البلقاء وعمان، معجم البلدان: ١/ ١٣٠.

[١٤٤]

[١٤٥] قارة: قرية كبيرة على قارعة الطريق، وهي المنزل الاول من حمص للقاصد الى دمشق. معجم البلدان ٤/ ٢٩٥.

[١٤٦] العمري، التعريف: ١٩٦ – ١٩٧. صبح الاعشى: ١٤/ ٣٩٣.

[١٤٧] ميخائيل صباغ، البرق. مجلة المورد، ص ٤٤ جرجي زيدان تاريخ التحدي الاسلامي ١/ احسان هندي، الحياة العسكرية: ٢١٧.

[١٤٨] الفتح القسي: ٣٦٠.

جناح الحمام[١٤٩]. وحصل حادث شبيه في وقعة (بيت الاحزان) سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، إذ (وردت بطاقة الطير الى دمشق، فخرج السلطان فما وصل الى الكسوة القريبة من دمشق، الا رؤوس الصليبيين واسرهم قد جيء بها)[١٥٠].

ولعل ما يؤكد تنظيم البريد الجوي في هذا العهد تواصل الحمام على صلاح الدين من مختلف انحاء البلاد اثناء مرابطته على عكا، فمما ذكره ابن شداد انه اثناء رمضان ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م ارسل حمام من حلب الى حماه، ومن حماه الى عكا وتحت جناحه خبر يعلن فيه نواب الملك الظاهر صاحب حلب عن قيام قوات العدو من جنود امارة انطاكية الصليبية القريبة من حلب، بشن الغارات على القرى التابعة لحلب، مستغلين ضعف قوتها بسبب ذهاب جندها الى عكا، الا ان قوات حلب الاحتياطية استطاعت دحر المعتدين الذين (لم يشعروا الا والسيف قد وقع فيهم، فقتل من عسكرهم خمسة وسبعون نفراً، واسر منهم خلق كبير)[١٥١].

وقد تفنن المشرفون على بريد الجيش الايوبي في اخفاء اسرارهم العسكرية، لكي لا يطلع عليها العدو حتى انهم استعملوا رموزاً خاصة، او ما تسمى بالشفرات – بلغة هذا العصر – تدل على امور متفق عليها مقدماً. فقد ذكر العماد الكاتب ان رجال البريد كانوا (يحملون كتباً وطيوراً، ويعودون بكتب وطيور، ونكتب اليهم ويكتبون الينا على اجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور)[١٥٢].

٤– الكمائن:

لعل من اكثر فترات التاريخ الاسلامي نشاطا للكمائن هي فترة الحروب الصليبية، ولاسيما ايام صلاح الدين، نظرا لقرب مواقع الاحتكاك العدائي واستمراره بين المسلمين والمرتكزات الصليبية التي اقاموها على الجهات الساحلية من بلاد الشام، او القريبة منها. وتعني الكمائن ارسال جريدة[١٥٣] او سرية من المحاربين

---

[١٤٩] الكامل: ١١/ ٤٥٢ – ٤٥٣.

[١٥٠] الروضتين ٢/ ٦.

[١٥١] النوادر: ١٤٣.

[١٥٢] الفتح القسي: ٣٦٠.

[١٥٣] الجريدة: تعني اقل العساكر، وهي قطعة جردت من سائرها، الثعالبي، فقه اللغة، ص: ٣٢٩.

الفرسان الى جهات العدو ومباغتته والايقاع به في مناوشات محدودة لا تصل الى حد القتال الواسع النطاق، أي ان العملية كانت تبدأ في السر، ولهذا كان ينبغي ان تتوفر في رجال الكمين جملة من المواصفات لكي يستطيعوا ان يقوموا بمهمتهم بالصورة المطلوبة.

وقد فصل مصنفو كتب اصول الحرب في ذكر تلك المواصفات، فمما قاله الاوسي: ان على رجال الكمين ان يكونوا اشجع فرسان العسكر وادربهم بالحرب، واعرفهم بالتجارب، فانهم ينفردون عن العسكر، ويكونون في مكان ليس لهم فيه من يعينهم ولا ينجدهم من أهل العسكر لبعدهم عنهم.. ويكونوا عارفين بامور الحروب، عالمين باحوال الاماكن الصالحة للاختفاء، ليتحقق الغرض الذي من اجله ارسل الكمين[١٥٤]. ثم يتحدث هؤلاء المصنفون عن قضايا اخرى[١٥٥] ونوع الجياد التي يضطرون الى استعمالها، اما الموضع الذي ينصب فيه الكمين فيجب ان يكون خفياً مستتراً، وأن يكون مما يحتمل الاقامة فيه، اذا دعت الحاجة الى طول الاقامة، بأن يكون فيه الماء والمرعى وسائر ما يحتاجه الكمين بحسب الامكان)[١٥٦].

الا ان هذه المواصفات كان من الصعب ايجادها في الكمائن المرسلة احياناً، على الرغم من ان مواصفات فارس الكمين كانت متوفرة بشكل عام في جماعات البدو (العرب) الذين شكلوا احتياطاً جيداً في تزويد الجيش الايوبي بالقوات الضرورية في اوقات الحرج لشن الغارات على العدو، وقد استفاد هذا الجيش فعلا من هذه الجماعات في مناسبات عديدة، واكمنهم لقدرتهم على التظاهر بالهزيمة والضعف امام العدو، وكذلك لسرعة اندفاعهم ولخفتهم[١٥٧].

ولعل ابرز حوادث الكمين ما وقع في جمادي الاخرة سنة ٥٨٥هـ/ ١١٩٠م، حين بلغ صلاح الدين خبر مفاده ان جماعة من افراد العدو يتبسطون ويخرجون من صور

---

[١٥٤] السرية: قطعة اكبر من الجريدة. ن . م . ص.

[١٥٥] بكتوت الرماح، السؤال والمنية، مخطوط، ص ١٩١.

نقلاد. سعداوي، التاريخ الحربي، ص ٢٢٢.

[١٥٦] الاوسي، تفريج الكروب، ص ٧١.

[١٥٧] النوادر: ١٠٨.

ليصلوا الى جبل تبنين[١٥٨] لجمع الحشيش والحطب فرأى ان يضع كميناً كبيراً من الرجال الشجعان، يتوزعون في الاودية والشعاب، ويكون عدد رجال الكمين كافياً للقوة المعادية، وللقوة الاحتياطية التي جاءت في اعقابها لحمايتها. انفذ صلاح الدين الى عسكر تبنين، وطلب منهم ان يخرج من بين رجال الكمين نفر يسير وذلك لايهام العدو بأنهم قليلو العدد، ثم يبدأون بالتحرش بتلك الجماعة الصليبية، وحين يرد عليهم هؤلاء، يتظاهرون بالفرار ليجروا خلفهم الجماعة الصليبية. واضافة الى هذا بعث صلاح الدين في اثر عسكر عكا وطلب منهم ان يخرجوا وراء عسكر العدو حتى اذا تحرك هؤلاء في نصرة اصحابهم قصدوا خيامهم. وركب هو وجماعة من رجاله وساروا باتجاه المكان الذي سيلجأ اليه رجال الكمين المنهزمين. ورتب صلاح الدين العسكر ثمانية اطلاب، واختار من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان، فكوّن سرية، وامرهم ان يبرزوا للعدو حسب الخطة المرسومة. ويبدو ان خبر الكمين قد وصل الى العدو، فاحتاطوا لذلك، وتعبّوا تعبئة القتال ثم جرى بين الطرفين قتال حقيقي لان أفراد السرية الايوبية (انفوا عن الانهزام) ولو كأسلوب لخدع العدو (وحملتهم الحمية على مخالفة التعليمات، واتصلت الحرب بينهم الى نهاية النهار، وكان القتلى من الفرنج زهاء عشرة انفس، ومن المسلمين اثنين من اليزك واربعة من رجال الكمين العرب[١٥٩]. يقول العماد الكاتب عن هؤلاء الاربعة أنهم (رآهم العدو فعدا وراءهم، وسار بجمعه ازاءهم، فلما انتهوا الى الجبل ادركوا، ولم يقدروا ان يسلكوا فقاتلوا حتى قتلوا، واقبلوا على الله فقبلوا[١٦٠].

ونجد ان الظروف التي مر بها الجيش الايوبي في تلك الفترة، وصلاحية ارض الشام، ولاسيما ارض فلسطين – لوجود الاحراش الكثيفة والجبال التي تأوي رجال الكمين المقاتلين، قد حتمت على الجيش تنظيم مثل تلك العمليات العسكرية المحدودة الاثر، والتي كانت الغاية منها احراج العدو وجعله لا يشعر بالامان، وهذا الاسلوب في القتال شبيه بما نسميه الان بحرب الانصار، او المغاوير. لكن الملاحظ

---

[١٥٨] تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور. معجم البلدان: ٢/ ١٤.

[١٥٩] النوادر: ١٠١.

[١٦٠] الفتح القسي ٢٩٤. النوادر: ١٠١.

الكامل ١١/ ٣٠ – ٣١، الروضتين ٢/ ١٤١.

ان تفاصيل وضع الكمائن لم تكن تختلف عن تفاصيل الكمائن الاخرى، بينها كمين شهير سميت احدى معارك الجيش الايوبي باسمه (وقعة الكمين)[١٦١].

مجلس حرب الجيش الايوبي:

كان من الطبيعي ان يكون ثمة مجلس اعلى في الجيش يقوم بتوجيه سياسة الحرب ووضع الخطط العسكرية وادراة شؤون الدولة، وكان اعضاؤه يشكلون ما يمكن ان يطلق عليه الان اركان الجيش. وفي عهده كان صلاح الدين يرأس الاجتماعات، وتتكون عضويته من اخوته، ولاسيما الملك العادل، واولاده الكبار خاصة الملك الافضل علي والملك الظاهر غازي، واولاد أخيه مثل تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود الحارمي، وكبار الامراء والقادة القدامى والجدد ومستشاره الحكيم القاضي الفاضل، وقاضي العسكر بهاء الدين بن شداد المؤرخ، والمسؤول عن مراسلاته الحربية عماد الين (العماد) الكاتب الاصفهاني الاديب المؤرخ، وبهاء الدين قراقوش، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وقادة آخرين، مثل ابو الهيجاء الهذباني وعلم الدين سليمان بن جندر، كما اشترك في عضويته احيانا امير الاسطول حسام الدين لؤلؤ واصحاب المدن والقلاع المعروفين من امثال مظفرالدين گوگبورى وشمس الدين ابن المقدم وعزالدين جودريك والفقيه ضياءالدين عيسى الهكاري، وغيرهم.

وكان لكل من هؤلاء حق ابداء الرأي في صراحة، ما داموا يتصرفون وينطلقون من مبدأ خدمة الدولة وجيشها، ولكن – وكما أثبتت وقائع الحروب – لم يحدث – الا نادرا – ان علا صوت احد هؤلاء الاعضاء، وانفرد بالمناقشات دون الاخرين بغية التأثير على صلاح الدين، على الرغم من ظهور بوادر لعصيان اوامره احياناً، كما سنرى. وكان رأي صلاح الدين هو الغالب على المجلس بصورة عامة. الا ان هذا لا يعني انه كان يستبد برأيه، والا لما استشارهم وأخذ بآرائهم وملاحظاتهم، بل نجده يغير موقفه حسب مقتضيات المصلحة. ويلتزم برأيهم، سواء عن قناعة أو للحفاظ

---

[١٦١] النوادر: ١٥٠، الفتح القسي ٤٤٨، الروضتين: ٢/ ١٨٠ مفرج الكروب: ٢/ ٣٤٤.

عن تفاصيل بعض الكمائن انظر: (١) النوادر: ١٠٨، الفتح القسي: ٣٠٦، مفرج الكروب ٢/ ٢٩٤. (٢) النوادر: ٢٠٠، الفتح القسي ٥٥٩ – ٥٦٠، (٣) النوادر: ١٥١، الفتح القسي ٤٤٩ الروضتين ٢/ ١٨٠. مفرج الكروب ٢/ ٢٤٤ وغيرها.

على وحدة الموقف. ويلاحظ ان صلاح الدين كان يهتم، بصورة خاصة، بمشورة اخيه الملك العادل، وإذا كان هذا غائباً عن المجلس ارسل في اثره – إن كان هذا ممكناً – ليعرف رأيه بشأن مسألة خطيرة[١٦٢].

ولعل حرص صلاح الدين على مشورة اخيه في امور الدولة، ومكاتبته المستمرة له، ثم انتظاره جوابه قبل الاقدام على تطبيق القرار المتخذ، كلفه غالياً وفوّت عليه فرصاً من المنافع الحاصلة للدولة والجهاد[١٦٣]. وفسر احد المؤرخين نقل الملك العادل من مصر الى حلب سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م بأن صلاح الدين رغب ان يكون اخوه قريبا منه، لانه لايقطع امراً دون مشورته[١٦٤]. ويبدو للمتابع وكأن هذا القائد قد احل محل والده الذي كان لرأيه قيمته المميزة لديه، لكن وفاته المبكر – بالنسبة لحكمه الفتي – حرمه مشورة رجل محنّك.

وكان اول اجتماع هام عقده مجلس حربه في ٥٦٧هـ/ ١١٧١م حين عزم نورالدين محمود – حسب رواية ابن الاثير ومن نقل الخبر عنه – التوجه الى مصر. لاخراج صلاح الدين منها، يوم كان نائبا له في حكم مصر. لان صلاح الدين لم يستطع ان يجتمع بنور الدين محمود بالقرب من الكرك، كما كان مقررا بينهما، وعاد الى مصر بسبب اختلال الوضع فيها او لخشيته ان يعزله نورالدين أذا تم الاجتماع بينهما. ولما علم ابناء الاسرة الايوبية وانصارهم نوايا نورالدين عقدوا اجتماعا ضم صلاح الدين واباه وخاله وابن اخيه وغيرهم، وتداولوا للخروج برأي حول الاجراء الذي ينبغي اتخاذه لردع نورالدين من التقدم الى مصر وطالب ابن اخيه امتشاق السلاح بوجه نورالدين في حين قام والده بتهدئة الخواطر وتصرف بحكمة تثير الاعجاب[١٦٥].

---

[١٦٢] الروضتين ٢/ ٥٢. د. سعداوي، التاريخ الحربي ص: ١٧٨.

¾ Lane-poole, A History de Middle age,p 196

[١٦٣] الروضتين: ن . ص.

[١٦٤] ن . م . ص. وانظر سعداوي، جيش مصر، ص ٣٧ نقلا عن مخطوط (العيني، جـ١ ق١ ص٨).

[١٦٥] الكامل: ١١/ ٣٧٢ – ٣٧٣. التاريخ الباهر: ١٥٨ – ١٥٩.

وانظر: الروضتين جـ١ ق٢ ص ٥١٩. مفرج الكروب ١/ ٢٢١ – ٢٢٢.

الذهبي، العبر، ٤/ ١٩٥ – ١٩٦.

وعند حصن (بيت الاحزان) اخذ صلاح الدين مشورة قواده حول ما ينبغي فعله تجاه هذا الحصن الذي تحصن فيه العدو وجعلوه مصدر خطر على الجيش الايوبي، فطلب صلاح الدين منهم هدمه لقاء مائة الف دينار فأبوا. عندها جمع امراء جيشه واخبرهم بالموقف، فكان رأيهم زيادة المبلغ، ثم راسل ابن اخيه تقي الدين عمر في حماه وطلب منه ان يبدي رأيه، فقال: رأيي هو صرف المبلغ على الاجناد، وحثهم على الجهاد والعمل من أجل تخريب الحصن. فعمل صلاح الدين بتوجيه ابن اخيه، فكان النصر للجيش الايوبي، وتم تخريب بيت الاحزان[١٦٦]. ومرة اخرى اجتمع المجلس الاستشاري للتباحث حول ما ينبغي عمله مع الموصل بعد ان ارسل صاحبها الاتابگ عزالدين مسعود سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م وفدا من نساء البلاط لوضع حد للقتال بين الطرفين، الا ان المجلس قرر مواصلة الحصار[١٦٧].

ولعل من ابرز الجلسات التي عقدها المجلس كان عند اسوار مدينة صور العاصية، وذلك في شوال ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، حين طلب صلاح الدين مشورة قادة جيشه بعد ان عجز عن فتحها، فقالوا: هذا بلد حصين.. في البحر ثلاثة ارباعه.. قد احاط به البحر من جانبيه، وقد قطعوه بخندق في عرضه، وعمقوه ونزلوا في ارضه.. وكان من احكام الحزم، تكميل الالات وتتميمها، وتحصيل المنجنيقات وتقديمها، وتركيب الابراج والدبابات وتأليفها[١٦٨].. بدأ اعضاء المجلس بمناقشة الاراء، وما ينبغي فعله مع هذه المدينة التي ظلت صامدة امام الجيش الايوبي، تتحداه الى النهاية. وانقسموا الى فريقين، فريق يدعو الى الرحيل عن صور لكثرة القتلى والجرحى، ولانه قد فنيت النفقات وضجر العسكر، وجاء الشتاء، فمن الضروري رفع الحصار على ان يعودوا في الربيع، اما الفريق الاخر فقد رأى ضرورة الاستمرار في محاصرة صور ومضايقتها حتى تستسلم وظلت المشاورات مستمرة، ثم رأى صلاح الدين رفع الحصار، فتوجه نحو عكا[١٦٩].

---

[١٦٦] سنا البرق الشامي ١/ ٣٣٣ – ٣٣٥. الكامل ١١/ ٤٥٥ – ٤٥٧.
الروضتين ٢/ ١١ – ١٢، البداية والنهاية ١١/ ٣٠٣ – ٣٠٤.

[١٦٧] الكامل، حوادث ٥٨١هـ. زبدة الحلب، ٣/ ١٨ مفرج الكروب ٢/ ١٧٠ – ١٧١.

[١٦٨] الفتح القسي: ١٥٧.

[١٦٩] الكامل ١١/ ٥٥٧. الروضتين ٢/ ١٢٠ انظر بحثنا (مسؤولية صلاح الدين في فشل حصار صور) المنشور في المجلة العربية للعلوم الانسانية جامعة الكويت المجلد السابع سنة ١٩٨٧ ص ٢٩ – ٤٣.

وهكذا كان المجلس يجتمع كلما رأى ضرورة في ذلك، فقد اجتمع للتشاور بشأن الوقوف بوجه الحملة الالمانية الهائلة التي اكتسحت بلاد الروم (الاناضول) بسرعة، ووصلت الى ارض انطاكية، وبدأت بالزحف جنوباً سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م[١٧٠]، وكذلك اجتمع حين وصل (الكندهري) في جمادى الاخرة في نفس السنة المذكورة[١٧١]، واجتمع اكثر من مرة اثناء المسير الى جهة عسقلان في ٥٨٧هـ/ ١١٩١م[١٧٢]. وحتى لدى مراسلاته مع القادة الصليبيين، كان يستدعى (ارباب الرأي ويشاورهم في جواب رسالة القوم[١٧٣] واستشار المجلس بشأن الموقف المتفجر بعد هزيمة الجيش الايوبي في ارسوف[١٧٤] وسقوط عكا المريع، واتفق الرأي على تخريب مدينة (عسقلان) للحيلولة دون وقوعها في ايدي العدو[١٧٥]، على الرغم من ان صلاح الدين كان من المعارضين لهذا الرأي[١٧٦]. وعقد المجلس جلسة هامة في ٥٨٨هـ/ حزيران ١١٩٢م حين عزم الصليبيون على قصد بيت المقدس[١٧٧]، الا انهم لم يستطيعوا تنفيذ ما عزموا عليه بفضل استحكامات المدينة المقدسة.

خطط واساليب القتال:

لا يستطيع أي جيش ان يشتبك مع العدو ويخوض معركة دون ان يكون قد رتب اموره، بحيث تتوضح معالم الخطوات التي سيتخذها. وينبغي على المحاربين الا يتصرفوا بعشوائية تؤدي الى اضطراب صفوفهم. ولكن كان لروح الجهاد التي امتلأت

---

[١٧٠] النوادر: ١٢٦، الفتح القسي: ٣٩٣.
الروضتين ٢/ ١٥٥ – ١٥٦، مفرج الكروب: ٢/ ٣٢٤.

[١٧١] النوادر: ١٣١، الفتح القسي ٤١٣.
الروضتين: ٢/ ١٥٩.

[١٧٢] النوادر: ١٧٨.

[١٧٣]

[١٧٤] ارسوف: مدينة على ساحل بحر الشمال بين قيساريه ويافا. معجم البلدان: ١/ ١٥١.

[١٧٥] الكامل: ١٢/ ٧١ – ٧٢.

[١٧٦] النوادر: ١٨٦ وانظر مرآة الزمان ٨/ ٤١٠، وفيات الاعيان ٧/ ١٩٨.

[١٧٧] النوادر: ٢١٦، الروضتين ٢/ ١٩٨ – ١٩٩. مفرج الكروب ٢/ ٣٨٦ Lane-poole, Saladin, p. 341. Stevenson, p 282.

بها قلوب اكثر المحاربين المسلمين في الجيش الايوبي اثرها الفعال في اندفاعهم نحو القتال، وكانت لهذه الروح قوة فاقت اثراً قوة التنظيم[١٧٨].

وكان الهدف الستراتيجي في قتال الجيش الايوبي هو استعادة الاراضي التي احتلها الصليبيون منذ اواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ومن اجل تحقيق هذا الهدف سلكت الجيوش الاسلامية مختلف السبل وشتى الاساليب، سواء عن طريق المجابهة المباشرة مع العدو، او عن طريق اضعافه اقتصادياً[١٧٩] ومعنويا، وحصره في نقاط الارتكاز التي تحصن فيها.

وقد اطلق في الاصطلاح الحديث لفظ (الاستراتيجية/ strategy) فن تحريك القوات، واختيار مواقعها المناسبة، قبل الاشتراك في المعركة وبعدها، وتوزيعها على ميادين القتال توزيعاً يناسب اهميتها، واعداد حاجتها التي تكفيها زمناً طويلا، ومراعاة ذلك حتى في فترات السلام، أي ان الاستراتيجية تعني فن القيادة العامة في الحرب بأجمعها.

كما اطلق لفظ (التكتيك Tactic) على فن تحريك القوات والتنسيق بينها خلال المعركة، وطريقة تنظيمها في حالة الهجوم او الدفاع، تبعاً للخطة الموضوعة بمعرفة القيادة العامة. فالتكتيك فن القيادة في ميدان المعركة. والمؤرخون المسلمون اطلقوا على هذين المفهومين لفظ (التعبئة) وقصدوا منه تنظيم الجيوش، ووصف الكتائب في المعركة او قبلها، فتعبير (عبأ) يعني (نظم) او حصر القوى الموجودة تحت تصرفه استعدادا للقتال، وتوفيرا لمستلزماته كلها[١٨٠]. وكذلك نعني بالتكتيك السياسة اليومية القصيرة الامد، التي تتبع من اجل اضعاف الجانب الاخر، او للوصول الى اهداف محددة مباشرة. واستمرار هذه الاعمال يتعب العدو، ويجعله في حالة من القلق والترقب، فالتكتيكات الناجحة المتواصلة ترعب العدو وتضعفه، وهذا ما كان يدركه صلاح الدين وقادة جيشه، ولهذا فان جيشه في الوقت الذي وضع نصب عينه الهدف الاساس الذي من اجله خاص غمار الحرب الا وهو تحرير كامل

---

[١٧٨] جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ص ٦٧.

[١٧٩] محمد خالد، قصة التعبئة، ص ٤٥.

[١٨٠] عبدالرؤوف عول، الفن الحربي، ص ٢٠٦.

الاقاليم التي استولى عليها الصليبيون، الا انه واصل استخدام التكتيكات المختلفة، اضافة الى انه استفاد من نقاط ضعف الصليبيين.

والخطة العسكرية كان يضعها مجلس الحرب الاستشاري، على الرغم من ان قيادة الجيش المركزية ظلت بيد القائد العام (السلطان)، والنجاح يكون في الغالب مضموناً، اذا حافظ القائد على الاتصال الدائم بالعدو، للاطلاع على قوته ومعرفة خططه إن امكن، وقد تحل الهزائم بهذا القائد – كما يقول اومان – اذا فقد ذلك الاتصال[١٨١]. وكان اليزك (الفرقة الاستطلاعية) يقوم بدور اساسي في هذا الصدد، فكان واسطة اتصال دائم بين قيادة الجيش وقوى العدو.

ومن الاساليب التي استعملها الجيش الايوبي نجد انفسنا امام جملة من الاعمال والاجراءات التي يمكن ادراجها تحت اسم الاعمال التكتيكية. ومن هذه الاعمال التي قصد منها اضعاف العدو انه اوعز الى جنده بقطع كروم ضياع صفد في غور الاردن في موقعه بيت الاحزان التي حدثت سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م[١٨٢]. كما امر بحصد غلاتهم[١٨٣] وقصد من هذا تحطيم اقتصاد العدو، وجعله لا يستفيد من الكروم واخشابها، ومن الحبوب التي حصدها الجند[١٨٤]. وقد تكرر هذا العمل في مناسبات عديدة. فيذكر مؤرخ من بني أيوب: ان السلطان سار بمن انتخب من عساكره، وتوجه بهم الى الكرك في مطلع سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، ووصل اليها بعد ايام، فوجد بها جمعاً عظيماً من الفرنج (فنزلنا قريبا منهم، فأذللناهم وضايقناهم حتى لاذوا بالفرار، فاستولينا عليهم فقطعنا اشجارهم ورعينا زروعهم[١٨٥]. وكذلك فعلوا حين تهيأوا لموقعة حطين الحاسمة حين ساروا الى حصن الشوبك وفعلوا به مثل ذلك[١٨٦]. ويقول العماد الكاتب ان الفرنج فجعوا بكرمها وزيتونها[١٨٧].

---

(١٨١) Oman, A History of The art of war, p 211

(١٨٢) الايوبي، مضمار الحقائق: ص: ٢٦، السلوك ٧/ ٦٩، سنا البرق الشامي، ص: ١/ ٣٣١.

(١٨٣) الروضتين ٢/ ٨.

(١٨٤) مفرج الكروب ٢/ ٨٠.

(١٨٥) مضمار الحقاق، ص ٩٣.

(١٨٦) الكامل: ١١/ ٥٣. الروضتين ٢/ ٧٦.

(١٨٧) الفتح القسي، ص ٦٠.

وكان لتكتيك قطع الماء اثره العميق في اضعاف المقابل وهزيمته، فالمعروف ان سيطرة الجيش الايوبي على منابع الماء يوم حطين كان احد اسباب هزيمة الصليبيين، كما هو معلوم، حين (حجز بينهم وبين الماء)[١٨٨] حتى قتلهم العطش، ولجأ الجيش الى افساد مياه بعض ينابيع القدس سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م للحيلولة دون وقوع هذه المدينة بأيدي الصليبيين بعد هزيمة المسلمين المعروفة في عكا[١٨٩]. وكان افساد الماء يتم عن طريق القاء الزرنيخ او طرح الجيف[١٩٠] او الفضلات فيه.

ومن الخطط التي اتبعها، تطبيقه لاسلوب الحرب الخاطفة ومباغتة العدو والانتصار عليه قبل ان يستطيع تجميع قواه، وقد استعملت هذه الخطة في سنتي ٥٨٣ – ٥٨٤هـ/ ١١٨٧ – ١١٨٨م اكثر من أي سنة اخرى، وكان ذلك حين لم يكتف بالانتصار الحاسم في حطين بل انه اتبع الانتصار بأخرى لاحقة سريعة بحيث يمنع الصليبيين من التجمع في مكان واحد والاشتباك معه في موقعة مكشوفة اخرى. فاثر فوزه المذكور هجم الجيش الايوبي على التوالي عكا وصفورية والناصرة وقيسارية ونابلس والداروم وفتحها جميعا. وحين استعصت عليه صور بسبب استحكاماتها، اضطر الى تركها، واستأنف فتوحه في البقاع الاخرى وتوّجها بفتح بيت المقدس والمدن الساحلية والداخلية، ففتح هونين[١٩١] وجبلة واللاذقية وصهيون، ثم توجه شمالا فاستولى على حصون بكاس والشغر وبرزية ودربساك وبغراس، المحيطة بامارة انطاكية الصليبية، ثم اتجه قسم من جيشه مرة اخرى الى الجنوب، ففتح في اواخر سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م حصن الكرك المتين، واخيرا فتح صفد وكوكب قبل ان يعود الى دمشق لقدوم فصل الشتاء، ولاخذ قسط من الراحة.

واعاد صلاح الدين الكرة مع صور، وعند اسوارها طبق خطة نفذها بنجاح في فتح القلاع الحصينة مثل برزية، وهي خطة القتال بالتناوب[١٩٢]، وذلك بأن قسم

---

[١٨٨] ن . م . ص: ٧٨، الروضتين ٢/ ٧٧.

[١٨٩] النوادر: ص ٢١٧، الروضتين ٢/ ١٩٩.
مفرج الكروب: ٢/ ٣٨٩.

[١٩٠] آثار الاول: ١٩١.

[١٩١] بلدة حصينة تقع الى الشرق من صور. معجم البلدان.

[١٩٢] الكامل: ١١/ ٥٥٣ – ٥٥٤.

عسكره الى ثلاثة اقسام، يقاتل كل قسم منها فترة محددة، ثم يستريح ليواصل القتال قسم ثان ثم ثالث[١٩٣]، ثم العودة الى القسم المستريح. وقد قصد باتباعه لهذا الاسلوب انهاك الصليبيين وعدم فسح المجال لهم ليرتاحوا، الا ان الاسلوب اصطدم في محاولاته المستميته مع (صور) لمتانة اسوارها، اضافة الى وضع المدينة الطوبوغرافي، ففشلت محاولته مع هذه المدينة.

ونجد ان الجيش الايوبي اتبع خطة شق صفوف الصليبيين، والايقاع بينهم، وكسب ود بعض قادتهم في محاولة منه اضعافهم، فيذكر ابن شداد ان السلطان جلس ذات يوم واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه، .. ثم تقرر ان يصالح المركيز مونتفرات صاحب صور الذي انضم اليه بعض اكابر الفرنجة بينهم صاحب صيدا. واشترط صلاح الدين على المركيز المنشق ان يظهر عداواته لبني قومه (وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم)[١٩٤].

ومن الاجراءات الحكيمة التي لجأ اليها القائد صلاح الدين بصدد اضعاف العدو اقتصاديا، قيامه بتوطيد علاقاته الاقتصادية التجارية مع دويلات المدن الايطالية مثل (بيزا وجنوا والبندقية). فمنذ ان تولى الحكم في مصر صار يبذل الجهود لجذب تجارة هذه المدن الى مصر، وراح يعقد الاتفاقيات وتبادل السفارات معها. ومما يؤسف له ان نصوص تلك المعاهدات قد فقدت[١٩٥]. وبذلك انتفع الجيش الايوبي من ناحيتين:

١- ازدياد موارد دولته بسبب النشاط التجاري، فحصل على حاجته من الحديد والخشب والشمع.

---

[١٩٣] النوادر: ٩٢، الفتح القسي، ٢٤٩، الكامل ١٢/ ١٥، الروضتين ٢/ ١٣١، زبدة الحلب ٣/ ١٠٥، مفرج الكروب ٢/ ٢٦٦.

[١٩٤] النوادر: ٢٠٢.

وانظر الفتح القسي: ٥٦٠.

[١٩٥] Heyd, Histoire de ommerce .. p 3

جب، صلاح الدين: ص ١٤٥ – ١٤٦ ارنست باركر، الحروب الصليبية ص ٢٢٩.

٢– اضعاف تجارة الصليبيين، ولاسيما اذا عرفنا ان صلاح الدين كان يسيطر على البحر الاحمر. ولا شك ان هذه التجارة ادت الى الاهتمام باعادة بناء الاسطول الايوبي[١٩٦].

وفي خطاب وجهه صلاح الدين الى الخليفة العباسي سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م قال: (ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة (البيازنة) والجنويون، كل هؤلاء تاره يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون تجارا يحتكمون على الاسلام في الاموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهونة، وما منهم الا من هو الان يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب الينا باهداء طرائف اعماله وتلاده، وكلهم قد قررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة على ما نريد ويكرهون وعلى ما نؤثر وهم لايؤثرون[١٩٧] وهذه العلاقات بين مصر والمدن الايطالية لم تكن بالامر الجديد بل هي استمرار لما كانت عليه في العهد الفاطمي[١٩٨].

ومما يذكر بصدد خطط الجيش الايوبي الحربية، انه لجأ في سني صراعه الاخيرة مع العدو الى تخريب مدينة عسقلان التي كانت المفتاح الجنوبي لبيت المقدس وطريق القوافل الذاهبة الى مصر، وكان يطلق عليها اسم (عروس الشام) لحسنها[١٩٩]. وقد لجأ هذا الاسلوب المدمر حين عجز عن الدفاع عنها[٢٠٠]، ولانه خشي ان يستولي عليها الصليبيون وهي عامرة – كما حصل لعكا – فيقطعوا بها طريق مصر. ورأى صلاح الدين ادخار قوة جيشه الدفاعية لحفظ بيت المقدس، واستشار اخاه الملك العادل واكابر امرائه في ذلك، فأقروه على رأيه، وقال علم الدين سليمان ابن جندر، احد كبار مستشاريه: هذه يافا قد نزل العدو بها، وهي مدينة تقع في الوسط بين عسقلان والقدس، ولا سبيل الى حفظ المدينتين معاً، فاعمد الى اشرفهما وحصنها[٢٠١]. وهكذا تقرر تخريب عسقلان.

---

[١٩٦] د. الباز العريني، الشرق الادنى في العصور الوسطى، ص ٧٨.

[١٩٧] الروضتين جـ١ ق٢ ص ٦٢١ – ٦٢٢.

[١٩٨] د. صابر محمد دياب، سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط ص ٢٣٠.

[١٩٩] معجم البلدان، ٤/ ١٢٢. آثار البلاد، ص ٢٢٢.

[٢٠٠] النوادر: ١٨٧، الكامل ١٢/ ٧١، الفتح القسي: ٥٥٠، الروضتين ٢/ ١٩٢، السلوك ١/ ١٠٦.

[٢٠١] الفتح القسي: ٥٥٠، التاريخ المنصوري: ٢٠٧، مرآة الزمان: ٨/ ٤١٠.

ثم تقرر تخريب حصن الرملة[٢٠٢]، وحصن النطرون الذي كان من املاك الداوية[٢٠٣] وجزءا من سور يافا[٢٠٤] وغزة[٢٠٥] واللد[٢٠٦]، والداروم الواقعة في اقصى ساحل الشام الجنوبي[٢٠٧]، وقد خرجها صلاح الدين حين ملك الساحل في سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م[٢٠٨] وخرب حصن يازور[٢٠٩] بسواحل الرملة من اعمال فلسطين[٢١٠]، وخرب معه بلدة بيت جبرين[٢١١]، قبيل عقد الصلح مع ريتشارد قلب الاسد ملك انكلترا. ومما يدخل ضمن خطط الجيش الايوبي الستراتيجية، تأمينه للطريق الموصل بين الشام ومصر والذي يبلغ طوله حوالي ثلاثين يوماً[٢١٢]. ويبدو ان صلاح الدين ادرك، وهو في طريقه الى الكرك والشويك عن طريق ايلة[٢١٣] منذ أن كان نائباً لنورالدين. محمود في مصر، أدرك ان الضرورة الحربية تقضي بتطهير شبه جزيرة سيناء كلها من الجماعات التي يمكن ان تلعب دوراً تخريبياً معيقاً لسلامة الطريق بينهما، فطهّر الوديان ومعابر الطرق منهم، ثم رأى ان من الحكمة ان يشيد قلعة في قلب شبه الجزيرة، والراجح انه بدأ بمشروعه منذ استيلائه على ايله في سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م. واختار لتلك القلعة ارضاً مرتفعة مخروطية الشكل تقع على نحو ميل الى الشمال الشرقي من عين صدر العزيز، والموجودة بدرب الشعري الذي يبدأ من السويس الى ايله، على مسافة ٥٧ كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من السويس[٢١٤]. كما

---

[٢٠٢] النوادر: ١٨٩، الفتح القسي: ٥٥١ الكامل: ١٢/ ٧٢، معجم البلدان: ٣/ ٦٩.

[٢٠٣] النوادر: ١٩١، الروضتين: ٢/ ١٩٣، وفيات الاعيان: ٧/ ١٩٩ السلوك: ١/ ١٠٦.

[٢٠٤] مراة الزمان مان: ٨/ ٤١٠.

[٢٠٥] شفاء القلوب: ١٧٣.

[٢٠٦] النوادر: ١٨٩، الفتح القسي: ٥٥١، وفيات الاعيان: ٧/ ١٩٩.

[٢٠٧] معجم البلدان: ٢/ ٤٢٤. شفاء القلوب: ١٧٣.

[٢٠٨] الكامل: ١٢/ ١٣، زبدة الحلب: ٣/ ١٠٤.

[٢٠٩] النوادر: ٢٢٨، مفرج الكروب: ٢/ ٤٠٠.

[٢١٠] معجم البلدان: ٥/ ٤٢٥.

[٢١١] بيت جبرين بين بيت المقدس وغزة. معجم البلدان ١/ ٥١٩.

[٢١٢] الروضتين: ٢/ ٢٨.

[٢١٣] ايله: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام (معجم البلدان ١/ ٢٩٢) وهي ميناء (ايلات) الحالية على خليج العقبة في فلسطين المحتلة (اسرائيل).

[٢١٤] انظر د. سعداوي، التاريخ الحربي، ص: ٣٨.

شيد القلاع والمنازل واقام الحراس على طول الطريق بين مصر والشام، فاعاد الامن والسلام الى سيناء. وقد اعتاد الجيش الايوبي ان يسلك هذا الطريق في غدواته وروحاته من والى الشام، وعبر هذا الطريق جاءته قوافل التموين المتواصلة من مصر مزوّدة بالعتاد والزاد اثناء حروبه الطويلة مع الصليبيين.

واهتم بتحصين مدينتي مصر والقاهرة، وثغور الديار المصرية ومداخلها، واهمها الاسكندرية ودمياط ورشيد وعيذاب وتنيس[٢١٥]. وكان صلاح الدين على علم بمدى الخطر الذي قد يلحق بمصر من ناحية الشمال من جانب الصليبيين، فما حصل في دمياط حين حاصرها اموري الملك الصليبيي براً وبحراً سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م، جعله يولي هذا الثغر قدراً كافياً من اهتمامه، فحرص على تحصينه وكذلك اهتم بتحصين سواحل البحر الاحمر، فقد علم صلاح الدين سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م ان الصليبيين يحاولون مد نفوذهم الى جهاته ولاسيما حين حاول الامير ارناط انزال سفنه على الاقسام القريبة من امارته في الكرك، الى جهات خليج العقبة[٢١٦]. ولم يكد يتم تركيب قطع السفن التي جلبها هذا الامير الصليبي حتى استولى بعضها على جزيرة القلعة في عباب الخليج المذكور، في حين قام البعض بالاغارة على الموانئ المصرية الصغيرة على البحر الاحمر.

اما في داخل مصر، فلعل اهم التحصينات التي اقامها كانت في مدينة القاهرة التي بدأ بها صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م، غير انه يلاحظ ان ما فعله في تلك السنة لم يتعد إحداث التجديدات في سور القاهرة الذي كان بحاجة الى اعمال الصيانة. ويتجلي ذلك من كلمة (عمارة) التي ترد في عبارة ابي شامة التي ينقلها من ابن ابي طي، معاصر صلاح الدين، ويقول فيها: (في هذه السنة شرع السلطان في عمارة سور القاهرة، لانه كان قد تهدم اكثره وصار طريقا لايرد داخلا ولا خارجا، وولاه لقراقوش[٢١٧].

وفي سياق الحديث عن خطط القتال نتكلم عن ارض المعركة لان الارض التي كانت تجري عليها المعارك، كان لها تأثير كبير على الخطط العسكرية التي وضعها

---

[٢١٥] قوانين الدواوين، ص: ٣٢٥.

[٢١٦] الروضتين: ٢/ ٣٥، مفرج الكروب: ٢/ ١٢٧.

[٢١٧] الروضتين جـ١ ق٢ ص ٤٨٨.

صلاح الدين مع مستشاريه، وكانت نتائج المعركة تتوقف احياناً على الارض التي يختارها هذا الجانب او ذاك، ونجاح القائد يظهر من حسن اختياره المواقع، بحيث يكون جيشه في موقع حصين يضمن سلامته في حالتي الهجوم والدفاع، ويضمن سهولة الحصول على المؤن والاعتدة والرجال، ومن ثم المحاولة لجعل العدو لا يتمتع بهذه المزايا قدر المستطاع.

والواقع انه لم تكن هناك ارض معينة يلتقي فيها الطرفان بشكل دائم، بل كانت المعارك تنتقل من ارض الى اخرى، حتى ليخيل الى من لم يتعرف على طبيعة ارض الشام، التي كانت مسرحا لمعارك الجيش الايوبي كافة، ان معارك هذا الجيش كانت مضطربة، لا تسير على نظام، ولكن الامر لم يكن كذلك، بل ان قادة الجيش كانوا على علم بطبيعة الارض التي يحاربون عليها، لذا طبقوا خططاً مختلفة، تطلبتها طبيعة الارض في كل منطقة من مناطق هذه البلاد، فطبقوا خطة في ارض قد لا يطبقونها في اخرى. ولكن المسألة لم تكن بهذه السهولة دائماً، ولاسيما حينما كان الجانب الصليبي هو الذي يقرر موعد المعركة ويختار مكانها، او انهم يجلبون معهم الالات الضخمة، عندئذ كانت الصعوبات تعترض سبيل الجيش الايوبي، وتضطره الى تغير خططه واساليبه.

موسم القتال:

كانت الاستعدادات تبدأ بانتهاء موسم الشتاء وارتفاع درجات الحرارة مع قدوم الربيع، اما ما كان يجري في الشتاء بين الجانبين فلم تكن تتعدى المناوشات القصيرة، ووضع الكمائن وارسال فرق الاستطلاع لمعرفة احوال العدو. واذا نظرنا الى فترات المعارك نلاحظ انها تقع خلال الثمانية او التسعة اشهر التي تبدأ مع انتهاء حدة البرد، وتنتهي مع قدوم الشتاء. فعلى سبيل المثال حدثت موقعة حطين في شهر تموز ١١٨٧م/ ربيع الثاني ٥٨٣هـ، بل ان صلاح الدين وقادة جيشه قد استغلوا اشتداد الحر خير استغلال. وفي هذا الموسم نفسه احرز الجيش الايوبي مجموعة انتصاراته الكاسحة في فتوح الساحل، وتوجها بفتح بيت المقدس في ايلول ١١٨٧م/ رجب ٥٨٣هـ. ويذكر عمادالدين الكاتب ان جميع عمليات الجيش الايوبي العسكرية وفتوحه تمت في فصل الصيف بقوله: (وكل ما تم من النصر يوم حطين وفتح

القدس وتسلم بلاد الساحل، انما تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره[٢١٨].
ويقول ابن شداد، ان السلطان (كان يعطي دستورا في اوائل الشتاء)[٢١٩].

والملاحظ ان الهدنة التي وقعها صلاح الدين مع صاحب انطاكية عام ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م والتي كانت مدتها ثمانية اشهر، تبدأ من تشرين الاول الى نهاية (مايس)[٢٢٠] ويسوغ العماد الكاتب عقد هذه الهدنة بضجر الجيش ورغبته في الراحة، وبأن أمد الهدنة سينتهي (قبل ادراك الغلة واوان حصادها)[٢٢١] والظاهر ان العساكر كانوا يعودون الى اوطانهم في الشتاء، ليس لصعوبة القتال في هذا الموسم، او لاخذ قسط من الراحة والاستجمام، فحسب، بل لان الشتاء هو موسم اعداد الارض للزراعة، وعلى العاملين في الزراعة ان يكونوا في اراضيهم في هذه الفترة.

وكذلك اذا تابعنا اليوميات الخاصة بتحركات جيش صلاح الدين التي دونها كل من العماد الكاتب وابن شداد وعيرهما من المؤرخين المعاصرين، نرى ان القتال ووصول جيوش الاطراف الى الميدان كان يتوقف في فصل الشتاء، ولكن ما ان ينتهي هذا الفصل القارس والموحل – ولاسيما في بلاد الشام – حتى يدب النشاط في الجيش، فيبدأ بالاستعداد لمجابهة عدوه، وتصل الى ميدان القتال قوات الاطراف[٢٢٢]. اما بعد ان ينتهي موسم القتال فتعود العساكر الى بلدانها. فقد اعلن العماد الكاتب انه حين هجم (الشتاء، وانحرف حريف الخريف .. واشتعلت رؤوس الجبال شيبا للثلج، وحل الوحل المخيم .. (طلب الامراء من صلاح الدين الاذن بالعودة الى بلادهم للراحة والاستجمام، فسار صاحب سنجار، وتلاه صاحب جزيرة ابن عمر، وبعده ابن صاحب الموصل)[٢٢٣].

---

[٢١٨] الروضتين ٢/ ١٢١.

[٢١٩] النوادر، ١٩.

[٢٢٠] هكذا يحدد العماد الكاتب فترة الهدنة بالتقويم الشمسي (الميلادي) وليس (الهجري) الفتح القسي/ ٢٦٠) وانظر ايضا (النوادر ٩٤) و (الكامل ٩/ ١٢) و (الروضتين ٢/ ١٣٣).

[٢٢١] الفتح القسي ٣٨٠ – ٣٨٥، وانظر النوادر: (١٢١) والروضتين ٢/ ١٥١.

[٢٢٢]

[٢٢٣] الفتح القسي ٤٥٤. مفرج الكروب ٢/ ٢٤٦.

ويذكر ابن شداد بهذا الصدد تحت عنوان (عـود العسـاكر مـن الجهـاد) انـه (لمـا هاجم الشتاء وهاج البحر وأمـن العـدو ان يضـرب مصـافاً، وان يبـالغ في طلـب البلـد وحصاره من شدة الامطار وتواترها، أذنَ السلطان للعسـاكر الاسـلامية في العـودة الى بلادها، لتأخذ نصيبها من الراحة وتجـم خيولهـا الى وقـت العمـل..)[٢٢٤] وقـد تكـررت حوادث قدوم العساكر الى ساحة المعركة لانجاد الجيش بعد انتهاء الشتاء، ثم العودة الى اوطانها بمجيء هذا الفصل[٢٢٥].

[٢٢٤] النوادر صفحة: ١٥٠ – ١٥١، الروضتين: ٢/ ١٨٠

[٢٢٥] انظر على سبيل المثال: النوادر: ٢١١، ٢٣٠. الفتح القسي ٤٧٢، ٤٩٥، الروضتين: ٢/ ٢٠٢.

المصادر:

١- ابن ابي اصيبعه الخزرجي، ابو العباس موفق الدين احمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/ ١١٦٩م) عيون الانباء في طبقات الاطباء، اصدار دار الفكر، بيروت، ١٩٥٧.

٢- ابن الاثير، ابو الحسن عزالدين علي ابن ابي الكرم محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م).

٣- نفسه، الباهر في التاريخ الاتابگى، تحقيق د. عبدالقادر طليمات. ط القاهرة ١٩٦٣.

٤- ابن الازرق، ابو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن مسعود (ت ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م). بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق د. علي سامي النشار، منشورات وزارة الاعلام العراقية، دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٧.

٥- ابن اياس، ابو البركات محمد بن احمد بن اياس الحنفي المصري (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٢م) تاريخ مصر (بدائع الزهور في وقائع الدهور) المطبعة الكبرى الاميرية، بولاق، مصر ١٣١١م.

٦- ابن تغري بردي، ابو المحاسن جمال يوسف بن تغري بردي الاتابگى (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٨.

٧- ابن جبير، ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٤م). رحلة ابن جبير، دار صادر – بيروت، بيروت ١٩٦٤.

٨- ابن خلدون، ابو زيد عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م). العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) دار الكتاب اللبناني. بيروت ١٩٦١.

٩- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٧م). زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باعتناء وتصحيح بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٤.

١٠- ابن شداد، ابو المحاسن بهاءالدين يوسف بن رافع الاسدي (ت ٦٣٢هـ/ ١٣٣٤م). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د. جمال الدين الشيال طبعة الدار المصرية، القاهرة ١٩٦٤.

١١- ابن العبري، ابو الفرج غريغوريوس اهرون الملطي (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م). تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، ط٢ بيروت ١٩٥٨.

١٢- نفسه:

تاريخ الدول السرياني، صنفه باللغة السريانية، ترجمه الى اللغة العربية اسحق ارملة السرياني. منشور في مجلة (المشرق) البيروتية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت من السنة ٤٦ لعام ١٩٥٢ الى السنة ٤٩ لعام ١٩٥٥، جـ٤، ٥. (وتم طبعة في كتاب تحت عنوان — تاريخ الزمان — في دار المشرق — بيروت. ١٩٩١).

١٣— ابن العديم، ابو القاسم كمال الدين عمر بن احمد بن هبةالله الحلبي (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م). زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق د. سامي الدهان. المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٤ — ١٩٦٧.

١٤— ابن العماد، ابو الفلاح عبدالحي الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م). شذرات الذهب في اخبار من ذهب، مطبعة القدسي، القاهرة. ط ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.

١٥— ابن الفرات، ناصرالدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م). تاريخ ابن الفرات، تحقيق (د. حسن محمد الشماع، مطبعة حداد، البصرة ١٩٦٧.

١٦— ابن قاضي شهبة، ابو الفضل بدرالدين محمد بن تقي الدين ابن قاضي شهبة الاسدي الشافعي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م). الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نورالدين محمود بن زنكي) تحقيق د. محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧١.

١٧— ابن القلانسي، ابو يعلي حمزة (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م). ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨.

١٨— ابن كثير، ابو الفدا، عمادالدين اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٣٢.

١٩— ابن مماتي، الاسعد بن الخطير المهذب بن مينا المصري (ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م). قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، طبع مصر ١٩٤٣.

٢٠— ابن منكلي، محمد الناصر بن محمود بن منكلي المصري (ت ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م) التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية، مخطوط مصور بالفوتستات في المجتمع العلمي العراقي، تحت رقم (٦٤٦ — سلاح).

٢١— ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م). مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال. المطبعة الاميرية القاهرة ١٩٥٧.

٢٢— ابو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (النورية والصلاحية) جـ١ ق١ طبعة القاهرة ١٩٥٦ وجـ١ ق٢ ط ١٩٦٢.

الكتاب نفسه بجزأيه، مطبعة وادي النيل القاهرة، ١٢٨٧ — ١٢٨٨م.

٢٣- ابو الفدا، عمادالدين اسماعيل بن محمد بن تقي الدين عمر الايوبي، صاحب حماه (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) المختصر في اخبار البشر، مطبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت.
٢٤- ابو مخرمة، ابو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن احمد (القرن العاشر الهجري). تاريخ ثغر عدن، مطبعة بريل، ليدن ١٩٣٦.
٢٥- الاوسي الانصاري، عمر بن ابراهيم (اوائل القرن التاسع/ اوائل القرن الخامس عشر الميلادي). تفريج الكروب في تدبير الحروب، حققه وترجمه الى الانكليزية د. جورج سكانلون، منشورات الجامعة الاميركية بالقاهرة ١٩٦١.
٢٦- الايوبي، الملك المنصوري محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب، صاحب حماه (ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م). مضمار الحقائق وسر الحقائق، تحقيق د. حسن حبشي، دار الهنا، طبع عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨.
٢٧- البنداري، قوام الدين الفتح بن علي (ت قرن سابع هـ/ ثالث عشر م). سنا البرق الشامي (تلخيص البرق الشامي للعماد الكاتب الاصفهاني) تحقيق د. رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧١ جـ١.
٢٨- بنيامين التطيلي، بنيامين بن يونه الاندلسي (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م). رحلة بنيامين، ترجمة من العبرية حداد، المطبعة الشرقية. بغداد ١٩٥.
٢٩- الثعالبي، ابو منصور عبدالله بن محمد (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٦م). فقه اللغة وسر العربية، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٥٩.
٣٠- الجاحظ، ابو عثمان عمر وبن بحر (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٨م). الحيوان، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م.
٣١- الحموي، ابو الفضائل محمد بن علي بن العزيزي بن على مزهر (ت ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) التاريخ المنصور، تلخيض الكشف والبيان في حوادث الزمان (نشر بطرس غريا زنويج) موسكو، دار النشر للاداب الشرقية، ١٩٦٠.
٣٢- الحموي، ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م). معجم البلدان، دار صادر – دار بيروت، بيروت ١٩٥٥ – ١٩٥٧.
٣٣- الحنبلي، ابو البركات عزالدين احمد بن ابراهيم بن نصر الله العسقلاني المصري (ت ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م) شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، تحقيق: د. ناظم رشيد، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٨.

٣٤- الدميري، كمال الدين ابو البقاء (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م). حياة الحيوان الكبرى، دار الطباعة، القاهرة ١٢٩٢هـ.
٣٥- الدواداري، ابو بكر بن عبدالله بن ايبك (ت بعد ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م). الدر المطلوب في اخبار بني ايوب، تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٢.
٣٦- الذهبي، ابو عبدالله شمس الدين محمد بن احمد الدمشقي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) مختصر تاريخ الاسلام. مخطوط مصور في مكتبة الدراسات العليا (قسم ١، ٢) تحت رقم ١٦٥٩، ١٦٦٠.
٣٧- الزبيدي، ابو الفيض محب الدين مرتضى الحسيني الواسطي (ت ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م) تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٠٦هـ.
٣٨- سبط بن الجوزي، ابو المظفر شمس الدين قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن/ الهند ١٩٥١، جـ٨ قسم ١.
٣٩- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م). حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، المطبعة الشرقية ١٣٢٦هـ.
٤٠- الطرسوسي، مرضي بن علي مرضي (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) (تبصرة ارباب الالباب..) مخطوط مصور بالميكر وفيلم، لدينا نسخة شخصية عن نسخة مكتبة بودليان باكسفورد.
٤١- الطرطوشي، ابو بكر محمد بن الوليد الفهري المالكي (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م). سراج الملوك. مطبعة بولاق ١٢٨٩م.
٤٢- العباسي، الحسن بن عبدالله (بدأ بتأليفه سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م) اثار الاول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق ١٢٩٥هـ.
٤٣- العليمي المقدسي، ابو اليمن مجيد الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن الحنبلي (ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢٠م). الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
٤٤- العماد الكاتب الاصفهاني، ابو عبدالله محمد بن محمد حامد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م). الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، ١٩٦٥.

٤٥– العمري، شهاب الدين ابو فضل الله العمري (ت ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م) التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة ١٣١٢م.
٤٦– القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) اثار البلاد واخبار العباد، دار صادر – دار بيروت، بيروت ١٩٦٠.
٤٧– القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي بن عبدالله (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) صبح الاعشى في صناعة الانشاء، المطبعة الاميرية، القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٧.
٤٨– المقريزي، ابو العباس تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م). البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب، تحقيق د. عبدالمجيد عابدين، عالم الكتب القاهرة ١٩٦١.
٤٩– المقريزي.. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٤.
٥٠– المقريزي.. المواعظ والاعتبار (الخطط) مطبعة بولاق ١٢٩٤، اوفيست مكتبة المثنى بغداد. الكتاب نفسه، طبعة المعهد الفرنسي، القاهرة ١٩١٣ – ١٩٢٢.
٥١– النويري، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) نهاية الارب في فنون الادب. دار الكتب القاهرة ١٩٥٤.
٥٢– الهرثمي، ابو سعيد (صاحب الخليفة المأمون العباسي). مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبدالرؤوف عون. طبعة المؤسسة العامة للتأليف. القاهرة، بلا.
٥٣– الهروي، علي بن ابي بكر بن علي (ت ٦١١هـ/ ١٢١٥م). التذكرة الهروية في الحيل الحربية، تحقيق مطيع المرابط. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٢.
٥٤– اليافعي، ابو محمد عبدالله بن اسعد بن علي اليمني المكي (ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ١٩٧٠.

الكتب الحديثة والمترجمة الى اللغة العربية.

٥٥– احسان هندي: الحياة العسكرية عند العرب، مطبعة الجمهورية، دمشق ١٩٦٤.
٥٦– ادي شير: الالفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٨.
٥٧– ارنست باركر.
الحروب الصليبية، ترجمة د. الباز العربي، مطبعة لجنة البيان العربي، مكتبة النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٠.
امين الخولي، الجندية والسلم.

٥٨– د. الباز العربي كتبه:
الشرق الادنى في العصور الوسطى (الايوبيون)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٧.
٥٩– الشرق الاوسط في الحروب الصليبية، دار النهضة العربية لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٣.
٦٠– المماليك. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٧.
٦١– بولياك، ا . ن.
الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم، منشورات دار المكشوف بيروت ١٩٤٨.
٦٢– جان سوفاجيه
دمشق الشام. المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦.
٦٣– جب، السير هاملتون أ . ر.
صلاح الدين الايوبي، داراسات في التاريخ الاسلامي، حررها يوسف ايبش، المؤسسة العربية للداراسات والنشر، بيروت ١٩٧٣.
٦٤– جرجي زيدان:
تاريخ التمدن الاسلامي. منشورات دار مكتبة الحياة، مؤسسة خليفة للطباعة بيروت ١٩٦٧.
٦٥– جورج كاستلان:
تاريخ الجيوش. ترجمة كمال الدسوقي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦.
٦٦– جهادية القرغولي:
التنظيمات الادارية والعسكرية في العراق والشام، رسالة دكتوراه، مطبوعة على الالة الكاتبة، القاهرة ١٩٧٤.
٦٧–دوزي، رينهارت:
المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب، ترجمة د. اكرم فاضل. دار الحرية للطباعة، مطبوعات وزارة الاعلام العرقية، بغداد ١٩٧١.
٦٨–د. رشيد الجميلي:
دولة الاتابگه في الموصل بعد عمادالين زنكي، دار النهضة بيروت ١٩٧٠.
٦٩– ستيفن رنسيمان
تاريخ الحروب الصليبية، نرجمة د. الباز العريني، ط. دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨.

٧٠– السرساوي، اللواء محمود محمد:
يوم حطين من روائع التاريخ العسكري العربي. مطبعة الدار القومية، القاهرة، بلا تاريخ.
٧١– سعيده الديوةجي:
الموصل في العهد الاتابگى، مطبعة شفيق، بغداد ١٩٥٨.
٧٢– سعيد عبدالفتاح عاشور
الحركة الصليبية، مكتبة الانجلو المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٦٣.
٧٣–نفسه: مصر والشام في عهد الايوبيين والمماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠.
٧٤– طه الهاشمي:
دروس في المعلومات الجغرافية، مطبعة الشعب، بغداد ١٩٣٦.
٧٥– عبدالرؤوف عون:
الفن الحربي في صدر الاسلام، مطبعة دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠
٧٦–د. عطية مصطفى مشرفة:
نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين، مطبعة الاعتماد، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، بلا
٧٧–د. فيليب حتى:
تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجي، مراجعة د. جبرائيل جبور، دار الثقافة ومؤسسة فرانكلين – بيروت ١٩٥٩.
٧٨–قدري قلعجي:
صلاح الدين الايوبي، قصة الصراع بين الشرق والغرب، دار الكاتب العربي. بيروت ١٩٦٦.
٧٩– محمد التونجي
المعجم الذهبي، دار للملايين بيروت ١٩٦٩.
٨٠– محمد خالد
قصة التعبئة، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٩.
٨١– محمد كرد علي
خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٢٥.
٨٢– محمد ياسين الحموي
دمشق في العصر الايوبي، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٤٦.
٨٣–ميخائيل صباغ (ت ١٨١٦م)

مسابقة البرق والغمام في سعاة الحمام. رسالة منشورة في مجلة (المورد) البغدادية المجلد ٢ عدد ٣ بغداد ١٩٧٣.

٨٤- نظير حسان سعداوي:

التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧.

٨٥- Haud w, Histoire de Commerce de Leven tar moyen-Age, Am sterdam, 1959.

Henry Treece, The crusades, NY. 1962

٨٦- Oman, C.W . C . A History de the art of war in the Middle age N.Y. 1924.

٨٧- Lane-poole, Stanley, A History of middle age, London 1901.

٨٨- Lane-poole Stanley, Saladin and the fall of the kingdom de Jerusalem, 1962.

مسؤولية صلاح الدين
في فشل حصار صور(*)

الملخص:

إن قائداً عظيماً يجابه عدوا ما زال يحتفظ بكامل قدراته ومزاياه العسكرية، لن يكون تاريخه سلسلة من الانتصارات، بل الأرجح أن تتخلل مسيرته بعض الانكسارات. وفي السياق العادي يعتبر الانتصار الذي يحرزه قائد ما، حدثا هاما، ولاسيما حين يكون الانحدار هو السمة الغالبة للمرحلة.

إلا أن الوضع مع صلاح الدين (يوسف بن أيوب بن شادي) كان مختلفا. فرغم أن تاريخه العسكري لم يخل من هزيمة: هزيمة في بدء مجابهاته العسكرية مع العدو الصليبي (الرملة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م) وهزيمة في نهاية تلك المجابهة المستمرة (عكا ٥٨٧هـ/ ١١٩١م)، وبعدها في أرسوف، إلا أن الحدث العسكري الذي صار مجالا لتوجيه اللوم إليه، بل ومحاولة لجعل صورة سيرته الباسلة تهتز، كان حادث فشل حصار مدينة صور. ورغم أن صلاح الدين لم يهزم عند صور، لكنه لم ينتصر فيها أيضا، وفرق بين الهزيمة وبين عدم إحراز النصر.

لقد اعتبر هذا الفشل حدثا استثنائيا ضمن سياق انتصارات القائد صلاح الدين المتتابعة، إلا أن هذا الاعتبار يعد تخريجا يفتقر إلى التحليل العلمي. فمن شأن أي قائد، مهما علت منزلته أن يهزم، أولا ينتصر في بعض فعالياته العسكرية. لهذا فاعتبار فشله في صور من قبيل الاستثناء – من لدن بعض المؤرخين – خطأ لا يعتد به. وأبرز من يشار إليه في هذا الصدد هو مؤرخ عصر صلاح الدين الشهير (ابن الأثير الجزري) الذي اتسمت كتاباته بالتحامل على هذا القائد، أو إظهاره على غير حقيقته، سواء في كتابه (الكامل في التاريخ) أو في (الباهر في التاريخ الأتابكى). ومن

(*) نشر في المجلة العربية للعلوم الإنسانية مجلة كلية الآداب جامعة الكويت – العدد (٢٦) المجلد (٧) ١٩٨٧.

هذه النظرة البعيدة عن الحيدة أظهر شماتته لما حصل عند صور، أكثر من ذي قبل.

ليس هذا فحسب، بل إن هذا المؤرخ استهان بالتضحيات الجسام التي قدمها هذا القائد وأمراؤه وجنده، حين أعلن: (لم يطل مقام صلاح الدين على مدينة بل فتح الجميع في الأيام القريبة بغير تعب ولا مشقة) (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١١/٥٥٥). إضافة إلى انه رمى مسؤولية ما حصل في صور على عاتق هذا القائد (شخصيا)، بل وأظهره بمظهر من لم يكن جاداً في حصاره. وأخيراً نصب نفسه مرشدا وواعظا ليقول بشأن هذا الفشل: (ليعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم، وإن ساعدته الأقدار، فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرطا، مضيعا للحزم) (ابن الأثير ١٩٦٦: ١١/٥٥٦).

ومع ذلك فإن ما حصل عند هذه البلدة الحصينة كانت له أهميته، بحيث لايمكن التوقف عند الرد على طعون المؤرخ الكبير المذكور، إذ أن مؤرخا معاصرا آخر هو (عماد الدين الكاتب) الذي كان بمثابة المسؤول عن ديوان إنشاء صلاح الدين، ومراسله الحربي، ومن المقربين منه، يوجه بطريقته الخاصة نقدا إلى هذا القائد. لهذا فإن ما حصل جعل الدفاع عن سياسته – دون تمحيص – لا يصمد طويلا. فما الذي حصل عند صور إذن؟

المدخل

ظلت مدينة صور الساحلية المدينة الشهيرة الوحيدة التي عجزت قوات صلاح الدين عن فتحها، وتحولت إلى قلعة – ضمن القلاح الصليبية الباقية، التي تركزت عليها حركة المقاومة الصليبية في وقت لاحق.

والمعروف أن صلاح الدين حين حقق توحيد جبهته الداخلية بصورة تامة" بإلحاق إمارة الموصل الأتابكيه إلى دولته سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٨م، تسنّى له أن يتفرّغ لمقاتله الصليبيين، ووصل ذروة نجاحة في سنة ٥٨٣ – ٥٨٤هـ/ ١١٨٧ – ١١٨٨م، عندما أحرز انتصاره الباهر في حطين، وأعقب ذلك فتح مدينة بيت المقدس، وبذلك سقطت مملكة بيت المقدس التي كانت عصب حياة المستوطنين الصليبيين. ثم فتح مدينة عكا التي كانت تسمى بـ(أم الدنيا وقسطنطينية الشام). وفتح أيضا العشرات

من المدن والقلاع التي كان الصليبيون يحتلونها، ولا سيما في الشرط الساحلي الضيق الذي استوطنوا فيه، وأصبح بمثابة رأس جسر يرتكزون عليه في حركتهم الاستيطانية منذ أن وطأت أقدامهم الأرض الإسلامية في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

وتظهر لنا فتوحات صلاح الدين أن قواته لم تحاصر مدينة أو قلعة، كانت بيد الصليبيين، إلا وفتحها بطريقة أو أخرى، باستثناء مدينة صور، حيث فشل جيشه في فتحها في حملتين متلاحقتين، كانت الأولى في يوليو (تموز) ١١٨٧م، والثانية في نوفمبر (تشرين الثاني) من نفس العام (رمضان ٥٨٣هـ)، كما سنرى. وكان هذا الفشل بداية لمتاعب واجهت المسلمين في صراعهم المقبل مع الصليبيين. فقد أعقب هذا الحدث بسنين قليلة سقوط عكا المريع بيد الصليبيين مرة أخرى، ثم هزيمة المسلمين في أرسوف[١]، وتخريب بعض المدن والحصون لكيلا تقع بيد الصليبيين، مثل عسقلان[٢]، وحصن مدينة الرملة[٣]، والنطرون[٤] وغيرها.

وهنا يستطيع المؤرخ أن يقسم مرحلة الجهاد الصلاحي (نسبة إلى صلاح الدين) إلى قسمين. الأول يمثل مرحلة إقامة الجبهة المتحدة، والحيلولة دون انفراطها، والهجوم على الأراضي المحتلة، وفتح مدنها بسرعة مذهلة لا مثيل لها. والقسم الثاني

---

[١] أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام (الساحل الفلسطيني) بين قيسارية ويافا، كان بها خلق من المرابطين، انظر: معجم البلدان، طبعة بيروت ١/ ١٥١ وعن الحادث انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية (سيرة صلاح الدين) ص: ١٨٥.

[٢] عسقلان: مدينة بالشام، من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام. استولى عليها الافرنج عام ٥٤٨هـ، وبقيت في أيديهم (٣٥) سنة، إلى أن إستولى عليها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ، ثم قوى الافرنج وفتحوا عكا وساروا نحو عسقلان، فخشى أن يتم عليها ما تم على عكا فخربها في شعبان ٥٨٧هـ. ياقوت: معجم البلدان: ٤/ ١٢٢. وانظر عن ذلك أيضا: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، جـ٨ ص ٤١٠ ابو شامة، كتاب الروضتين جـ٢، ص ٢٠٤.

[٣] الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين. كانت قصبتها. عرفت بكثرة صهاريجها وغزارة فواكهها وصحة هوائها. أنقذها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ من الافرنج، ثم خربها خوفا من استيلائهم عليها مرة أخرى في سنة ٥٨٧هـ. وبقيت على ذلك الخراب إلى الآن (أي إلى أيام تدوين ياقوت الحموي لكتابه: معجم البلدان ٣/ ٦٩). وانظر عن الحادث (ابن الأثير، حوادث ٥٨٧هـ).

[٤] النطرون: من مدن فلسطين. عن تخريبها انظر: عمادالدين الكاتب الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٥٥٢، ابن شداد: النوادر ص ١٨٩، ابن الأثير، الكامل: ١٢/ ٧٢.

يمثل مرحلة الدفاع والتحصين والمقاومة. وقد اتضح ذلك تماما حين وصلت مجهودات صلاح الدين الحربية إلى نقطة التشبع، ولم يقو بعدها على مغالبة بقايا المقاومة الصليبية. ففي إمارة طرابلس لم يتسن لصلاح الدين أن يفتح منها سوى مدينة جبيل. وفي إمارة انطاكية في أقصى شمال بلاد الشام، دخل في هدنة مع صاحبها (بو همند الثالث) أمدها ثمانية أشهر.

والواقع أن أبرز أسباب فشل حصار صور يعود إلى متانة أسوارها. والحديث عن هذه المتانة يسوقنا إلى الحديث عما أقيم فيها من تحصينات في العهود السابقة، إضافة إلى وضع المدينة الطوبوغرافي والستراتيجي الخاص، حتى صارت من القوة بحيث استطاعت الصمود بوجه قائد عظيم من طراز صلاح الدين. ويعود تاريخ هذه التحصينات إلى فترات سابقة، قبل أن تطأها أقدام الصليبيين بمئات السنين، حتى أن (أحمد بن طولون) الذي حكم مصر والشام في الربع الأول من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أعجبته حصانتها وحائطها المستدير المحكم، فأحب أن يحصن عكا على غرارها، أي أن مدينة صور عرفت بمتانتها قبل العهد الطولوني، وهذا (ناصر خسرو) من رحالي النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، يصف مدينة صور، حين زارها عام ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م، وقال: إنها مدينة بنيت على صخرة امتدت في الماء، بحيث أن الجزء الواقع على اليابس من قلعتها لا يزيد على مائة ذراع، والباقي في ماء البحر، والقلعة مبنية بالحجر المنحوت الذي سدّت فجواته بالقار حتى لايدخل الماء من خلالها (خسرو، ١٩٧٠: ٥٠). فمدينة هذه أوصافها، لا بد أن تسبب المتاعب لمن يفكر في فتحها في تلك العهود. لهذا فقد لاقى فاتحوها العنت الشديد لدى محاولاتهم الاستيلاء عليها. وهنا لا نبغي أن نتحدث عن تفاصيل هذه المحاولات، ولاسيما محاولات الصليبيين، إذ أن ذلك سيخرجنا عن الهدف الأساس لموضوعنا. والمهم أنهم استطاعوا احتلالها وضمها إلى دولتهم القائمة ضمن مملكة (بيت المقدس) الصليبية. ثم حاول المسلمون استعادتها مرارا، دون جدوى. ففي سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٨م، قام الأمير (إبراهيم طرغت) صاحب بانياس بمحاولة من هذا القبيل إلا أن محاولته ذهبت أدراج الرياح، لأن الأمير الصليبي (ريموند) صاحب أنطاكية، حال دون ذلك، ففشلت المحاولة (ابن القلانسي، ١٩٠٨: ٢٢٧). وظلت صور بأيدي الصليبيين، ولم يتسن للمسلمين فتحها، أو

محاولة ذلك، حتى جاء صلاح الدين فعجز – هو الآخر – عن تحقيق هدفه، فكانت إحدى المعضلات التي واجهته.

البحث:

تداعت المدن التي كانت رازحة تحت الاحتلال الصليبي، أثر انتصار حطين الحاسم. فبعد أن اتم صلاح الدين فتح منطقة الجليل، شمالي فلسطين، والتي من ضمنها مدينة عكا الهامة، تحرك بجيشه على امتداد الساحل شمالاً ووصل الى صور، التي التجأ إليها (باليان ابلين Balian of iblin) المعروف في المصادر العربية (باليان بن بيرزان)، و(رينالد Reginald) صاحب صيدا، الامبران الصليبيان، صحبة معظم من بقي على قيد الحياةبعد معركة حطين. وقدتولى رينالد أمر صور. وبعد ان طوقتها قوات صلاح الدين، أدرك (رينالد) أن ليس بوسع قوات المدينة أن تصمد، فدخل في مفاوضات مع صلاح الدين حول تفاصيل تسليمها، حتى أن الاخير أرسل لواءين "رايتين" من ألوية جيشه لرفعهما على قلعة صور، رمزاً لاستسلامها.

في مثل هذا الظرف دخلت سفينة الى داخل الميناء في ١٤ يوليو (تموز)، أي بعد عشرة أيام على معركة حطين، وعلى متنها (كنراد ابن ماركيز مونتفيرات – Conrad of Montferrat) أي ابن الماركيز الصليبي الكهل الأسير لدى صلاح الدين في دمشق، وشقيق أول زوج للملكة (سبيلا Sibylla) وكان كنراد هذا قد أبحر سراً مع جماعة من الفرسان الصليبيين لزيارة الأماكن المقدسة، بعد أن تورط في القسطنطينية في جريمة قتل (رنسمان، ١٩٦٨: ٢/ ٧٦٢) (Lane – Poole 1964: 221) ولم يكونوا يعلمون بما جرى في فلسطين من تطورات بعد انتصار المسلمين في حطين، فاتخذوا طريقهم إلى عكا، وحين اقتربت سفينتهم من هذا الميناء، عقدت الحيرة ألسنتهم، لأنهم لم يسمعوا ما اعتادوا أن يسمعوه من ضرب النواقيس كلمالاح في الأفق شراع سفينة، فأدركوا أنّ المسلمين قد استعادوا عكا. ثم جاء من يخبرهم بذلك، فأصابهم الهلع. إلا أنهم لم يلقوامراسيهم، بل أمر كنراد ربّان السفينة أن يواصل السير ويتجه شمالا نحو صور. فوصلها في تلك اللحظة الحرجة من مفاوضات رينالد المذكورة – مع صلاح الدين (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١/ ٥٤٤).

لقي كنراد – ورفاقه – كل الترحيب من مقاتلى المدينة الصليبيين، وبدالهم أنه جاء لينقذ المدينة التي صارت بين قاب قوسين أو أدنى من الاستسلام. فتولّى – كنراد – أمرتنظيم الدفاع عنها، بدلا من رينالد. وقصة قدوم هذا الامير إلى صور شبيهة بقصة وصول القائد الصليبي المذكور (باليان بن بيرزان) إلى بيت المقدس – فيما بعد – من حيث قيادة تنظيم المقاومة ضد قوات صلاح الدين – في كلتا المدينتين، إلا أن الأثر الذي تركه وصول كنراد كان أعمق بكثير من أثر وصول باليان إلى المدينة المقدسة التي حررهاصلاح الدين.

اشترط كنراد على المقاتلين، والذين يديرون شؤون صور، أن تكون هذه المدينة وما يتبعها، تحت إمرته وحكمه بعد انقاذها من حصار صلاح الدين، فوافقوا على شروطه، وأقسموا له يمين الطاعة. فبدأ بتحصين صور وترميم أسوارها (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١١/ ٥٥٣)، (سبط بن الجوزي، ١٩٥٢: ٨/ ٤٠٠)، (ابن واصل، ١٩٥٧: ٢/ ٢٠٩)، ثم حفر خندقا في الجانب الشرقي، الجانب الوحيد الذي يربط المدينة بالساحل أي أنه أوصل البحر بالبحر، فصارت المدينة كالجزيرة لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١١/ ٥٥٣)، (ابو شامة: ١٢٨٧ هـ: ٢/ ١١٩) (الحنبلي، ١٩٧٩: ١٥١).

والواقع أن المحتلين قد أخذوا احتياطا كافيا للدفاع عن هذه المدينة، والحيلولة دون استعادة المسلمين لها منذ فترة مبكرة، حتى أن الرحالة الشهير (ابن جبير) المغربي البلنسي، وصفها حين زارها سنة ٥٧٩ هـ/ ١١٨٤م، أي قبل حطين، وقبل فرض صلاح الدين الحصار عليها بحوالي أربع سنين، وصفها قائلا: إنها مدينة يضرب بها المثل في الحصانة.... جعلها الفرنج موطن أمانهم. ويضيف الى قوله: وأما حصانتها ومناعتها فأعجب ما يحدّث به... ليس في البلاد البحرية أعجب وضعا منها، يحيط بها سور من ثلاثة جوانب، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجصّ، فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها، وتعترض بين البرجين، اللذين يؤديان إلى المدينة، سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها. ويختتم ابن جبير كلامه بقوله: فشأن هذا الميناء شأن عجيب الوضع (ابن جبير، ١٩٦٤: ٢٧٨)، (الحميري، ١٩٧٥: ٣٦٩). وقد دخل هذا الرحالة مدينة صوروأقام فيها أحد عشر يوما، في وقت كانت المدينة بيد الصليبيين.

ووصف الجغرافي (القزويني) صور وصفا موجزاً، وتحدث عن سوررها، وقال: إنه استدارعلى مينائها استدارة عجيبة (القزويني، ١٩٦٠: ٢١٧) ولهذا كان من الصعب إحراز النصر على مدينة مثل صور بأساليب الحصار الاعتيادية.

وحين عجز صلاح الدين عن تحقيق هدفه، أمر بجلب (مونتفيرات والد الماركيز كونراد) من دمشق، وطلب من جنده ان يعرضوه أمام أسوار المدينة، لكي يراه ابنه، أو يسمع خبر وجوده في حوزة صلاح الدين، الذي هدّد باعدامه مالم تستسلم المدينة له. غير أن ما كان لدى كونراد من عاطفة البنوة لم يكن من القوة ليصرفه عن تأيدية واجبه، – كمحارب مسيحي – على حد قول رنسيمان (١٩٦٨: ٢/ ٧٦٢). لأنه لم يشأ أن يضحّ بهذه المدينة الحصينة، من أجل رجل مسنّ، رغم أن الرجل هو والده. لم يتأثر بما أعلنه صلاح الدين، ولأنه كان على علم بما عرف عن هذا القائد وما اشتهر به من عطف ورفق، ولا سيما عطفه على الشيوخ والنساء، فرفع حصاره عن صور.

ومن عكا، التي اتخذها صلاح الدين قاعدة للعمليات العسكرية لتحرير فلسطين ثم الشام، أنقذ السرايا إلى سائر إلى الاطراف المحتلة، وكتب إلى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر في القاهرة يطلب منه القدوم مع العساكر المصرية، وليسهم في استعادة المدن والقلاع. وجاءت هذه العساكر، واستولت على الناصرة وصفورلة[٥] والفولة[٦] داخل فلسطين، بينما استولت جماعة عسكرية آخرى على حيفا وقيسارية[٧] وارسوف على الساحل، وأخضعت قوة أخرى سبسطية[٨] ونابلس. وحين عصى فتح تبنين[٩] على(تقي الدين عمر) ابن أخي صلاح الدين، سارهذا القائد بنفسه واستولى عليها (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١١/ ٥٤١ – ٥٤٢). ثم توجه صلاح الدين

---

[٥] صفورية: بلدة من نواحي الأردن بالشام، وهي قرب طبرية أنظر: معجم البلدان ٣/ ٤١٤.

[٦] الفولة: بلدة بفلسطين من نواحي الشام، أنظر: معجم البلدان ٤/ ٢٨٠.

[٧] قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام، تعد من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. وكانت من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كثيرة الخير. معجم البلدان: ٤/ ٤٢١.

[٨] سبسطية: بلدة من نواحي فلسطين، بينها وبين بيت المقدس يومان تقع قرب نابلس، في شمالها الغربي. راجع معجم البلدان ٣/ ١٨٤.

[٩] يبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور. راجع معجم البلدان ٢/ ١٤.

إلى صيدا، فاستسلمت له في ٢٩ يوليو/ تموز ١١٨٧م (جمادي الأولى ٥٨٣) وفر صاحبها (رينالد) إلى قلعته المنيعة (شقيف أرنون)[١٠] بالداخل. وقصد بعد ذلك بيروت التي كانت من مدن الساحل الطيبة والمنيعة، لذا استطاع الصليبيون مقاومة قوات صلاح الدين اعتماداً على متانة أسارها، وحين أدركوا أن خبرتهم المحدودة في المسائل العسكرية ستحول دون استمرار صمودهم، طلبوا الأمان، وأذعنوا لصلاح الدين في ٦ أغسطس (آب) ١١٨٧م/ ٢٩ جمادى الأولى ٥٨٣ هـ. ثم توجه هذا القائد إلى جبيل[١١] وكان صاحبها (أوك الثالث Hugues lll) أسراً في دمشق منذ انتصار حطين، فقرر صلاح الدين إطلاق سراحه مقابل تسليم هذا الحصن وإطلاق سراح الأسرى المسلمين. وقد تعرض عمل صلاح الدين هذا إلى انتقاد المؤرخ (ابن الأثير) نظراً للدور الخطير الذي اضّطلع به صاحب جبيل، فيها بعد. فكان "من أعيان الفرنج، وأصحاب الرأي والمكر والشر، به يضرب المثل بينهم" على حد قوله (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١١/ ٥٤٣)، (ابن واصل، ١٩٥٧: ٢/ ٢٠٧).

ولم ينته شهرأغسطس حتى لم يبق بيد الصليبيين، جنوب إمارة طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة في الساحل الفلسطيني، وقلاع متناثرة قليلة، إضافة إلى بيت المقدس. وتقرر منازلة عسقلان أولاً، لأهمية موقعها بالنسبة لبيت المقدس ومصر، واستطاع أن يستولي عليها في ٥ سبتمبر/ أيلول ١١٨٧م/ جمادي الأخرة ٥٨٣ هـ، ومنح صليبييها الأمان على أنفسهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، وأن يذهبوا إلى بيت المقدس (ابن الاثير، ١٩٦٦: ١١/ ٥٤٦)، (ابن واصل، ١٩٥٧: ٢/ ٢٠٩)، (ابو شامة، ١٢٨٧ هـ: ٢/ ٩١) ثم أذعنت له مدن فلسطينية عديدة أهمها غزة والرملة والداروم[١٢] وبيت لحم (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١١/ ٥٤٦)، (ابن واصل، ١٩٥٧: ٢/ ٢٠٩) ومدن أخرى جنوب بحيرة طبرية.

---

[١٠] شقيف أرنون: قلعة حصينة جدا في كهف من الجبل قرب نابلس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. معجم البلدان: ٣/ ٣٥٦.

[١١] جبيل: بلد في سواحل دمشق ... في شرقي بيروت على بعد ثمانية فراسخ منها. معجم البلدان ٢/ ١٠٩.

[١٢] الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر، الواقف فيها يرى البحر، إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ. معجم البلدان: ٢/ ٤٢٤.

وكان من المتوقع أن يتجه صلاح الدين نحو صور، بعد أن واصلت قواته الاستيلاء على المدن القريبة، ولاسيما تبنين وبيروت وصيدا، إضافة إلى فتحها لعكا في وقت سابق. غير أنه لم يشأ حمل جيشه على معاناة حصار غير مضمون النجاح، لأنه كان على دراية بأن حصاره سيطول، وحتى لو نجح في الاستيلاء عليها في النهاية. لذا قرر أن يتفرغ لفتح المدن الأخرى، ليعزل صور فيتيسر له بذلك فتحها. إلاّ أن هذا التريث كان من أسباب صمودها التالي. وفي أواخر سبتمبر/ رجب من العام نفسه حرّر صلاح الدين بيت المقدس. وكان لهذا العمل الخطير، الصيت العظيم في العالم الإسلامي والمسيحي.

معاودة حصارصور

عاود صلاح الدين بعد الاستيلاء على المدينة المقدسة، حصار مدينة صور في نوفمبر/ تشرين الثاني ١١٨٧ رمضان ٥٨٣هـ، بعد أن زادت حصانة، كما أسلفنا، وصارت مكتظة بالمقاتلين (فكانت على كل من خرج من القدس وبلاد الساحل محتوية) (الأصفهاني، ١٩٦٥: ١٥٤) وغدت (مرتجة أبوابها، مغتصة جوانبها، مرتصة عصائبها، مشحونة أبراجها) (الأصفهاني، ١٩٦٥: ١٥٦).

ظل (صلاح الدين أياماً يتفكر ويتدبر، ويستشير ويستخير) عما ينبغي فعله، وكان على رأس الداعين للهجوم دون تريث القائد المعروف (سيف الدين علي المشطوب الهكاري)[١٣]، الذي عرف بشجاعته في المعارك التي خاضها، وكان يدفع صلاح الدين إلى اتخاذ قرار الهجوم (ولا يمهله، ويحرض ويحذر من المكث، ويقول له: الفرضة تدرك بالحث وتفوت باللبّث ... فسار صلاح الدين لندائه ملبيا ولجيش النصر معبيا، ولرأيه مقلدا، وبالله متأيداً) (الأصفهاني، ١٩٦٥: ١٥٤). ثم أمر بإنزال جموعه بعيدا عن السور، وجاءته المدد ... (واستحضر الآت الحصار، واستكثر من

---

[١٣] سيف الدين على المشطوب الهكاري. أحد أبرز قادة صلاح الدين. قاد صمود عكا في حصارها الطويل، وقّع على صلح الرملة مع الصليبيين ممثلا عن صلاح الدين. توفي في بيت المقدس في ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م. أنظر (بحثنا: المشطوب الهكاري. سيرة مجاهد – مجلة المجمع العلمي العراقي/ الهيئة الكردية/ المجلد الثامن ١٩٨١). وانظر: البداية والنهاية: ١٢/ ٣٥٢، النجوم الزاهرة: ٦/ ١١٧، شذرات الذهب: ٤/ ٢٩٤.

المجانيق الصغار والكبار) (الأصفهاني، ١٩٦٥: ١٥٤) وتقدم في (جيش يسير كالأسد في الغابة) وبدأ جنده يدكون أسوار المدينة الصلدة بتلك الآلات دكاً متواصلا.

ويذكر المؤرخون أن القتال كان يجري عادة في الساعد الذي يوصل بين المدينة (الشبيهة بالكف) وبين البر، لأن (المدينة كالكف في البحر، والساعد متصل بالبر والبحر في جانبي الساعد) (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١١/٥٥٤)، (ابن العبري، ١٩٥٧: ٢٢١)، أي أن القتال ونصب المعدات ورمي الآلات كان يتم عبر هذا المكان الضيق، وكان هذا أحد أسباب صمود من فيها.

وحين لاحظ صلاح الدين التعب باديا على مقاتليه، ورأى ضيق مكان القتال، بحيث لا يستوعب كل المحاربين ومعداتهم، لجأ إلى خطة القتال بالتناوب، تلك الخطة التي طبقها في فتح العديد من القلاع العاصية، ونجح فيها. فقسم مقاتليه إلى مجموعات، تحارب كل مجموعة فترة محددة، وحين يبدو عليها التعب، تنزل مجموعة ثانية لتحل محل المجموعة الأولى، وهكذا يتواصل القتال. وكان أفراد أسرة صلاح الدين يتناوبون القتال، فكان على رأس كل جماعة أحد أولاده، أو أحد أقربائه المقربين، مثل ولده الملك الأفضل نورالدين علي، والملك الظاهر شهاب الدين غازي (صاحب حلب)، وأخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر، وابن أخيه تقي الدين عمر (ابن الأثير ١٩٦٦: ١١/ ٥٥٤).

إلا أن هذه الأساليب، والآلات الثقيلة التي نصبها واستعملها لم تجده نفعاً، فظلت المدينة تقاوم الحصار. وكان من جملة أسباب هذا الفشل إضافة إلى تحصيناتها وكثرة المدافعين عنها، وضيق المكان الذي حاربوا فيه، أن محاربي جيش صلاح الدين – وحسب أقوال المؤرخين المذكورين – عمادالدين الكاتب وابن الأثير – المعاصرين لصلاح الدين – قد ألفوا سهولة الفتح، والاستيلاء على المدن والحصون بسرعة ودون مشاق كبيرة (الاصفهاني، ١٩٦٥: ١٥٩)، (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١١/ ٥٥٥) وحين جابهتهم الصعوبات في صور (توقفوا، وملوا وضجروا، فذكر ابن الأثير: ان المحاربين لما رأوا شدة أمر هذه المدينة ملّوها، وطلبوا الانتقال عنها) (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١١/ ٥٥٥).

والواقع أن تهمة (اعتياد الفتح السهل) إن كانت تنسحب على مدينة معينة، فإنها لا تنطبق – كما نرى – على المدن الحصينة والقلاع المتينة التي ذاق في فتحها

جيش صلاح الدين الأمرّين، ومن ثمّ فإن محاربي الجيش وقادتهم لم يألوا جهداً في اختراق تحصينات العدو في تلك المدن والقلاع. ولا أدل على هذا من هجومهم على صور ذاتها، وفرضهم الحصار عليها مدة قاربت الشهرين، ولمرتين متتاليتين خلال سنة واحدة، وهم على علم بمتانتها، وكثرة المحاربين فيها، واللاجئين إليها. وهذا ما حصل أيضا في فتح (برزية)[١٤] فيما بعد، ذلك الحصن القائم على سن جبل شاهق، والذي كان يضرب به المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين لحصانته، على حد وصف مؤرخي وجغرافيي ذلك العصر (الحموي، ١٩٥٥: ١/ ٣٨٣)، (الأصفهاني، ١٩٦٥: ٢٤٨)، (ابن شداد، ١٩٦٤: ٩٢) وقد تحمّل جيش صلاح الدين الكثير من المشاق والعنت من أجل فتحه، واستعمل فيه صنوف أسلحة الحصار (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١٢/ ١٥) واتبّع أسلوب القتال بالتناوب، المذكور، إلى أن استطاع الاستيلاء على هذا الحصن الحصين أخيرا.

يقول ابن الأثير – الذي اتهم جيش صلاح الدين بالتقاعس في قتال صور للسببالمذكور: إن هذا الجيش قاتل في حصار (برزية) قتالا عزوما، رغم أن الزمان كان حرا شديداً، فاشتد الكرب على المقاتلين المسلمين، وكان صلاح الدين يطوف حول محاربيه ويحرّضهم على القتال (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١٢/ ١٥) حتى استطاعوا قهرها والاستيلاء عليها. ولهذا فإن التهمة المذكورة يجب إعادة النظر فيها، والتقصي عن سبب توجيهها، وألا ينظر إليها كحقيقة مسلّمة.

ونرى أن رفع الحصار عن صور والانسحاب منها كان عملا حكيما، إذا وضعناه في سياقه العسكري الشامل، إضافة إلى وضع الجيش المتعب، بعد أن رأى صعوبة شديدة في فتحها. بينما نجد أن (ابن الأثير) يرمي مسؤولية الفشل برمتها على عاتق صلاح الدين شخصيا، بعد أن اتهّم جيشه بالتقصير في مواصلة الحصار، وقال: لم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين، فإنه هو الذي جهز إليها جنود الفرنج، وأمدّها بالرجال والأموال. فكان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، فاجتمع فيها كل

---

[١٤] برزية: حصن قرب السواحل الشامية على رأس جبل شاهق، يضرب به المثل في جميع بلاد الافرنج بالحصانة، تحيط به أودية من جميع جوانبه وذَرْعُ علوّ (ارتفاع) قلعته خمسمائة وسبعون ذراعا، معجم البلدان: ١/ ٣٨٣.

من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١١/ ٥٥٥ – ٥٥٦)، (ابو شامة، ١٢٨٧هـ: ٢/ ١١٩)، (ابن واصل، ١٩٥٧: ٢/ ٢٤٥).

ويبدو هذا الكلام مقبولا لأول وهلة. فالواقع أن الانتصارات التي حققها صلاح الدين وضعته أمام واقع جديد" واقع الآلاف من المحاربين الصليبيين الذين كانوا يلقون أسلحتهم ويعلنون عن استعدادهم بترك المدينة المطوقة، وتسليمها إلى صلاح الدين إذا وجدوا ما ينم عن سماح، وعدم الانتقام منهم. فما كان من صلاح الدين سوى الموافقة على طلبهم. بل إن هذا الموقف الحكيم جعل المحاربين الصليبيين لا يحاربون بجدية، نظرا لمعرفتهم بعدم جدوى القتال، ولثقتهم بأن صلاح الدين سيعاملهم معاملة إنسانية إذا سلموا أنفسهم ومدينتهم إليه، وهذه السياسة السمحاء جعلت المدن التي كان الصليبيون ما زالوا يستولون عليها تتهاوى الواحدة بعد الأخرى بتلك السرعة المعهودة. وكان هؤلاء المستأمنون يختارون مدينة صور كمأوى يلجأون إليها بعد خرجهم من تلك المدن. وكاد هذا الوضع – أي تسليم المحاربين أنفسهم ومدينتهم لصلاح الدين – يحصل لمدينة صور نفسها. حين داهمها صلاح الدين بجنده، في حصار صور الأول، لولا وصول كنراد مونتفيرات المذكور في تلك اللحظة الحاسمة، وتنظيم المقاومة بالطريقة السالفة.

وهنا نسأل: ماذا كان ينبغي على صلاح الدين أن يفعله، ولم يفعله تجاه من يسلّم نفسه إليه، ويطلب الأمان منه؟ أكان بمقدوره أن يسفرّهم إلى حيث أتوا؟ إلى أوروبا؟ أو أكان بوسعه أن يقتلهم قتلا جماعيا؟ وماذا كان سيترتّب على مثل هذه السياسة؟ أكان جيشه يحرز كل تلك الانتصارات بتلك السرعة القياسية؟

ونشير بهذا الصدد إلى أن أحد أسباب سقوط تلك المدن بيد قوات صلاح الدين هو افتقار الصليبيين في تلك المدن إلى قادة بارزين، بعد أن قتل بعضهم في حطين، أو وقعوا في أسر قوات المسلمين، ولم يبق منهم إلا القليل. ولهذا ما أن تسنّى لهم أن يقودهم قائد مغامر مثل كونراد مونتفيرات حتى قرروا تنظيم دفاع مستميت ضد صلاح الدين. وبعد أن وثقوا من مناعة أسوار وموقع مدينتهم، كانت النتيجة ما حصل.

ونرى أن صلاح الدين لو كان يرمي بثقله على صور وحدها، ويصرّ على إتمام فتحها – بأي ثمن – لكان من المحتمل ألا يستطيع فتحها، وكما حصل فعلا.

ولأضاع على جيشه فرصة فتح مدن الساحل والمداخل الأخرى – وهي كثيرة – حيث توالت الانتصارات عليه. ولكانت الحملة الصليبية الثالثة، التي نظمتها أوروبا عقب سقوط بيت المقدس بيد المسلمين، وقادها ملوك عظام مثل ريتشارد قلب الأسد (Richard Coeur de Lion) ملك انجلترا، وفردريك باربروسا (Frederic Barbarossa) ملك ألمانيا، وفيليب اغسطس (Philip Augustus) ملك فرنسا، نقول لكانت هذه الحملة الضخمة تصل لتزيح صلاح الدين عن صور، كما أزاحته – فعلا – عن مواقعه في عكا في وقت كانت عكا بيد المسلمين، وليست بيد الصليبيين. أي أن صلاح الدين بمرابطته على صور – بتلك الصورة – كان سيفّوت على جيشه فرصة فتح صور، وفرصة فتح المدن الأخرى التي استولى عليها فعلا، في نفس الوقت. ولكنه – أي صلاح الدين – لم يشأ أن يخسر كل هذه الخسارة من أجل صور، بل إنه اضطر أن يضحي بهذه المدينة لوحدها، رغم أهميتها، من أجل بقية الفتوح، وهي عظمية ولا شك. ومن ثم يبقى الوجود الصليبي محصورا في صور ذلك الجيب المطوق بالقوات الإسلامية من كل جانب، سوى جانب البحر.

ومن هذا فإن تساهل صلاح الدين مع صليبيي المدن المحررة، والسماح لهم بالتجمع في صور، كان – مع وصول كنراد مونتفيرات، ومتانة الأسوار من أهم أسباب صمود هذه المدينة، ومن الأخطاء التي سجلت على القائد الكبير. ولكن هل كان القائد على علم بما سيؤول إليه عمله من نتائج؟ وإذا كان يعلم فلماذا فرض الحصار عليها. وكذلك كان من أسباب فشل حصاره ورود المؤن والأعتدة إليها من أوروبا وقبرص ومن الإمارات الصليبية في الساحل الشامي، في طرابلس وأنطاكية. ومع أن المؤن كانت تصل إلى قوات صلاح الدين أيضا، سواء من البر أو من البحر، حيث كانت مراكب عكا وبيروت وجبيل تواصل إيصال المواد إليها إلا أن سفن الأسطول الصليبي كانت تحول دون وصول هذه المؤن إلى غايتها في أكثر الأحيان[١٥].

ومع كل ما حصل فإن صلاح الدين لم يكن عند رأي الداعين إلى الانسحاب ورفع الحصار، فكما يقول ابن الأثير نفسه، فإن الأمراء الذين كان بيدهم الحل والعقد، هم

---

[١٥] انظر بهذا الخصوص، الأصفهاني، الفتح القسي: ١١٦، أيضا ابن شداد، النوادر: ٨٤، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨/ ٤٠٠، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٨.

الذين دعوا صلاح الدين إلى ترك صور، لأنهم خافوا أن يقترض منهم ما ينفقه على الحصار (ابن الأثير، ١٩٦٦: ١١/ ٥٥٦). في حين كان رأي صلاح الدين مع رأي (أتقياء أمرائه) كالفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري[١٦] وعزالدين جورديك[١٧]، وحسام الدين طمان[١٨]، الذين طالبوا بالتريث وعدم رفع الحصار. أي أن صلاح الدين كان يريد أن يبقى جيشه يحاصر صور فترة أخرى (الأصفهاني، ١٩٦٥: ١٥٩)، رغم حاجته إلى المال، مما دفعه إلى التفكير في الاقتراض من الأمراء الأغنياء (أصحاب الاقطاعات) لسد نفقات الحصار، لكن هؤلاء الأمراء ألّحوا عليه برفع الحصار. وهذه الفئة لم تكن متحّمسة لخوض غمار أية معركة ما لم تكن نتائجها مضمونة،بصورة عامة. وأخيرا أذعن صلاح الدين إلى قرار مجلس حربه (على تمنع منه) ولم يشأ أن يقف ضد إرادتهم، فأمر جنده بفك آلات الحصار، واحراق ما يعجزون عن نقله، ورحل عن صور في آخر شوال ٥٨٣هـ/ يناير (كانون الثاني ١١٨٨م)[١٩] متجها نحو عكا، وودع أمراءه الذين رجعوا إلى أوطانهم، على أن يعودوا إلى ميدان القتال

---

[١٦] الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري. أحد مستشاري صلاح الدين المجاهدين. اضطلع بدور بارز في إقرار حكم صلاح الدين في مصر. توفي سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩، ودفن بالقدس. له ترجمة في الكامل: ١٢/ ٤٢، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٩٧، ابن كثير، البداية والنهاية: ١٢/ ٣٣٤، النجوم الزاهرة: ٦/ ١١٠.

[١٧] عزالدين جورديك بن عبدالله النوري: أحد قادة نور الدين محمود البارزين. ثم أنضم إلى قيادة جيش صلاح الدين، وخدمه باخلاص في جميع غزواته. توفي سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م. وهو الذي قتل الوزير الأخير في الدولة الفاطمية (شاور) بالتعاون مع صلاح الدين/ وفيات الأعيان ٢/ ٤٤٠، النجوم الزاهرة: ٦/ ١٤٣.

[١٨] حسام الدين طمان بن عبدالله النوري. أحد قادة نور الدين محمود البارزين. ثم انضم إلى قيادة جيش صلاح الدين. كان شجاعا جوادا. بني مدرسة بحلب. توفي بعكا سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، وحزن عليه صلاح الدين حزنا شديدا لحرصه على الجهاد ولمواقفه المشهودة. والنجوم الزاهرة: ٦/ ١٠٩.

[١٩] انظر ابن العديم، زبدة الحلب: ٣/ ١٠٠، وأبو شامة، كتاب الروضتين: ٢/ ١١٩، وابن واصل، مفرج الكروب: ٢/ ٢٤٥ – ٢٤٦. يذكر د. السيد الباز العريني، الشرق الأوسط: ١/ ٨٦٢ أن فك الحصار تم في أول العام الجديد ١١٨٨ كما ثبتنا ذلك، إلا أن ابن الأثير ١١/ ٥٥٧ يقول إنه فك الحصار في (أول كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٧ ونخال أن هذا أكثر صوابا).

لمواصلة الجهود بعد انقضاء فصل الشتاء[٢٠]. ودون أن يؤثر هذا الفشل على الوضع، فما أن انقضى الموسم حتى عاد العساكر لتحرير أجزاء أخرى من أرض الشام وفلسطين، والاستيلاء على مدن وحصون كانت على جانب كبير من الأهمية والمناعة، مثل اللاذقية وصفد[٢١] وكوكب[٢٢] وجبلة[٢٣] والكرك[٢٤] وبرزية ودربساك[٢٥] وصهيون[٢٦] وشقيف ارنون، وغيرها.

الخاتمة

من كل ما ذكرنا نخرج بنتائج مفادها:

(١) إن صلاح الدين لم يكن بوسعه أن يمنع الصليبيين المستأمنين من الذهاب إلى المكان الذي يختارونه، فاختاروا مدينة صور، لأنها كانت موطن أمانهم (حسب تعبير ابن جبير). وكان بإمكان صلاح الدين أن يختار للمستأمنين مكانا آخر يجتمعون فيه، غيرمدينة صور.

(٢) إن صلاح الدين كان على ظن بأن صور – مع فيها من حشود – لن تفلت منه، وهذا ما جعله يفرض عليهاحصارا في مستوى أهمية صور، لكنه حصار غير مجد. ولهذا سقطت المدن والحصون الأخرى، من حيث صمدت صور.

---

[٢٠] انظر: ابن العديم، زبدة الحلب: ٣/ ١٠٠، وأبو شامة، كتاب الروضتين: ٢/ ١١٩، وابن واصل، مفرج الكروب: ٢/ ٢٤٥ – ٢٤٦، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك: ١/ ٧٩.

[٢١] صفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. انظر معجم البلدان: ٣/ ٤١٢.

[٢٢] كوكب: قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية، حصينة رصينة، تشرف على نهر الأردن، معجم البلدان: ٤/ ٤٩٤.

[٢٣] جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب، قرب اللاذقية. معجم البلدان: ٢/ ١٠٥.

[٢٤] الكرك: حصن حصين يقع قريبا من البحر الميت، في الجانب الجنوبي الشرقي منه. يتمتع بمركز استراتيجي مرموق لوقوعه في الطريق الصحراوي الموصل بين الشام ومصر والحجاز. سمي لحصانته بـ(صخرة الصحراء). أنظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ٢/ ٦٩ – ٧٣.

[٢٥] دربساك: حصن يقع في الشمال الشرقي من حصن (بغراس). انظر: معجم البلدان.

[٢٦] صهيون: حصن حصين من أعمال سواحل الشام، من أعمال حمص، لكنه ليس مشرفا على البحر، وهو قلعة حصينة مكينة في طرف جبل، خنادقها أودية واسعة هائلة عميقة ليس لها خندق محفور ... ولها ثلاثة أسوار. معجم البلدان: ٣/ ٤٣٧.

(٣)كان لوصول كونراد منتفيرات في تلك اللحظة التاريخية أثره الكبير في إعادة تنظيم المقاومة الصليبية، بمستوى جديد، في وقت كادت المدينة تعلن استسلامها، وطلب الأمان من صلاح الدين.

(٤) إن ضعف بحرية صلاح الدين بالنسبة للبحرية الصليبية والمتعاونة معها، كان ضمن أسباب فشل الحصار (حسين، ١٩٨٦: ٣٦٢ – ٣٦٤).

(٥) تمتعت صور بمتانة أسوارها، ومناعة موقعها، ووضعها الطوبوغرافي الخاص، ولذا لم يكن من السهل الاستيلاء عليها، بسبب تلك الظروف.

(٦)كان بعض أمراء جيشه، ولاسيما الأغنياء منهم، يندفعون لدى ضمان الانتصارات، وحين لا تحسم المعارك بسرعة يقل حماسهم، وتفتر عزيمتهم. ويحسب هذا الضعف ضمن عيوب الجيوش التي كانت تعتمد على مشورة الأمراء الذين يكونون مجلس حرب الجيش، وبيدهم الحل والعقد، لأنهم لا يأبهون بشيء أكثر من مصالحهم الآنية. وكان على قائد مثل صلاح الدين أن يوسع قاعدة جيشه النظامي، ويقلل من الاعتماد على التشكيلات المستقلة (شبه الاقطاعية) التابعة لدولته. ولكن هل كان بوسع صلاح الدين أن يفعل ذلك، ويخرج عن طبيعة عصره؟ هذا وقد أورد (ابن شداد) إشارة لها مغزاها بصدد الغنائم التي كان الجنود يتلهفون في جمعها، ويملّون القتال إذا طال أمده، قائلا:

(إن العسكر قد تفرق في الساحل،وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئا من الغنيمة، وكانوا قد ضرسوا من (اشتد عليهم) القتال، وملازمة الحرب) (ابن شداد: ١٩٦٤).

(٧)إن ما حصل في صور يجب ألا يبالغ في تقدير حجمه، وبأنه صار (لوحده) نقطة التحول الخطيرة[٢٧]، التي توقف عندها انتصارات جيش صلاح الدين، ومنها بدأ هذا القائد يتخذ مواقف دفاعية بعد أن كانت هجومية. فالمعروف أن هذا الجيش – بعد فشل حصار صور – واصل، وكما أسلفنا، الاستيلاء على المدن والقلاع التي كانت بيد الصليبيين وانتصر فيها، والواقع أن ما أثر في تغيير خططه العسكرية،

---

[٢٧] لمزيد من المعلومات انظر: (Lane – pool, Saladin, p. 241، نظير حسان سعداوي، التاريخ الحربي المصري، ص ١٩٨، د. عبدالقادر اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب، ص ١٤٣، قدري قلعجي، صلاح الدين، ص ٣٦٠.

فيما بعد، هو وصول حشود الحملة الصليبية الثالثة الهائلة، والتي لم تحقق انتصارا أساسيا على صلاح الدين يرقى إلى مستوى حجم الحملة، وإلى مستوى الملوك والقادة الذين كانوا على رأسها.

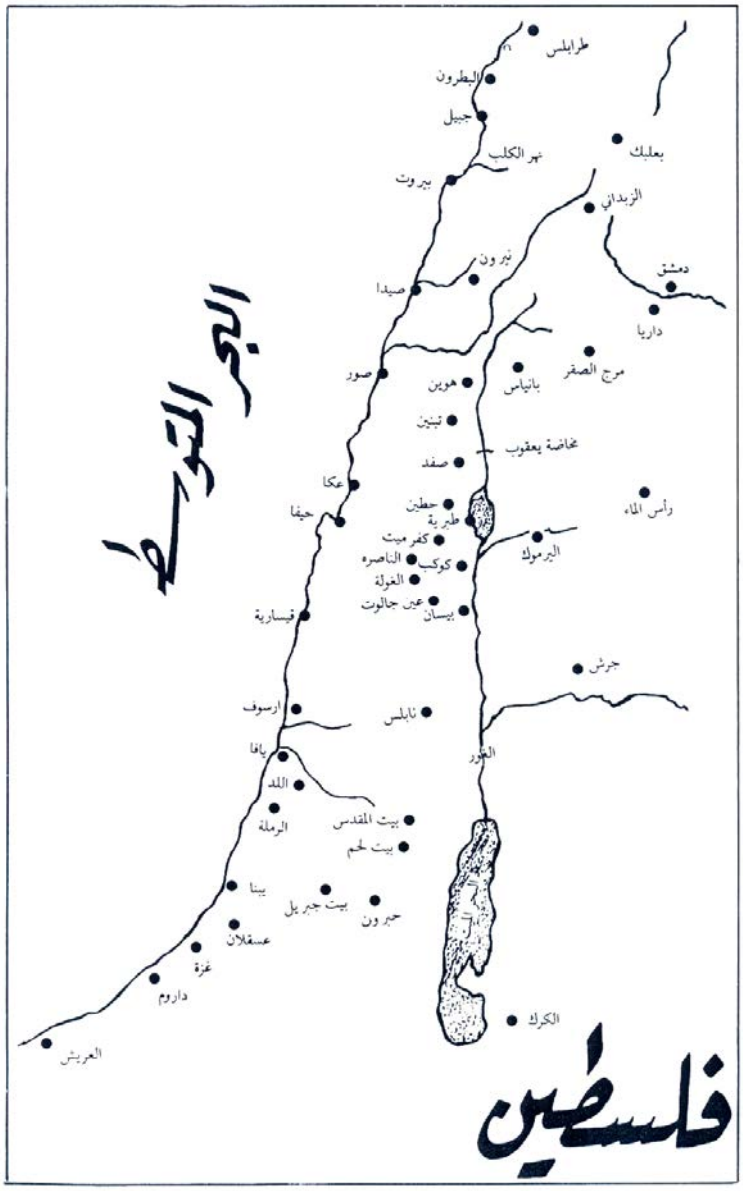

المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، أبو الحسن عزالدين على بن محمد الجزري الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م): الكامل في التاريخ، لبنان: دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٦م.
- ابن تغرى بردى، أبو المحاسن جمال الدين يوسف الاتابگى (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.
- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م): رحلة ابن جبير، لبنان: دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٤م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان الأربلي (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ..، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٨م – ١٩٧١م.
- ابن كثير، أبو الفدا اسماعيل بن شداد، أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع الأسدي (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م): البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة، ١٩٣٢ – ١٩٣٩. – النوادر السطانية، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة طبعة الدار المصرية ١٩٦٤م. – الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة.
- الأصفهاني، عمادالدين الكاتب (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م): الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥.
- ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس اهرون الملطي (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م): تاريخ مختصر الدول، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥١م.
- ابن العديم، ابو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق د. سامي الدهان، بيروت المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٨م.
- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م): ذيل تاريخ دمشق، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨م.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٧م.

- أبو شامة، أبو محمد شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٢هـ/ ١٢٦٦م): كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة: مطبعة وادي النيل ١٢٨٧ – ١٢٨٨هـ.
- حتى، فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، بيروت: دار الثقافة، ١٩٥٨م.
- حسين، محسن محمد: الجيش في عهد صلاح الدين ... تكوينه، تنظيمه، أسلحته وبحريته، الأردن: دار البشير، ١٩٨٦م.
- الحموي، ياقوت أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م): معجم البلدان، لبنان: دار صادر، دار بيروت، ١٩٥٥م، ١٩٥٧م.
- الحميري، محمد بن محمد بن عبدالمنعم (عاش في القرن التاسع الهجري): الروض المعطارفي خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت دار القلم للطباعة، ١٩٧٥م.
- الحنبلي، أبو البركات عزالدين أحمد بن إبراهيم بن نسر الله المصري (ت ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م): شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ناظم رشيد، بغداد وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٩.
- خسرو، ناصر: سفر نامة (رحلة التي قام بها بين ٤٣٧ – ٤٤٤هـ/ ١٠٤٥ – ١٠٥٢م)، ترجمه من الفارسية – د. يحيى الخشاب، بيروت: دار الكتاب الجديد – مطابع دار القلم، ١٩٧٠م.
- رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٨م.
- السامر، فيصل: ابن الأثير، بغداد: وزارة الثقافة والاعلام، دار الحرية ١٩٨٣م.
- سبط ابن الجوزي، أبو المظفرشمس الدين قزأوغلي التركي (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد، الهند: مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، ١٩٥٢م.
- سعداوي، نظير حسان: التريخ الحربي المصري، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م.
- القزويني، زكريا محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م): آثار البلاد وأخبار العباد. لبنان: دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٠م.
- قلعجي، قدري: صلاح الدين قصة الصراع بين الشرق والغرب. بيروت: دار الكتاب العربي مطابع شركة المطابع الحديثة، ١٩٦٦م.

- المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق د. مصطفى زيادة، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٤م.
- اليوسف، عبدالقادر أحمد: علاقات بين الشرق والغرب، صيدا، بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٦٩م.
- Stanley Lane poole Saladin and the the fall of the kingdom of jerusalem, Beirut, 1964.

طبيعة وأسباب اتصال صلاح الدين مع الخليفة المنصور الموحدي في المغرب(*)

ملخص البحث:

من الموضوعات الجديرة بالدراسة في تاريخ الحروب الصليبية، والعلاقات بين القوى الإسلامية، موضوع اتصال صلاح الدين يوسف بن أيوب بالملك الموحدي «الخليفة المنصور» يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن الذي حكم بلاد المغرب وبعض بلاد الأندلس في الفترة (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ/١١٨٤ ـ ١١٩٨م). فهذا الموضوع لم يعالج بمستوى يرقى إلى مستوى خطورة الحدث ـ كما سنرى ـ إضافة إلى أن المؤرخين المغاربة، المعاصرين لأحداث تلك الفترة، لم يلقوا الضوء الكافي عليه، أو أنهم عالجوه من منظار ضيق. أما المؤرخون المعاصرون المشارقة فلم يذكروا عنه أي شيء. ولهذا قمنا بدراسة الموضوع على ضوئ طبيعة العلاقات بين القوى الإسلامية التي تتمثل في حاجة صلاح الدين إلى دعم بحري أثناء حصار عكا الطويل، وذلك لخلق توازن مع بحرية العدو الذي حاول استعادة الأراضي التي فقدها إثر موقعة حطين، مما أثار أوربا مجدداً ودفعها إلى القيام بحملة صليبية جديدة هي الثالثة التي قادها أعظم ملوك أوربا عصرئذ والذين انصب اهتمامهم باستعادة «مملكة بيت المقدس» بادئين من عكا بتطويقها برّاً وبحراً. وحين عجزت بحرية صلاح الدين عن الصمود اضطر إلى طلب المعونة من الأطراف الإسلامية، ولاسيما من الملك الموحدي. وقد فشل في الحصول على شيء ما وقد بحثنا أسباب لجوء صلاح الدين إلى هذا الملك، وأسباب رفض طلبه، وكانت النتيجة سقوط عكا المريع، على الرغم من أن الصليبيين لم يستطيعوا إحراز نصر كبير بعدها.

(*) نشر في مجلة جامعة الملك سعود. كلية الآداب. الرياض العدد ٢٣. سنة ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م.

مقدمة:

إن موضوع العلاقة بين صلاح الدين والخليفة المنصور (الملك الموحدي) موضوع شائك تناوله بعض المؤرخين والكتاب (المشار إليهم في البحث) إلا أن كتاباتهم لم ترق إلى المستوى المطلوب سواء من حيث المنهج أو من حيث الأسباب والنتائج. وقد تطرقنا في أحد مفاصل البحث إلى سكوت مصادر عصر صلاح الدين عن ذكر شيء عن طبيعة تلك العلاقة والمراسلات بين المجاهدين (المشرقي والمغربي) وهذا السكوت كان من المسائل المحيرة لنا. وبيّنّا طبيعة تلك الظروف التي دفعت صلاح الدين إلى طلب المعونة من ذلك الخليفة، سواء أكانت الظروف تتعلق بحركة استرداد الأرض، أو الظروف التي أحاطت بالعلاقة الباردة ـ وغير السوية أحياناً ـ التي كانت بين القطبين.

وكان لصلاح الدين مشروعية اللجوء إلى الخليفة الموحدي لطلب المعونة العسكرية ممثلة بإرسال جزء من أسطوله القوي للإسهام في جهوده المضنية لفك الحصار الصليبي المستحكم على مدينة عكا المهمة. إلا أنه لم يحصل من الخليفة على شيء ما. هذا من جهة، ومن جهة أخرى بيّنّا أن الخليفة كانت له مشروعيته ـ هو الآخر ـ في رفض مد يد المعونة لصلاح الدين، سواء أكان ذلك بسبب ظروف بلاده الداخلية، – وقد تحدثنا عن ذلك في متن البحث ـ أو لجهوده الدؤوبة الرامية إلى الرد على محاولات نصارى الأندلس (من الإسبان والبرتغاليين) المتواصلة في حركة استرداد الأرض من المسلمين التي بدأت تنشط في شبه جزيرة إيبريا. هذا ويبدو أن الألقاب كانت لها أهميتها عصرئذ في تحديد العلاقات بين القوى الإسلامية، إضافة إلى احتكاكات سلبية حصلت بين بعض رجالات بني أيوب والدولة الموحدية، حالت، كلها، دون عقد علاقات طيبة بينهما.

في أثر الانتصار الهائل الذي حققه جيش صلاح الدين في معركة حطين الحاسمة توجه هذا القائد بقواته بسرعة نحو عكا، وكان هذا التحرك السريع ينم عن عبقريته وحنكته العسكرية وبعد نظره، إذ باستيلائه على عكا وجّه لطمة عنيقة إلى أهم ركيزة كان يستند عليها الصليبيون، إذ كانت هذه المدينة بمثابة حجر الزاوية

بالنسبة للمستوطنات الصليبية في فلسطين كافة[1]، فضلاً عن أن ذلك العمل مكّن صلاح الدين من تحقيق الاتصال البحري بين شطري دولته في مصر والشام[2]، ولهذا كان الاستبلاء على عكا أول عمل عسكري مهم حققه بعد حطين بأسبوع واحد (مستهل جمادى الأولى ٥٨٣هـ/١٠ تموز ١١٨٧م).

بعد ذلك درج صلاح الدين على التردد عليها وتفقدها مراراً، حتى أضحت حصناً منيعاً، ترابط فيه حامية قوية، وتتوافر به المؤن، وغدت من القوة ما يحملها على المقاومة زمناً طويلاً إلا أن الصليبيين بدأوا يعدّون العدّة لاستعادتها، فتواصلت قواتهم في الوصول إلى مشارفها بقيادة الأمراء والأساقفة. فبعد أن بلغت انتصارات صلاح الدين ذروتها في الأشهر القليلة السابقة، صار يتخذ خطة الدفاع عن المدن التي استولى عليها. فأمضى الشهور الأولى في تفقد أحوال المدن التي حررها عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، فطاف ببيت المقدس وعسقلان وعكا، وجدّد بناء استحكاماتها ونظم إداراتها. ثم طلب من إبن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه أن يسير مع القوات التي بحوزته، ومن سيلتحق به، ليتخذ مواقعه تجاه أنطاكية لكيلا يُغير صاحبها على الجهات الإسلامية عند انقضاء أمد الهدنة التي وقع عليها الطرفان.

ويبدو أن صلاح الدين كان علم أن تحرير بيت المقدس ـ الذي تم على يد قواته إثر موقعة حطين ـ سيدفع الصليبيين إلى إثارة أوربا من جديد، حيث أرسلوا صورة

---

[1] أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (القاهرة: مطبعة وادي النيل، ١٢٨٨هـ)، مج ٢، ص ٨٩" شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي الدمشقي، مختصر تاريخ الإسلام (مخطوط مصور في مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب، جامعة بغداد)، ورقة ٩ آ. ولذلك اتخذها الصليبيون عاصمة لمملكة بيت المقدس الصليبية، إضافة إلى أن عكا ـ بعد أن أعاد الصليبيون احتلالها ـ كانت آخر معقل صليبي كبير استعاده المسلمون، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء الحروب الصليبية. انظر: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن محمد الأيوبي، المختصر في أخبار البشر (بيروت: مطبعة دار الكتاب البناني)، مج ٤، ص ص ٢٥ ـ ٢٦" تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، السلوك المعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية)، مج ٢، ق ٣، ص ص ١٢٥ ـ ١٢٩.

[2] سعيد عبدالفتاح عاشور، الحركة الصليبية (القاهرة: مطبعة الأنجلو المصرية، لجنة البيان العربي، ١٩٦٣م)، مج ٢، ص ٨١٣.

للسيد المسيح رسموه في وضع غير لائق، وزعموا أن المسلمين اعتدوا عليه(!) ودنسوا قبره[٣].

قلق البابا (جريجوري الثامن) حين سمع ما حلّ ببيت المقدس، فأرسل كتاباً إلى سائر أتباعه في الغرب، يشرح لهم خطورة الوضع، ويدعو إلى اتخاذ الصليب، ووعدهم بغفران الذنوب، وحماية أملاكهم. وواصل البابا التالي (كليمنت الثالث) جهوده، وتم الاتصال بين الإمبراطور الألماني (فريدريك بار باروسا) وملكي انكلترا وفرنسا. وتقرر فرض ضريبة على الناس في البلاد باسم (عشور صلاح الدين)[٤] وحدّدت نسبة (١٠٪) من واردت الأرض للصرف على نفقات الحروب الصليبية.

والواقع أن قدوم الحملة الألمانية يعتبر أشد ما تعرضت له البلاد الشام من خطر قبل الغزو المغولي[٥]. ولأهمية عكا القصوى قرّر صلاح الدين أن يبقى حولها للدفاع عنها، على أن ينهض أمراء الشام لمنازلة الألمان ومقاومة جبروتهم.

---

[٣] فقد ذكر: بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد الأسدي، في كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة: مطبعة الدار المصرية، ١٩٦٤م) تحت عنوان «ذكر الحيلة التي عملها المركيس في جمع الفرنج من وراء البحر» بأنه قد «صوّر القدس في ورقة عظيمة، وصور كنيسة القيامة التي يحجون إليها، ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوّر القبر وصوّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه، وقد وطىء قبر المسيح وبال الفرس على القبر، وأبدت هذه الصورة وراء البحر (في أوربا) في الأسواق والمجامع، والقسوس يحملونها، ورؤسهم مكشفة، وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور، وللصور أثر كبير على قلوبهم، فإنها أصل دينهم، فهاج بذلك خلائق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده...» النوادر السلطانية، ص ص ١٣٦ ـ ١٣٧" وانظر: أبو شامة، الروضتين، مج ٢، ص ١٦٠" عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٣٢م)، مج ١٢، ص ٢٣٥.

[٤] عشور صلاح الدين Saladin tax انظر:

Stanley lane – Poole, Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem. Beirut, khayats 1962. P. 252.

[٥] الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٣م)، مج ١، ص ٨٩٣.

ولخشيته من وقوع المدن الفلسطينية تحت السيطرة الصليبية من جديد، أمر بهدم أسوار بعضها مثل طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية[٦].

إلا أن كارثة حاقت بالقوة الألمانية حين غرق باربا روسا في المياه الباردة قرب مدينة طرسوس الساحلية في آسيا الصغرى، وكان هذا الحدث ضربة قاصمة لمصير هذه الحملة المهمة أو لسائر الجماعات الصليبية. فتداعت معنوية المقاتلين، وعم الاضطراب صفوفهم. ولم يستطع ابن الإمبراطور (فردريك الصغير) أن يحلّ محل والده بجدارة. إضافة إلى أن الأمراض قد انتشرت بينهم، وقد أنزل الملك الظاهر شهاب الدين غازي بن صلاح الدين، صاحب حلب، هزيمة بهم[٧]. إلا أن فردريك استطاع أن يواصل رحلته صوب الجنوب فوصل إلى عكا سنة ٥٨٦هـ/أواخر ١١٩٠م وهو يقود فلول الجيش.

أدرك صلاح الدين ضرورة اتخاذ موقف الدفاع الحذر بأن وزع قواته على أنحاء البلاد، فترك جزءً مهمّاً منها عند عكا، في حين أبقى قسماً منها مع ابنه الملك الأفضل نور الدين علي الذي كان يرابط عند مدينة حمص لمراقبة ما قد ينجم من أعمال عدوانية، واستعداداً للدخول في قتال مع إمارة طرابلس، وترك قسماً ثالثاً عند أطراف صور لمراقبة تحركات العدو، وخشية قيام (المركيز كونراد) بعمل معاد ضد المسلمين" أما القسم الرابع فكان يرابط في ثغور مصر، وعسكر القسم الخامس قبالة أنطاكية للرد على عادية ملكها غداة انتهاء فترة الهدنة المذكورة[٨]. إن لجوء صلاح الدين إلى أعمال المقاومة الدفاعية عن هذه الجهات، بعد وصول الحملة الصليبية الثالثة يجعل المراقب يقسم تاريخ جهاده العسكري إلى مرحلتين، تكون سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م حدّاً فاصلاً بينهما.

---

[٦] محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م).

[٧] ابن شداد، النوادر، ص ١٣٢.

[٨] عزالدين علي بن أبي الكرم إبن الأثير الشيباني الجزري، الكامل في التاريخ (بيروت: دار بيروت ـ دار صادر، ١٩٦٦م)، مج ٢، ص ٣٦" عزالدين أحمد بن إبراهيم الحنبلي المصري، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد (بغداد: دار الحرية للطباعة، وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨م)، ص ١٦١. W. B. Stevenson, The Crusaders in the East (Cambridge, 1907)

حصار عكا

ما إن وصلت القوة الألمانية إلى عكا إلا وفرضت حصارها الشديد عليها في البر والبحر حتى لم يبق للمسلمين إليها طريق[٩]، فحوصر من كان فيها من المسلمين مع قواتهم. عندها حرّك صلاح الدين قواته نحو عكا وبدأ بتطويق المحاصرين الصليبيين برّاً. وطال أمد الحصار وحدثت معارك طاحنة، وعانى الطرفان وطأة الجوع.

إلا أن ما رجح كفة الصليبيين وصل فيليب أغسطس ملك فرنسا بقواته إلى معسكرهم في ربيع ٥٨٧هـ/١١٩١م، ثم وصول ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا بعده بأسابيع، مما جعلهم يضيقون الخناق على عكا. على أن حامية عكا استبسلت داخل المدينة في مقاومة الضغط، وأشعل المسلمون الحرائق في الدبابات والأبراج وذلك بضربها بالنفط، غير أن أحوالهم داخل المدينة ازدادت سوءاً وحرجاً[١٠]. وكان الصليبيون مستمرين على رشق أسوار المدينة بالمنجنيقات حتى تخلخلت، ثم أسرعوا في الزحف عليها من كل جانب.

حين ضعفت مقاومة المسلمين داخل المدينة أعلنوا عن تسليمها للصليبيين مضطرين وتحت شروط معلنة بينها الإبقاء على حياة رجال الحامية. وبدأت المفاوضات بين الطرفين، وقبل أن يصلا إلى نتيجة قام رجال ريتشارد بارتكاب جريمة قتل جماعية في حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم[١١]. وقد اعتبرت معارك حصار

---

[٩] ابن الأثير، الكامل، مج ١٢، ص ٣٤" ابو شامة، الروضتين، مج ٢، ص ١٤٧" ابن كثير، البداية والنهاية، مج ١٢، ص ٣٣٣" أبو حفص زين الدين عمر بن الوردي، تاريخ ابن الوردي (ذيل المختصر في أخبار البشر) (النجف: المطبعة الحديثة، ١٩٦٩م)، مج ٢، ص ٤٤.

[١٠] ابن شداد، النوادر، ص ١٦٠" ابن الأثير الكامل، مج ١٢، ص ٦٦" أبو شامة، الروضتين، مج ٢، ص ١٨٤.

[١١] ابن شداد، النوادر، ص ١٧٤" عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح (القاهرة: الدار القومية، ١٩٦٥م)، ص ٥٢٨، أبو الفضائل محمد علي، التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان (موسكو: دار النشر للآداب الشرقية، ١٩٦٠م)، ص ٢٠٠ ، شمس الدين قزاوغلي التركي، سبط ابن الحوزي مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (حيدر أباد: مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، ١٩٥١م)، مج ٨، ص ٤٠٨، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال

عكا الطويل الذي دام حوالي السنتين (٦٨٥ يوماً من شعبان ٥٨٥هـ إلى ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/آب ١١٨٩ إلى تموز ١١٩١م) من أعظم المعارك التي دارت في القرون الوسطى[١٢].

ولا شك أن معارك طاحنة من هذا الطراز قد كلفت نفقات باهظة، لا تطيقها ميزانية دولة ظلت تنفق مبالغ لا حصر لها كالدولة الأيوبية. ومن أجل مواجهة وضع كهذا كان لزاماً على صلاح الدين أن يتصل بالقوى الإسلامية. فبعث قاضي عسكره المؤرخ ابن شداد إلى بغداد للحصول على تأييد جدي، وعلى موقف يرقى إلى مستوى الحدث. لكن جهود القاضي لم تثمر لممانعة الخليفة العباسي عن مساعدة صلاح الدين، وقد فسر البعض موقف الخليفة تفسيراً غير مقنع، فقيل إن السبب كان يكمن في اللقب الذي حمله صلاح الدين لقب «الملك الناصر»[١٣]. ومهما يكن من أمر فإن الخلافة لم تعبئ طاقاتها المالية والعسكرية والمعنوية للوقوف في وجه الصليبيين أيام محنة حصار عكا[١٤]، بل اكتفت بإرسال شاب ومعه حملان من النفط وخمسة من النفاطين وورقة موقعة من الخليفة العباسي تتضمن الإذن لصلاح الدين بأن يقترض عشرين ألف دينار من تجار الشام ينفقها في الجهاد، ويحيلهم إلى الخليفة. فما

الدين الشيال (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥٧م)، مج ٢، ص ٣٦٤" أبو الفرج غريغوريوس أهرون الملطي، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٨م)، ص ٢٢٢.

[١٢] فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي (بيرت: دار الثقافة ومؤسسة فرانكلين، المطبعة البوليسية، ١٩٥٩م)، مج ١، ص ٢٣٩. وهارولد لامب، شعلة الإسلام (قصة الحروب الصليبية)، ترجمة محمود عبدالله يعقوب (بغداد: مطبعة الإرشاد، منشورات مؤسسة فرانكلين ودار المتنبي، ١٩٦٧م)، ص ١٥٥.

[١٣] وقصة اللقب المذكور (الملك الناصر) الذي حمله صلاح الدين، فالواقع أن الخليفة الفاطمي الأخير «العاضد لدين الله» هو الذي منحه له حين عيّنه سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م وزيراً إثر وفاة عمه أسد الدين شيركوه الملك المنصور. وجرى ذلك في وقت لم يكن أحد من خلفاء بني العباس يحمل لقب «الناصر». فالخليفة الذي كان يحكم بغداد يومئذ هو «المستنجد بالله» الذي دام حكمه حوالي عشر سنين (٥٥٥ ـ ٥٦٦هـ/١١٦٠ ـ ١١٧٠م) ثم خلفه الخليفة المستضيء بأمر الله الذي حكم بين (٥٦٦ ـ ٥٧٥هـ/١١٧٠ ـ ١١٧٩م). وإن جاز أن نعدل المعادلة فينبغي القول إن الخليفة العباسي الناصر لدين الله حكم في الفترة (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ/١١٧٩ ـ ١٢٢٥م) هو الذي أخذ لقب صلاح الدين وليس العكس.

[١٤] دريد عبدالقادر نوري، سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٦م)، ص ٤٤.

كان من صلاح الدين إلا و ردّ الرقعة إلى الخليفة[١٥]، قائلاً: ((أنا في يوم واحد أخرج مثل هذا المبلغ وأضعافه))[١٦] إن هذا الموقف من الخليفة جعل مستشار صلاح الدين الذائع الصيت عبدالرحيم البيساني المعروف بـ((القاضي الفاضل)) يطلق ملاحظات مريرة بهذا الصدد، إذ يقول: ((كتاب بغداد كتاب بارد غث جامد، ما فيه مقصود لقاصد، ولا صلة ولا عائد، ونحن نطلب الذهب الحار فيضرب في حديد بارد))[١٧]. وعلق باحث معاصر بقوله ((كان موقف الخليفة العباسي من الحروب الصليبية يدعو للرثاء... لأنه لم يقدر خطورة الصليبيين على البلاد، ولم يعمل على توحيد كلمة المسلمين في المنطقة ليسند القوة الأيوبية التي كانت تتصدى لهم)).[١٨]

كيف تم الاتصال بالخليفة الموحدي؟

الملاحظ في أمر اتصال صلاح الدين بهذا الخليفة أن المصادر المشرقية المعاصرة لصلاح الدين تسكت عن هذا الاتصال، وكأنه كان من الأسرار التي لا ينبغي البوح بها، عكس ما حصل مع الخليفة العباسي. وهذه مسألة ينبغي ألا يمرّ بها المهتم بتاريخ العلاقات بين القوى الإسلامية مرّ الكرام. ولعل سبب هذا التكتم هو أن صلاح الدين لم يشأ أن يظهر نفسه بمظهر العاجز في الدفاع عن عكا، لكيلا يستغل العدو المحاصر هذا الوضع، أو أنه أراد أن يكتم خبر الاتصال عن الخليفة العباسي لكيلا يثير حفيظته، وتزداد العلاقة بينهما سوءاً، قبل أن يحصل على المعونة. أما مؤرخوه فلم يشاؤا الإشارة إلى موضوع يثير شجونه إضافة إلى الأسباب السالفة ويحتمل أنهم لم يكونوا على دراية كافية بما كان يحصل، على الرغم من صلة بعض مؤرخيه الوثيقة جداً به، فأحدهم كان كاتب إنشائه (العماد الكاتب) والثاني كان قاضي عسكره ومستشاره (ابن شداد)، ولعل استمرارهما على كتمان

---

[١٥] ابن شداد، النوادر، ص ص ١١٨ ـ ١١٩" العماد الكاتب، الفتح القسي، ص ٣٦٥" سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مج ٧، ص ٤٠١" أبو شامة، الروضتين، مج ٢، ص ١٥٢.

[١٦] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مج ٨، ص ٤٠١.

[١٧] أبو شامة، مذكور، مج ٢، ص ١٧٦.

[١٨] محمد صالح داود القزاز، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير (النجف: مطبعة القضاء، ١٩٧١م)، ص ١٠٠.

النبأ بعد وفاة القائد كان من قبيل الوفاء له ولذكراه. إلا أن الخبر قد شاع بين الناس، وصار نشره لا يسبب حرجاً لأحد[١٩].

ولعل أول من تطرق إلى تلك الاتصالات كان المؤرخ شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة المتوفى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، وهو أقدم المؤرخين المشارقة غير المعاصرين. وقد استطاع هذا المؤرخ بجهوده الخاصة الحصول على نسخ الخطابات المرسلة إلى ملك المغرب من بعض الشيوخ الثقاة، وكانت مكتوبة بخط القاضي الفاضل المذكور. وقد ذكر أبو شامة بهذا الصدد قائلاً: كان بلغني أن السلطان صلاح الدين لما اشتدّ أمر الفرنج على عكا أرسل إلى ملك المغرب يستنجد به عليهم، ليقطع عنهم مادتهم من جهة البحر، وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه، فإن العماد (الكاتب) والقاضي (ابن شداد) لم يتعرضا له في كتبهما[٢٠].

ومهما يكن فإن القائد وقع اختياره على خير من يمكن أن يغيثه، ولولا ثقته بأن هذا الملك قمين بالالتجاء إليه لما أرسل له سفارة ((بعثة)) بهذا المستوى الرفيع اللائق، وتحمل هدايا نفيسة، ورسائل تتضمن عبارات تعظيم لم يسبق لصلاح الدين أن كاتب بمثلها أحداً.

ترى أيصح أن نسلّم بما أعلنه هؤلاء المؤرخون حول رفض الخليفة الموحدي لطلب السلطان؟ وأنه كان بسبب الألقاب؟ فمع علمنا بأهمية الألقاب، وما كانت تتركة من آثار على العلاقة بين الأطراف الإسلامية، إلا أننا لا نميل إلى اتخاذها سبباً كافياً لاتخاذ موقف مجاف ومناف لمصالح المسلمين كذلك الموقف الذي اتخذه المجاهد المغربي. ونخال أن الموقف الرافض كان مرده حاجة المغرب إلى قوات يدّخرها لاستعمالها في معارك الجهاد مع نصارى الأندلس، ((صليبيي المغرب))، والسبب الثاني يتعلق بالعلاقة التي اتسمت بالفتور، والقطيعة أحياناً، بين الدولة الأيوبية وبين الدولة الموحدية، وسنتحدث عن كلا السببين. وهناك سبب ثالث وهو الخطر النورماني في جزيزة صقلية الذي كان يهدد الجناح الشرقي للمملكة الموحدية.

---

[١٩] هذا وثم إشارة إلى أن العاهل الموحدي قد طلب من والييه في أفريقية (تونس) حين وصول سفير صلاح الدين إلى أراضي الدولة الموحدية أن يكتما خبر وصول السفير ريثما يستقبله بنفسه.

[٢٠] أبو شامة، الروضتين، مج ٢، ص ١٧٠.

والمعروف أن المهدي بن تومرت قد وضع أساس الدولة الموحدية العقائدي وشكل نواة حركة منظمة، وأعدّ جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل، استطاع به أن يحاصر مدينة مراكش سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م للقضاء على الدولة المرابطية[٢١]، وقد توفي المهدي عام ٥٢٤هـ/١١٣٠م ودفن بـ((تينملل))[٢٢]. ثم أتم أحد تلامذته وصاحبه وخليفته عبدالمؤمن بن علي رسالته، واستطاع أن يفتح مدن المغرب الواحدة بعد الأخرى، ثم اختطفته يد المنون عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م. وقد أعلن مؤرخ مغربي مراكشي بصدد توسع المملكة في عهد مؤسسها هذا قائلاً: ((وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله منذ أن اختلت دولة بني أمية إلى وقته))[٢٣]. وخلف عبدالمؤمن ابنه يوسف الذي دام حكمه من (١١٦٣/٥٥٨م إلى ٥٨٠هـ/١١٨٤م)، ويعتبره المؤرخون أعظم ملوك الموحدين، وكان أول من تلقب بالخليفة. ثم خلفه ابنه[٢٤] يعقوب الملقب بالمنصور الذي قام بفعاليات جادة عديدة للقضاء على قوة نصارى الأندلس قبل أن يعود إلى بلاده في أول جمادى الآخرة سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م، وتوفي بمراكش في العام التالي، ودفن بتينملل[٢٥].

---

[٢١] حكمت الدولة المرابطية بلاد المغرب بين ٤٣٠ ـ ٥٤١هـ/١٠٣٧ ـ ١١٤٧م.

[٢٢] تينملل: قرى ومزارع يسكنها البربر. بينها وبين مراكش نحو ثلاثة فراسخ" ياقوت الحموي، معجم البلدان (طهران: مؤسسة مطبوعات كورش كبير، ١٩٦٥م)، مج ١، ص ٩١١، فيها قبر عبدالمؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، وقبور بنيه.

[٢٣] من كتاب عبدالواحد المراكشي، كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي الفاسي، ط ٧ (الدار البيضاء: دار الكاتب، ١٩٣٨م)، ص ٣٥٤.

[٢٤] سالم، تاريخ المغرب، ص ص ٧٢٦ ـ ٧٢٩" محمد الرشيد ملين، عصر المنصور الموحدي (الرباط: مطبعة الشمال الأفريقية، د. ت.(، ص ص ١٣٣ ـ ١٤٢.

[٢٥] عبدالواحد المراكشي، المعجب، ص ١٨٢" يقول ابن خلكان: إنه توفي في مراكش، وقيل إنه مات بمدينة سلا المغربية وحكى لي جمع كثير بدمشق سنة ٦٨٠هـ أنه بالقرب من بلدة المجدل من أعمال البقاع قرية يقال لها ((حمّارة)) وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب (وفيات الأعيان، مج ٧، ص ١٠)" ويقول ابن الأثير، توفي المنصور يعقوب بن يوسف بمدينة سلا، وكان قد سار إليها من مراكش وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا وسماها المهدية، من أحسن البلاد، وأنزهها فسار إليها يشاهدها، فتوفي بها. (الكامل، مج ١٢، ص ١٤٥).

أما الساحة الأخرى لمتاعب الموحّدين، فكانت جبهة صراعهم مع ابن غانية[٢٦] وأعوانه الذين انفصلوا في جزر البليار (ميورقة، منورقة، ويابسة) الواقعة غربي البحر المتوسط[٢٧]، وتتبع إسبانيا في الوقت الحاضر. وأولاد غانية يمتّون بصلة القرابة إلى بني تاشفين (أمراء المرابطين) الذي أطاح بهم الموحدون، كما ذكرنا، وبعد أن رفعوا راية العصيان ضد الدولة الموحدية أعلنوا تبعيتهم للدولة العباسية[٢٨]. ثم تحالفوا مع الجماعات المحلية المناهضة للموحدين في شمال أفريقية، وهم ((بنو هلال وسليم، والقوة العسكرية المصرية الأيوبية التي قادها (شرف الدين قراقوش) أحد مماليك تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين.

وقد توسع علي بن إسحق بن محمد بن غانية على حساب الموحدين، فاستولى على أفريقية (تونس) والمغرب الأوسط ابتداء من الجزائر حتى قسنطينية واستطاع إلحاق الهزيمة بالقوات الموحدية، ثم قاد الخليفة يعقوب المنصور سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م حملة عسكرية بنفسه، انتصر فيها عَلى علي بن إسحق واستطاع استرجاع مدن تونس وعاد إلى المغرب مارّاً على بلاد الجزائر[٢٩].

حملة قراقوش

يرى المراقب لأحداث شمال أفريقية في تلك الفترة المليئة بالأحداث والمفاجآت، ضرورة إيجاد مخرج يفسر به أسباب قيام قراقوش بحملته العسكرية التوسعية، المشار إليها، التي بدأها من مصر وفيما إذا كان هذا قد خرج لمجرد تشكيل قوة جديدة تحكم شمال أفريقية في فترة اتّسمت بالاضطراب، مما حدا بهذا إلى استغلال

---

[٢٦] لمعرفة المزيد عن أولاد غانية انظر: عبدالواحد المراكشي، المعجب، ص ١٩٣ وما بعدها" سالم، تاريخ المغرب، ص ٧١٦" مراجع عقيلة الغناي، سقوط دولة الموحدين (بنغازي: منشورات جامعة بنغازي، ١٩٧٥م)، ص ص ١٦٧ ـ ١٨٣.

[٢٧] ملين، عصر المنصور، ص ٢٥.

[٢٨] ابن الأثير، الكامل، مج ١١، ص ٥٢١" أحمد بن علي بن عبدالله القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٣ ـ ١٩١٧م)، مج ٥، ١٢٦" وانظر: محمد عبدالله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (القاهرة: مطبعة لجنه التأليف، ١٩٦٤م)، مج ٢، ص ١٤٥" في حين يرى مراجع عقيلة الغناي العكس، سقوط، ص ١٧٣.

[٢٩] ابن الأثير، الكامل، مج ١١، ص ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨.

الوضع جرياً وراء تحقيق آمال سياسية؟ أم أنه قام بحملته بدفع من صلاح الدين، أو من أحد أبناء أسرته، لإيجاد موطىء قدم لهم في شمال أفريقية يتخذونه مأوى لهم يلجأون إليه إذا ما أدى الصراع الخفي بينهم وبين سيدهم نورالدين محمود صاحب الشام بفوز هذا عليهم[٣٠].

في حين يرى البعض أن صلاح الدين أراد أن يجعل من موطىء القدم الذي سينتزعه إن صحّ وجود صراع بين الرجلين أصلاً. أحد أمراء ابن أخيه مركزاً لتوسيع نفوذ دولته في بلاد أفريقية (تونس) والمغرب، أو جعله حاجزاً ـ على أقل تقدير ـ بين مصر وشمال افريقية[٣١]، نظراً لما كان يتردد بين الناس أن الموحدين كانت لهم أطماعهم في مصر، وينوون إلحاقها ـ وبالتالي إلحاق الشام والمشرق ـ إلى دولتهم، ولما ظهر في مصر ـ كما ذكروا ـ من المنكرات والبدع[٣٢]. ومن المحتمل أن حكام مصر الجُدد كانوا مطلعين على نوايا الموحدين، لذا أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة، فكلفوا بعض قادتهم بالتوجه إلى جهة الغرب، وإيجاد موطىء قدم لهم فيها، لتكون خط الدفاع في وجه الموحدين، وكانت مبادرة قراقوش لاتخرج عن هذا الخط[٣٣].

أما الرأي الرابع بشأن توسع الأمير الأيوبي فيقول إن هذا قد قام بحملته تلك لمناصرة البدو من بني هلال وبني سليم، وكذلك لمساعدة بني غانية في محاولة منهم لاستعادة حكم المرابطين، ثم العمل بتوجيه من صلاح الدين وسيادة الخلافة العباسية[٣٤].

---

[٣٠] م. ن. مج ١١، ص ٣٧٠" عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص ١٥٥.

[٣١] انظر: الغناوي، سقوط، ص ١٩٤.

[٣٢] أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير رحلة ابن جبير (بيروت: دار بيروت ـ دار صادر، ١٩٦٤م)، ص ص ٣٠، ٣١، ٣٨، ٣٩. وانظر: ابن تومرت، كتابه أعز ما يطلب، تحقيق لوسياني (الجزائر: مطبعة لوسياني، ١٩٠٣م)، ص ٣٠٩" نقلاً عن الغناوي، سقوط، ص ١٩٥" المراكشي، المعجب، ص ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

[٣٣] الغناوي، سقوط، ص ١٩٨ ولمعرفة المزيد عما فعله قراقوق في حملاته تلك، انظر هذا الكتاب، ص ص ١٩٩ ـ ٢٠٢.

[٣٤] ابن الأثير، الكامل، مج ١١، ص ٥٢١.

والمعروف أن حملة قراقوش قد انتهت بالاستيلاء على ولاية طرابلس الغرب، وافتتح سنتريه[٣٥] واوجله[٣٦]، ثم سار إلى فزان ((جنوبي ليبيا الحالية، فاقتحمها، وقضى على دولة الهواريين القائمة بها، وكانت زويلة، – الواقعة وسط الصحراء ـ مقر ملكهم، وخُطب فيها لصلاح الدين وابن أخيه تقي الدين عمر، وقد قوي أمر قراقوش تباعاً، وأخذت نفسه تراوده بالاستيلاء على سائر أفريقية((تونس))[٣٧].

ومهما يكن السبب الذي دفع قراقوش إلي توجيه حملته، فإننا نرى أن المنصور الموحدي ـ إذا تسنى له أن يغض الطرف عن خطورة تعاون قراقوش مع حكام الجزر ـ بني غانية ـ المناهضين لهم، بعد القضاء على خطورتهم في افريقيا ـ فإن ذكرى ذلك التعاون المريرة ظلت عالقة في ذهنه، وحالت دون قيام علاقات ودية، أو سوية، بين مصر الأيوبية والدولة الموحدية[٣٨]، وبلتالي حالت دون مساعدة جيش صلاح الدين في محنته المذكورة بعكا، فما فعله قراقوش، حتى لو لم يكن بتوجيه مباشر من صلاح الدين، كان كافياً ـ كما يرى البعض ـ لأن يرفض المنصور الموحدي تقديم بحريته لمن كان يناهضه[٣٩]، إضافة إلى استمرار اعتراف صلاح الدين بخلافة بغداد العباسية، وعدم اعترافه بخلافة الموحدين.

---

[٣٥] سنتريه: قصبة الواحة الثالثة. بلدة في غربي الفيوم، وهي آخر أعمال مصر، بينها وبين (أوجلة) عشر مراحل في صحراء ورمال، قليلة الماء، أهلها بربر لا عرب فيهم" ياقوت، معجم البلدان، مج ٣، ص ١٥٧.

[٣٦] اوجلة: مدينة في جنوبي برقة نحو المغرب، ضاربة في البر، عامرة كثيرة النحل" ياقون، معجم البلدان، مج ١، ص ٣٩٧.

[٣٧] عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٨٤هـ)، مج ٦، ص ص ١٩١ ـ ١٩٢.

[٣٨] يقول محمد الرشيد ملين: ((كان الخليفة الموحدي لايزال يتذكر أن صلاح الدين كان صلة الوصل بين الخليفة العباسي وبني غانية، وعن طريقه مرت خلع (هدايا) الخليفة العباسي إلى ابن غانية، عصر المنصور الموحدي، ص ١٤٤.

[٣٩] انظر: سعد زغلول عبدالحميد، ((العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف))، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مج ٦ و ٧، ص ٩٦.

أمر سفارة صلاح الدين

حين رأى صلاح الدين في الدولة الموحدية ملاذاً يجدر قصده والالتجاء إليه، كتب إلى الخليفة المنصور في عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م رسالته الشهيرة مدبجة بقلم القاضي الفاضل يستصرخه ويستنصر به على قتال الجيوش الفرنجية (الصليبية) الزاحفة على فلسطين، وفيها يصف كاتب صلاح الدين الخليفة المنصور بـ((أمير المؤمنين، وسيد العالمين، وقسيم الدنيا والدين...))[٤٠] ويصف له جهوده المستمرة في محاربة الصليبيين وهزيمتهم وما كان لذلك من أثر في تحالف الغرب، بدوله العديدة، وكيف نهض ملوكه بجيوشهم وأساطيلهم لمحاربة المسلمين المجتمعين تحت لوائه، ومحاولة الاستيلاء على مدن الساحل في الشام واستعادة ما فقدوه من مواقع. ويطلب صلاح من عاهل المغرب أن يمده بشطر من أساطيله المنصورة، وأن يرسل، في الوقت نفسه، قسماً من أسطوله جزيرة صقلية فيشغل صاحبها ويعطله عن الاشتراك مع رفاقه الملوك النصارى في مهاجمة مصر، وليقبع في جزيرته. ويردفه صلاح الدين في رسالته المطولة مخاطباً صاحب المغرب: ((وبذلك يذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا تُردّ به المحامدُ على عقبها، ويقيم على الكفر قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها))[٤١].

والرسالة المذكورة التي دون نصها القلقشندي ـ من كتّاب مصر الكبار الذي عاش في عهد المماليك ـ أعلن فيها صلاح الدين أنه كان قد نوى أن يتصل بالمنصور الموحدي منذ أن استقل بأمر مصر قبل حوالي عشرين سنة بقوله: ((كان من أوائل عزمنا، وفواتح رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة سيدنا(!) وأن نتيمّن بمكاتبتها، ونتزين بمخاطبتها، وننهض إليها أماثل الأصحاب))[٤٢]. ويعرض في الرسالة، بعد شرح وافٍ للأوضاع في فلسطين والشام، عن حاجته الماسة إلى من يمدّ له يد المعونة الجدية، ويقول: وما رأينا أهلاً لهذه العزمة إلا حضرة

---

[٤٠] القلقشندي: صبح الأعشى، مج ٦، ص ٥٢٧" ابن منكلي، مخطوط الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية المنشور في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، كلية الآداب، جامعة الكويت، مج ٤، عدد ١٤ (ربيع ١٩٨٤م)، ورقة ٦٦ أ.

[٤١] القلقشندي، مذكور، مج ٦، ص ٥٢٩.

[٤٢] نفسه، ص ٥٢٧.

سيدنا(!) أدام الله صدق محبة الخير فيه، إذ كان منحه عادة في الرضى به وقدرة على الاجابه، ورغبة في الإنابة، ولاية لأمر المسلمين، ورئاسة للدنيا والدين، وقياماً لسلطان التوحيد القائم بالموحدين، وغضباً لله ولدينه))[٤٣].

ويختتم الرسالة بشرح حاجته إلى قطع من أسطول الدولة الموحدية ليواجه بها الاسطول الصليبي، ويقول: وقد أوفدناه على باب حضرة سيدنا(!) وهو الداعي المسمع، والمبلغ المقنع،...))[٤٤]

وبعث بهذه الرسالة مع أبرز رجال الدولة الأيوبية وهو شمس الدولة عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن مرشد بن منقذ الكناني، سليل أمراء بني منقذ[٤٥] أصحاب حصن[٤٦] شيزر السابقين بالشام، وكان هذا الأمير ممن يُعتمد علبهم في قضاء مهام دولته الدقيقة.

والواقع أن صلاح الدين بعث بثلاثة خطابات متتالية ـ على أقل تقدير ـ إلى ملك المغرب. وقد أتبع الخطاب المذكور بآخر بعث به مع سفيره المذكر في ٢٨ شعبان سنة ٥٨٦هـ/تشرين الأول ١١٩٠م، وقد استهلّه بديباجة بديعة تعتبر من القطع البليغة في آداب المراسلة، أعلن فيه عن استنكاره الشديد لما فعله بعض المنشقين من أعوانه (قرقوش وبوزبا وغيرهما) ونعمتهم بـ((نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال... وأنهم ليسوا من المماليك والأمراء، ولا من المعدودين في الطواشية[٤٧] والأولياء)). ثم يصف قائدي الحملة بقوله: إنهما لم يكونا ((ممن إذا غاب أُحضر، ولا ممن إذا فقد افتقد)) ويعلن معتذراً عن أفعالهما قائلاً: ((معاذ الله أن نأمر مفسداً بأن يفسد في الأرض إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت))[٤٨]. وهذا يعني أن صلاح الدين قد أفهم بطريقة ما أنه لن يحصل على مساعدة بحرية من الموحدي بسبب سكوته عن

---

[٤٣] نفسه، ص ٥٣٠.

[٤٤] ابن منكلي، الأحكام، ورقة ٦٨ أ.

[٤٥] المولود في شيزر بالشام سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٧، ص ١٢.

[٤٦] شيرز: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر الأرند، تعد من أعمال حمص. تنسب إليها جماعة من الأمراء من بني منقذ وكانوا ملوكها" ياقوت، معجم البلدان، مج ٣، ص ٣٥٢.

[٤٧] الطواشية. مرتبة عسكرية عالية. انظر هامش(١)، ص ١٠٣ من كتابنا الجيش في عهد صلاح الدين.

[٤٨] أبو شامة، الروضتين، مج ٢، ص ١٧١.

توسع قراقوش. إلا أن هذا القائد رد التهمة عن نفسه معلنا أنه لم يدفع أحداً من أتباعه، أو شجعه للقيام بعمل معاد ضد أراضي الدولة الموحدية.

وفي الرسالة أضفى على الملك الموحدي عدداً من الألقاب الفخرية حسب ما كانت تتطلبه الرسائل البليغة التي كانت تُرفع إلى ذوي الشأن الرفيع، فإضافة إلى تكراره العبارة ((سيدنا)) كما في توثيق الخطاب الأول لقبه في هذه الرسالة بـ((الاسفهسلار))[٤٩] الأصيل، العالم المحترم، تاج الدولة، أمير الملة، صفوة الملوك والسلاطين، شرف الأمراء[٥٠] وهذا يعني أن صلاح الدين كان جاداً كل الجدة في توثيق علاقته بالموحدين. ثم يعدد له القاضي الفاضل ـ رأس كتاب ديوان صلاح الدين ـ وعلى لسان هذا السلطان ـ ما قام به الأخير من أعمال جليلة في مصر والشام وفلسطين، تلك الأعمال التي توّجها بدحر الصليبيين وفتح البيت المقدس، ثم استعادة الثغور وافتتاح البلاد، إلى أن تنبّه الغرب ـ كرة أخرى ـ فجاء لينجد الصليبيين المهزومين فقدم بأساطيله ورجاله وملوكه وقسسه حتى حاصروا ثغر عكا ((حصره العدو وحصرنا العدو)) حتى انجلت إحدى المعارك عن عشرين ألف قتيل من الكفار... ومع ذلك فإن أمر العدو قد تطاول، وخطبه قد تمادى، ونجدته تتواصل، ومنها ملك الألمان في جموع جماهيرها مجمهرة، وأموال قناطيرها مقنطرة... إلا أن الله قصم طاغية الألمان وأخذه أخذة فرعونية بالإغراق...))[٥١] ثم يدخل الكاتب الموضوع الذي من أجله أرسل صلاح الدين مبعوثه فيقول: ((فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسرة والعدة منها متوفرة... وأنت أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار... وما رأينا أهلاً لخطابنا، ولا كفؤاً لإنجادنا ولا محفوفاً بدعوتنا ولا ملياً بنصرتنا إلا ذلك الجناب، فلم ندعه إلا لواجب عليه، وإلى ما هو مستقل به ومطيق له، فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها ويستطير في الشرق سناها))[٥٢]. وحين امتنع الخليفة المغربي عن مساعدة صلاح الدين، لم ييأس هذا القائد من إعادة المحاولة، والفوز بمعونة المجاهد الموحدي، لأنه كان يعلم أنه يتوجه بطلبه الوجهة

---

[٤٩] الاسفهسلار: مقدم الجيوش، القلقشندي، صبح الأعشى، مج ٦، ص ص ٧ ـ ٨.

[٥٠] أبو شامة، مذكور، مج ٢، ص ١٧٠.

[٥١] م. ن. ص.

[٥٢] نفسه، مج، ص ١٧١.

الصحيحة، وأن نزعة الجهاد كانت تضطرم في جوانحه، اضطرامها في جوانحه هو، وأن الكفاح الذي خاض غماره الموحدون ضد نصارى الأندلس في المغرب، كان يكمل الكفاح الذي يرفع لواءه صلاح الدين في المشرق. ولهذا قرر أن يعيد الكرة في طلب المعونة، فأرسل إلى المغرب سفارة جديدة على يد الأمير المذكور (ابن منقذ) يحمل رسالة وهدايا مجزية.

في هذه الرسالة وصف القاضي الفاضل الوضع المتأزم في ساحل فلسطين بتقاطر الفرنجة ((الصليبيين)) المستمر برّاً وبحراً بقيادة ملوكهم، وما وقع حول عكا التي ما زالت تطوقها القوات المعادية في البر والبحر، وما بذله جيشه من أجل إنقاذ المدينة الباسلة، لهذا يتوجه بطلب نجدة من صاحب المغرب بقوله: إنه كان من المتوقع من تلك الدولة العالية... مع القدرة الوافية، والهمة المهدية الهادية، أن يمد غرب الإسلام المسلمين، بأكثر مما أمدّ غرب الكفار الكافرين، فيملأها عليهن جواري كالأعلام، ((وأنه لما تأخرت الإجابة ((ظن أنها توقفت على الاستدعاء، فاستصرخه بهذه التحية فقد تحفل السحاب ولا تمطر إلى أن تحركها الرياح))[٥٣].

وفي تاريخ وصول سفارة صلاح الدين إلى المغرب اختلاف، على الرغم من قلة أهمية بيان تواريخ الرسائل أحياناً، أما يتعلق بلقاء السفير مع الملك الموحدي، فقد ذكرت الرواية الشرقية (رواية القاضي الفاضل) أن ابن منقذ أبحر من الإسكندرية قاصداً المغرب في ١٣ من رمضان عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م، وأنه وصل إلى مراكش في شهر ذي الحجة، ومثل أمام الملك، وقدّم إليه هدايا صلاح الدين في العشرين من الشهر المذكور.

وكان على السفير حين وصوله أرض المغرب أن ينتظر عودة الملك المنصور من بلاد الأندلس، حيث يقود جيشه لمقاتلة النصارى، وأخذ مدينة شلب وكانت بأيدي البرتغاليين. وكان الملك في تلك الآونة مقيماً بأشبيلية، يترقب الأحداث ويتأهب للمنازلة.

ويبدو أن المصادر التاريخية الشرقية، وهي متأخرة كما ذكرنا، لم تكن مطلعة على سير الأحداث وتتبع تحركات السفير، ومعرفة ما كان يجري على الساحة المغربية والأندلسية من أحداث بشكل كاف، لبعد الشقة، ولهذا فإن الرواية المغربية

---

[٥٣] نفسه، مج ٢، ص ١٧٣.

المعاصرة المطلعة أكثر دقة[٥٤] وأهمها رواية المؤرخ صاحب كتاب البيان المغرب المستقاة فيما يبدو، من رواية ابن صاحب الصلاة مؤرخ البلاط الموحدي. فهي تقدم لنا تفاصيل أدق عن تحركات السفير المذكور، وتبدو أكثر انسجاماً مع سير الأحداث. فتقول إن السفير حين توجّه غرباً نزل بثغر تونس فاستقبله السيد أبو زيد والي أفريقية (تونس)، ثم توجّه نحو بجاية ـ الواقعة على الساحل الجزائري ـ فاستقبله واليها أبو الحسين بحفاوة بالغة، وكتب الواليان إلى عاهل المغرب، وكان نازلاً أشبيلية يخبرانه بمقدم السفير، فوصلت كتبهما إليه في رجب ٥٨٦هـ/آب ١١٩١م، فرد الملك عليهما بالشكر، وطلب منهما أن يستمرا في إكرام الضيف، ويطلبا منه أن يكتم سبب مقدمه ريثما يستقبله الملك بنفسه.

فغادر السفير أفريقيا (بلاد تونس) ونزل بمدينة فاس المغربية، وظل ينتظر فيها لقاء الملك مدة عام. وكان الملك أثناء ذلك منشغلاً بالقيام بعمل عسكري واسع لغزو أراضي البرتغال في جمادى الأولى عام ٥٨٧هـ/حزيران ١١٩١م، ثم توجه نحو مدينة شلب، وعاد ظافراً إلى أشبيلية، ثم قفل عائداً إلى في شهر رمضان من العام المذكور، فوصل مدينة مراكش واستقر بها، وكان السفير قد وصل إليها، فاستقبله الملك، وقدّم إليه السفير هدايا صلاح الدين، وفيها مصحف كريم في أربعة مخيشة بالمسك، وثلاثمائة مثقال من العنبر، وعشر قلائد من الجوهر عددها ستمائة حبة ومائة قوس بأوتارها، ونصول سيوف هندية وغيرها[٥٥].

يقول صاحب كتاب الاستبصار إن اجتماع السفير ابن منقذ بالعاهل الموحدي تم في السادس من المحرم سنة ٥٨٨هـ/٢٣ كانون الثاني ١١٩٢م، وأنه غادر البلاط بعد ذلك بخمسة أيام، بعد أن أفضى بمضمون رسالة القائد صلاح الدين إلى الخليفة المنصور، وكان السفير قد مدح المنصور بقصيدة تقع في أربعين بيت، فأعطاه

---

[٥٤] انظر ما يقوله محمد عبدالله عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص ص ١٨٣ – ١٨٤.

[٥٥] أبو شامة، مذكور، مج ٢، ص ١٧٣" ابن خلدون، كتاب العبر، مج ٦، ص ٢٤٦" ويذكر أبو العباس أحمد بن خالد الناصري في كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء: مطبعة دار الكتاب، ١٩٥٤م) تفاصيل تلك الهدايا النفيسة، مج ٢، ص ١٨٢.

الخليفة ألف دينار عن كل بيتاً قائلاً له: إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك، يعني لا لأجل صلاح الدين[٥٦].

وجاء في تلك القصيدة:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعتــه ... إلي بحر جود ما لنعماه ساحـل
إلى معدن التقوى إلى كعبة الهدى ... إلى من سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المسلمين[٥٧] ولم تزل ... إلى بابك المأمول ترجى الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقنــاً ... بأني بذاك القطع بالنجح كافــل
فما راعني من وجبة البر رائــع ... ولا هالني من زاخر البحر هائــل
ومن كان غايات المعالي طلابــه ... يهون عليــه كل أمــر يحـاول
رجوت بقصديك العلى فبلغتهـا ... وأدنا عطاياك العلى والفضائــل
فلا زلت للعلياء والجود بانيــاً ... تبلغت الأيام مـا أنت آمــل[٥٨]

إلا أن السفارة لم تحصل على المطلب الذي قدمت من أجله، وهو تزويد جيش صلاح الدين بمعونة بحرية[٥٩].

هنا يفرض سؤال مهم نفسه على جو الأحداث هو: ألم يكن صلاح الدين على علم ان المنصور الموحدي لن يسعف طلبه نظراً لأوضاع بلاده الداخلية والخارجية[٦٠]؟ وبسبب ما حصل بينه وبين الدولة الموحدية؟ فلماذا إذن طلب المساعدة من هذه الدولة؟

---

[٥٦] أحمد بن محمد التلمساني المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م)، مج ١، ص ٤٤٤، الناصري، الاستقصا، مج ٢، ص ١٨٣.

[٥٧] «أمير المؤمنين» في الناصري، الاستقصا، مج ٢، ص ١٨٣" والمقري، نفح الطيب، مج ١، ص ٤٤٤.

[٥٨] أبو شامة، الروضتين، مج ٢، ص ١٧٤" الناصري، الاستقصا، مج ٢، ص ١٨٣.

[٥٩] أبو شامة، مذكور، مج ٢، ص ١٧٤" المقري، نفح الطيب، مج ١، ص ٤٤٥.

[٦٠] يرى البعض أن رفض الخليفة يعقوب الموحدي إمداد صلاح الدين بالمساعدات البحرية لم يكن خطأ، فمن حق الخليفة أن يفكر في سلامة رعيته قبل التفكير في سلامة البلاد النائية عنه. انظر: محمد الرشيد ملين، عصر المنصور، ص ١٤٤" عبدالحميد، «العلاقة بين صلاح الدين»، ص ٩٧. وكتب إحسان حقي يقول: إن الموحدين كانوا يخشون أن تنقلب الحروب الصليبية من الشرق إلى الغرب إذا ما أنسى الأوربيون من أهل الشمال الأفريقي (الموحدين) ضعفاً، والدليل على ذلك أن الثورات في

نخال أن صلاح الدين، على الرغم من أننا لا نستطيع أن نبرىء ذمته ـ ولو إلى حد قليل ـ لما فعله قراقوش وبوزبا، إلا أنه أراد أن يفتح صفحة علاقات جديدة بين جناحي العالم الإسلامي اللذين كانا لا يزالان يتعرضان لهجوم الغرب. ولعله فكر أن يغير تبعيته ـ السابقة ـ من بغداد إلى الرباط، نظراً لما اتسمت به علاقاته مع الخليفة العباسي من فتور، كما ذكرنا. فكان أن اتصل بمثاله الذي يجاهد ضد الأسپان والبرتغاليين (نصارى الأندلس)، لوجود لغة مشتركة بينهما، لغة الجهاد، والصمود في وجه الغزاة للحيلولة دون ضياع عكا، ومن ثم فلسطين، من جديد من جهة الشرق، أو ضياع الأندلس من جهة الغرب. فكان اتصاله بالمنصور بمثابة محاولة منه لمعرفة مدى استجابته لطلبه، واستعداده لمدّ يد المعونة. فكان أن أرسل وفداً بهذا المستوى الرفيع.

نستنتج من هذا الكلام

أولاً: أن الفرقة التي عانى منها العالم الإسلامي، وتفكك مظاهر الوحدة نتيجة الضعف الذي دبّ في أوصاله لأسباب عديدة ـ ليس هذا مجال ذكرها ـ جعلت القوى المحيطة بهذا العالم تطمع فيه، بل وتتكتل ضده، حركة «الاسترداد» في الأندلس التي انتشر لهيبها إلى إعلان حرب واسعة عليه باسم «الحروب الصليبية»، إلى استغلال المغول لهذه الفرصة والانقضاض على الجزء الآسيوي من العالم الإسلامي. وكان المؤرخ الكبير ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) على وعي تام حين ربط بين ذيول هذه الحركات العدوانية المتشعبة في وقت لم يكن الخطر المغولي قد تفاقم إلى الحد الذي سيتفاقم فيه بعد وفاة ابن الأثير بأكثر من ربع قرن[٦١] وقد تحدث عن العدوان المغولي قائلاً: هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها،

الأندلس لم تهدأ قط بغية إشغال المسلمين على مساعدة إخوانهم في مصر وسورية... ولعل المنصور الموحدي كان يدرك هذه الحقيقة في بقاء أساطيله في الغرب ليجنب المسلمين في الشرق ضربات الصليبيين(!) ويفيد صلاح الدين والشمال الأفريقي (كذا). انظر كتابه: المغرب العربي (بيروت: دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، د. ت.)، ص ص ٦٧ ـ ٦٨. وسنرد على هذا الرأى الخاطىء بعد قليل.

[٦١] انظر: ابن الأثير، الكامل، مج ١٠، ص ص ١٤٢، ١٩٤، ٢٧٢.

والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم، بين الغرب والشمال، ووصلوا إلى بلاد مصر... فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثانياً: لم يحصل أن أنجد الجزء الشرقي من العالم الإسلامي جزأه الغربي، أو بالعكس بعد أن تمت تجزئته، ولم يكن من طبيعة المرحلة أيام حروب (الاسترداد) والعدوان الصليبي أن يمد أحد الطرف الآخر بالمساعدة على نظاق العلاقات الرسمية بين الجناحين. بل إن الجزء الشرقي ـ نفسه ـ لم ينجد صلاح الدين، ولم يرتفع إلى مستوى خطورة الحدث، كما رأينا، وهذا لم يمنع من وجود مجاهدين من كل الأطراف تطوعوا من أجل الدفاع عن البلاد ودفع العدوان عن الأرض الإسلامية، مثل وجود المغاربة في صفوف جيش صلاح الدين[٦٢] أو إدراك الجماهير (العامة) لمسؤوليتها تجاه ما يحصل، على الرغم من موقف الدولة الرسمي غير المدرك لخطورة ما كان يجري.

ثالثاً: إن صلاح الدين، الذي أراد أن يصوّب تلك المعادلة الخاطئة، بمحاولته في الحصول على معونة العاهل الموحدي، لم يمهد لتلك المحاولة تمهيداً كافيا يجعلها محاولة مثمرة، بالرغم من إضفاء ألقاب تعظيم فخرية على هذا العاهل وإرساله هدايا ثمينة له مع رسوله، إلا أن المحاولة لم تعط أية نتيجة تذكر، لجملة أسباب ذكرناها، بينها سبب اللقب ومغامرة قراقوش. بل ثم احتمال ليس من السهل ترجيحه، في أن المنصور الموحدي لم يكن يتمنى أن يخرج صلاح الدين منتصراً قوياً في صراعه مع الصليبيين، فوجود حاكم ضعيف في مصر كان يحقق تطلع الموحدين نحو تلك الديار، في وقت كانوا يمدون أعناقهم نحوها، بدعوى انتشار البدع فيها، كما أشرنا إلى ذلك. وثم مسألة أخرى جديرة بالتنويه هنا، هي نظرة البلاط الموحدي إلى صلاح الدين كونه ليس سليل أسرة حاكمة عريقة، وتبدو هذه النظرة جلية، ليس في رفض طلب المعونة فحسب، وهو المهم، بل في عدم الرد على صلاح الدين رداً يليق بمكانته بتقديم اعتذار مقبول، وإرسال هدايا إليه، في حين أن (المنصور) أعطى لرسوله (أبن منقذ) ألف دينار عن كل بيت من أبيات القصيدة الأربعين التي تلاها في حضرته

---

[٦٢] ابن جبير، الرحلة، ص ٢٨٠" وانظر كتابنا الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص ص ١٥٧ ـ ١٦٢.

قائلاً له: ((إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك، يعني لا لأجل صلاح الدين)) كما يذكر ذلك أكثر من مؤرخ[٦٣] وكان ابن منقذ سليل أسرة حاكة أفل نجمها.

رابعاً: كانت الدولة الموحدية، في حد ذاتها، بحاجة ماسة إلى القوى البحرية لصراعها المستديم مع نصارى الأندلس، وقد تطرقنا إلى هذه المسألة، وأكد عليها مؤرخون عديدون - قدامى ومحدثون - إلا أن ما نودّ أن نذكره هوما أشار إليه البعض بشكل يقرب إلى الجزم إلى أن الموحدين كانوا يخشون أن تنقلب الحروب الصليبية من المشرق إلى المغرب إذا ما استشعر الأوربيون ضعفاً من أهل المغرب (حسب ما ذكره إحسان حقي في كتابه المغرب العربي مثلاً). والواقع أننا لا نذهب مع هذا الرأي لسبب واضح هو: أن الحروب الصليبية في المغرب (أو ضد المغرب) المناصرة للوجود الإسلامي في الأندلس، قد بدأت قبل هذا التاريخ فيها سمي بـ((حركة الاسترداد)) ولا سيما بعد أن ضعفت قدرات المغرب الدفاعية، إثر وفاة الخليفة المنصور، ولهذا فإن الحروب الصليبية لم تنقلب إلى المغرب من المشرق، بل ما حصل هو أن حركة الاسترداد تلك قد استمرت وخسر المسلمون كل بلاد الأندلس بالرغم من عدم إرسال المغرب شيئاً من بحريتها إلى المشرق. أما في المشرق فقد استطاع المسلمون استرداد كامل الأرض في الشام وفلسطين، وطرد المستوطنين من آخر معقل لهم في عكا، دون الحصول على أية مساعدة من المغرب.

---

[٦٣] الناصري، الاستقصا، مج ٢، ص ١٨٣، المقري، نفح الطبي، مج ١، ص ٤٤٥.

وصايا مكياڤيللى لتلميذه صدام
في تعريب كركوك(*)

حين يسمع المرء اسم مكياڤيللى يرن في اذنه صدى الفاظ الخداع و المخاتله وسقوط القيم الاخلاقية. وان الحاكم حرُ في سلوك السبيل الذي يحقق أهدافه المحصورة بقوة الدولة وديمومة سلطته. والخروج عن القوانين الانسانية. لذا اصبح هذا الاسم مقروناً بمجمل الصفات القبيحة. كما صار رمزا لكل سياسي قاسي القلب، لايقف به الشرف او العفة دون اقتراف افظع الآثام لبلوغ غاباته الشريرة. كما اصبحت (المكياڤلليه ـ مكياڤلليزم Machiavellianism مصطلحا للاعمال الشائنة.

حين استقر رأيي في الكتابة عن هذا الموضوع تساء لت: هل أبدأ الكلام عما فعله صدام بكركوك الصامدة وكردستان الوديعة الباسلة؟ أم أبدا بتعاليم مرشده مكياڤيللى ووصاياه اليه، وكيف نفذها صدام؟ فقررت ان أبدأ بتعاليم ومبادى مكياڤيللى تللك التي وردت في كتابة الاشهر (الأمير).

لقد كان هذا الكاتب السياسي الذي عاش في الفترة بين (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) في فلورنسا بايطاليا، يستوحي اخلاقيته من أباطرة الرومان حكام شعبه القدماء، من أمثال كاراكلا Caracalla، وكاليگولا Caligulla و نيرون Neron وصار كتابه المذكور انجيلاُ للطغاة، ورفيقا لوسادتهم ليكون اخر ما يقراونه قبل خلودهم الى النوم، او اول ماتقع عليه ابصارهم حين ينبلج الفجر، ليحكموا ويطغوا ويسفكوا الدم ويوقّعوا على صكوك الاعدامات المعدة قبل ليلة.

صار ((الأمير)) دستور المستبدين اشهرهم ناپوليون وهتلر وموسوليني وستالين، والقائمة تطول. ولعل صدام ليس الحاكم الآخير الذي استلهم تعاليم مكياڤيللى، حين بدأ بسياسة الابادة سواء في الدجيل او حلبجة ـ رغم الفارق الكبير

(*) نشر ضمن بحوث المؤتمر العلمي الأول حول كركوك للفترة ٢٧ – ٢٠٠٥/٨/٢٨ في مدينة السليمانية. وتم طبع البحوث في كتاب.

بينهما ـ او تطبيقه لسياسة التطهير العرقي في مدن كردستان، ولا سيما في كركوك الحبيبة. يلهمه بافكاره. رغم ان الطغاة لايحتاجون الى كتاب، حين يغريهم سلطان الكرسي، وحب العظمة الجوفاء. فيبدأون باتباع سياسة القسوة وإبادة المقابل تحت اية ذريعة يرونها ضرورية لابقائهم على كرسيهم.

لنلق اذن نظرة على بعض طروحات معلم صدام:

١– خير وسيلة للحاكم لديمومة حكمه هي ان يصيب اكبر قدر من الدمار وسفك الدماء والابادة الجماعية، حتى يعجز المقابل ((الرعية، او الخصم، او العدوء)) عن القيام باى عمل انتقامي. و ان تكون الاضرار التي يلحقها ((الامير/ الطاغية)) بهم فادحة. اما اذا كانت الاضرار محدودة فانهم سيستطيعون ان ينهضوا ثانية، وينتقموا من ظالميهم. وان أصلح السبل حين الدخول الى بلد هو تدميره واهله، وكل من يمكن أن يقف بوجهه.

٢– غاية الحاكم وحرفته الوحيدة هي الحرب، لانها تحفظ ملكه، وترفع من شانه ومن مكانة حاشيته وازلامه، ويجب الا ينفر من فكرة الحرب، ومن الضروري وجود جيش مدرب جاهز للتوجه الى أي بلد يطلب منه القائد. والحاكم الذي يفكر في رفاهية وسعادة شعبه اكثر من تفكيره في الحرب يفقد ملكه، وهل فكر صدام يوما برفاهيه شعبه المهجر والمهدّم داخله ومنزله، المهدورة كرامته، المهدَد باحواض التيزاب والمقابر الجماعية، والمكبل بالبطاقة التموينية المذلة؟.

٣– على الحاكم (القائد الضرورة) الا يخشى، او الا يعبا حين يوصف بالقسوة، فقسوته اشد رحمة من استعمال اللين. واذا كان لابد من المقارنة بين الحاكم المهاب الجانب وبين الحاكم المحبوب، فالمهاب الجانب افضل، والاحتفاظ بالسلطة يرجع الى القسوة، وحين تؤدي القسوة المتناهية غرضها، يبدا القائد (بالاحسان) الى رعيته بقدر محدود ((بمنحها مكرمات: من قبيل وضع مظله في مواقف الحافلات ويكتب عليها: مكرمة السيد الرئيس حفظه الله)).

٤– الحرب والسياسة توأمان. فمن أراد ان يخوض الحرب فعليه ان يخوض غمار السياسة، وعلى الامير ان يكون له طبع الاسد والثعلب معا، فالاسد لايعرف الشراك التي تنصب له، بينما يعرفها الثعلب، الثعلب لايستطيع مقاومة الذئاب، فعلى

الأمير أن يكون ثعلباً لتفادي الوقوع في الشراك، وان يكون أسداً ليخيف الذئاب، أي على الطغاة ان يطبقوا شريعة الغاب. يقول شوڤالييه هذه لوحة فظيعة براي أي مفكر اخلاقي، اما بنظر مكياڤيللى وايتامه فان هذه العملية ـ المعادلة ـ طبيعية جدا)).

٥– حفظ العهود، تذكرّ صدام حسين وما فعله في (٣٠ تموز ١٩٦٨) مع المتعاونين معه قبل اسبوعين فيما سمي بثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز(!). واتفاقية آذار عام ١٩٧٠ ومحاولة قتل الزعيم الكردي مصطفى البارزاني قبل ان يجف الحبر الذي وقع عليه بيده في (گەلاّلە) واتفاقية شط العرب مع شاه ايران في الجزائر (آذار ١٩٧٥). والاعلان القومي الذي اعلنه في بغداد وسط حشود من المصفقين وباسلوب ديماگوگى مضحك. واتفاقيات الدفاع المشترك مع الدول العربية وما ارتكبه ازلامه في الكويت (الشقيقة الصغرى!) بل وما فعله مع رفاق دربه في تموز ١٩٧٩. يقول مكياڤيللى: من الخطا ان يحفظ الامير على تعهداته اذا كانت ضد بقائه على كرسى الحكم. وعلى الامير العاقل ان يلجأ الى حيل وخداع لنقض العهود، كما ان عليه ان يتظاهر بغير ما يفعل، فتذاع عنه في وسائل اعلامه بانه يتصف بفضيله الأمان. والناس سذج يصدّقونه، ويخدعهم الاعلام المفبرك المعاد على مسامع الناس ليل نهار. وعليه ان يكون مراوغا حسب مقتضيات الظروف. وعلى الحاكم الحاذق ان يطبق المعاهدات على طريقة الثعلب، ويستعمل الوسائل كلها من اجل ديمومة جلوسه على عرشه. من هذه الوسائل: ان يتخذ رجاله آلات لتحقيق مآربه الخبيثة التي يبيحها لنفسه. ثم ينبذهم نبذ النواة، واحيانا يجعلهم كبش فداء حين يشتد سخط الناس. من ذلك ما فعله اميرنا الحاذق (صدام) حين استعمل رفاقه ـ مرارا ـ في ارهاب الناس والقسوة عليهم، ثم يقتلهم ليزف البشرى الى الناس بانه قتلهم من اجل الشعب(!). أي على الامير ذبح أزلامه ورفاق دربه ممن يجد فيهم احتمال منافسته، وقد كانوا حماته الذين وجههم هو بنفسد لاقتراف الجرائم والتنكيل بالناس، ثم يقف امام حشود المهرجين الطبّالين من أزلامه الاوغاد من الغوغاء ليظهر نفسه، بمظهر حامي حمى الوطن والشعب، وانه كان ضحية موامرة، فيسيح دمهم، ثم يذرف دموع التماسيح عليهم، ويمسح مايذرفه بالكلينكس المعدّله سلفا على منضدة امامه.. ياللبشاعة(!).

٦–ان وصايا مكياڤيللى فيها من الرحمة امام ما إقترفه صدام الفاشي من جرائم ضد (شعبه) وجيرانه وضد الانسانية. وضد دينه وبني قومه، فعدوانه الضروس على ايران وقد جرت على ارض خوزستان، او مايسمية (عربستان) البقعة العربية والمسلمة المتاخمة لارض جنوب العراق في مدن المحمرة (خرمشهر) والخفاجية (سوسنگرد) والحميدية ودشبول "ديزفول" وغيرها من القصبات. وكذلك على اديم كردستان ايران باقاليمها المتعددة ابتداء من كرمنشاه وقصر شيرين ودهلاران وگيلان غرب، وسرپيل زهاب ((زهاو)) وغيرها. كذلك يقال بالنسبة للكويت الدويلة العربية التي غذت صداما بالمال والاعلام والتغطية اللوجستية. اما كردستان (العراق) وعما ارتكبه مع ((شعبنا الكردي الذي يتمتع بحقين!)) فتحدّث عن جرائمه ولاحرج. حتى لم يبق في قاموس القتلة من اسلوب إلاّ وسلكه معه ومع ارضه، من سياسة الارض المحروقه ((حلبجة الشهيدة)) الى التطهير العراقي ((كركوك، شنگار، خانقين، مندلى، مخمور... الخ)) الى سياسة الفصل العنصري ((الپارثهيد)) والتطهير العراقي ((الجينوسايد)). كل هذه السياسات كانت ضد التعاليم الواردة في دينه، والتي زعم انه متمسك بها ((يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم)) و((لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى)). هذا بالنسبة لتطبيقاته الاسلامية مع جزء من شعبه المسلم العراقي.

اما بالنسبة للقوانين الوضعية، فق اصدرت الدول منذ القرن الثامن عشر دساتيرها وثبتت فيها موادا خاصة بحقوق الانسان، ولا سيما اثر نجاح الثورة الامريكية عام ١٧٧٤ وفي الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢، ولكن يبقى الاعلان العالمي لحقوق الانسان اهم وثيقة، وقد صدر عام ١٩٤٨، وتضمنت احدى مواده: ان للانسان حقه في التمتع بالحقوق كافة دون تمييز بسبب العرق او الثقافة ((اللغة والدين)) او العقيدة السياسية، او الانتماء الوطني والاجتماعي، ودون التمييز بين الرجال والنساء. كذلك ضمان حماية ممتلكاته الشخصيه ومحل اقامته. وكان العراق من بين الدول الموقعة على هذا الميثاق العالمي. ولكن توقيعه بقي حبرا على ورق، اذ تم اهمال البنود المهمة المعروفة اهمالا تاما، وضربها عرض الحائط، مثل ماقام به العسكر العراقي منذ بدايات العهد الملكي ضد حركات الاحتجاج الكردية التي طالبت ببعض الحقوق التي بموجبها تم الحاق كردستان الجنوبية ببقية العراق خلال

تكوين الدولة العراقية. وقد زادت حملات الجيش شراسة منذ بدء حركة ١١ أيلول ١٩٦١. وتوالت الحملات على وطن الكرد ومواطنيه، وشملت حتى القاطنين خارج ارضهم (بغداد ومحافظات ديالى والكوت والعمارة) من الكرد الفيليين، ولاسيما بين سنى ١٩٧٠ ـ ١٩٨٠، وتم طردهم من وطنهم والاستيلاء على محلاتهم ودورهم وممتلكاتهم بل قامت الحكومة الفاشية بتمزيق شمل اسرهم بطرد الاباء والامهات، والابقاء على اولادهم في العراق وهي سياسة (التمزيق الاسري) التي لاتعرف الرحمة، كما اتبعت سياسة في منتهى البشاعة والفاشية مع الرجال البارزانيين وقتلهم بشكل جماعي، والابقاء على ذراريهم عام ١٩٨٣. نفذت عمليات الانفال ضد (شعبه) عام ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨، وصار مصطلح (الانفال) لدي الكرد يثير الاشمئزاز، لانه يعني القتل الجماعي. ونسي البعض ان (الانفال) اسم احدى سور القران. اراد صدام اضفاء القدسية على جريمته التي تخالف شرائع السماوات والارض كافة. واوغل النظام في آثامه حين امطر المواد الكيمياوية بطيرانه لذبح مدينة بمن فيها من اطفال ورضّع ونسوة وشيوخ، كما استعمل هذا السلاح في اكثر من (٢٧٠) قرية وقصبة كردستانية. ولاسيما في وادي باليسان ومنطقة باديناں.

لقد اباد النظام الصدامي العفلقي نصف مليون انسان بدم بارد على الهوية كونهم كردا، كما قام بتدمير ومحو اثار اكثر من ٤٥٠٠ قرية كردستانية بما فيها من مساجدو مدارس ومنازل ومعابد مسيحية وايزيدية، وهجر سكانها الى مناطق اخرى. ثم لجأ الى اسلوب اخر موغل في اللاإنسانية هو اسلوب اجبار الكرد على تغيير قوميتهم ليصبحوا عربا، وكانت البداية مع ابناء الطائيفة الازيدية الكرد، والاخوة المسيحيين، رغم أنوفهم. ان هذا التصرف مخالف لادنى منطق وهو تصرف غبي وطائش. اذ كيف يمكن للكردي ان يصبح غير كردي، او يصبح عربيا. هذا ما يسخر منه اي انسان عاقل وغير عاقل، يسخر منه حتى العربي. ولاينسجم مع روح المواطنة والاخوة. تستنكره مبادى الشروع وحقوق الانسان. ولكن تم للنظام العنصري الفاشي ذلك الى حدما تحت طائلة التهديد والوعيد والترغيب، وتحت مسمى مضحك مبك هو (تصحيح القومية)، ليس تصحيح قومية الى اخرى، افتراضا، بل الى القومية العربية بالتحديد. وكأنّ كُرد كركوك كانوا على خطا حين كانوا كردا(!) او كان سكان كركوك من الكرد قد حصلوا على مكسب ما و(تحايلوا) على الدولة

واعتبروا انفسهم كردا في العهد الملكي او ما صار يسمى (العهد الجمهوري)، ثم آن الاوان ليصححوا قوميتهم ليعودوا الى حضن (عروبتهم!). في وقت كان الكردي معرضاً للاضطهاد، ولاسيما في كركوك من قبل شركة نفط العراق (IPC)، يضطهدونهم لسبب عرقي اولا، وطبقى ثانيا، لانهم مثلوا فقراء مدينة كركوك بسبب سياسة الحكومات المتعاقبة والقاضية بابعاد الكرد عن مواقع التاثير او المناصب، وكانوا يلاحقونهم باساليب شتي: لكن لم تبلغ الملاحقة مستوى التفجّر العنصري بطرد الكرد من مدينتهم كما حصل في عهد صدام. بل ان عمليات التعريب بلغت حد ايذاء المشاعر حين بدلت الطغمة الحاكمة اسماء الاحياء السكنية والشوارع والمتنزهات والمدارس واسماء المحلات والمكتبات والمطاعم والنوادي والمساجد والتكايا... الخ الى اسماء تؤذي المشاعر مثل: العروبة واسماء تنم على العنصريه مثل عبدالملك بن مروان ارمز تعريب الدواوين والنقود في عهد بني اميه المعروف عنهم عنصريتهم وطائفيتهم ومعاداتهم لال البيت، ومعاداتهم للشرع الاسلامي المعروف.

يتعين علينا ان نثني على صنيع الاستاذ المحامي طارق جامباز حين نشر ملفات جرائم نظام صدام حسين في وثائق تحت عنوان ((التطهير العرقي ـ تغيير القومية للكورد والتركمان في كركوك ـ ٥٠ وثيقة. من ملفات جرائم صدام حسين)). ولكن قبل التطرق الى ماتضمنته بعض هذه الوثائق نلتقط فقرة اخرى مما اورده مكياڤيللى في ((الامير)) في الفصل الثالث تحت عنوان ((الملكيات المختلطة)) (ص ٥٨ ـ ٧٠ طبعة ٢٠٠٥ ـ دار الافاق الجديدة ـ بيروت)) فمن وصايا مكياڤيللى حول كيفية التعامل مع اهل الاراضي التي الحقها الأمير بدولته، او كانت ملحقة بهذه الدولة قبل هذا الامير، رغما عن أهلها، او دون رضاهم، فيطلب من الامير ويقول: لعل خير الوسائل واكثرها طمأنينة للحاكم هو ان إقامة مقره في الممتلكات الجديدة الملحقة. وهذا القرار يجعل الامتلاك اكثر سلامة واطول امدا. فوجود (او اقامة) المحتل في المنطقة يمكنه من رؤية الاظطرابات ومعالجتها فورا.

طاغية العراق لم يطبق هذه السياسة، لكنه قرر ان يجعل من اربيل مركزا لمنطقة كردستان للحكم الذاتي ـ حسب تسمية النظام ـ ثم عاصمة صيفية للعراق، ليكون قريباً ليس من كركوك فحسب، بل من كل ارض كردستان، ليتم تنفيذ اوامره

بتدمير هذه الارض ومن عليها بالسرعة المطلوبة. ثم يطلب مكياڤيللى من الامير ان يقيم مستعمرات ـ احياء استيطانية ـ في المنطقة المحتلة تقيم فيها جاليات تنتمي الى عرقه. والاحتفاظ بقوات عسكرية كبيرة فيها. ففي ارساله الجاليات لا يكلف ميزانية دولته الا النزر اليسير. وفي عمله هذا لن يسىء الامير ـ الطاغية الا الى اولئك الذين تؤخذ منهم اراضيهم وبيوتهم ليقيم فيها السكان الجدد. اما اهل المدينة الاصليين فليس بوسعهم الحاق الاذى بالنظام بعد ان فقدوا اراضيهم، واصبحوا فقراء مشردين في كل مكان، (ولاسيما في الانبار او في مدن كردستان، وفي الحالة الاخيرة يجب الايصحبوا معهم امتعتهم). اما بقية السكان ممن لم يصابوا بسوء، فانهم سيحافظون على هدوئهم مخافة تعرضهم لما تعرض اليه اخوتهم المشردون. هذا ما يطبله مكياڤيللى من (امير)ه الذي كان اكثر رحمة من طاغية العراق الذي قرر ان تشمل سياسة التطهير العرقي داخل كركوك (محافظة التأميم ـ حسب تسميته) من بقي من السكان، و ان يغير الكرد والتركمان قوميتهم الى العربية، كما سنرى.

والان لنعد الى بعض الوثائق التي تم العثور عليها في كركوك اثر تحريرها من قبضة النظام المنهار فوثيقة صادرة بتاريخ ١٩٩٩/٧/٤ نقتطف هذه الفقرة منها: "نود ان نعلمكم بان مقاطعة (٢٤ طوبزاوة) تم استملاكما عام ١٩٨٧ بمرسوم جمهوري، واصبحت منطقة محرمة اسوة بالمقاطعات الاخرى في المنطقة بعد ازالة القرى السبعة وناحية يايجي، وبناء اربعة مجمعات للعوائل العربية المعروفة بولائها الكامل للحزب والثورة، ولتقوية الحزام الامني حول المدينة. ودمتم النضال.

* قرار (تصحيح القومية) لايشمل البوذيين(!) صدر في ٢٠٠٠/٢/٢٩ وسياسة تجويع غير العرب في كركوك.

١– تبلغ كافة منتسبي دوائركم من ابناء القوميات الكردية والتركمانية لتصحيح قومياتهم، وفق الضوابط الخاصة، وتاشير ذلك في سجلات الاحوال المدينة.

٢– اتخاذ الاجراءات الصارمة بحق الممتنعين عن التصحيح بعد ٢٠٠٠/٤/١، (وسحب البطاقة التموينية للمواد الغذائية منهم!) وابلاغهم بذلك رسميا وعن طريق اجراء ندوات موسعة بهذا الخصوص. واخيرا نقلهم الى المناطق النائية: وتنزيل مناصبهم الادارية مع ايقاف العلاوات والترفيعات السنوية والمحفزات والمخصصات

المهنيـة والخطـورة بحقهـم، واخلائهـم ((طـردهم)) مـن الـدور الحكوميـة خـلال مـدة (ثلاثون) يوما.

٣– قرار التصحيح لايشمل الكلدان والمسحيحين والارمن و(البوذيين).

ودمتم للنضال

حكمت طاهر خالد ((التوقيع))

٢٠٠٠/٢/٢٦ حول مسح اثار ومخلفات الاعداء وقبر نواهم (أي ان سـكنه كركـوك ممن فرضت عليهم اللغة العربية قسرا، وينبغي ازالة وجودهم في هذه المدينـة). نـص القرار:

١– التقـارير الـواردة مـن لجنـة تحكـيم اللغـة العربيـة في كافـة مـدارس محافظـة كركوك، تشير الى نجاح العملية بشكل جيد. وقـد تم فـرض اللغـة العربيـة علـى كافـة المدارس. وتم تضييق الخناق على اللغات المحلية، ولم يبق لهم أي دور في المخاطبة، وبالاخص في مجال التربية والتعليم والتدريس.

٢– تمكنت لجنة الرقابة الداخلية في المحافظة من تغيير كافة الاسماء والعنـاوين للمحلات التجارية والصـناعية والكـازينوات والمقـاهي والمسـاجد والتكايـا والشـوارع والاماكن الاثريـة والـتي كانـت مدونـة (باللـهجات) واللغـات الكرديـة والتركمانيـة. وتم تبديلها باسماء (وعناوين عربية اصـيلة تاريخيـة عريقـة)، وبمـا ينسـجم مـع التغـيير الشامل، حيث شمل جميع مرافق الحياة في داخل مركـز محافظـة التـأميم (كركـوك). ودمتم للنضال. التوقيع/ نافع سليمان مطلك.

– كما ترى فقد كاتت وصايا المعلم مكياڤيللى ارحم مما طبقه تلامذته(!).

تنفيذ خطـة ترحيـل المـواطنين غـير العـرب مـن مركـز محافظـة التـاميم. سـرى جـدا ٢٠٠٠/٤/١٦.

"استناد الى التوجيهـات المركزيـة الخاصـة. الصـادرة مـن وزارة الداخليـة بخصـوص المـواطنين غـير العـرب مـن محافظـة التـاميم الى خـارج المنطقـة. ولاسـباب امنيـة خاصـة للمحافظة، وعلى ضوء الجرد السكاني والهاربين الى خارج العراق. فقد تم ترحيل المواطنين

المدرجة اسماؤهم، في القائمة المرفقة وذلك في ٢٠٠٠/٤/١٥ وعن طريق اللجنة الامنية الخاصة وخلال يوم واحد(!). وتم اجراء اللازم بخصوص ممتلكاتهم غير المنقولة والاجهزة الكهربائية. للتفضل بالعلم والاطلاع ودمتم للنضال والدرب. التوقيع العميد نافع سلمان مطلك.

الى محافظة التاميم ٢٠٠٠/٧/٢ بعد دراسة الخطة السنوية لتطهير كركوك من (العرق الدخيل) فقد اصدرنا التعليمات التالية: اولاً: المباشرة بترحيل المواطنين غير العرب في الاقضية والنواحي والقرى التابعة لمحافظة التاميم على ضوء التوجيهات الخاصة والاسباب الموجبة لذلك. ثانيا: يخول المواطنون المشمولون بالترحيل من التوجه الى محافظة الرمادي (الانبار) او المحافظات الشمالية (السليمانية فقط). ثالثا: المرحلون الذين يختارون محافظة الانبار يسمح لهم بنقل جميع اثاث بيتهم وبضمنها الاجهزة الكهربائية، ومصادرتها للمتوجهين الى منطقة الحكم الذاتي. رابعا: ايقاف ترحيل المواطنين التركمان لاسباب عدم تصحيح قومياتهم(!) وحتى اشعار اخر. وبذل الجهود لارغامهم على تغيير قومياتهم(!). خامسا: تنفذ التعليمات اعلاه اعتبارا من ٢٠٠/٧/١٥ ودمتم للنضال.

التوقيع
الفريق الركن سعدون علوان المصلح
و/ وزارة الداخلية للشؤون الامنية

السيد امين سر فرع كركوك للحزب القائد المحترم.

م/ تخصيص اراضي زراعية ٢٠٠٠/٧/١٠

لرغبة افراد عشيرة البو مفرج، والمدرجة اسماؤهم في القائمة المرفقة طيا للسكن وبناء مجمع لهم في منطقة (كتكة) التابعة لناحية التون كوبري، وتجاوبا مع توجهات قيادتنا الحكيمة وعلى راسها القائد الرمز السيد الرئيس صدام حسين (حفظه الله ورعاه) في زيادة الكثافة السكانية العربية وتامين الحزام الامني لمدينة كركوك، يرجى التفضل بالموافقة على تخصيص اراضي زراعية لهم في مقاطعة (كتكة) ضمن ناحية التون كوبري، وانهم على استعداد تام للسكن الدائم وتنفيذ كل ما هو مطلوب منهم. ولكم فائق الشكر والتقدير المرفقات: قائمة باسماء الفلاحين.

سري وشخصي
الى تنظمات محافظة التاميم ٢٠٠١/٣/٢٧
م/ معلومات

لازالت التجارة والامور الاقتصادية بيد ((الاكراد والتركمان)) في مدينة كركوك. يرجى التفضل بالاطلاع ونرتاي تهيئة العناصر العربية اصلا لغرض ترشيحهم الى غرفة التجارة، وزيادة نسبة العرب فيها بنسبة لاتقل عن ٥٠٪ والتي ستجري انتخاباتهم خلال الشهر القادم، ولتثقيف المرشحين العرب في الانتخابات بغية ضمان فوزهم وإعلامنا مع التقدير.

الفريق الركن
قيس عبدالرزاق محمد جواد محافظ التاميم

جمهورية العراق وزارة التجارة
خطة امنية تجارية. تنفيذا لتوجهات ديوان الرئاسة في ٢٠٠٠/١/٩ اصدرنا التعليمات التالية، وبموجبها يمنع (المواطنين العراقيين!) غير العرب مزاولة مايلي:

١- استيراد وشراء وبيع وايجار واستئجار وسائل النقل المختلفة الخاصة، والتي تدخل القطر بعد ٢٠٠٠/٣/١.
٢- ممارسة الاعمال التجارية على خطوط دول الجوار.
٣- امتلاك الاموال المنقولة وغير المنقولة. ومختلف المكائن والعدد ووسائط النقل التي تدخل القطر بعد ٢٠٠٠/٣/١.
٤- تشييد الابنية والمخازن والمنشأت المختفلة.
٥- المشاركة في المناقصات والمزايدات والدخول في مختلف التعهدات مع سائر القطاعات المالية والاقتصادية العراقية والاجنبية.

التوقيع. الفريق الركن سعد خالد العبيدي م/ الشؤون الأمنية.
وهكذا كان العراق بلد تاخي القوميات في عراق (ثورة) ١٧ تموز(!)

جمهورية العراق
وزارة الداخلية
محافظة التأميم. المكتب الخاص
تاريخ ٢٠٠٠/١/١٣
الى الشؤون الداخلية/ الديوان

تبليغ لجنة الرقابة الداخلية في المحافظة بالزام كافة أصحاب المحلات التجارية والصناعية بتغير الاسماء والعناوين المسجلة والمكتوبة لمحلاتهم باللغة غير العربية، كاسماء كردية وتركمانية. ويشمل كافة المحلات: (المقاهي. الكماليات. الموبيليات. الكازنيوهات. الحمامات. المساجد. التكايا. المقابرو الاضرحة. الازقة ـ الشوارع. الاماكن الاثارية، صالونات الحلاقة والعرائس والتجميل واماكن اللعب والتسلية واللهو والرياضة... الخ) وتغييرها الى أسماء وعناوين عربية ذات صفة ثورية (الحزبية المعروفة) ودمتم للنضال.

اللواء الركن نوفل اسماعيل خضير
محافظ التاميم. رئيس اللجنة الامنية في المحافظة

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق. وزارة الداخلية/ الشؤون الامنية
الى/ محافظة التاميم ـ المكتب الخاص. الرقم السري ١٦٤٣١٦

حول الاوضاع الشاذة والاجواء المتوترة في مدارس محافظة التاميم وازالة بعض الظواهر السلبية لانجاح العملية التربوية على المسالك القومية(!) وتوحيد الصفوف(!). وعدم فسح المجال للأجنبي بالتدخل من الثغرات الضيقة للتدخل والتلاعب بذقون الجيل الصاعد(!) بالشعارات العنصرية. ولذا يجب الزام كافة طلاب مدارس المحافظة بتطبيق التعليمات التالية:

اولا: التربية والتعليم والدراسة بجميع مراحلها (الروضة والابتدائية. المتوسطة. الاعدادية الاكاديمية والمهنية والمعاهد والكليات) باللغة العربية فقط. لذا يجب التقيد بمايلي:

أ- يمنع منعا باتا استعمال اللغات المحلية (الكردية. التركمانية. الاشورية. الكلدانية) من قبل الهيئة التعلمية والهيئة التدرسية لالقاء المحاضرات او مفرادات الجمل المستعصية بغير اللغة العربية. اثناء الدوام.

ب- يمنع منعا باتا استعمال اللغات المشار اليها من قبل الهيئة التعليمية والتدرسية مع الطلبة في فترة الاستراحة.

جـ- يمنع منعا باتا استخدام اللغات المحلية عدا العربية من قبل طلاب المدارس فيما بينهم.

جمهورية العراق. وزارة الداخلية

محافظة التاميم. الشؤون الداخلية. الى مديرية التربية والتعليم.

م/ تعميم

طيا التعليمات الخاصة الصادرة من وزارة الدخليلة. المرقم ١٢١٣٦ في ١٩٩٩/٩/٢١ والمبلغ الينا بكتاب المكتب الخاص الموقر. والمتضمن الزامية تطبيق اللغة العربية في كافة مراحل الدراسة وترك اللهجات المحلية (الدخيلة) من اللغات الاخرى. للتقيد بما جاء في التعليمات بكل حذافيرها. وتشكيل لجنة خاصة في المديرية تتولى المتابعة والاشراف على لجان أمنية اخرى تشكل في كافة مدارس المحافظة. ورفع التقارير الدورية الى لجنة امن المحافظة واعلامنا.

المرفقات/ تعليمات وزارة الداخلية

ودمتم للعقيدة والنضال. العميد نافع سلمان مطلك

جمهورية العراق
وزارة الداخلية
محافظة التاميم. المكتب الخاص. الى وزارة الداخلية. الشؤون الامنية.

ندرج لكم معلومات عن ترحيل المواطنين من محافظة التاميم الى منطقة الحكم الذاتي ومحافظة الانبار. ولأسباب امنية وعلى ضوء التوجيهات المركزية واعتبارا من ١٩٩٨/١/١ لغاية ١٩٩٨/١٢/٣١ وكالاتي.

١- عدد العوائل الكردية المرحلة (هي) مائة وإثنان وسبعون عائلة. حيث تم ترحيل مائة وستة وثلاثون عائلة الى محافظة السليمانية، وسبعة عشر عائلة الى محافظة اربيل. وتسعة عشر عائلة الى محافظة الانبار.

٢- عدد العوائل التركمانية المرحلة (هي) سبعة عشر عائلة حيث تم ترحيل تسعة منهم الى محافظة السليمانية وثمانية عائلة الى محافظة الانبار.

٣- العدد الاجمالي لافرادهم = ١١٦٧ فردا

اللواء الركن نوفل اسماعيل خضير
محافظ التاميم ودمتم للعقيدة والنضال

بسم الله الرحمن الرحيم

سري وعلى الفور الى مديرية المخابرات العامة
م/ اجراءات(!)

((بعد الايعاز المباشر من لدن القيادة السياسية قيامنا بعمليات الانفال الاولى والثانية، والتي تم فيهما حجز مجاميع مختلفة من الاشخاص ومن المجاميع مجموعة من الفتيات التي تتراوح اعمارهن بين (١٢ ـ ٣٣) سنة (٠وليس بين ١٤ ـ ٢٩ سنة كما ورد في الوثيقة التي تحمل الرقم ١١٠١ بتاريخ ١٩٨٩/١٢/١٠)) وقد قمنا وحسب اوامركم بارسال مجموعة من تلك الفتيات الى الملاهي والنوادي الليلة لجمهورية مصر العربية (الشقيقة الكبرى!) وحسب (طلبهم) واليكم طيا قائمة باسماء تلك الفتيات مع عمر كل واحده منهن. للتفضل بالاطلاع مع التقدير))

التوقيع
مديرية مخابرات محافظة التاميم

دون ذكر اسم المدير وهكذا تم بيع "گەلاوێژ، چيمن، شليّر، كويستان، سروه، و سۆزه"، وعشرات من فتيات كردستان الطاهرات الى بيوت الدعارة للعمل فيها على ذمة نظام يرفع على رايته زورا عبارة (الله اكبر) نظام فريد ذلك الذي يقود بنات شعبه لبيع شرفهن في مراقص بلد اخر شقيق!.

صورة من استمارة (تصحيح القومية)

بسم اللرحمن الرحيم

السيد مدير احصاء محافظة التاميم المحترم

الموضوع/ تصحصح قومية.

يرجى التفضل بالموافقة على تصحصح قوميتي من القومية..... الى القومية العربية وتفضلوا بقيول جزيل الشكر والتقدير.

طابع ٢٥ دينار

المواطن:

الاسم:

العنوان:

التاريخ:

قراءة واعية للتراث[*]
(ثنائية السلطة والمثقف)

السنا بحاجة الى قراءة جديدة لتراثنا المعرفي، وإعادة النظر فيما صُنّف من أكداس من كتب الفّها أناس ينتمون الى مدارس ومذاهب واقاليم متباينة؟ لماذا لا نتناول هذا الاختلاف وعلله، في دراسات موضوعية إعتماد على انفسنا وعقولنا؟ فللحفاظ على وجودنا – إن كنّا مهدّدين – علينا ان نكون اقوياء، ولا نهاب الحقيقة، كما لا نهاب إعادة النظر فيما كتبه الاسلاف. فليس التراث شيئاً جامداً، أو يجب أن يبقى كما هو، ولا مطلقا خارج الزمان والمكان. وانما هو ثمرات فكر الانسان. وبديهي ان الانسان ككائن حي يخضع لمقتضيات البيئة والوراثة والزمن، فينعكس ما يحصل في محيطه على عقله وعلى عاطفته[1].

لو كنا واثقين من أنفسنا، لو كنا اقوياء، لو إحترمنا وجودنا، لدرسنا تراثنا بعقل مفتوح، لَوَعَينا قيمة العقل والعقلانية في الصراع الحضاري المستديم الذي تستعد له المجتمعات الحيه المدركة لحقيقة ما يدور حولها.

تراثنا ليس كله مقدسا ثابتاً، وليس علينا ان نجل كل مافيه، فهذا النموذج او الاتجاه الماضوي يتجه الى تصور ماهوية جوهرية جامدة للمجتمع الاسلامي، وكأن هذا المجتمع إستثنائي، غير قابل للتغيير، وانه يمتاز بثبوتيته، ويحافظ على روحانيته الخالصة ضد الميول والطروحات الأخرى.

اننا إذا شئنا لمجتمعاتنا ان تتنفس الهواء النقي، او تعيش في طقس فكري علمي، علينا أن نقوم بدراسة تراثها، وإثارة مايمكن إثارته من أسئلة حول قضايا عصرنا مقارنة مع تلك العصور، وهذا مايشيع الثقة بالنفس في هذا السباق الذي نبدو فيه متخلفين عن الركب الحضاري[2].

---

[*] نشر في العدد (١) من مجلة (k 21) اربيل، ٢٠٠٨.

[1] د. غالي شاكري. التراث والثورة. دار الطليعة. بيروت ١٩٧٣. ص: ٤٣.

[2] د. محمد عمارة. نظرة جديدة الى التراث. الاسلام في عيون غريبة. دار الشروق. القاهرة ط٢/ ٢٠٠٥ ص: ١٦.

ان اعتبارنا لأنفسنا متميزين عن الآخرين. لانشبه أحداً، ولا يشبهنا أحد(!)، شبيه بما يذهب اليه مستشرقون ممن يؤكدون على إختلاف الشرقيين عن أهل الغرب في العقلية، أي أن العالم ينشطر الى فريقيين متباعدين، بحيث يتصف كل منهما بطبيعة جوهرية خاصة به، تنساب فيها مجموعة معينة من الخصائص الأولية التي تميزه عن الفريق الآخر، وما بينهما من خلافات حادة. لقد لاحظ جورج قرم هذه العلاقة الوثيقة، والمقلوبة في آن واحد. التي تربط الاتجاه (الاسلاماني) بالاستشراق، وأعطاها أفضل صياغة عامة وموجزة قرأها في المناقشات الجارية حول هذه المسألة، وقد دهشتُ – كما يعلن – خلال قراءاتي لمستشرقين من جهة، ولطروحات الاتجاه السلفي الحديث بالتقاء الرؤية، لدى الجانبين المتعاديين(!) في المجالات كلها، حول نقطة واحدة هي: الادعاء بأن الدين الاسلامي له خصوصية لايشاركه فيها أي دين آخر، لكونه لا ينفصل عن الحياة الاجتماعية والقومية والسياسية، على إعتبار انه دين شامل المدى يحتوي الامور الروحية والزمنية كافة، في آن واحد. وهذا الاتجاه لدى المستشرقين ينمّ – طبعاً – عن روح سلبية وازدراء تجاه المجتمعات الاسلامية. ففي نظرهم يستحيل على المجتمع الذي يسيطر عليه الدين الاسلامي. مؤسسياً. أن يتقدم ويواكب العصر. اما الادعاء نفسه لدى السلفيين فينم في نظرهم عن شعور بالتفوق التام تجاه الأديان الأخرى، وقعت – في نظرهم – في براثن المادية والانحطاط وفي الحالتين، عنصرية وعنصرية مضادة، يمارس المستشرقون عنصرية حين يستثنون المجتمعات الاسلامية من قوانين التطور والتقدم. والسلفيون، وهم يمثلون نخبة تحكم او تبحث عن الحكم، يمارسون عنصرية، حين يقررون ان الدين الاسلامي يمتاز عن أي دين آخر، وان المجتمع الاسلامي يمتاز دائما عن غيره بالحفاظ على (روحيته) ضد الميول المادية التي تبرز. فقط في المجتمعات التي تعتنق ديانات أخرى[٣].

ان مايحاول الكتاب (الغيارى) ان يرسخوه في أذهان الناس هو تجنب تصوير تراث الشعوب الاسلامية على انه تراث بشري، له نقاط قوته وفيه نقاط ضعفه. أي أنهم لايريدونه تاريخاً تحدث فيه وقائع كما تحدث في تاريخ أية جماعة أخرى، تاريخ

---

[٣] جورج قرم. شرق وغرب. تعدد الأديان وانظمة الحكم دراسة سوسيولوجية. دار النهار. بيروت. ط٢/ ١٩٩٢. ص: ٢٦.

فيه إحتجاجات وانتفاضات وثورات، يتمرد فيه الناس في قاع المجتمع، من الرعاع والحشوة والاوباش والغوغاء والاراذل وسفلة القوم وحثالة المجتمع والدهماء والصعاليك، حسب توصيف كتاب الديوان ومؤرخي البلاط ونجد ضمن هؤلاء: اللصوص والصعاليك والشطار والعيار والفتيان والزعار والدعار والعياف والحرافيش، وغيرهم من المعدمين والعاطلين عن العمل الذين لا يقدرون على تحمل وزر الاوضاع المزرية، اكثر مما تحملوها، حين يعون واقعهم الرث، وانهم مظلومون مستضعفون في أرضهم، تاريخ يخطأ، يجرم، يظلم فيه الحكام، يرتكبون جرائم لايطاق تحملها، أو لايستطيعون مغادرة أرض الله (جل جلاله) أرض الأجداد التي غدت ارضاً للجلاد (قالوا كنّا مستضعفين في الأرض، قالوا: الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) سورة النساء ٩٧. فالارض قد ضاقت بهم، وليس بوسع الكثيرين ان يهاجروها. فالتاريخ الذي يريده (وعاظ السلاطين، حسب توصيف المفكر الكبير على الوردي، هو تاريخ (نظيف) طاهر ناصع – نصاعة سراويلهم، تاريخ يتغنّى بفخامة قصور السلطان، وما فيها من رياش وخدم وحشم، وما يحيط بها من بساتين وما فيها من فواكه وأعناب تتدلى وزهور ورياحين، وعنادل، ويتغّنى الشعراء بالوجوه الحسان ومشيتهن ولبسهن، وغنج وطرب الجواري الفاتنات والخصيان، وفحولة الأمير. يريدونه تاريخا لا يتحدث عما خلف القصور تاريخا يلغي أخبار الهزائم، ويسمونها باسم آخر، او تبرر بعامل ثانوي. مطلوب تغييب العقول والسكوت عن غدر الحكام، عدم ذكر من غاب في غياهب السجون، من قطع السياف رقابهم او السنتهم.

السكوت عمن اقصي من الحياة، او عاشوا على الفتات وفي سغب الحياة، ولا يملكون سوى سقط المتاع، يلتحفون السماء ويتوسّدون ايديهم، ويفترشتون أرض الله التي ضاقت بهم ذرعاً. لقد انعكست اوضاع معيشة هؤلاء على الشعر الذي امكن الحفاظ عليه لشعراء مغمورين (صعاليك) وليس شعراء البلاط (بطبيعة الحال) شعراء يبيتون على لحوم بطونهم، ويحلمون بكسرة خبز يغمسونها في حساء دافيء، حتى يناموا بعض لياليهم، ملئ جفونهم من هؤلاء الشعراء (السرى الرفاه) وكان يرفو ويطرز الثياب في اسواق الموصل، يقول:

وكانت الابرة فيما مضى
صائنة وجهي وأشعاري
فاصبحَ الرزق بها ضيّقا
كأنه من ثقبها جـــاري

ثم الشاعر (كشاجم) الذي وصف مائدة الطعام، خير وصف دون أن يذوقه، مماسال لعابه، والشاعر (الخبز ارزي) و(الواساني)، ومن لفّ لفّهم من شعراء الفئات الدنيا في المجتمع يقول د. على الوردي: الشعر لا يفيدنا في تاريخ السلاطين كثيراً، اذ هو يصور لنا الوقائع كما يشتهي، وبذلك يضيعّ علينا الحقيقة، اما في تاريخ الشعوب، فالشعر يصوّر لنا القيم الاجتماعية التي كانت تسيطر على الناس وهذا هو ما نبتغيه من دراسة المجتمع[٤]. ان الأسياد ومؤرخي البلاط يريدون أن لايُذكر ماكان يحصل في الزنزانات والأقبية، وفي أركان ودروب المدن تاريخا لا يذكر سوى أمجاد أمير السيف وانتصاراته على رعيته، وعلى أعداء موهومين. ولأن هذا التاريخ هو تاريخ حكام المسلمين، فهو تاريخ وتراث المسلمين جميعا، فلابد ان يكون فوق مستوى البشر الفانين. ولو تسنى لهؤلاء (المؤرخين).. لوترك لهم العنان لاستأصلوا من التاريخ كل إشارة إلى حدث لايرغب الامير ذكره، أو مايخدش حياء الأمير، بما كان يفعله مع الجواري والغلمان، لحذفوا الأخبار (المزعجة)، لشطبوا تاريخ (لفتنة الكبرى) الدامي، الفتنة التي أودت بحياة ثالث خليفة راشدي، صهر الرسول، وأحد المبشرين بالجنة، لأقصوا من التاريخ معركة الجمل وصفين، وإنشطار المسلمين الى فرق وجماعات تكفّر إحداها الاخرى، وقتل فيها اقارب الرسول وثلاثة آخرين من العشرة المبشرة بالجنة من الصحابة الأجلاء، لمسحوا من صفحات الكتب ظهور الفرق (الزائدة عن حاجة مجتمع في طور التكوين!) أو قيام ثورات التوابين بعد مصرع سبط الرسول، وثورة الزنج بقيادة علي بن محمد، وحركات القرامطة، وثورات الخوارج والشيعة الدائمة.

إننا إذا شئنا أن نغرس في عقولنا وضمائرنا قيم العدالة والحق، التي تدعو الى الاطاحة بالظلمة والطغاة من الحكام، فلابد لنا أن نشيع في حياتنا الفكرية المعاصرة ذلك الجانب من تراثنا الذي دعا أصحابه للثورة على الظلم، وقرروا مشروعية استخدام القوة، بما فيها القوة المسلحة، لتغيير الأوضاع الجائرة المفروضة على الناس، وهو الفكر الذي يناقض ويعادي ذلك الذي دعا أصحابه الى الاستكانه وبرروها، وحبذّوا طاعة أئمة الجور والظلم والفسق، من المتغلبين على السلطة بالقوة،

---

[٤] د. علي الوردي. اسطورة الأدب الرفيع. دار للنشر. دار الكنوز. بيروت ط٢. ١٩٩٤. ص: ١٠٠

دون رغبة، ودون إختيار الناس ... فعطلوا بذلك مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحت مختلف الحجج والمعاذير[٥].

يقول د. محمد عمارة: ان انظمة الحكم التي تعادي الفلسفة وشمار العقل والبرهان، وتدعو الناس الى طاعتها، وتبث أفكارا تحرم الثورة على السلطة حتى لو فسق الحاكم وجار وفجر، فعلى الناس أن يعرفوا ما سيختارونه من التراث، وليحولوا ما يختارونه الى سلاح لاصلاح الاعوجاج وتغيير الواقع، عندئذ، فقط لا يغدو التراث رمادا ميتا، بل يصبح لهباً حياً، فالنهر حين يجري نحو البحر، فانما يعبر عن إخلاصه لمنبعه[٦].

ان تحويرات وتحريفات وإنحيازات إلى هذه الجهة أو تلك، قد حصلت، هذا ما يعرفه القاصي والداني، ممن عمل في حقل التراث. وإذا كان مؤرخو وكتاب تلك الأزمنة مختلفين في تناولهم لأحداث زمانهم، فهل من المعقول أن نقفز على إختلافاتهم وصراعاتهم التي أدت في النتيجة الى إتلاف الكتب. لقد صنفت اكداس من كلتب، واتلفت اكداس، بعضها أتلفها الزمن، بعضها أتلفها الجهلة، أتلفتها التعصب، أتلفها أيدي العابثين، أيدي أهل مذاهب وجماعات شتى، وأيدي أجهزة الحكم، ولاأدل من إختفاء الكثير من المؤلفات في المعارف المختلفة، بينها كتب مترجمة من لغات اخرى كلّفت الخزينة مبالغ طائلة، فخسر المجتمع ثمرات العقول وتجاربها وتأملاتها. وقد ذكر ابن النديم (ت ٣٨٠ه/ ٩٩٥م) في كتابه (الفهرست) عناوين كتب كثيرة إختفت عن الوجود. وكذلك العماد الكاتب الاصفهاني (ت ٥٩٧ه/ ١٢٠١م) وياقوت الحموي (ت ٦٢٦ه/ ١٢٢٩م) وابن خلكان (ت ٦٨١ه/ ١٢٨٢م)، والعديد من كتاب السير والطبقات في مؤلفاتهم. ضاع عدد غير قليل منها للاسباب الواردة. دعنا نروي نتفا من قصص الاتلاف والاحراق[٧]. فمعروف ان المؤرخ الحلبي (إبن أبي طي الحلبي (ت ٦٣٢ه/ ١٢٣٤م) قد أتلفت كتبه، ولا نقول ضاعت، إذ لا يعقل أن تكون يد القدر تعبث بتآليف غزيرة لشخص واحد، بلغ عددها الى مالا يقل عن إثني عشر

---

[٥] د. محمد عمارة. مذكور، ص: ١٥.

[٦] نفسه، ص: ٦.

[٧] عن أحداث إحراق الكتب وغسل محتوياتها، انظر: ناصر الحزيمي. حرق الكتب في التراث العربي. منشورات دار الجمل. كولونيا. المانيا. ٢٠٠٣. ص: ٥٢.

كتابا، ربما كان البعض منها يقع في أكثر من مجلد، وقد خص الحلبي أحد مصنفاته لسيرة القائد صلاح الدين يوسف ابن أيوب، وأسماه (كنز الموحّدين في سيرة صلاح الدين) وكان منهجه الفكري، أو رؤاه للاحداث، يختلفان عن منهج ورؤى مؤرخي عصر صلاح الدين الآخرين، مثل العماد الاصفهاني وابن شداد، وحتى ابن الاثير، لانه كان المؤرخ الشيعي الوحيد الذي أرخ لعصر هذا القائد، وقد إستطاع كلود كاهين (Claude Cahen ١٩٠٩ – ١٩٩١) المستشرق والمتخصص في تاريخ الشرق الأدنى في الحروب الصليبية، في كتابه (سورية الشمالية في عصر الحروب الصليبية وامارة أنطاكية)، استطاع كشف النقاب عن عناوين كتب المؤرخ الحلبي، بعد دراسة متعمقة لما صنفه في تلك الفترة عن بلاد الشام، وجمع مؤلفات عناوينها من الكتب التي تم نقل بعض معلوماتها من كتبه الكثيرة، وكان هذا المؤرخ ابن نقيب أشراف الشيعة في حلب. كما ضاعت مؤلفات أهل الفرق المخالفة لمذهب السلطة الحاكمة، او تلك التي لم ينسجم ما فيها مع آيديولوجية او سياسة الدولة الرسمية، او تلك التي دافعت عن جماعات غير مرغوب فيها لدى الحكام والحاشية المتنفذة، مما دفعتهم الى التصرف مع تلكم الكتب وكأنها من المحظورات فأبادتها، ولا سيما الكتب الفكرية، والفلسفية خاصة، حتى صار الاشتغال بالفلسفة، او (تعاطيها) أخطر من تعاطي المنكرات فما أن شاع أن فلانا يملك كتبا في الفلسفة، او يطالعها، الا واطلقت عليه صفة (زنديق) أو يتهم في دينه او سلامة إعتقاده، وإن زلّ في شبهة رجموه وقتلوه واحرقوه، وفي حالات كان اولي الأمر يأمر باحراق كتب المفكرين سواء في المشرق، او في المغرب ومعه الاندلس، وقد فاق الأخير بلاد المشرق، ولم تسلم كتب حجة الاسلام محمد الغزالي من الاحراق، عندما وصلت الى تلك الديار، لأنهالم توافق المذاهب الشائعة فيها[٨]. وضغط أهل المذهب الرسمي (المالكي) على السلطة السياسية (التنفيذية) بجمع نسخ كتابه الشهير (إحياء علوم الدين) واشعلوا النار فيها في صحن جامع

[٨] د. الحبيب الجنحاني. المفكر والسلطة في التراث العربي. بحث في مجلة المنار. العدد ٢٩/ ١٩٨٧. ص: ١٣٢.

قرطبة وفي مدينة مراكش، بحجة انه لا يجوز قراءته، ويجب حرقه، وكان مولانا علي بن يوسف، واقفا عند إشارة الفقهاء واهل العلم[٩] (!).

وتفنّن الجلادون في أساليب الاتلاف، وقطع يد ولسان المؤلف ورجمه، وغرق الكتاب، ثم إخراجه من النهر أو الحوض واحراقه[١٠] وتم إحراق الكتب في عهد امير المؤمنين خليفة دولة الموحدين[١١] (على بن يوسف بن تاشفين عام ٥٣٧هـ/ ١١٤٣م، إضافة الى احراق كتاب الشفاء لابن سينا. ومارس العمل نفسه الامير يعقوب الذي بويع أميرا للموحدين عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، فأمر باحراق كتب المذهب، وكتاب ابن يونس (ت ٣٣٩هـ/ ١٠٠٩م) اعظم عالم فلكي ظهر في مصر[١٢]، ومثله نوادر ابن ابي دريد ومختصره، وكتاب (التهذيب) للبرادعي، وغيرها.

أما الفيلسوف محمد بن زكريا الرازي الطبيب، فقد ضُرب على رأسه بكتاب له في الكيمياء بأمر الملك منصور بن نوح أحد ملوك الدولة السامانية، وتقطعت صفحات الكتاب، فكان ذلك سبباً في نزول الماء في عينيه[١٣]. فكيف يتسنى لرجل أن يستمر على التأليف في إحدى المعارف (الخطيرة)! كيف لهذا العلم أن ينهض ويتقدم به المجتمع، وكيف للكتاب ان يبقى بعد أن تقطعت صفحاته وصفحات كتب كثيرة، دفعوا في تأليفها أمن حياتهم وأبصارهم واموالهم وعصارة عقوله.

وخارج تصرفات السلطة نذكر ان شيخ الاسلام ابن تيمية تقي الدين احمد (ت ١٣٢٨م) إشترى جملة كتب في الكيمياء لعلي بن الحسن بن عبدالله الخطيب، وغيره، لكن ليس لقراءتها أو لاتخاذها مصادر له في تأليف كتاب آخر، بل لغسل حروفها، لانه إعتقد انها تشكل خطراً على عقولهم، وقال عنها: هذه الكتب كان الناس

---

[٩] الناصري، ابو العباس أحمد بن خالد. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري. دار الكتاب. الدار البيضاء. ١٩٥٤. أحداث: ٥٣٦هـ. ج٢.

[١٠] الحزيمي. مذكور، ص: ٥٥.

[١١] عن هذه الدولة انظر: محمد عبدالله عنان. عصر المرابطين والموحدين. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. ١٩٦٤.

[١٢] قدري حافظ طوقان. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك. دار الشروق. بيروت ط٣/ ١٩٦٣. ص: ٢٧٥.

[١٣] الحزيمي. مذكور، ص: ٥٧.

يضلون بها وتضيع أموالهم، فافتديتهم بما بذلته في ثمنها. وكان الكيمياوي المذكور فصيح التلاوة، حسب ماذكره ابن حجر العسقلاني(١٠٤). يقول الامام محمد عبده (ت ١٩٠٥) على لسان والده: (ويالها من فضيحة: كيف تدرس علوم الضلالات، حتى تقع في الشبهات؟ الا فارتدع، وبحالتك اقتنع وكن كما كان الأب والجد، وجد فيما كانوا عليه، فمن جدّ وجد..)[١٥] ومحمد عبده كان مفتي الديار المصرية.

وكانت الكتب تحرق أحياناً لاسباب تخص مؤلفيها وعلاقتهم مع السلطة، وليس لما حوته الكتب. كأن يكون المؤلف عجز عن تحويل معدن خسيس الى مذهب، حسب طلب الأمير، أو انه عجز عن علاج مرض المّ بالأمير، أو عجز عن شفائه من العجز الجنسي، او لاتهامه بالاساءة الى تقاليد المجتمع وكان يتم دفن كتبهم معهم، او يوصي بان يغسلوا كتبه من أحبارها[١٦] خشية إتهامه بعد مماته، وتنفيذ حكم الاعدم ب(رفاته !) وذر رماده في دجلة أو الفرات.

ومن الرواد ممن أحرقت كتاباته التابعي الشهير عروة بن الزبير، وهو أحد اعمدة الفقة السبعة في المدينة المنورة، وكذلك كتب أبي حيّان التوحيدي.

وكان ابن حزم (على بن أحمد) الظاهري الاندلسي (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) أحد أبرز علماء زمانه واكثرهم تأليفاً، لكن بعض ما ورد في كتبه من أفكار لم تعجب فقهاء السلطة، فابلغوا المعتضد بن عباد أمير أشبيلية بذلك، فاوعز هذا الى رجاله بجمع كتبه، واشعلوا فيها النار، واحرقوا نتاج عقل مفكر كبير، وفي ذلك قال ابن حزم.

دعونـــي من إحـــراق رق وكاغـــد
وقولوا بعلم كي يرى الناس ما يدري
فان تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي
تضمنّه القرطاس إذ هو في صـــدري
يســـيرُ معي حيث إســـتقلت ركائبي
وينـــزل إن انزلَ ويدفـــن في قـــبري

---

[١٥] د. عبدالرزاق عيد. محمد عبده غمام الحداثة والدستور معهد الدراسات الاستراتيجية. بغداد. بيروت ٢٠٠٦. ص: ١٠٧.

[١٦] الحزيمي. مذكور، ص: ٩١.

نعم دفنت أفكاره، وأفكار غيره. بل كانت الأفكار تدفن قبل دفن صاحبها. لقد مات هذا المفكر الموسوعي حسرة، بعد أن ذبحوا فكره. ويقال ان ابن حزم الف نحو (٤٠٠) مجلداً في (٨٠) ألف ورقة[١٧] لم يبق منها سوى (١٥) كتاباً. أهمها (الفصل في الملل والأهواء والنحل) وهو كتابه (الفرقي) التاريخي الأشهر الذي لم يسبق الى مثله أحد في الفكر العالمي، حسب وصف محققي الكتاب الاستاذين في جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية[١٨]. وكذلك كتابه (طوق الحمامة) وهو من اوائل تأليفه، صنّفه في بلدة شاطبة في الاندلس في نحو عام ٤١٨هـ، وله (السيرة النبوية) و (في المفاضلة بين الصحابة) و (الإحكام لأصول الأحكام) في مجلدين و (أسماء الله الحسنى) و (جمهرة الانساب) وغيرها[١٩].

وهذا ما حصل مع ابن رشد (ابو الوليد محمد بن احمد بن احمد (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) ومؤلفاته الشهيرة، الذي أحيا الفكر الفلسفي ورفع من شأنه في المغرب والاندلس بعد ان ضعف في مشرق العالم الاسلامي، إلا أن آراءه لم يرتح لها رجال البلاط، ونقم عليه الشارع بأفكاره الساذجة، ولا سيما بعد أن دخل حجة الاسلام محمد الغزالي معه في محاججة فكرية في كتاب (تهافت الفلاسفة)، فنقم عليه الامير الموحّدي في المغرب، ونفاه الى خارج مدينته قرطبة، وإتهمه بالاشتغال في الحكمة (الفلسفة وعلوم الاوائل) وقد كان له رده على الغزالي في كتابه (تهافت التهافت). كما ان كتب الغزالي لم تنج من الاحراق، كما ذكرنا.

ولعل من المناسب أن يكون المثل الرابع من إتلاف الكتاب وصاحبه من المشرق. فمما يذكر ان شهاب الدين السُهروردي، صاحب فلسفة او (حكمة الاشراق) غادر – بغداد ليحل ضيفاً على مدينة حلب. وكان يحكمها الملك الظاهر شهاب الدين غازي ابن صلاح الدين، وناظر بها الفقهاء، ولم يبزه في الجدال والمناظرة أحد، فارسل غازي في إثره، كما إستدعى كبار فقهاء ومفكري حلب، وجلس يسمع مايجري بين الطرفين من جدال: فتكلم باسلوب تفوق فيه على جلسائه، وبانت

---

[١٧] ابن حزم الظاهري الاندلسي. طوق الحمامة في الالفة والألاف. إعتنى به وقدم له عبدالرحمن المصطاوي. دار المعرفة. بيروت. ط٢. ٢٠٠٤. ص: ٨.

[١٨] ابن حزم. كتابة. طبعة دار الجيل. بيروت (د . ت) ص: ٤.

[١٩] طوق الحمامة، ص: ٨.

قدرته، وأثبت انه عالم باهر، فحسن موقعه عند الملك، وقربه اليه، وصار من جلسائه. فما كان من فقهاء حلب الا وكتبوا محضراً إتهموه فيه بالكفر(!) وسيروا المحضر الى صلاح الدين ذكروا فيه: (ان بقي هذا فانه سيفسد عقيدة الملك الظاهر، وإذا غادر حلب فانه سيفسد أية ناحية يحلّ فها) وبذلك اوغروا صدر صلاح الدين. فما كان من هذا القائد إلا وبعث كتاباً بقلم مستشاره وكاتب ديوان إنشائه القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني، يطلب فيه من إبنه أن يقتله، ولا يطلق سراحه، لكيلا يعيث في الارض فساداً(!). فأبلغه الملك الظاهر قرار والده فأيقن شهاب الدين السهروردي انه سيقتل، فخيّره الملك الظاهر بين أساليب تنفيذ قرار الموت، فاختار السُهروردي ان يترك في سرداب القلعة، ويغلق عليه بابه باحكام، ويمنع عنه الطعام والماء، وكان ذلك عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، أي قبل أشهر من إستيلاء الصليبيين على مدينة عكا إثر حصار دام اثنين وعشرين شهراً[٢٠].

وكان السُهروردي في نحو ست وثلاثين سنة حين تقرّرت تصفيته. يقول بعض المؤرخين ان الملك الظاهر تأثر كثيراً وندم على ما إقترفه، وحقد على الذين جروه الى هذا المأزق الذي أودى بحياة هذا الفيلسوف الحكيم[٢١]. وهذا هو شأن الطغاة حين يذرفون دموع التماسيح بعد أن يمسحون أيديهم من دماء ضحاياهم، هذا وقد ترك السُهروردي تراثاً فكرياً ثميناً بين كتب ورسائل بلغت ثلاثة واربعين مؤلفا حسب قول تلميذه ابن الصلاح الشهرزوري[٢٢]. بقي منها بعض الكتب.

ومن اشعاره:

أبداً تحـــنُّ إليكُم الارواحُ
ووصالكم ريحانها والــراحُ
وارحمتا للعاشــقين تكلفوا
ستر المحّبة والهوى فضّاحُ
بالسرِ باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء العاشقين تُبـــاحُ

---

[٢٠] ابن شداد، بهاء الدين. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين). تحقق أحمد ايبش. دار وائل. دمشق. ٢٠٠٥. ص: ٢٩٧.

[٢١] د. توفيق الطويل في تراثنا العربي الاسلام. عالم المعرفة. الكويت. ١٩٨٥. ص: ١٩٢.

[٢٢] نفسه. ص: ٢٩٨.

ويذكر صاحب (الاستقصاء) ان الامير (او الخليفة) الموحّدي امر أزلامه عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م أن تطرح جثة أحد علماء العصر في المغرب (ابو الحاكم بن برجان) على المزبلة، والاّ يصلّى عليه، لانه لم يكن متعاوناً مع بلاطه، كما فعلت بطانته من الفقهاء، رغم انه كان يتمتع بشعبية واسعة عند عامة الناس، حتى صار يلقب (سيدى ابو الرجال)[٣٣].

والأمثلة تطول إذا أسهبنا في ذكر أمثلة اخرى عن اضطهاد المفكرين وإتهامهم بالكفر او الزندقة، وتصفيتهم جسداً ونفساً ونتاجاً، بأساليب بشعة تنسجم مع بشاعة لاشرعية السلطة، ومع مبررات وأدوات قتل إنسان ذلك العصر. وقد شملت قائمة المنحورين والمعذبين ونزلاء الزنزانات، تحت الارض وفوق الأرض، فلاسفة وعلماء الكلام والمنطق وشعراء وائمة فقه وقضاة ورجال الصوفية، وقادة المعتزلة وائمة الشيعه وقادة حركات أهل التوبة (الخوارج) ودهريين ملحدين، شملت ابن حنبل، أبي حنيفة، بشار بن برد، ابن المقفع والحلاج، كما شملت المفكر الطبيب محمد بن زكريا الرازي وابن الراوندي، وتتسع القائمة لتضم المئات والالاف من رجال الفكر والعلوم.

لم يكن التاريخ الاسلامي كله تاريخ مجازر وتصفيات وظلم وتهميش الفكر، لكنه كتاريخ او تراث مدوّن، أو غير مدوّن، لم يكن بالتأكيد مجرّد تاريخ او سير الحكام والقادة، فعلينا ان ندرسه كتاريخ مجتمع وأناس يدخلون في علاقات حياتية عادية مع غيرهم، كما هو شأن تاريخ أي مجتمع آخر، وعلينا ان ننظر الى هذا المجتمع وتطوره وإنحداره، ونستقصي علل الاحداث وغاياتها، ندرس حركات الاحتجاج وكيفية قمعها، وندرس المجاعات، وأسابها، وحركات فكرية إجتماعية ودينية معارضة، وكيف كان يتم التعامل معها. كما ندرس حياة الناس العاديين، الى جانب حياة أهل القمة: كيف كانت المعيشة، أسعار المواد الضرورية كالخبز والخضار والبيض واللحوم. كيفية اتخاذ الحيطة حين تندلع الانتفاضات والحرائق، وتهب العواصف، وتحدث الزلازل والفيضانات، أو حين تهاجم أسراب الجراد، وظهور التصحر وهجرة اهل الريف واكتظاظ المدن بسكانها. ان نعرف أسباب النظرة الدونية الى المرأة، وإنحدارها وبيعها في سوق النخاسة، وكيف كان تاجر الرقيق الابيض يجلب الحسناوات من ديار الصقالية وبلاد الترك والصامغان والهند والروم وغيرها،

---

[٣٣] الناصري. مذكور. ج٢. ص: ٦٧ وما بعدها.

ويختار الفاتنات منهُن، ويدّربهُن على العزف والغناء والرقص وحزكات الغنج، ثم يقدمهن هدية الأمير، قبل أن يتم عرض الاخريات في السوق الخاصة في المدن الكبرى، ليقتنيهنّ علية القوم من كبار موظفى الدواوين وقادة العسكر والاثرياء. كيف كان يتم تنظيم السوق، والعناية بنظافتها.

أن نتعرف على أساليب الغش، وكيفية عرض البضائع، وكيف كان الباعة يطففون الميزان؟ كيف نظم أهل الاصناف أنفسهم في تنظيمات نقابية، هل كان المحتسب يؤدّي دوره بنزاهة، وأساليب مقاضاة الرشى. كما ان من الضروري أن نعرف طبيعة إقتصاد الدولة، وكيف تحولت الحقول الى زراعة واسعة، قائمة على نظام الاقطاع الشرقى[٢٤]، واستغلال نظام السقي (الارواء) لصالح السلطة المركزية، وتركز الاراضي بايدي حفنة من سراة القوم من القادة والأمراء والاغنياء الطفيليين، وكبار الموظفين، وتزايد الطلب على إستيراد البضائع الثمينة من ديار بعيدة وإنتعاش التجارة الخارجية، وتدفق الثروة على مركز الدولة[٢٥]، وازدياد الهوة بين الطبقتين العليا والسفلى، واحتدام الصراع بينهما، وإنعكاس ذلك في حالات تفجر الغَضب وإستعمال العنف، بعد أن إبتعد الحكام عن تطبيق الوجه الايجابي للشرع، بسبب ضعف الرادع الديني، حتى ان بعضهم إعتبر أرض البلاد وما عليها ملكا له،

---

[٢٤] الاقطاع الشرقي. من المسائل الشائكة في اقتصاديات مناطق واسعة في الشرق الخاضعة لنمط الانتاج الواسع الخاضع لاشراف الدولة المسؤولة عن السيطرة على الانهر الكبيرة (دجلة والفرات والنيل والثنجاب... الخ) ونظام الري، والانظمة المالية، وسياسة فرض الضرائب غير المشروعة في أحايين كثيرة. للمزيد ينظر

١- د. فؤاد خليل. الاقطاع الشرقي بين علاقات الملكية ونظام توزيع الارض. دار المنتخب العربي. ١٩٩٦.

٢- يولياك: الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان. منشورات وزارة التربية الوطنية. بيروت. ١٩٤٨.

٣- د. ابراهيم علي طرخان. النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط. دار الكاتب العربي. القاهرة. ١٩٦٨.

٤- احمد صادقسعد. في ضوء النمط الاسيوي للانتاج. دار ابن خلدون. ١٩٧٩. ولهذا الباحث كتابات قيمة نشرها في أعداد من مجلة (دراسات عربية) البيروتية.

٥- د. عبدالعزيز الدوري. مقدمة في تاريخ الاقتصادي العربي. دار الطليعة. بيروت. ط٥. ١٩٨٧.

[٢٥] د. عبدالعزيز الدوري. المذكور، ص: ٥٨ ـ ٨٤.

خاصة وان نظام الالتزام (الضمان) بات الاسلوب السائد في الولايات، وما أسفر عن هذا النظام من إلحاق الحيف بالمزارعين، مما حرمهم من العيش في المستوى الأدنى المطلوب، فيهربون من مزارعهم الى المدن، لينضموا الى جيش العاطلين الساخطين على الحياة، ليصبحوا مصدراً لزعزعة إستقرار الأوضاع، ولاسيما حين يبادرون الى الانضمام الى حركات مسلحة ضد ظلم الحكام، او ضد الغزاة الذين يعجز الحاكم عن الوقوف بوجههم، مثل حركات الشطار والعيارين[٣٦]، والزعار والعياق والحرافيش والصعاليك.. وغيرهم[٣٧].

وقد ضجَّت كتب الادب ثم التاريخ باخبار الاوضاع السياسية التي عاشتها الدولة والدول والامارات الاسلامية، مثل كتاب (مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان الهمداني والعقد الفريد والأغاني وكتب الظرفاء والشحاذين والمخانيث، و(الخلفاء والخلعاء) وكتب الجاحظ، كذلك كتب التاريخ، فالطبري يلقي الضوء على (العُراة) كما يشير الآخرون الى الغوغاء والسفلة وأهل الكدية، ويعتبرونهم من فئة المفسدين، دون النظر – لاسامحهم الله – الى دوافعهم وتردّي أوضاعهم، ولماذا يسخطون ويثورون على أنفسهم وعلى النظام الاجتماعي والدولة.

يصنّف ابن الفقيه في كتابه (البلدان) طبقات المجتمع الى اربع طبقات، ثلاث منها من ذوي اليسار، ومن علية القوم: اولاً: ملوك قدمهم الاستحقاق، ثانيا: وزراء فضيلتهم الفطنة والتدرب، ومعهم علية القوم أنهضهم اليسار (الغنى)، وثالثا: اوساط الناس ألحقهم التأدب بعموم المعارف. ثم يأتي الى من يعيش تحت خط الحياة في فقر مدقع، ويصفهم ابن الفقيه ب(زبد جفاء، سيل غثاء، لكع لكاع (أحمق لئيم ووسخ) وربيطة إتضاع (من الضعة والدونية!) هَمٌّ أحدَهم طعامه ونومه. لا شك ان كتبة قصور الأمراء لا يمكن لهم أن يكتبوا بلغة غير هذه اللغة، لأنهم انضموا، أو جُنّدوا ضمن الطبقة الثالثة، وهم يصفون الناس المغلوبين على أمرهم ممن لا همّ لهم. فعلاً – سوى الحصول على لقمة بطريقة شريفة، وغير شريفة، أو شرعية حسب الشرع الذي يفهمه هؤلاء المُتخمون.

---

[٣٦] نفسه. هوامش ص: ٧ – ٩ معتمداً على معاجم اللغة، ومعجم دوزي.

[٣٧] انظر د. محمد رجب النجار. حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي. عالم المعرفة. الكويت. العدد (٤٥). ١٩٨١.

ان من يحاول ان يدرس هذه الجوانب السوداء في التراث الاسلامي، سيبدو بمظهر الطاعن في تاريخ وتراث أهل دينه وبلاده وحضارته. ويحتجّ هؤلاء متسائلين: وهل ينفرد تراثنا بتلك المظاهر؟ او ليست تلك المظاهر المدمّرة موجودة في تراث ملل أخرى، او تاريخ أديان أخرى؟. نعم ان مجتمعات الدنيا بأسرها تضمّ هذه المظاهر كما تضمّ هذه الفئات الاجتماعية الرثة، ولربما أسوا مما هي الحال في المجتمعات الاسلامية. لكن أهل أو كُتّاب تلك المجتمعات لا يأنفون من دراسة تلك المظاهر وما تسبّبه من إضطرابات، وبالتالي خسائر في الارواح والممتلكات وفرص الحياة. أما نحن فلا نريد البحث فيما يثير البلابل ويسبّب الازعاج، لأننا مختلفون، وعلى رؤوسنا ريش نعام، فكأن أجدادنا كاملون، أو أشباه ملائكة في الأقل. ولهذا ما أن يقرأون ما (يُشوّه) صورة أجدادنا الجميلة، إلا ويتلمسون أخمص بنادقهم، لاسكات من يصف الأجداد بنعوت غير لائقة، لا تليق بمقامهم. لهذا علينا أن نبحث عن سبب موقف الآخرين السيء تجاه تراثنا، وهو يهدّدون ماضينا ووجودنا(!) فنبدأ باتَهامهم بشتّى النعوت، فنعود الى قاموس الشتائم: شعوبيون، زنادقة، جهلة، أعداء الله... الخ. ولاحقاً: مبشرون، يريدون أن نتنصّر، أعداء امتنا، صهاينة، امبرياليون، متغربون، عملاء الغرب.

يقول د. عصمت سيف الدولة: ان البعض ينسى أن الاوروبيين إستعمروا بلادهم وأذلّوا أمتهم (وحطموا حضارتهم عامدين) وان مفكري الغرب قد (اضلوهم) اولاً، ويضللونهم اليوم، ولن يكفوا عن تضليلهم الى (يوم يبعثون!). لأنهم بهذا التضليل سادوا، وبهذا التضليل يحافظون على سيادتهم، او يحاولون استردادها، وان (السادة) لايصدقون مع العبيد أبداً[٢٨]. اريد التعليق على هذه الجملة من بين جمل وصفحات الكتاب ال (٢٤٠) البعيد عن الروح العملية في تناول مسائل خطيرة، وأقول: ماذا يستفيد المستعمر من تحطيم حضارة المسلمين عامدين، ان المستعمر حين يأتي تكون الحضارة قد أفَلَتْ، وتمزّقَتْ أرضُ البلاد قبل ان تطأها اقدام المحتل، وخارت مقاومة جند وأهل البلاد قبل أن تنفذ نيران أسلحتهم، لأن أهل البلاد لم يعودوا يشعرون بروح المواطنة، بسبب تعسف حكامهم، مغتصبي حرياتهم، سارقي

---

[٢٨] نظرية الثورة العربية (٣). المنطلقات. ما هو مجتمعنا؟ من نحن؟ دار المسيرة. بيروت. ١٩٧٩. ص: ٦٧ – ٦٨.

قوت أطفالهم. ولهذا لا يفعل المستعمر سوى إطلاق رصاصة الرحمة على جسد يحتضر، جسد بلا روح، جسد حوّله الحاكم الى رفاة. والاّ فان من يملك حضارة يملك قوة، يملك مجتمعاً مستمراً في عطائه، لايستطيع الغازي المستعمر دحره، بل هو من يدحر الغازي، وأساسا لايتجراً الغزاة على غزو بلاد قوية بحضارتها. انه تيار اللاوعي، وشعارات جوفاء أطلقها سيف الدولة كما أطلق عنان عاطفته، فسطر قلمه بكلماته النارية. ثم ان التضليل الذي يردده لا ينطلي على الانسان الواعي، بل هو من يضلَّل، والساذج هو من يُضلَّل، هو من يُخدع. ثم ان الغازي المستعمر لا يضلّل، انه يقتحم، لأنه قوي، ويزيد من قوته ضعف المجتمع، ضعف أهل البلاد، وفقدان التماسك الاجتماعي.

يقول سيف الدولة: (أن السادة لا يصدقون مع العبيد أبداً) كيف يتسنى لأحد ان يصف المستعمر بالسيد، ويصف أهل البلاد بالعبيد، رغم أن أميره، حاكم أرضه، قد استعبده قبل وصول المحتل، استضعفه أميرة قبل أن يستضعفه الغازي. كانوا أحراراً مستضعفين، فباتوا لا يشعرون بالحماس للدفاع عن نظام قتلة جبابرة. كأن المواطن — هذا المستضعف — بات يقول: الوطن هو وطن من يتمتع بخيراته، وينام على فراش وثير هاديء البال، فليدافع هؤلاء الأصحاء عن وطنهم وعن خيراته، وعن فراشهم وأخيراً: كيف يتكهن الدكتور أن يبقى الغرب مستعمراً لبلاده الى يوم يبعثون؟ الى يوم الآخرة؟ ألن يأتي يوم تأفل فيه شمس الامبريالية بكفاح وجهاد أهل البلاد؟ وقد أفَلْت فعلا قبل يوم القيامة. كما ان زمن التضليل قد ولّى وأدبر.

أن من يبدو لنا بمظهر (الغيور) على التراث يستفيد من بقاء الناس غائبين عن عصرهم، ساهين عن وعيهم، يضحك على ذقون المغفلين، فلولا غفلتهم لما إستهان بهم. وهذا (الغيور) أشبه في نمط تفكيره بالانسان العاجز عن التكيف مع عصره، فيهرب الى الزمن الماضي عله يجد راحته فيه، فيعود القهقرى مفضلا زمان الأجداد على زمانه الراهن بل يشتد حزنه على ما يجري ويحلم بعودة الزمن الجميل، الغابر (الاصيل!)

ولسان حاله:

أيه لهفي على الترحال الى الوراء
واتيع مرة أخرى هذا السبيل القديم.
لعلي ابلغ مرة اخرى هذا السفح
حيث تركت فيه أول مرة حاشيتي الفخمة،
الذي منه ترى هذه الروح المستنيرة
تلك المدينة الظليلة ذات اشجار النخيل.
يتعشق بعض الناس حركة أمامية
لكني أنا بخطوات خلفية أتحرك.

هذه تعابير دونها هنري ڤون Henry Von أحد شعراء القرن السابع عشر عن حنين الانسان الى طفولته[٢٩].

ونجد مثل هذا الحنين لدى بعض شرائح المجتمع الأوروبي الحديث، حيث صاروا يحنون الى مرجعيات صلبة ودائمة، كما كانت عليه الحال في العصور الوسطى. وهذه حقيقة تفرض نفسها، ولا سيما بعد أن شبعوا من حياة الرفاهية والترف، وباتوا يعانون من صعوبة الحسم في مجال القيم الاخلاقية والجمالية والعلاقات الحميمة التي ضعفت، وفقدوا الامان النفسي حين فقدوا الرضا، ولم يعد هناك ما هو غير مسموح (ممنوع) الى حد كبير (في الحياة العاطفية الجنسية مثلا)[٣٠].

جميل أن يبقى الانسان على وفائه لتراثه ولأجداده، ويذكرهم بخير، ويذكر مناقبهم، كما ان من الطبيعي أن يحن الأنسنان الى (أيام التلمذة) التي هي أسعد أيام حياتنا، كما يقول الشاعر. فمن منا لم يحن الى عهد طفولته، لكن المسألة أخطر من حنين الانسان او من وفائه. المسألة تخص حاجة الانسان ومطاليبه. فما كان يصلح للزمن الفائت، ليس بالضرورة أن يكون صالحاً لزماننا، والزمان في صيرورته تختلف حاجاته، وبالتالي منطقه وطروحاته. ثم ان الاجداد كانوا أبناء زمانهم، ولم يستعبدهم الماضي، بل انهم ثاروا على ماضيهم، والقرآن يذكر ما كان يجيبه أتباع

---

[٢٩] توينبي. مختصر دراسة التاريخ. مذكور، مجلد٢. ص: ٣٨٥.

[٣٠] . محمد اركون. في حوار اجراه معه هاشم صالح (مترجم كتبه) في كتاب: قضايا في نقد الفكر الديني. دار الطليعة. بيروت. ط٢. ٢٠٠٠. ص: ٢٧٥.

الدين القديم الذي جاء الاسلام لينقض أسسه الى حد كبير او يقضي عليه. فحين كان الاسلام يحاول دحض عبادتهم الزائلة، كان هؤلاء، من عبدة الاوثان والأصنام، يردّون عليه بقولهم: (وإذا قيل لهم أتبعوا ما أنزل الله قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أو لوكان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون[٣١].

فتمسك القوم بما كان عليه آباؤهم لم يكن بسبب قوة العقيدة، بقدرما كان لصعوبة ترك ما إعتادوا عليه، أي أن هذه التمسك صار نوعا من العادة، وليس من اليسير تركها، فهم استمراوا تلك العادة، وتعايشوا معها، حتى إذا ادركوا أن هذا التمسك أمر غير صحيح تركوه لسنا – بطبيعة الحال – بصدد المقارنة بين الدين الاسلامي ودين لاحق (جديد) الذي لن يكون له وجود. فالاسلام خاتم الأديان السماوية، والرسول الكريم (صلعم) خاتم المرسلين، حسب إعتقاد المسلمين كافة. ولكننا نريد أن نؤكد ان الاسلام بكل منطقه، والرسول بكل ما أوتى به من شمائل والشخصية القيادية الفذة، والقدرة على الاقناع، قد جوبه بالرفض، وتحمل هو وصحابته الصد والعنت والهجرة، حتى حققوا النصر، بأساليب شتى، وحسب ما إقتضاه منطق الزمن او التاريخ. فرفض الجديد مسألة مألوفة عانى منها الرسل والمصلحون والفلاسفة والقادة السياسيون ... الخ، في كل زمان وعلى كل ارض.

والأن فان كشف النقاب عما في تراثنا الفكري من قصور وشوائب ولاعقلانية – كأي تراث بشري – ضرورة ملحة من أجل أن نخطو سيرنا الى الأمام، أو دراسة مافي تراثنا دراسة نقدية، ومثل هذه الدراسة لا تعني الكشف التاريخي عن كيفية تشكل هذا العقل لاول مرة، وكيفية إشتغاله في المجتمعات الاسلامية منذ ذلك الوقت.

ان المحاولات النقدية تشكل تعرية تاريخية واجتماعية وفلسفية للتراث بالمعنى العلمي[٣٢]. وهذا يعني أن محاولة اللحاق بركب الحضارة الذي تخلفنا عنه، تجهدنا بسبب ما نعانيه من قصور النظرة النقدية، ولهذا فاننا ندفع ثمناً مضاعفاً في ردم الهوة التي تفصلنا عن العالم المتحضر، ولابد من بذل التضحيات من أجل ذلك. الا ان القوى المتضررة تضع – وستضع – العصا في عجلة المحاولات، بدعوى الالتزام بماض سعيد مزدهر – كما يعلنون – رغم ان من المستحيل العودة بنا إلى الوراء،

---

[٣١] سورة البقرة: ١٧٠. المائدة: ١٠٤. لقمان: ٢١. الزخرف: ٢٢ – ٢٣.

[٣٢] د. محمد اركون. قضايا. مذكور، ص: ٢٧٤.

وعلينا أن نفتح ثغرات في الجدار المسدود للتاريخ – كما يقول محمد اركون، بعدان أغلق الزيلوتيون – حسب تسمية آرنولد توينبي – المنافذ وأوصدوا الأبواب، وأقاموا تلك الجدران الفولاذية. وبتروا تراث نتاج العقل، تراث – على سبيل المثال – دعاة حركة العدل والتوحيد (المعتزلة) وابن رشد، ونحن لازلنا ندفع ثمن هذا البتر دما ودموعا[٣٣]. فعلينا ان نجري – رغم محاولات هؤلاء المتواصلة في مقاومة الاندماج مع الزمن الراهن، لأن من مصلحتهم استمرار العقلية التي أفرزها انسان زمن إنقضى، وبزوال هذه العقلية يبدأ تجسير الهوة مع الزمن الراهن.

كان المستنيرون هم من نبهونا على ضعفنا، وعلى مواقع الخلل في تراثنا. وتاريخنا الاسلامي فيه من الاشواك والهفوات ما يكفي. اذكر أن مناقشة لاطروحة دكتوراه تمت في كلية الآداب – جامعة بغداد في السبعينات من القرن المنصرم، عن ديوان المصادرة في التاريخ الاسلامي، كانت ضمن ملاحظات أحد المناقشين نقطة أثارت إهتمامي، حين قال: ان من الخطأ إبراز هذا الجانب في تاريخنا(!). أي علينا أن نلغي وجود ديوان خاص بمصادرة أموال الأمراء والوزراء والقادة وعمال الاقاليم والتجار... الخ لأن إبراز مثل هذه الجوانب من (عادة المستشرقين). نقول ان عدم دراسة مثل هذه المواضيع لا يعني عدم وجودها. لكننا نخشى أن يمس أحد، تاريخنا الطاهر، لأنه تاريخ أناس إستثنائيين(!)، ولا سيما إذا كان من يمسه ينتمي إلينا، فعلينا أن نمنعه من المس. اما إذا مسه مستشرق ما، إذا ما تناوله بالدراسة أجنبي، نقول عنه يفتري علينا، وعليه أن يخرس، رغم ان منهم من يفتري فعلا هنا أو هناك. فوجود (ديوان المصادرات) كان أمراً واقعاً، تطلبته طبيعة الحكم، وهو من مظاهر التجاوز على حقوق الآخرين، دون اللجوء الى الشرع او القانون، وكان على الخلفاء الا يصادروا الأموال، حتى تنتفي الحاجة الى مثل هذا الديوان. وحينها لم تكتب عنه اطروحة دكتوراه في جامعة المدينة التي كانت مركز ديوان المصادرات في العصر العباسي. وليس ثمة دولة يعدم فيها وجود مثل هذا الديوان، سوى ان أسباب المصادرات تختلف، كما تختلف حالاتها، وماذا كان يصادر وكم؟

---

[٣٣] نفسه، ص: ٢٧٩.

وما أريد أن أقوله هو أن بين مدعي حماية التراث او المتمسكين به من يتأثر بمناهج او طروحات المستشرقين، ببعض منهم، لكنهم يخشون التصريح بذلك، وربما أعلنوا عن تأثرهم بلغة مبطنة مقنعة، يتنحنحون في كلامهم وكتاباتهم، وهم في حيرة، هل يتعين عليهم ان يتمسكوا بالتراث، كل التراث، وهذا من مصلحتهم، كما يرون، ام عليهم أن يقروا بصواب ما يعلنه الآخرون، وفي هذا خسارتهم لمواقعهم، في حين أنهم في موقفهم الاول لن يخسروا شيئاً، لكنهم لا ينفعون أحداً سوى اصحاب الرؤى التي فات أوانها، ولا يفكرون في اللحاق بالعصر. وبعض هؤلاء حين يكتبون عن موضوع ما يقعون في تناقضات دون أن يدروا، دون أن يتعمدوا ذلك.

ان الكتابة في مواضيع تخص التراث مسألة شائكه، تربك المرء في أحايين غير قليلة، فالكاتب كما أشرنا الى ذلك – لا يشعر بوجود هذا التناقض، لكن ينبهه الى ذلك الناقد. ووجود التناقض ليس أمراً غريباً، فهو إنعكاس لتناقضات الواقع الذي نعيشه. فالتقلبات الفكرية نتيجة لمانشهده من انقلابات وفوضي، واضطراب الرؤية، وإضعاف التفكير العقلاني. فاضطرار (المثقف) بل وتشجيعه في عالمنا المتخلف – على تغيير قناعاته، اولاً، وبروز تيارات فكرية هزيلة، وغياب المنطق... الخ[٣٤]، ثانيا، قد أطاحا بأحلام وآمال أجيال، وأربكا قيما ناضل المثقفون من أجل تثبيتها، ولهذا تعرضوا الى صنوف العذاب الجسدي والنفسي، من سجن ونفي وتعذيب باساليب عديدة وتطليق الزوجات[٣٥] والسحل والقتل بأساليب مختلفة، بالمطاوي، وحز الرؤوس بالسواطير[٣٦] وربما كانت هذه الأوضاع عاملاً مضافاً ومشجعاً – أحياناً – للمزيد من التمسك بالماضي، بسبب فشل (او افشال) الطروحات الليبرالية واليسارية والقومية، وتعثرها وتشظيها، بشكل مؤسف.

هنا لا نتحدث عن التوجهات التي سميت بـ(التوفيقية) فأصحاب هذا التوجه يحاولون خلق، او اختلاق، إنسجام بين طرحين متناقضين او اكثر، ولا يستطيعون

---

[٣٤] د. احمد سليم سعيدان. مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الاسلام. عالم المعرفة. الكويت. العدد (١٣١). ١٩٨٨. ص: ١٤٤.

[٣٥] د. مصطفى التواني. المثقفون والسلطة في الحضارة العربية. الدولة البويهية نموذجاً. دار الفارابي. بيروت ط٢. ٢٠٠٤،.

[٣٦] د. عبدالرزاق عبد محمد عبده. مذكور، ص: ١٠٦.

رفض أحدهما والتمسك بالآخر، لأن كلا الطرحين عزيزان عليه، او كما يبدو له الأمر هكذا، ولا يستطيع أن يستغني عنهما معاً، لكي يرتاح ويريح، وقد آثبت التاريخ القريب والبعيد معاً، فشل محاولات التوفيق، لانه عمل ملفق، ليس اكثر.

ان الموقف أزاء مجمل المسائل والمواقف، كالتراث والحداثة، والديمقراطية والغرب يحذف والعولمة... الخ، يتغير حسب توجهات وقناعات المفكر. والمتابع لهذا الشأن يتلمّس وجود اكثر من تيار او إتجاه متباين أزاءه. فثم إتجاه إنشغل اكثر من غيره مع التراث، او به وبإحيائه وإستثماره لصالح قراءة ايديولوجية ثابتة سافرة غير قابلة للتغير، او التكيف مع الزمن المتغير، أساسها إسقاط صورة (المستقبل المنشود) على الماضي، والبرهنة على أن ما تم في الماضي يمكن تحقيقه في الحاضر والمستقبل[٣٧] انه يتغني بترانيم التراث. يقول أحد الباحثين: قلبت في مكتبة دارس أعرفه يتحمّس للإلمام بدقائق الامور الاسلامية ونواهيها، فلقيتها تقتصر على ما طبع قديما، ولم أجد كتابا واحدا حديثاً يمكن أن يعد ذا شأن بأبسط المقاييس العلمية. وعندما يدور الأمر في حلقة ما على ماكتبه الماضون، نجده لا يتعداه، ولا يرفده جديداً، يغدو الأمر إجتراراً وجموداً في عالم سريع الحركة، واجبنا ان نعمل فيه كأننا نعيش أبداً[٣٨].

ان هذا التيار الماضوي يرفض الأفكار المعاصرة، بحجة رفض الأفكار (المستوردة)، لأنها لا تتفق مع تراثنا، ويلح على ضرورة العودة الى الينابيع الاولى (الأصيلة). ومن واجب المسلم أن يفضح الطبيعة (العدوانية التآمرية) للغرب ولغير الغرب، ويقف منه موقفاً مضاداً، ويضم هذا التيار بعض من درس وتعلم في الغرب، وله قدرة على التأليف بلغات أهل الغرب ويؤسسون منطقهم مع موقفهم القبلي (المسبق) والرفض المطلق للآخر ولفكره. كما يخلطون الاوراق بين ما هو معرفي وبين ما هو عقائدي، ويضيقون الخناق على الآخرين بدون تمييز، لأنهم في نظرهم سواسية في تشويه دينهم وتراثهم، وبالتالي فلا فائدة ترجي من (طلب البراءة) او (الصفح)، حتى الذين دافعوا عن الاسلام وحضارته، او أظهروا افضال رجالاته في

---

[٣٧] د. محمد عابد الجابري. نحن والتراث. المركز الثقافي العربي. بيروت ط٢. ١٩٩٣. ص: ١٢.

[٣٨] د. احمد سليم. مقدمة لتاريخ الفكر. مذكور. ص: ١٧٩.

العلوم والآداب والفلسفة. فنتاجهم الفكري شر على المجتمع الاسلامي[٣٩]، والتجربة الاسلامية بما فيها من حدس لايمكن إلتقاطها بالمناهج التحليلية او النقدية، لأنها تجربة نسيج وحدها والذين هم خارج نطاقه لايمككنهم إقتناص دلالة التجربة التي يمارسها من يعيشون داخل هذا النظام، كما يقول الطيباوى، وبناء عليه فأهل مكة ادرى بشعابها، فالكلام في الاسلام لا يحوز إلا لأهله الراسخين في تجربته، وفي العلم ببواطنه، ... اما لغير هؤلاء، فالكلام الحق عن حقيقة الاسلام غير ميسر، ولا قابل لاستيفاء شروط الدقة والموضوعية[٤٠].

ان امثال هؤلاء (التراثيين!) يقصون من تفكيرهم إشكالية الانتكاس والانحطاط الذي عاشته مجتمعاتهم وأنظمتهم، وهم مشدودون الى الثوابت المتحكمة داخل نسقهم الثقافي الذي لا يعترف بوجود إشكالية أصلاً، مادامت ثقافتهم – حسب تفكيرهم – بوسعها صهر الثقافات الاخرى جميعها، ثقافتهم التي تستند على إعادة ما أفرزته عقولهم قبل سنين بعيدة، ويرون ان هذه الاعادة – او التكرار – هي شرط أساسي لاستمرار ثقافتهم.

انهم لا يقرّون بوجود قضايا، او محاولات التحديث، بل انهم يعتبرونها طريقاً الى التشويش، وانها تفضي الى فقدان النكهة التي تتمتع بها ثقافتهم، وتفضي بالتالي الى التخليط والتصدع، فما لديهم كفيلة بحل أزماتهم الراهنة والقادمة، مهملين بذلك كل قوانين التتابع التاريخي الذي لن ينتهي حتما إلا الى نوع من التلفيق، فكل تحليل – لامحالة – ناقص حين يوصد الباب في وجه الجدال[٤١]. ان التراث – كما يقول العروي – تحميه اليوم مؤسسة لاتترك لأحد حرية التفكير والتأويل. ومن أراد أن يحيي التراث كله، وهذا هو سرّ موقف المؤسسة التقليدية عندما تصفق لاحياء كل قسم من التراث القديم[٤٢] ويضيف العروي ان مثل هذه الرؤى (التراثية) تفرعت عن

---

[٣٩] سالم حميش. الأستشراق في أفق إنسداده منشورات المجلس القومي للثقافة الرباط. المغرب. ١٩٩١. ص: ٩٥.

[٤٠] نفسه، ص: ٢٢.

[٤١] د. عبدالله العروي. العرب والفكر التاريخي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط٤. ١٩٩٨. ص: ٥٥.

[٤٢] نفسه، ص: ٢٢.

النزعة التاريخية، واحتفظت بالنزعة الرومانسية، وجعلتها تحكم التاريخ، بموجب وبغير موجب، لكي يتضح أنها أبدلت تاريخ (الوقائع) بـ(نظرية عن التاريخ) تشكل مخططاً هزيلاً للأحداث. وإعتماد مثل هذا المخطط يفقد – منذ البداية – كثيراً من المشاكل أهميتها. وينزع من النتائج المتوصل اليها بالبحث الدقيق كل قدرة على تغيير الآراء المسبقة، ويؤكد إستنتاجات فرضية، بحيث لانرى كيف يمكن ان يتقدم البحث العملي، في مثل هذا الاطار[٤٣]. انها العقلية الماضوية التي رفعت شعار الاصالة والتمسك بالجذور، والحفاظ على الهوية[٤٤]، ولا يهمها ما هو حاصل في الحياة الراهنة، وما قد يحصل.

لقد أصبحت الوسيلة غاية: فالماضي الذي أُعيد بناؤه قصد الارتكاز عليه لـ (النهوض المؤمل) أصبح هو نفسه مشروع النهضة. فاصبح المستقبل يُنظر اليه ويقرأ بواسطة الماضي، لا الماضي الذي كان بالفعل، بل الماضي كما كان ينبغي ان يكون .. فظلت صورة المستقبل. الآتي. الذي لن يأتي. هي نفسها صورة المستقبل. الماضي) والانسان المتزمت يحيا هذه الصورة بكل جوارحه، ليس فقط كصورة رومانسية، بل كـ(واقع حي). فهذا الانسان مؤطر بتراثه فالتراث يحتويه احتواء يُفْقِدُهُ استقلاله وحريته. ولقد تلقى إنساننا هذا، ويتلقى، تراثه منذ ميلاده، كألفاظ ومفاهيم وكلغة وتعبير وتفكير، وكحكايات وأخيلة، كطريقة في التعامل مع الاشياء، كاسلوب في التفكير، كمعارف وحقائق. تلقى كل هذا بدون تمحيص او نقد أو تساؤل. فهو عندما يفكر، يفكر بواسطة التراث ومن خلاله، فيستمد منه رؤاه واستشرافاته، فصار التفكير لديه تذكراً، او تفكير من تفكير الآخرين، تفكير السابقين. فعندما يقرأ القارئ لدينا نصا من تراثه، يقرأهُ متذكراً، لا مكتشفاً ولا مستفهما[٤٥]. وبالتأكيد ليس ناقداً، وقد يحاول مواكبة العصر إلا أن العصر يهرب منه.

وكان هذا التيار المنافي للعقل يلجأ الى السلطة طيلة التاريخ (لحماية الناس) من إعمال العقل، حتى تستمر الجماهير على غيها وغيابها عن المنطق.

---

[٤٣] نفسه، ص: ١٣٢.

[٤٤] د. محمد عابد الجابري، نحن والتراث. مذكور، ص: ١٣.

[٤٥] نفسه، ص: ٢٢.

فها هو أبن الصلاح الشهرزوري يدعو السلطان الى القيام بواجبه في أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المياشيم (يعني الفلاسفة) ويخرجهم من المدارس، ويبعدهم، ويعاقب من يشتغل بفنهم، ويعرض من ظهر عنه إعتقاد عقائد الفلاسفة، ويخيرهم بين السيف او الاسلام(!) وكأن من يعمل في مجال الفلسفة ليس مسلماً، أو انه خرج عن اسلامه وينبغي إعادته إليه(!). الا يعبر كلام الشهرزوري عن موقف مضاد للعقل والعقلانية والفلسفة إلى أقصى درجات التضاد؟. اليست دعوته هي نفسها التي إعتنقها الحكام حتى الآن مجاراة للشارع؟ او ليست الدعوة الى تحديث النظر الى التراث دعوة غريبة تلقى العنت من لدن الحكام ولايزال العمل العقلي تحيطه الشبهات والظنون(!). ولايزال أصحاب الرأي والتفكير العقلاني يعيشون في إغتراب غير جغرافي، داخل أوطانهم؟ في أوضاع بالغة الخطورة بالغة المأساوية، ولايزال أخطر القرارات التي تمس مصير المجتمع ومستقبل (الرعية) يتخذها فرد او أفراد قليلون بعيداً عن كل رأي علمي او مشورة جماعية فاعلة، او تحليل معلوماتي فاعل[٤٦]. لقد أفتى الشهرزوري حول الاشتغال بالفلسفة، قائلا: ان الفلسفة (اس السفه) وتثير الزيغ والزندقة عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة، ومن تلبس بها (الفلسفة) تعليما وتعلماً قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان[٤٧].

أما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر، لدى اصحاب هذا التيار، فابن تيمية الحراني الحنبلي (ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م) معروف بعداواته للفلسفة والمنطق. وتاج الدين السبكي المصري (٧٢٧ – ٧٧١ هـ/ ١٢٨٤ – ١٣٥٥م) يقف في خصومة حاسمة مع الفكر الفلسفي، اما جلال السيوطي (٨٤٩ – ٩١١هـ/ ١٤٤٥ – ١٥٠٥) فيحرم الاشتغال بالمنطق. يقول أحد كبار المعنيين بالفكر الفلسفي: إذا كانت الفلسفة عامة، والمنطق خاصة، يؤخذان دليلا على النظرة العقلية الخالصة، جاز لنا القول انه حين نقلت الثقافة اليونانية لتكون أداة في محاربة التيار اللاعقلاني الذي

---

[٤٦] د. عمادالدين خليل. موقف ازاء التراث. مطبعة افسيت الميناء. بغداد. ١٩٧٧. ص: ١٤.

[٤٧] د. ابراهيم بدران. في الفكر والثقافة والتقدم. منشورات وزارة الثقافة الاردنية. عمان. ١٩٢٢. ص: ٣٠.

لقي أصداء الرضى من لدن جماهير الناس. فان هؤلاء المثقفين انفسهم سرعان ما انشقوا على أنفسهم بأزاء العقل ومناهجة[٤٨].

لكن يخطأ من يعتقد ان التمسك بالماضي كفيل بصيانة الذات وحماية الحمى، لأنه لايمكن الاستعاضة عن الحياة بالأحلام، ولأن إعادة الذكريات، وتحنيط القيم في متون (التاريخ) وإعتقال الافكار في سبحون الأمس، ضرب من العقوق أزاء التاريخ ذاته ونوع من السلبية الآثمة قد تستوجب علينا لعنة الآباء قبل لعنة الأبناء. ذلك ان رجال الأمس ثاروا هم أنفسهم على ماض إستفرغ منه لبه، وأبوا أن يتركوا الموروثات المتحفية والمخلفات المتآكلة تسليهم عن نقائص واقعهم، فقاموا في فترات مختلفة من تاريخهم بتجديد أفكارهم، بعد أن تغيرت قناعاتهم.. فالترات ليس كهنوتا فكرياً ولاعقيدة ثابتة نهائية جامدة، او منظومة محددة من الافكار والمشاعر تتوارثها الاجيال[٤٩].

لقد عاش أغلب المفكرين في حالة تأزم ضمن مجتمعهم وعصرهم، وتمردوا على القيم الموروثة التي تجاوزها الزمن، وضاقوا ذرعا بالعادات والقوانين، وتحدوا الأوامر والنواهي، ونالهم الضيم، ولاذوا بالعزلة. ولكنهم فرضوا أنفسهم، بسبب صدق مواقفهم، لا بمجرد الرفض والاعتزال، ولا بالتحدي والصياح، بل بابداعهم وإنقاذ أنفسهم من براثن الزمان وقيود المكان. أي أنهم تحرروا من أسر المُسَلْمات[٥٠]. وتجاوزوا (تاريخيتهم) وأنتجوا افكاراً جديدة خلاقة، فاثمرت جهودهم ثماراً حلوة، وأصابوا الواقع وغيروه، فكانوا أوفياء لمواقفهم[٥١].

لايمكننا أن نسيء الى التراث، لكننا نقرر واقعه طبقا لمنطق عصرنا الحالي، ونعرف في الوقت نفسه. ان الحكم المنصف على التراث لابد ان يصدر بمقياس ذلك

---

[٤٨] د. زكي نجيب محمود. هموم المثقفين. دار الشروق بيروت. ١٩٨٠. ص: ١١٦.

[٤٩] محمد مزالي. وجهات نظر. الشركة التونسية للتوزيع. ١٩٧٥. ص: ١٥٣.

[٥٠] مسلمات: المسلمة postualate. اعتبار وجود ما، او حقيقة معينة ما، أساسا للفكر، دون أثبات او برهان، او بغير أدلة خاصة بذلك، منفصلة عن المسلمة ذاتها. والمسلمات إما عامة، سواء كان التسليم بها من الجمهور عندما تكون من المشهورات، او كان التسليم بها من طائفة خاصة، كأهل دين او ملة او علم خاص. د. عبدالمنعم الحفني. المعجم شامل لمصطلحات الفلسفة. دار مدبولي. القاهرة. ط٣. ٢٠٠٠. ص: ٧٩٥.

[٥١] محمد مزالي. مذكور. ص: ٢١٤.

العصر، أي أن النظر الى تراثنا بمنظار عصرنا عمل لايمكن قبوله، او تحقيقه، بدون رذيلة التجني. كما يقول المفكر الليبي البارز[٥٢]، إلا إذا كان ثم من يزمع أن يفرض أبعاد ذلك التراث على عصرنا الراهن.

هذا وثم من يبتعد عن الموقف، ممن يتبناه بعض من تعلم في الغرب، أو من تأثر بهم من خلال الاحتكاك بهم، او من خلال دراسة طروحاتهم في وسائل النشر المختلفة. وهو وإن لم يرفض التراث صراحة، فهو يكرهه او يهمله في المواقف العملية وفي التفكير، ويكون استخدامه لهذا التراث كتعبير او كمصطلح، ليس الا إستخداماً شكلياً، نوعاً من مسايرة عقلية الشارع او ثقافة عامة الناس. وواقع موقف هذا الاتجاه هو انه لايدعو الى الاطروحة الفاسدة الداعية الى القاء التراث في متاحف، أو المنادية بتركه في مكانه بعيداً عن التنقيب ناهيلة عن الدراسة. ان رفض التراث بهذا الشكل التعسفي موقف لاعقلاني، فالمطلوب ليس رفض ما جاءنا من السلف، بل المطلوب هو القطيعة المعرفية (الابيستيمولوجية) التي تتناول أفعال العقل. وهذا يعد نشاطاً يتم بطريقة، او بواسطة ادوات، داخل حقول المعارف. والخلاف بين هذا الاتجاه والاتجاه السلفي المحض ينحصر في النظرة الى التراث وطرق معالجته والادوات الذهنية التي يعتمدانها، والاشكالية التي توجهانها، والنتيجة التي يتوخيانها. وعندما يبلغ الخلاف الى حد عميق وجذري، ويبلغ نقطة اللاعودة، عندئذ تحصل بينهما قطيعة ابيستيمولوجية. ومن الخطأ حصول القطيعة مع التراث، ويتعين التخلي عن فكرة الاستغناء عن التراث، ولكن علينا التحرر من ستاتيكية التراث، وفي نظرتنا اليه، ودراستنا له. ان يحتوينا التراث شيء، وأن نحتوي التراث شيء آخر.

قد يسهم عدم دقة (مصطلح التراث) وعدم القدرة على صياغة المصطلح صياغة علمية في إحداث القطيعة بين التراث وبين ذواتنا وفهمنا له، أحياناً، إضافة الي استيلاء حالات الوهن على أذهان اهل الشرق، بسبب جمود الفكر والخوف من التجديد، والانكفاء على الذات، وعدم الانتباه الى ما يفرزه المجتمع من مشاكل

---

[٥٢] د. الصادق النيهوم. ثلاث كلمات تقال بأمانة عن مشكلة التراث العربي. إعداد وتقديم سالم الكبتي. مكتبة النيهوم. سلسلة الدراسات. دار تالة للطباعة والنشر طرابلس – ليبيا – ١٩٦٩ – ١٩٧٠. ص: ٢٥.

تحتمت مواجهتها بحلول عقلانية، وهذا لم يحصل، بل مما زاد في الطين بلة توالي الغزوات على أوطان المسلمين، فخضتهم، وبلبلت أفكارهم أكثر، فزادت الهوة بينهم وبين الآخرين الذين إصطدموا معهم، سواء القادم منهم من الغرب او من الشرق، وتعاقبت على هذه الفترات فترات التخلف خلال ما سمي بعهود الظلام، او الفترة المظلمة بما جعل التواصل مع هؤلاء (الأغراب) محفوفاً بالخوف، ولاينبغي التساهل معهم، واعتبروا أي محاولة للتقارب جريمة وخيانة، ولاسيما بسبب الذكريات المريرة المتمثلة في الحروب الصليبية، وطرد المسلمين من أسبانيا، بعد سلسلة من معارك حركة الاسترداد. ثم الاستعمار الحديث البرتغالي والاسباني والفرنسي والانكليزي، وأخيراً الامريكي ومساعداتها اللامحدودة لاسرائيل منذ تأسيسها عام ١٩٤٧.

حدث كل هذا في مجتمع كانت. ولاتزال العلاقات العشائرية والطائفية ومفاهيم البداوة، وطبيعة المجتمع الزراعي البدائي وشبه البدائي، المنكفيء على ذاته، هي السائدة وهذه الحياة تفرز ثقافتها، وخطابها الذي يتسم. عادة بالحذر من الآخر، حتى إذا كان الآخر من بني دينه، ومن بني جلدته، بسبب ضعف الروح الوطنية، وما ينجم عن ذلك من إستيلاء السياقات الفكرية المتزمتة، وهمينة التقليد والاعراف، ولا أقول القوانين، على علاقات وبنية، ولا أقول مؤسسات، مثل هذه المجتمعات او التجمعات.

في مثل هذه الحالة صار ينظر الى المثقف الداعي الى الحداثة، نظرة مريبة، او معادية، وباتت تطلق نعوت شائنة على من يدنو من دعاة المعاصرة، واعتبروهم فئات مشبوهة، وأتباع او توابع لمدرسة (الاستشراق) التي الصقوا بها كل نعوت الاساءة. فهم في رأيهم. يتبعون مدرسة تحاول تدمير ديننا وتراثنا وتشويه تاريخنا المريح، كما يحاولون تفكيك مجتمعنا بكل ما فيه، وتخريب العلاقات التراتبية المعهودة بين أبنائه الذين تكيفوا معها منذ مئات السنين، وانهم يخترقون قناعاتهم الثابتة التي إنسجموا معها، وقد تعمق هذا الود اكثر يوماً بعد يوم، وزاد تمسكهم بهذا الفكر وارتاحوا، وضرورة الحياة تقتضي الوقوف سداً منيعاً بوجه الأفكار المتسربلة، او المستوردة[٥٣]. كما يسمونها رغم ان الله. سبحانه. يدعونا الى التغيير، بل انه لن يغيرنا الى ما هو أفضل، إن لم نتغير نحن أساساً ف (إن الله لايغير ما بقوم حتى

[٥٣] نفسه، ص: ٣٩ — ٤٥.

يُغيروا ما بأنفسهم) (الرعد/١٣) فالطريق المسدود لايوقف سيرك فحسب، بل يرغمك أيضاً على العودة الى الوراء على التراجع، حسب الصادق النيهوم[٥٤].

من الأمور الملفتة للنظر ان عدداً غير قليل من القائمين بأمر تحديث المجتمع في المشرق الاسلامي، وتطوير الفكر كانوا من المواطنين المسيحيين ولاسيما من اللبنانيين الذيين دعوا التطلع الى الغرب والاسفادة من تجاربه في مختلف مناحي الحياة، والبدء بعصر نهضة على غرار النهضة الاوروبية، ولعل أبرز هؤلاء الرواد الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هم:

من اسرة البستاني (بطرس ١٨١٩ – ١٨٨٣) وابنه سليم (١٨٤٧ – ١٨٨٤) وسليمان (١٨٥٦ – ١٩٢٥) و وديع (١٨٨٨ – ١٩٥٤). و فرانسيس مراش الحلبي (١٨٣٦ – ١٨٧٣) وخليل سركيس (١٨٤٢ – ١٩١٥) ولويس صابونجي (١٨٤٣ – ١٩٢٨) ونجيب عازوري (ت، ١٩١٦) واسرة نقاش (مارون ١٨١٧ – ١٨٥٥) ونقولا (١٨٢٥ – ١٨٩٤)، والاخوين امين شميل (١٨٢٨ – ١٨٩٧) وشبلي شميل (١٨٦٠ – ١٩١٧) ويعقوب صروف (١٨٥٢ – ١٩٢٧) وجرجي زيدان (١٨٦١ – ١٩١٧) وفرخ انطوان (١٨٦١ – ١٨٢٢) وانطوان خليل سعادة (١٩٠٤ – ١٩٣٢) وجبرائل ادة (١٨٤٨ – ١٩١٤) واديب اسحق (١٨٥٦ – ١٨٨٥) وخليل مطران (١٨٧١ – ١٩٤٩) و جبران خليل جبران (١٨٨٣ – ١٩٣١)، ولا داعي للمزيد، او من ساهم في نهضة الفكر، بشكل أو آخر، بعد تلك الفترة. هذا إضافة الى وجود اعداد أخرى من رواد التحديث من المسلمين، ولاسسيما من مصر[٥٥] من امثال الطهطاوي وعلي عبدالرازق وطه حسين ومحمد عمر ومحمد قدري وحسن الشمسي وقاسم أمين[٥٦] وجمال الدين الافغاني وعبدالرحمن الكواكبي ومحمد عبده واحمد فارس الشدياق وخيرالدين التونسي ومحمد إقبال ومعروف الرصافي وجميل الزهاوي ... وغيرهم.

ان التيار المحافظ، او ما يسمى باليمين، لايؤمن بالحوار إبتداء، بل انه لايقر بوجود التيارات الاخرى، وله معياره الخاص المنسجم مع تفكيره الأحادي، وهذا

---

[٥٤] نفسه، ص: ٣٩.

[٥٥] د. فاروق ابو زيد. عصر التنوير العربي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ١٩٧٨.

[٥٦] نفسه. صفحات: ٣٧، ١١٤، ١٤٤، ١٥٢، ١٧٩.

صورة الآخر المختلفة فكريا. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. ص: ١١٦.

المعيار قد يكون طبقيا، أي يقوم على أساس التفاوت الاجتصادي (اجتماعي – اقتصادي) أو يكون معيار (فكرياً) طائفيا وعنصرياً. المهم هو ان هذا التيار لايشعر بوجود تفاوت او تناقض او صراع من أي نوع كان، لأنه يعتبر نفسه على صواب مطلق، والآخرين هم دائماً على غير صواب، وهذا الموقف القطعي (الجزمي) او الدوگماتی dogmatism، المبني على مقدمات غير ممحصة تمحيصاً وافياً، يجعل مساحة الاختلاف تتسع وتحول دون قبول الآخرين، بل انه يعمل من أجل إلغاء وجودهم فكريا او بالتصفيات الجسدية، إذا سنحت له الفرصة والقدرة، وتطال التصفيات. مفكرين كتاباً ممثلين روائيين صحفيين شعراء ومذيعين وأساتذة جامعة وقضاة.. وغيرهم.. وكأنهم جنود في جيش أجنبي، بسبب ثقافة الموت التي يحملونها، أي بسبب (الايديولوجيا النهمة (Greedy Ideoligy) ولاتتوقف معارك هذا التيار، ويتدخل في كل مجالات الحياة والاصطدام بها، ولا ينسحب من المواجهات، بل يقتحم كل الحدود مستعملاً سيفه. بمعنى نفي أي إمكانية للتكيف او قبول الآخر، لكي يستمر بحثه عن شيطان ما(!)[٥٨].. بحثه عن ضحية.

ان مثل هذا الإقصاء للآخر، ينبع من الاحساس بامتلاك الحقيقة المطلقة بالكامل، فيكون من الصعب، او من المستحيل أحيانا. أن يحاور او يتراجع، او يسمع ليعدل أفكاره، وهذا ما يقوده الى الخيلاء والتعصب المقيت وبالنتيجة فأن رفض الآخر تعبير عن أزمة في مواجهة الحداثة وتأثيراتها الكاسحة. فمحاولات الحفاظ على نقاء مجتمعاتها ومحاولات إبقائها على ما هي عليه على مدى العهود، تشكل. بحد ذاتها. دفاعاً عن الذات. كما يظنون. وسعياً للتحصن خلف متاريس الماضي المعلوم (والثابت)، في وجه الجديد المجهول (والمتغير باستمرار). ويزداد العناد والتعنت طردياً مع صعود عمليات التحديث في زمن لايقبل التوقف، والمتعنت لايعد التوقف توقفاً.

---

[٥٨] حيدر ابراهيم علي. المصدر نفسه، ص: ١١٦.

(اربيل في العصر العباسي)

محاولة لخلخلة التاريخ(*)

المقدمة:

هل من الصواب ان يتولّى الباحثون الكرد ـ لوحدهم ـ دراسة تاريخهم؟ أليس من حق غير الكردي أن يبحث في هذا التاريخ بشكل موضوعي أكثر؟ هل بوسع الكرد أن ((يمنعوا)) الآخرين من الكتابة عن تاريخهم؟ وما ينسحب على الكرد ينسحب على الأقوام الأخرى.

الواقع ان الحالتين لهما ايجابياتهما، كما لهما سلبيّاتهما. لا أذكر الجانب الايجابي في الحالة الاولى، فهو تحصيل حاصل، أمّا سلبياتها فتكمن في أن الباحثين الكرد قد لا يرون أخطاء ماضي مجتمعهم، ولا يلاحظون ـ او يتجاهلون ـ قصر نظر حكامهم، ويغضّون الطرف عن عيوبهم وأخطائهم، ولاسيما وهم تآلفوا وتعايشوا وربما استمرأوا (وإعتادوا على) ماهم فيه من أوضاعٍ. وقد يدفعهم حبهم لوطنهم، وحرصهم على تجاوز الأخطاء التي حصلت، إنسجاماً مع ((اذكروا محاسن موتاكم!))، بل قد يعتبرون الأخطاء ليست أخطاءً، وإنما أمور حصلت وانتهى الأمر(!) وكتابة التاريخ تختلف عن دراسته بالتأكيد، وهذا أمر معروف.

وفي الحالة الثانية، اذكر ايجابيّاتها. فالغرباء حين يكتبون عن تاريخ مجتمع او شعب ما، قد تتّسمُ كتاباتهم بموضوعية اكثر من موضوعية أبناء البلاد، لانهم ينظرون الى تاريخ هذا المجتمع دون إحساس بالانتماء، بل قد تتميّز نظرتهم بتجرّد اكثر، إلا إذا كتبوا بنظرة مسبّقة تخدم أهدافاً معيّنة. كما هي حالة الاستاذ الدكتور سامي الصقار حين كتب اطروحة دكتوراهُ عن تاريخ اربيل في العهد الأتابكي، تحت العنوان المذكور ((اربيل في العهد العباسي، ومؤرّخها ابن المستوفي)) وتم طبعها في السعودية، دار الشواف. الرياض ١٩٩٢.

(*) نشر في مجلة ((الآكاديمي)) العدد (١٣) ٢٠٠٩.

لقد أصابه قصر النظر في معالجاته لتاريخ هذه المدينة، إن لم أقل ضيق الافق القومي. ولهذا بات من الضروري تسليط الضوء على ماكتبه. فالعقلية التي سيّرته عقلية متهافتة، لاتنسجم مع روح العصر، ولا مع طروحات عراقي يعرف وجود غير العرب على أرض الرافدين، ناهيك عن خروجه عن منهجية التاريخ حين طفق يتحدّث بعيداً عن فترة دراسته التي لاتتجاوز تسعة عقود، وقد قفز الى بدايات القرن التاسع عشر.

العرض

عرفت الاستاذ الدكتور سامي السيد خميس الصقار بدءاً من أيام دراستي، في مرحلة الماجستير في سنة (١٩٧٣) حين علمت عبر نشرة (أخبار التراث) التي تصدرها جامعة الدول العربية في القاهرة، انه بصدد تحقيق الجزء الثاني من كتاب ابن المستوفي (نباهة البلد الخامل، بمن ورده من الأماثل، في تاريخ اربل)، وقد اكمل عمله، وطبع الكتاب في بغداد سنة (١٩٨٠)، وكان المستشرق الراحل (آرثر آربرى) قد عثر على مخطوط الكتاب في مكتبة (جستر بيتي) بمدينة دبلن بايرلندا، ضمن المخطوطات العربية وتم طبع الكتاب ١٩٦٢ قبل تحقيقه من قبل الدكتور سامي)

راسلته عساه يزودّني ببعض المعلومات عن خطط مدينة اربيل وعن سِيَر الشخصيات التي أنجبتها المدينة العريقة التي نهضت مجدّداً في العهد الأتابكي، ولاسيما في عهد الملك المعظم السلطان مظفرالدين گوگبورى بن زين الدين علي كچك بن بكتگين، وكذلك الشخصيات ورجال ثقافة العصر الذين وردوا اربيل. لا داعي للقول أن الدكتور سامي لم يزوّدني بمعلومة تذكر وآخر مابعثه لي هو مستل بحثه المنشور في مجلة كلية الاداب/ جامعة الرياض، تحت عنوان «أهمية التواريخ المحلية كمصادر لتاريخ جزيرة العرب مع إشارة خاصة لتاريخ اربل» ووشّحه بتوقيعه في (١٩٨١/٤/٢٠)

لقد حصل الدكتور سامي على الدكتوراه عن أطروحته (امارة اربل في العهد العباسي (الأخير) من سنة ٥٢٢ هـ الى ٦٣٠هـ) وإنصافاً أقول انه قد صّوب أخطاء وقع فيها باحثون آخرُون (يلاحظ على سبيل المثال ص: ٦٧، ٦٨، ٨٢ كمثال) على غرار ما فعلناه عام ١٩٧٦، حين نشرنا بحثاً في المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي

الكردي في بغداد تحت عنوان ((قراءة ثانية لما كتب عن تاريخ اربيل في العهد الأتابكي (ص ٥٢٠ – ٥٣٢)

وما يهمّني هنا هو دحض تجنياته على تاريخ هذه المدينة. واني إذ اعتذر لاستعمالي لفظ ((تجنيات)) لكني لم أجد لفظاً مناسباً آخر يطابقه او يحلّ محلّه، نظراً لطبيعة كتابته، وربما لفهمه الخاطيء لما كتبه.

فتحتَ عنوان (الأوضاع القومية في اربل) في صفحة (١٧٩) يذكر: لم تكن اربل ((في يوم من الأيام، ذات طابع قومي موحّد)) وأنا اسأل هل ثمة مدينة موغلة في القدم، وتعرّضت لفتوحات أقوام عديده، وأصابتها ويلات مثل اربيل يمكن حماية لغتها وثقافتها؟ وتحافظ على ((نقاوة أهلها)) وتبقى صافية من أية ((شائبة)) وتستمر على (طابعها القومي الموحّد) حسب تعبيره. لنأخذ ـ على سبيل المثال ـ بعضاً من أعرق واعظم مدن صارت ضمن العالم الاسلامي، ولتكن استانبول او الاسكندرية او بغداد ولنذكر معها بابل فهذه مدن عاشت فيها اكثر من قومية واحدة، وثقافة واحدة، فأستانبول هي بيزنطة القديمة ثم القسطنطينية وهي الاستانة، ثم استانبول، فظهرت فيها ثقافات عديدة، وان تحوّلت ـ فيما بعد ـ لأسباب لاداعي لذكرها هنا، الى ان تصبح لغة الدولة الرسمية، وهي التركية، هي الغالبة فيها، لكن فيها الآن اكبر تجمّع كردي يضاهي عدد سكان كل من ديار بكر او اربيل، والقاهرة شيّدها الفاطميون العرب، ثم حكمها الأيوبيون الكرد، بعدهم المماليك الترك البحرية والبرجية فالعثمانيون، ومعروف الطابع (البحر المتوسطي) لمدينة الأسكندرية، والتى غدت غاصة باليونانيين والطليان، وقد شيدّت في عهد الاسكندر الكبير، وفتحها المسلمون العرب بعد اكثر من الف سنة. وهكذا شأن البصرة حيث كان اكثر علمائها من الفرس، وهي بمثابة ((أثينا)) الثقافة الاسلامية، وفي التاريخ القديم يذكر كيف ان مدينة بابل ـ إحدى اشهر مدن العالم القديم في المنطقة سكنتها أقوام، وصارت مركز تجمع لغات عديدة حتى قيل المثل (لقد تبلبلت الألسن) نسبة الى بابل، بسبب اختلاط الثقافات واللغات فيها.

إلا أن الغريب في موضوع الدكتور سامي أن يتناول ماحدث في اربيل لأغراض عنصرية، وربما سياسية ايضاً، بقوله: لم تكن اربل في يوم من الأيام ذات طابع قومي موحّد، (رغم) ما قاله ياقوت الحموي ـ الذى ينقل عنه الاستاذ ما يحلو له من

ان جميع رساتيق اربل وفلاحيها وما ينضاف اليها اكراد[1]. هذا ال((رغم)) الذي إستعمله الدكتور ـ عن مضض وإكراه – قصد منه رساتيق اربيل ((أطرافها وقراها)) إلا أن المدينة ـ كما يرى ـ ليست كردية، بل انه ـ كما سنرى ـ سيجعل قرى اربيل قرى تركمانية.

يطوي الدكتور صفحة الحقيقة ليقول بالحرف: نقول بأننا ((نعتقد))[2] بان المنطقة كانت خليطاً من قوميات عدة، وان ياقوتاً ((نفسه)) قال عن سكان المدينة انهم اكراد إستعربوا(!). ونحن نسأل، ياترى من الذي يستعرب عادة، او تستعرب ثقافته او لغة ثقافته، غير العاملين في مجال معرفي ما، كأن يكون مفسّراً للقرآن او رجل حديث وفقيه، او مؤرخ (كأبن المستوفي) او شاعر (كالحاجرى).. الخ، فهل هذا يعني ان المدينة استعربت؟ او هل تم استعراب الشارع والسوق؟ هل كان المصلّون في جامع مظفرالدين گوگبورى ـ مثلاً ـ يفقهون اللغة العربية، حين كانت الخطب تلقى بهذه اللغة عليهم؟

لماذا تستغل معرفة، او إجادة بعض الكرد للغة العربية، وتستثمر، لغير صالحهم ولنفي كونهم كرداً، وإعتبارهم عرباً، والدليل هو اللغة التي أتقنوها؟ الم يكتب الفرس والبربر ((الأمازيغ)) بالعربية؟ فهل صاروا بهذا عرباً؟ وانا لاأقصد استصغار شأن العرب، بل أن (المستَعرَب) صار يضفي على نفسه قيمة ـ كما يرى ـ لأنه سينتمي ليس الى (قوم) الحكام فحسب، بل الى لغة وقوم ولغة الدين (القرآن) وكان هذا شأنه حين غيّب نفسه من بني قومه.

لكني لا أقبل أن تلوى رقبة الحقيقة، ويتجنّى أحد ما على إنتماء مدينتي التي ما زالت، بسبب موقعها الجغرافي، وكونها تتوسط سهلاً مترامية الاطراف، وبسبب تسامح أهلها المعروف، يعيش فيها الكرد والتركمان، والسريان (وسابقاً اليهود) وغيرهم، دون محاولة إقصاء أية جماعة، تحت أية ذريعة كانت.

نعود الى كلام الدكتور، فيحاول أن يستند على رواية تخص الحروب الصليبية التي شارك فيها المقاتلون من مختلف القوميات في العالم الاسلامى، الرواية لعمادالدين الكاتب الأصفهاني، أبرز مؤرخي عصر صلاح الدين، إذ يقول ـ كما ينقل عنه الدكتور: ان العماد الأصفهاني في كتابه (الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٠٠) اشاد في إشارته لمساهمة جيش اربيل بقيادة سلطانها مظفرالدين گوگبورى،

بشجاعة هذا الجيش الذي كان يتـألّف مـن ((فرسـان العـرب وشـجعان الاكـراد وفتـاك الترك)). ثم يضيف الدكتور مستنكراً قول الدكتور عبـدالقادر أحمـد طليمـات لـيعلن: ولقـد اسـتغربت مـن قـول الـدكتور طليمـات[٣] حـين قـال: ((ولـيس مـن شـك في أن مظفرالدين إصطنع جيشه الذي حارب به الصليبيين من الاكراد)).

انا استغرب أكثر حين أرى باحثاً مصرياً ينصـف حقيقـة وجـود الكـرد، عكـس بعـض بـاحثي العـراق، وهنـا أقـول، وعلـى مسـؤوليتي، ومـرة أخـرى، ان لاجـيش مظفرالدين گوگبورى ولا جيش قائده، وخال بنتيه ـ صلاح الدين يوسـف بـن أيـوب فيه أحد من (فرسان العرب). وقد ناقشني الاستاذ الدكتور خاشع عيادة المعاضيدى الذي كان عميداً لكلية التربية ببغداد التى عملتُ فيها عشرين سنة بالتمـام، ناقشـني كعضو في لجنة مناقشة أطروحتي في ١٩٨١/٢/٩، حول سبب تجاهلي لـدور العـرب في مجابهة الصليبيين ضمن جيش صلاح الدين، ظنّاً منـه انـي تجنيـت علـيهم وتجنبـت ذكر دورهم في جيش هذا القائد. فطلبت منه أن يزوّدني ولو برواية واحدة تتحدّث عن وجود العرب فيه ـ وحين سألني (أي الـدكتور خاشـع) عـن سـبب عـدم مسـاهمتهم. كان جوابي: المؤرّخون لا يذكرون السبب، لكن ربما يعود هذا إلى أن أصحاب الأرض ـ إذا شاركوا في الحروب دفاعاً عـن أرضـهم لا يـذكرهم المؤرّخـون، في وقـت يـذكرون الآخرين (أي الغرباء!). حينئذ ـ تبدّى لي ان العميـد المنـاقش قـد إرتـاح لجـوابي، فهتف: عفية أخ محسن(!).

ليس من شأن الباحث ان يختار الرواية التي تنسجم مع تفكيره ورغبته، او التي تعجبـه لتأكيـد وتأييـد وجهـة نظـره لوحـدها، فهـذه النظـرة الاسـتباقية، او لنقـل الانتقائية، تؤثر على مقام الباحث وتجعله أسير نظرته الاحادية، وتفقده مصداقيته. وهذا ما يحصل مع الدكتور سامي، فنألفـه يبحـث في ثنايـا المصـادر والمراجـع علّـه يعثر على ضالّته، ويتوافق مع مايرمي إليه. فالتقط من محمد أمين زكي حيث يذكر: ان فتنة وقعت باربل سنة ٦٩٦ هـ/١٢٩٧[٤] ضد المغول بتأييد مـن العـرب والاكـراد، الأمر الذي يدل على وجود العرب والاكراد معـاً باعـداد(!) مهمـة ليتسَـنّى لهـم القيـام بفتنة ضد محتل غاشم كالمغول.

ثم يقفز الدكتور الى أبعد من ذلك، الى عهـد المقـيم البريطـاني في العـراق جـيمس ريج ورحلته سنه ١٨٢٠ في أطروحة يعالج فيها تاريخ اربيـل في العصـر العباسـي(!).

والخطير في الأمر انه ((حرّف)) ما ذكره الرحالة. بقوله: ((الظاهر ان هذا الاختلاط بين العرب والاكراد قد إستمر في العصور المتأخرة. فان الرحالة الانگليزي Rich الذي زار اربل في تشرين الاول من سنة ١٨٢٦[٥] رأى بنفسه مضارب عربية كانت لقبيلة (حرب) خارج قلعة اربل في حين كان سكان المدينة كانوا من الترك والاكراد)) الواقع ان ريچ لايذكر عبارة (خارج قلعة اربل) فلم يذكر القلعة بأي شكل. بل يقول ما نصّه حين وصوله الى مشارف اربيل: ((أقمنا خيامنا عند كهريز، او قناة ماء تعود الى الحاج قاسم بك[٦] على بعد قليل من الجنوب الغربي من المدينة (وليست القلعة، وهي قلب المدينة النابض يومئذ، والفرق كبير بين (مشارف المدينة) وبين (قلب المدينة). يواصل ريچ كلامه ليقول: وقد خيّمَت قبلنا بالقرب منا جماعة صغيرة من عشيرة حرب العربية (وليست مضارب قبيلة عربية) وظهر لي ـ حسب وصف ريچ ـ ان العرب[٧] اناس قذرون صفر الوجوه، غير محبوبين[٨]، اما سكان اربيل فكرد وأتراك))[٩]، فاين الاختلاط في مرويّات ريچ، انه مسألة لوي رقبة الحقائق مرة أخرى.

يذهب الدكتور سامي بعيداً لابعاد الصفة الكردية، او الكردستانية عن اربيل وقراها، ويقول: ان (الترك) لا يزالون[١٠] يقطنون عدداً (غير قليل من قرى اربيل واترك تصويب (معلومته) للقاريْ، بل و (الترك) أنفسهم. وأرجو أن يدلّني باحث ما على قرية واحدة ـ لايزال ـ يقطنها الترك او التركمان. فوجود التركمان محصور على مركز مدينة اربيل[١١] والمهم عند هذا الباحث هوا ان اربيل ليست مدينة كردية، فهي (عربية) تارة، و (تركية/تركمانية) تارة أخرى.

ثم يعيدنا الدكتور في (سياحته المزاجية) الى محوره المفضل هو (عربية) اربيل، فيقول: للوقوف على المدى الذي استعربت فيه اربل، رأيت من المفيد تخصيص فقرة بعنوان (الوجود العربي باربل) وهدفي علمي بحت لاصلة له بأيّ مطلب سياسي (كذا).

يعود الدكتور الى عمق التاريخ: اربل مدينة آشورية(!)، والآشوريون ـ كما هو معروف من أصل سامي. ولكن الحروب والغزوات ـ على مايبدو ـ قد غيّرت الصفة السكانية للمدينة، رغم بقاء أقليات نصرانية في القرى التابعة لها، وهي في الأعم الاغلب أقليات آشورية او آرامية الأصل. اما المدينة فالظاهر ان الاكراد قد (تسرّبوا) اليها من الجبال المجاورة. ولم يذكرلنا الدكتور (تسرّب) العرب اليها من بلاد بعيدة

واحتلالهم اربيل باسم الدين ونشر تعاليمه ولغته، او كيف (تسرّب) التركمان باسم آخر، فالتسرّب – في فكر الدكتور – أمر خاص بالكرد. لأن العرب لم يتسربوا الى بقاع كردستان من الجبال المجاورة على اي حال(!)

الدكتور يلتقط من ياقوت الحموي بعشق غريب، لكنه يلتقط منه ما يرتاح إليه ويرفض بقية ما كتبه هذا البلداني البارز. او يرفض حتى ما ذكره غيره من البلدانيين، لأن ما ذكروه لا ينسجم مع مايهدف اليه. فاطلب من سيادته ان ينتبه الى ما دوّنه ابن حوقل، ابو القاسم النصيبي وغيره، الذي الّف كتابه (صورة الارض) قبل ياقوت باكثر من قرنين ونصف. يقرأونه بعينين مفتوحين ليعرف مدى الظلم الذي الحق بالكرد طيلة حياتهم، حين اضطّروا إلى ترك أجزاء واسعة من أطراف وطنهم الى الغزاة، عن طيب خاطر أحياناً(!)، ليقرأ كيف كان الوجود الكردي ـ على سبيل المثال ـ في كل من تكريت والموصل[١٢]، ليرى كيف (تسرّب) العرب اليهما والى غيرهما من مدن وأقاليم كردستان وغير كردستان، سابقاً ولاحقاً. وكيف غيّروا أسماءها، وإستخرجوا لبعضها اشتقاقات غير ذكية. يقول ياقوت عن لفظ (اربل) بأسلوب يختلط فيه الشك مع اليقين: ((فان كان اربل عربياً)) فهو من الرَّبل، حسب قول الأصمعي (اللغوي الكبير)، وبعدهُ ياقوت الحموي: والرّبل ضربُ (نوع) من الشجر، إذا برد الزمان عليه وأدبر (رحل) الصيف تفطّر بورق أخضر من غير مطر[١٣]

للحموي الحق في اشتقاقاته وتخريجاته، لأنه لايعلم ان المدينة كان لها وجود منذ وجود السومريين، وربما قبلهم، فهي (اربيره، اربيليون، اربائيلو، اربيلا، اربل، اربيل، ايرول، هەولێر.. الخ) وبالمناسبة فليست لاربيل علاقة ب(مدينة الأربعة آلهه اربائيلو) كما كان يذهب الى هذا بعض الدارسين، وبينهم الدكتور سامي وبالتالي فان المدينة ليست آشورية ولا سامية.

الفاتحون العرب إن كانوا قد هجّروا سكان مدن، وغيّروا أسماء بعضها وعرّبوا أخرى، فانهم لم يستطيعوا ذلك مع اربيل، لكن اهلها حين دخلوا الدين الاسلامي، وصارت مدينتهم جزءاً من العالم الاسلامي، بدأ البعض منهم بتعلم لغة أهل الدين، ثم صارت لغة الثقافة والادارة.. الخ. نعم مدن كثيرة، لاتحصى تم تعريبها سواء في العراق او بلاد الشام ومصر وبلدان شمال افريقيا والاندلس وموريتانيا والسودان.. الخ. وحين استوطنوا بعض تلك (الديار)، بينها ديار الكرد، جعلوا كل بقعة او ديار

خاصة بالقبيلة التي صارت سادت المنطقة وصار السكان موالي لهم (اتباعاً للعرب) وأطلقوا عليها اسم القبيلة، فهذه (ديار بكر) وتلك (ديار ربيعة) او (ديار مضر) فغطّت التسمية على الاسم الحقيقي، فحذف رسمياً اسم (آمد) فصارت (ديار بكر) مثلاً، وهكذا.

وربما طالب أتباع هذه المدرسة، من أحفاد المحتلّين، بأحقيتهم في هذه المدن والديارات، رغم أنف سكانها، ورغم أنف الحقيقة. وانا شخصياً لي تجربة مع استاذ (پروفيسور) كان عميداً للكلية التي عملتُ فيها طيلة عشرين حولاً في بغداد – عدا الدكتور خاشع المعاضيدى المذكور، حين رفض ان تعتبر بلدة (جەزره/بوتان) التي اطلق عليها العرب فيما بعد تسمية (جزيرة بن عمر) بلدة كردية[١٤]، ولجهله بالتاريخ والجغرافية معاً، أعلن انها ليست كردية، ولايهمه إن أصبحت عربية او تركية، رغم انها تقع في كردستان الشمالية ((في تركيا)). نعم رفض الاستاذ الدكتور عبدالرحمن نجم العاني، مع أنّي قدّمتُ له المصادر التي تُجزم كردية البلدة، بينها ما كتبه ياقوت الحموي وما كتبه المستشرقون بينهم (سخاو و مينوريسكي) في دائرة المعارف الاسلامية التي ترجمت الى لغات عديدة، وغيرهم. وأصرّ العميد على انها عربية بسبب اسمها. قلت له: ان التسمية لا تقف لوحدها لاثبات حقيقة إنتماء المدن، وبغداد اسمها ليس عربياً، ولا داعي لذكر مدن صار يسكنها ويحكمها عرب، وكانت موجودة قبل الاسلام بمئات وآلاف السنين. اراد الخبير العميد ان يحسم الموضوع معي، فأعلن انها بلده عربية وانتهى الأمر.

وكنت قد نشرت بحثاً في المجلد العاشر من مجلة الهيئة الكردية في المجمع العلمي العراقي عام ١٩٨٣ تحت عنوان ((ابن الأثير يؤرخ حوادث عصره غير السياسية (ص ٤٦٢ ـ ٤٩١) فيه أخبار الكوارث الطبيعية التي حدثت خلال حياة هذا المؤرخ الكبير، من قبيل الزلازل والاعاصير والفيضانات وهجوم اسراب الجراد... الخ. بعد نشره قدمته الى لجنة التعضيد في كليتي في بغداد، فاحالته اللجنة الى الخبراء، وكان أحدهم العميد المذكور، وقلّما كان يقوّم البحوث لمشاغله الكثيرة الحزبية والادارية، كما أعلمني بذلك بنفسه. كان جواب اللجنة رفض تقويمه، إلاّ إذا ((صوّب)) الباحث ((الاخطاء)) الواردة فيه، الاخطاء ليست علمية، ولم تكن منهجية، ولاعلاقة لها بلغة الباحث، او بجوهر الموضوع. بل تخص بانتماء تلك البلدة المغدورة، فبلدة جزيرة

ابن عمر بلدة عربية ولا علاقة لها بالكرد(!) فعليّ أن أصّوب الاخطاء (التي ورّطتُ نفسي بها!) وأنشر تصويباتي في العدد القادم من المجلة المذكورة، وإلاّ سيُحجب عني مبلغ المكافأة.

الأمر المعهود ـ ولايزال ـ أن لايعرف الباحث اسم الخبير، ويبقى سراً مكتوماً. إلا أن العميد تعمّد أن يستفز مشاعري، ويستهين بسرّية الاسم، فاوقفني عند الممر الذي يفضي الى غرفة العمادة، غرفته، وكشف عن نفسه، وعن دواخله.

وقلتُ له: يا دكتور ان تركيا لا تعترف بوجود كردستان، فهم واصلوا إلحاق ارض كردستان الى بلادهم، كما ألحقوا لواء الاسكندرون السورية عام ١٩٣٦ إليها.

وتأسيساً على ما سبق، فالدكتور سامي الصقار لا يختلف توجهه عن توجه الدكتور عبدالرحمن العاني. واقول لهما: قليلاً من الانصاف، ايها الأخوة. فالكرد لم يتسرّبوا لا الى اربيل ولا الى مدينة (جزره/بوتان ـ عاصمة امارة بوتان الكردية، وقبلها المروانية) فهما مدينتان كردستانيتان، وقد حاول العنصريون العرب والترك إضعاف الوجود الكردي فيهما، وفي غيرهما، عبثاً، رغم أنهم نجحوا في مدن كثيرة أخرى، على غرار تكريت والموصل، وأضيف هنا كركوك، فالذي تَسرّب الى هذه المدن ليس الكرد، بل غير الكرد.

أكمّل تقوّلات الدكتور سامي عن (المتسربين) لنعرف من تسرّب ومن فرضت عليه لغة وثقافة الآخرين باسم الدين تارة، وباسم (الوطن الواحد) تارة ثانية، وثالثة.. الخ وهذا ما يؤكده كلام ياقوت حين أعلن: بأن أكثر أهل أربل من الاكراد وقد استعربوا، وهذا معناه ان ياقوتاً، لدى زيارته لهذه المدينة التى تمت قبل سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م وهي سنة وفاته[١٥]. وجد كما يقول الدكتور ـ أهلها عرباً (كذا) في لغتهم على الأقل، وهذا طبيعي جداً(!) إذا ماتذكّرنا بانّ اللغة العربية بفضل القرآن كانت قد طغت في كل بقعة بَلَغَها الاسلام، من الهند الى الاندلس، وأصبحت لغة التخاطب والتفاهم...

اعود لأدحض مغالطات الاستاذ الدكتور سامي: غير صحيح أن يكون ياقوت وجد أهل اربيل عرباً، والمفروض ألاّ تبلغ عنصرية الدكتور، ولا اقول أكثر، هذا الحدّ الشنيع. فياقوت يذكر بوضوح أن أهل اربيل يتحدّثون باللغة الكردية، فذكر قصائد لشاعر مغمور (ربما أراد الشهرة وطلب المال) هو (نوشيروان البغدادى) المعروف ب

(شيطان العراق) الضرير. ذكره ياقوت في معرض حديثه عن مدينة (اربل)، فنشر قصيدتين، إحداها في ذم هذه المدينة، والاخرى في الاشادة بها وقد حصل الحموي على القصيدتين في إحدى زيارتيه لاربل، فقد زارها في (٦١٣هـ/ثم ٦١٧هـ) أي مطلع القرن الثالث عشر الميلادي. القصيدة الأولى فيها عشرون بيت هجا فيها اربيل وأهلها، كما تحّدث عن أسواقها (بازارها) مشيراً الى الألفاظ والكلمات الكرديه بلهجة اربيل، وأخرى بالعربية بلهجة بغداد، على سبيل السخرية، ويندب. حظه العاثر الذي ساقه الى مدينة خلت من كل خير، حسب تعبير هذا الشاعر الشيطان.

كان ذمه لاربل في شعره مقصوداً، وقاله بتحريض أحد وجهاء الموصل، مقابل هبة[١٦] وقد أغواه جهله المركّب، حسب تعبير باحث مختص بالادب واللغة الكردية[١٧]، ودفعه على إلصاق صفات بذيئة بالأرابلة، والاستهزاء باسماء[١٨] أهالي المدينة التي كانت سائدة فيها عصرئذ.

اما القصيدة الثانية التي دوّنها ياقوت الحموي فكانت في تسعه عشر بيتاً، وعبرّت عن ندم الشاعر البغدادي في هجوه للمدينة، والتمس فيها الغفران والاعتذار من الأرابلة مشيراً الى أن شيطانه أغواه على التمادي في تصرّفه الأحمق كما يقول بنفسه. ولتأكيد ندمه كرّس أبياته لهجو نفسه، والحط من سمعته وسمعة اسرته حتى سمعة أمّه. نقتطف منها هذه الأبيات (وعلى بحر الشعر السابق نفسه):

قد تاب شيطاني وقد قال لي: لا عُدتُ اهجو بعدها اربلا
فقلتُ مافي الموصل اليوم لي معيشةُ، قالت: دع الموصلا
وعمّتي قادت على خالتي، وأمّي القحبةُ رأس البلا
يا اربليين اسمعوا كلمة، قد قال شيطاني واسترسلا:
فالآن عنكم قد هجا نفسه، بكل قولٍ يخرسُ المِقوَلا.. الخ

اعود الى ما أثرت حوله من سؤال، عن تسرّب الفاتحين الى أقصى أرض كردستان الشمالية، انهم إستطاعوا أن يتسّرَبوا إلى مادون تلك الديار، وقد ذكرت تكريت والموصل على سبيل المثال. يقول ابن حوقل (ابو القاسم النصيبي الموصلي البغدادي، الذي توفي عام ٣٥٧هـ/٩٧٧م، عن تكريت لدى حديثه عن مدن اقليم العراق، فيذكر القوس الذي يبدأ من واسط من حد العراق ثم الى حد الجبل فهو

قليل العمارة، وفيه قرى مفترشه والغالب عليها الاكراد والاعراب ((البدو)) وهي مراع لهم.[١٩]

وعن الموصل ـ اكبر مدن اقليم الجزيرة، فيشيدُ ببساتينها وأبنيتها المشّيدة بالجص والحجارة، ثم يتحدّث عن خططها وفنادقها وحماماتها وساحاتها. ثم يقول ((ولها بوادٍ ((جمع بادية)) وأحياء كثيرة، تصيّف في مصايفها وتشتو في مشاتيها من أحياء العرب وقبائل ربيعة ومُضر واليمن، وأحياء الاكراد كالهذبانية والحميدية واللارية))[٢٠]. ثم يقول: والموصل مدينة قَصده (أي يقصدها ابناء الاطراف) ففيها اسواق وضياع وبها خير ورخص ومنها يمتار الاعراب، وينزل في نواحيها الاكراد))[٢١]

وهكذا، فالكرد ((سُرِّبوا)) من مدنهم المتاخمة للمواقع التي صار يسكن فيها القادمون من جوف الصحراء، وليس ـ كما يقول الاستاذ ((تسربوا)). وربما كانت كردستان أحد أبرز الأوطان التي تقلّصت أرضها عبر الزمن، واستوطنها الأغراب على حساب أهلها الذين كانوا متسامحين متساهلين مع المتسرّبين، لأن الكرد إعتبروهم أخوتهم في الدين والوطن، وأن ظروف الكرد اضطرتهم الى (الانسحاب) من مدنهم وبلداتهم، وبسبب قوة وشكيمة (الأخ الاكبر) كما صار شأنهم في مستوطناتهم الجديدة.

في واقع الأمر يتحمّل الكرد قسطاً غير قليل من المسؤولية، حين هُجّروا من ديارهم في كلتي الحالتين، ففي الحالة الاولى صار تسامحهم نوعاً من الضعف وتهوين حقوقهم بمرور الزمن، فالكرد لم يدخلوا الدين الاسلامي لكي يتحوّلوا الى عرب، ويغادروا وطنهم الذي صار يتقلّص بمرور الزمن. وفي الحالة الثانية كان ضعفهم سبب قوّة الغزاة. ولعلَّ أهم أسباب هذا الضعف هو عدم تماسكهم، تمزقهم، عدم مبالاتهم لما يحصل لهم، وتصوّرهم ان سياسة التهجير مسألة إبتلت بها القبيلة الأخرى التي هي غريمهم، بلدة أخرى، ولا تخصّ (قبيلة) هُم، (مدينة) هُم، ويستبعدون ـ لقصر نظر بعضهم ـ أن يشملهم، وقصر النظر سببه قوة الروح العشائرية، وضعف الشعور الوطني والقومي، بسبب ـ وبنتيجة ـ قوة تلك الروح ذات الأفق الضيق. وإعتبارهم لمدينتهم وطناً، وسواها ليس الوطن وهذا يعني ان القبيلة (والمدينة) تحوّلت الى وطن، واختزل الوطن في قبيلة أو مدينة واستمرأوا هذا الوضع، وهو السبب الأساس في عدم وجود كيان لهم. صار الكرد مسلمين اكثر من غيرهم، فاستحقّوا ((نعوت))

العنصريين الذين يستغربون من وجود الكرد في مدينة كبيرة هي مدينتهم. فجعلوا هذه المدينة آشورية، وهي ليست كذلك، بل هي أقدم من وجود هؤلاء او يجعلون سكانها عرباً تارة، تركاً تارة أخرى، رغم بعدها عن وطن العرب ووطن الترك، هؤلاء الذين تسرّبوا الى مدن الشرق الاوسط منذ بعض القرون.

تبلغ مغالطات الدكتور سامي ذروة بعد أخرى، فيقول: ان السلطان الخوارزمي محمد بن تكش كان يقول الشعر باللغة العربية، وان الخوارزميين الذين وردوا الى اربل كانوا على حظ كبير من معرفة العربية.

لماذا يقول هذا الاستاذ مثل هذا الكلام؟ انه يقوله لكي يبرهن ان من يعرف العربية وينظم شعراً بالعربية يغدو عربياً وانا ـ صاحب هذه الكلمة ـ أُنظّمُ شعراً بالعربية منذ اكثر من اربعة عقود، وعلى حظ اكبر ـ في نظري ـ من حظ الخوارزميين ـ في معرفة العربية، فهل أصبحت وأصبح قبلي الخوارزميون عرباً(؟). ويستمر الاستاذ على هذا النمط من ضيق الافق، وبأسلوبه غير اللائق، ويضيف: فلم يكن بوسع اربل أن تشذ عن بقية الأقاليم الاسلامية، و(تتخلف) عنها. ويضيف: ((لاسيما وأن اربل قريبة من عاصمة الخلافة بغداد)). انه استرسل في أمانيه اكثر. فاربيل أبعد مدىً من مدن مندلي وبدرة وجصّان وخانقين وجلولاء والسعدية وكلار وكفري وكركوك، لكن هذه المدن لم تتحوّل الى مدن عربية. ثم يقول علاوة على قرب اربل من الموصل عاصمة الاقليم الشمالى ((كذا)). يتعيّن على الدكتور أن يصوّب معلوماته، فالموصل تحيط بها بلدات عديدة يسكنها الكرد المسلمين واليزيدية، والتركمان (تلعفر مثلاً) إضافة الى الأخوة المسيحيين لكن هذه المدن قاومت التطهير العرقي وحافظت على لغتها وثقافتها، رغم قربها من (عاصمة الاقليم الشمالي(!)) حسب وصفه للموصل.

لم يستطع الدكتور ان يواصل تقوّلاته الى النهاية، فيقرّ ليقول ((صحيح ان اربل لم يتولّها أحد من العرب(!) إذ المعروف ان حكام اربل من آل ابي الهيجاء كانوا من الاكراد، وأن آل بكتگين كانوا من التركمان. فالدكتور يريد أن يقول أن اربيل تم تعريبها في العصر العباسي، لكن تولّى أمرها الكرد الهذبانيون والترك من اسرة گوگبورى.

والاقرار الآخر يقول فيه: ((لكن ذلك لا يغيّر من الواقع بان قبائل عربية، او عوائل عربية على الأقل، كانت قد (استوطنت) اربل منذ عهد بعيد وربما عقب الفتح الاسلامي)) إذن رغم سياسات التعريب بقيت المدينة تحت سلطة أبنائها، ولم يصبح العرب ـ ذات يوماً ـ حكاماً على اربيل. لأن العرب لم يكونوا سوى مستوطنين في وجودهم الواهي.

وهذا الوجود حصل بسبب تعلّق الكرد بالدين الذي اعتنقوه ولاندري إن كانت (عروبة اربل) ـ حسب (اعتقاد) الدكتور، يعود سببها إلى (إستعراب اربل) ام الى وجود عرب مستوطنين في ديارهم؟ وفي كلتا الحالتين يصبح الوجود العربي في هذه المدينة غير شرعي، لأنهم دخلاء.

يعود الدكتور الى مقولته الاساسية لتعريب اربيل ويقول: ((ان الشخصيّات العربية التي برزت في اربل ينتمون الى أرومة وأصول عربية. وهذه الأصول تعود الى قبائل الشيباني، النخعي، الطائي، الخزرجي، الخزاعي، الأنصار، الأموي، الفزاري، والعقيليون..)) يا ترى هل يتحّدث الدكتور عن اربيل أم عن مدينه الموصل التي استوطنتها هذه الجماعات. والواقع ان الدكتور سامي الصقار ضرب الأمانة العلمية بمفاصلها وجزئياتها وحرّف أمور التاريخ، دون مقدرة، لجهة إنتمائه العرقي، وأمانيه وعواطفه.

فيا ترى أين ذهبت تلك (الأرومة) كلها، وكيف إختفت عن مسرح اربيل، ومتى؟ فالدكتور سامي يعرف جيداً بطلان مذهبه، ولهذا لم يشر الى مصدر واحد او مرجع ولو هزيل. وطروحاته الغريبة شبيهة لأحد الكتبة الذي نشر مقالاً مستفزاً للمشاعر، تنفرمنه الحقيقة في مجلة بيروتية تحت عنوان ((هذه القبائل الكردية أصلها عرب)) ولاادري لماذا لم يجعل الدكتور مصدراً لاطروحة دكتوراه. هذا المقال ترجمه أحد الكتبة الكرد، لاسامحه الله. الى اللغة الكردية، وتم نشره في مجلة (رۆشنبیری نوێ) دون معرفة او اطلاع هيئة تحريرها وكنا ضمن تلك الهيئة، فما كان من بعض اعضاء الهيئة إلا تقديم استقالتهم الى المدير العام للثقافة والنشر الكردية في بغداد، وكانت المجلة ضمن إصدارات المديرية ببغداد. وبعد إلحاح الأعضاء تم حذف المقال المترجم السّيء الصيت، لكن بقي عنوانه في الغلاف الداخلي للمجلة.

كما ان تفاصيل اطروحته لا تختلف عن طروحات كتاب مؤدلجين عنصرياً، ممن يحاولون الطعن في الانتماء الكردي، او في وطنهم، او في وجودهم في مدنهم، وفي أسماء قبائلهم، وحتى في أخلاقياتهم، خاصة طروحات الأستاذ الدكتور ناجي معروف المغرقة في عنصريته ومذهبيته المقيتة، ولاسيما في كتابه المليء بالمغالطات ((علماء ينتسبون الى مدن أعجمية وهم من أرومة عربية)) ففيه جعل العلماء المسلمين وغير العلماء ـ عرباً، ونفي وجود غير العرب بينهم. كأن الثقافة الاسلامية لم يساهم فيها، وفي إغنائها، غير العرب. وإذا واجهت أحد هؤلاء بقولك: ان غير العربي نأى بنفسه في ذلك الاسهام والاغناء لأن الثقافة الاسلامية ثقافة خاصة بالعرب، لأن الدين الاسلامي دين عنصري خاص بالعرب، حسب نمط تفكير هؤلاء الضيّق. عندها ينبرون للرد عليك، وبأن فلانا وفلانا من العلماء والمفكرين كانوا من غير العرب. فالاسلام لا يفرّق بين عربي وأعجمي إلاّ بالتقوى، وهكذا يفسّرون الحقيقة حسب مايريدونها ان تكون، وكما تحلو لهم وتخدمهم.

هنا تطابقت طروحات الأستاذ الدكتور سامي مع أستاذه الدكتور ناجي معروف ـ وبالمناسبة اذكر أن الدكتور سامي وجّه تحيّته عبر الرسالة التي بعثها لي عام ١٩٧٣ خلال مراسلتنا، الى أستاذه ناجي لوحده، دون غيره من أساتذة قسم التاريخ، فكانا، مع غيرهما، يجمعهما نفي وجود الآخر، سواء أكان الآخر كرداً او غير كرد، ونفي إسهامهم في إغناء الحضارة الاسلامية في العصر الوسيط.

وأخيراً، فان العقلية التي سيّرت الدكتور سامي الصقار هي التي اثارت السؤال الذي طرحته في مقدمة كلامي، حول ((ايجابيات كتابة تاريخ مجتمع ما إذا كتبه باحث غريب، لأن كتاباتهم قد تتّسم بموضوعية اكثر من موضوعية أبناء البلاد... فنظرتهم قد تتميّز بتجرد اكثر)) وهذا الأمر لم يحصل مع الدكتور. وقد ذيلّتُ كلامي ب ((إلا إذا كتبوا بنظرة مسبقة تخدم أهدافاً معيّنة)). كما هي الحال مع أطروحة دكتوراه.

المصادر

(١) معجم البلدان. طبعة دار صادر. بيروت، طبعة ١٩٩٥/٢، ص: ١٣٨.

(٢) نعتقد، وليس نظن(!) كما (يعتقد) الدكتور ضمن معتقداته.

(٣) د. سامي، امارة اربل، ص ١٩٦.

(٤) رغم ان المفروض منه الايذكر هذا الحدث لأنه يقع خارج فترة بحثه، سواء (العهد الاتابكي) الذي انتهى مع وفاة مظفرالدين گوگبورى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م، او (العصر العباسي) الذي انتهى مع سقوط بغداد العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. وكان على الدكتور ان يذكر المصدر الذي إستقى منه محمد امين زكي هذه المعلومة، الهامشية غير المهمة، ويعتبرها الدكتور مهمة.

(٥) المعروف ان ريچ مات في ٥ تشرين الاول ١٨٢١. انظر كتابه (رحلة ريچ) وحياته. هامش ١٨ ص ٢. طبعة ٢٠٠٨/٢ الدار العربية للموسوعات. بيروت.

(٦) والد المرحوم يعقوب آغا كبير وجهاء اربيل، وأحد شعرائها البارزين. المترجم.

(٧) ربما قصد البدو أصحاب الخيمة ممن كانوا يبحثون عن الكلأ لمواشيهم، ولعلم الدكتور فان الكرد، بسبب شعورهم الوطني والانساني، مازالت قيادتهم لا تمانع من وصول هؤلاء العرب لرعي مواشيهم حين تجف مراعيهم قبل مراعي المناطق المتاخمة لمضاربهم.

(٨) غير محبوبين: يقصد من سكان المدينة.

(٩) رحلة ريچ، ص ٣٢٢.

(١٠) وكأنه يتحدث في التاريخ المعاصر، وليس في العصر العباسي.

(١١) هؤلاء التركمان الذين صار البعض يطلق عليهم، في السنوات الاخيرة، تسمية جديدة، هي (الاربليَون القدماء، او الاربليّون الأصليون ـ هەولێريە كۆنەكان) لتفادي تسميتهم باسمهم، او باسم اللغة التي يتحدثون بها. والواقع ان التسمية الجديدة تكسبهم قيمة اكبر. وهذه المسألة يغضّ الكثيرون الطرف عنها، او عدم مناقشتها او الكتابة عنها، لتفادى إلصاق ((تهمة ما)) ممكنة بهم، وهذا شيء مؤسف حقاً.

(١٢) ويقول گى ليسترنج، إستناداً الى وصف إبن حوقل ـ في (بلدان الخلافة الشرقية): الموصل بلدة طيّبة عامرة الأسواق، نواحيها ورساتيقها كثيرة الخيرات، ومن ذلك رستاق نينوى، وفيه قبر النبي يونس، وكان جل أهلها في المئة الرابعة (هجرية/ العاشرة ميلادية) من الاكراد.

كتابه: بلدان الخلافة. ترجمة بشير فرنسيس و گورگيس عوّاد. اصدارات المجمع العلمي العراقي.. بغداد. ص: ١١٦.

(١٣) كان العرب يطلقون عليها (جزيرة الاكراد) ثم غيّر الخليفة العباسي المأمون إسمها حين أقطعها لرجل يدعى (ابن عمر).

(١٤) ياقوت: ١٣٧.

(١٥) بالتأكيد قبل سنة وفاته (وليست بعدها!) ثم ان ياقوتاً زار اربيل مرتين، وليست مرة واحدة.

(١٦) يذكّر هذا الكلام بما ذكره مؤرّخ الجليليين بالموصل (ياسين أفندي العمري) في ذم الكرد، لاسيما أهالي العمادية مقابل عطية (هبة) خسيسة من الوالي في الموصل الذي كان على عداء مع أمير العمادية. يقول العمري: رأيت أبي آدم في المنام، قال لي: ان أمّكم حوّاء طالق إذا كان الاكراد من نسلي.

(١٧) انظر البحث القيّم الذي نشره الصديق الراحل الاستاذ الدكتور عبدالله محمد حدّاد، في العدد (١٣٠) من مجلة رۆشنبيرى نوێ، بغداد/١٩٩٣. ص: ٣٤ ـ ٤٠.

(١٨) ياقوت الحموي، ص (١٣٩) مثل: علكو، خوشترى، موسك، ممّو.. الخ فهل هذه الاسماء عربية؟ نعم اكثرها عربية ثم تحوّرت لتستقيم مع اللغة الكردية.

(١٩) ابن حوقل، صورة الأرض. طبعة دار الحياة. بيروت/ ١٩٧٩. ص: ٢٢.

(٢٠) المصدر نفسه، ص: ١٩٥.

(٢١) نفسه ص: ١٩٦.

ريادة أربيل في الاحتفال بالمولد النبوي في عهد مظفرالدين گوگبورى(*)

المقدمة:

ما صحة ما قيل وكُتب عن ريادة اربيل في الاحتفال بذكرى المولد النبوي في العهد الأتابكي؟ ما صحة ما نشرته مجلة (الهلال) القاهرية قبل (١١٧) سنة عن دور هذه المدينة المدينة؟ كيف كانت الاحتفالات المشوّقة تجري فيها، وفق برنامج سنوي؟ ماذا قال بعض كبار مؤرّخي وكتاب العصر عن مشاهداتهم وانطباعاتهم، عنها وتكاليف الاحتفالات وما هو موقع گوگبورى فيها؟

البحث:

صادقتُ الاستاذ الدكتور عبدالطيف احمد علي، استاذ التاريخ الكلاسيكي الروماني بمعّية الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف استاذ تاريخ العصور الوسطى، وكلاهما من أستاذة جامعة الاسكندرية، وقد قدِما الى العراق في اواسط السبعنيات من القرن الماضي، للتدريس في قسمي التاريخ والآثار في كلية الآداب ـ جامعة بغداد.

حين عَلِمَ الدكتور عبدالطيف انى من مدينة اربيل، تذكّر ـ حسب إختصاصه واهتماماته بالتاريخ الروماني، وقبله الاغريقي معركة (اربيل ـ گوگميلا) التي دارت رحاها بين قطبي العالم القديم في القارتين ـ يومئذ ـ دولة الاسكندر الكبير، وبين داريوس الثالث امبراطور الدولة الاخمينية في بدايات العهد الرابع من القرن الرابع قبل الميلاد، والتي سمّيت باسم هذه المدينة.

ورغب الدكتور عبدالطيف أن يلمّ بالموضوع اكثر، فقلت له: انت استاذ في مصادر تاريخ اليونان و الرومان، وأنا بمثابة تلميذ لك، ولا املك سوى المصادر القليلة التي ذكرتُها في هامش رسالتي (اربيل في العهد الاتابكي). ولم تكن الرسالة

(*) نشر في مجلة (K21) العدد (٧) ٢٠١٠.

قدطبعت بعد، وعدته أن ابعث له نسخة منها حين يتمّ طبعها. شارك معنا في تلك الدردشه الدكتور جوزيف، وهو قريب الصلة، في اهتماماته البحثية ـ بالفترة التي عالجتها في رسالتي. فسأل: اتعني المدينة التي ازهرت في عهد سلطانها مظفرالدين گوگبورى. أجبته: نعم وبدأت أروي لهما قصّة اقامة احتفالات سنوية لمناسبة المولد النبوي.

وما ان رويتَ لهما شيئاً عن تلك الاحتفالات الا وانبرى الدكتور جوزيف ليقول: قرأت شيئاً عن ريادة اربيل في هذا المجال في أحد اعداد مجلة (الهلال) التي يعود اصدارها الي نهايات القرن التاسع عشر، وفيه شيء عن تلك الاحتفالات، لكن بشكل مغاير بعض الشيء عما تذكره انت.

ذكرت للاستاذ بأني بحثت تفاصيل ماحدث يومئذ في رسالة الماجستير مستنداً على مؤرخي ذلك العصرممن عاشوا في اربيل في عصر ازدهارها. لكن أن تنشر مجلة الهلال خبر الدور الريادي لمدينتي، فهذا مدعاة للفخر.

بعد اكثر من عقدين من الزمن، تسنّى لي لقاء استاذة مصريين آخرين، ومصادقة بعضهم، في جامعة مصراته في الجماهيرية الليبية، فتحدّثتُ مع بعضهم عما حصل في بغداد في لقائي مع استاذين من جامعة الاسكندرية كانا يعملان في قسمي التاريخ والآثار في جامعة بغداد.

ورجوت من الصديق الدكتور محمد سامي نوار أن يبحث لي عن عدد المجلة المذكور الذي نشر شيئاً عن احتفالات اربيل فوعدني بذلك. وأثناء زيارته لمصر نفّذ وعده مشكوراً، فراجع ارشيف المجلة، فعثر على العدد المطلوب.. ونشر النص في صحيفة (اخبار الأدب) القاهرية بتاريخ ١٩٩٩/٣/٢٨ يقول النص:

(إحتفل أهل القاهرة في (١٢ ربيع الاول سنة ١٣١١هـ – ١٨٩٣/٩/٢٢) بتذكار المولد النبوي الشريف، وكان الاحتفال ـ كعادته ـ من الزهوّ والزينة والبهجة والرونق في الساحة امام القصر العالي. ناب فيه عن الحكومة الخديوية سعادة وكيل الداخلية. ومن الغريب أننا لم نر ذكراً لمثل هذا الاحتفال في صدر الاسلام، ولا احتفل به احد من الخلفاء الراشدين والامويين، وأغرب من ذلك ان دولة الاكراد هي اول من احتفل به، ثم تطرّقت هذه العادة الى البلاد الاخرى. اما في مصر فقد دخلت على اثر

ظهورها في اربل، اي في زمن الملك الكامل الايوبي، وهو اول من احتفل بالمولد هنا، وتوالت بعده السلاطين والامراء.

(الهلال ـ اكتوبر ١٨٩٣).

وهنا احاول تصويب المعلومات التي وردت في مجلة (الهلال) العريقة قبل (١١٧) سنة. واقول كانت اربيل لها الريادة في تنظيم الاحتفالات ايام الملك المعظم السلطان مظفرالدين گوگبورى ابن زين الدين علي كجك بن بگتگين. لكنها ريادة تخصّ العالم الاسلامي كلّه في القسم الآسيوي منه. امّا في قسمه الافريقي فقد سبقتها مصر في العصر الفاطمي الذي دام قرنين من الزمن، وهذا أمر معروف لدى المعنيين بتاريخ تلك الدولة.

والخطأ الثاني هو اقحام زمن، اوعهد، الملك الكامل محمد، ابن الملك العادل سيف الدين ابوبكر بن ايوب بن شادي، أخو الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب، والملك الكامل محمد هو ثالث ملوك مصر الكبار من أسرة ايوب، بعد صلاح الدين (عمه) وسيف الدين (والده). وقد عاصر سلطان اربيل المذكور (گوگبورى) هؤلاء جميعا اذ حكم صلاح الدين مصر (وغيرها من البلاد التي فتحها وضمّها الى مملكته) حكمها بعد إنقضاء الدولة الفاطمية سنة (٥٧٠هـ) حتى وفاته سنة (٥٨٩ هـ – ١١٩٣م)، ثم اعقبه في حكم مصر اخوه المذكور (الملك العادل ابوبكر) حتى وفاته سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م)، وتلاه حكم إبنه الملك الكامل محمد بن ابوبكر، اما حكم مظفرالدين گوگبورى فقد بدأ سنة (٥٨٦هـ – ١١٩٠م)، حتى (٦٣٠ هـ – ١٢٣٢م)، ولهذا لم يكن الملك الكامل محمد هو اول من احتفل بالمولد النبوي في مصر.

إننا نثمّن مجلة (الهلال) المعروفة بتاريخها التليد، وبدورها الفريد في نشر الثقافة في مصر وفي خارج مصر، لكن علينا ان ننتبه الى المصادر التي عاصرت تلك الفترة.

نعود الى احتفالات اربيل الفخمة بالمناسبة الجليلة في عهد سلطانها الذي عُرف عنه تديّنه وتمسّكه باهداب دينه ومحبّته للرسول (صلعم). تلك المحبّة التي بلغت حدّ إحياء ذكرى مولده، باقامة إحتفال مهيب يليق بالحدث ينظّمهُ كل عام. فكان بذلك اول حاكم ـ ولمملكة صغيرة ـ ينظم تلك المراسيم، حتى اصبح تنظيمه عادة سنوية في اربيل، وقلّدتها الممالك الاسلامية فيما بعد.

يذكر ابن الشعار كمال الدين ابو البركات المبارك بن ابي بكر احمد بن حمدان (ت ٦٥٤ هـ – ١٢٨٦م)، في كتابه "قلائد الجمان، في فرائد شعراء هذا الزمان"، ان مظفرالدين گوگبورى إنفرد باحتفال لم يسبقه فيه احد من الخلفاء والملوك الحاضرين والمتقدمين، واختصّ به دونهم تبركاً بولادة الرسول، ولم يسمع في قديم الزمان وحديثه من الملوك والسلاطين من انتدب لهذا الامر سوى هذا السلطان.

وابن الشعار هذا عاش في اربيل ست سنوات صحبة مؤرخها الشهير ابن المستوفي، ايام الاحتفالات السنوية بذكرى المولد، وتولّى في هذه المدينة اعمالاً كتابية، كما يقول عباس العزاوي، وخلّد رجالات زمانه، وكتابه المذكور الذي الّفه يقع في عشرة مجلدات، لاتقل اهمية عن كتاب شيخه ابن المستوفي (نباهة البلد الخامل فيمن ورده من الاماثل)، ان لم يفقه اهمية، نظراً لفقدان الاجزاء الثلاثة من الاربعة من كتاب مؤرخ اربيل[١].

كانت الاستتعدادات تجري على قدم وساق، قبل اكثر من شهرين من موعد الاحتفالات، وكان مظفرالدين گوگبورى يتقدم العاملين في نصب القباب الخشبية (السرادق) ذات الطبقات المتعددة. وقد يصل عدد القباب الى اكثر من عشرين قبة، اضافة الى مجموعة من الخيام تنصب في الميدان. وهذا الميدان كان ـ ولايزال ـ يتوسط باب القلعة الرئيسي (البوابة الجنوبية) وبين (القيسارية المظفرية والخانقاه/ وهما من المنشآت التي شيّدت في عهد مظفرالدين گوگبورى الزاهر). فقد ذكر ابن خلكان ابن اربيل البار، ان القباب ذات الطبقات كانت تنصب بدءاً من باب القلعة الى باب الخانقاه المجاورة للميدان[٢].

---

[١] ايد (هـ. فوش H. Fusch) هذه الحقيقة انظر:

The Encyclopedia of Islam. Art: Mawlid. 1936, V,III, p 420.

كما ايد هذه الحقيقة (ادم متز ـ Adam Mez) في كتابه المعروف الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري. ترجمة د. محمد عبدالهادي ابو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، جـ٢، ص: ٢١٨ ـ ٢١٩.

ويقول كلودكاهين في مادة (بكتگين): لايستعبد ان يكون لاحتفالات النصارى المحليين في اربيل بعيد ميلاد السيد المسيح، او عيد القيامة تاثيرها في احتفالات اربيل بهذه المناسبة.

[٢] وفيات الاعيان وانباء الزمان.

ونصب الخيام كان لجلوس المدعوّين من ضيوف اربيل الذين يتوافدون اليها، من بغداد والموصل وسنجار ونصيبين ومن جزيرة بوتان (ابن عمر) وكذلك من بلاد بعيدة مثل بلاد فارس ومصر والمغرب والاندلس، وكانوا من رجال الفقه ومن المتصوفة والوعّاظ والقرّاء والشعراء والمنشدين[٣].

مع بداية شهر صَفر كانت الفرق الموسيقية تصدح بالتراتيل القرآنية والمنقبة النبوية والاناشيد الدينية في سماء المدينة، وتقوم جماعة من ارباب الخيال بعرض فنون المخايلة على شاشة، وتسمّى هذه الالعاب ب (فن القراگوز) في مصر. وقد ذكر الباحث في تاريخ هذا الفن ابراهيم حمادة: ان اقدم اشارة الى هذا الفن وردت من اربيل في عهد ملكها مظفرالدين گوگبورى اثناء احتفالات مدينته السنوية بذكرى المولد النبوي[٤].

اضافة الى العاب مسلّية وفعاليات طريفة كانت تستعرض، والناس يضربون طوقاً حول ساحة الاستعراض يتبارون في مشاهدة اللاعبين بفرحة غامرة، وكانوا ينقطعون عن اعمالهم وممارسة اشغالهم طيلة ايام الاحتفالات رغبة منهم في المشاركة والتمتع بأيام المهرجان السنوى.

اما صاحب اربيل گوگبورى فكان يدشن الأحتفالات، حين ينزل من القلعة في موكب حاشد بعد صلاة العصر، من كل يوم من ايام المهرجان، ومعه رجالات دولته وضيوفه المتقاطرين على المدينة، ويبدأون بالجلوس في الاماكن المخصّصة لهم، فتبدأ الفعاليات التي يتضمّنها البرنامج اليومي، فيستمعون الى أناشيد الفرق الموسقية، حتى يحين المساء فيغادرون مواقعهم ويذهبون الى الخانقاه للاشتراك في المنقبة النبوية التي تقام في حجرات وفي باحة الخانقاه.

في صباح اليوم التالي، وبعد صلاة الفجر، يخرج السلطان مظفرالدين الى الصيد، ومعه من يرغب في ممارسة هذه الرياضة والهواية، ويبدو أن اطراف وسهول اربيل كانت تغطّيها الاشجار والاعشاب فصارت مأوى لرعي الحيوانات البّرية ولطيور

---

[٣] لمعرفة شخوص الوافدين انظر: ابن خلكان، وابن الشعار، وكتابنا اربيل في العهد الاتابكي، ص: ٢٥٦ ـ ٢٦٧.

[٤] كتابه: خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال. المؤسسة المصرية للطباعة والنشر. القاهرة، ١٩٦١، ص: ٤٠.

الصيد، ولهذا اسمى ابن المستوفي كتابه الثمين في تاريخ اربيل (نباهة البلد الخامل) اي البلد المحيط بالخمائل، فالخميلة تعني الشجر الكثيف الملتف، او الموضع الكثير الشجر، وبعد انقضاء ساعات الصباح يحمل الصيادون طرائدهم ويعودون الى القلعة، قبيل موعد صلاة الظهر.

تتواصل أيّام البهجة في المدينة العامرة، وتسير الاحتفالات على هذا المنوال طيلة شهر صَفر وبداية ربيع الاول، حتّى تحل ليلة المولد النبوي، وعندها تبلغ الاحتفالات ذروتها وقمة إثارتها ولاسيما بعد صلاة المغرب في جامع القلعة الكبير. حين ينزل گوگبورى من القلعة الى الخانقاه في موكب مميّز، ويسير بين مجموعة من حملة الشموع المشتعلة، بينها شمعتان او اربع شمعات كبيرة، وقد وضعت كل شمعة على متن بغل يسندها رجل.

حضر ابن حلكان بنفسه هذه الاحتفالات التي صارت رمزاً لاربيل بين مدن العالم الاسلامي، وصار أبناؤها يتباهون بها. فذكر هذا المؤرخ، بلهجة شاهد عيان حين وصف تلك الشموع[٥].

بعد الانتهاء من تلك المراسيم يذهب المحتفلون لتناول ما أعدّ لهم من مأكولات، ثم يحضرون السماع الكبير (المنقبة) الذي يتواصل طيلة الليل حتى فجر اليوم التالي[٦].

وكان السماع يبدأ عادة بالسيرة النبوية، ثم قراءة قصة المعراج المعروفة. وقد الّف القادم من الاندلس ابو الخطّاب عمر بن الحسن المعروف بابن دحية البلنسي[٧]. كتاباً أثناء استضافته في اربيل هذا الموسم، سنة (٦٠٤هـ – ١٢٠٧م)، سمّاه «كتاب التنوير في مولد السراج المنير» اهداه الى مظفرالدين گوگبورى، حين رآه شغوفاً الى هذا الحد باقامة الاحتفال بهذه المناسبة. وقد تلا ابن دحية الاندلسي كتابه بنفسه

---

[٥] وفيات الاعيان، ٢٧٤/٣.

[٦] سبط ابن الجوزي، مرآن الزمان، ٦٨١/١٨.

H. H. Howorth, History of Mongols, V. III, P 133.

[٧] بلنسية: بلدة في ديار الاندلس تقع على الساحل الشرقي لاسبانيا على البحر المتوسط.

ابن الشعار، قلائد الجمان، سيرة ابن دحية، جـ ٥ ص ١٩٢ ـ ٢٠٧.

في حضور صاحب اربيل، فشكره على جهوده وتحمّله عناء السفر من بلنسية بالاندلس الى اربيل فأكرمه بالف دينار ذهب[٨].

وكان مؤرخ الادب المذكور ابن الشعار حاضراً لدى تكريم هذا الضيف فذكر: كنت احد من سمع هذا الكتاب اثناء تلاوته على الملك المعظم مظفرالدين گوگبورى، رحمه اللة تعالى[٩]. كما اعلن ابن خلكان انه سمع فحوى الكتاب في ست جلسات اثناء السماع، اي المنقبات النبوية، سمعه ضمن مشاركاته في احتفالات مدينته، وهو شاب يافع[١٠].

اسهب مؤرخو العصر، ومن اهتم بتاريخ اربيل، في ذكراصناف الطعام التي قدّمت لضيوف المناسبة. فقد اعدّت الاسمطة[١١]. لانواع الماكولات والطبخات من لحوم الغنم والبقر، وفيما يروى انه تم احصاء لحوم مائه فرس (قزلمش) اي لحم مقدّد بالتركية، على احد الاسمطة[١٢]. وخمسة الآف راس شوي، وعشرة الاف دجاجة، ومائة الف صينية، وثلاثين الف صحن حلوى[١٣]. رغم احتمال كون هذه الارقام مبالغ فيها، كما هي عادة بعض المؤرخين في كل زمان ومكان.

ومما يذكرونه في هذه المناسبة، نصب سماطين كبيرين، احدهما في ساحة الميدان لعامة الناس، والثاني منهما ينصب في الخانقاه، ثم يختمم برنامج الاحتفالات بتوزيع الخلع والهدايا على المشتركين فيها، من القرّاء وللفقهاء والوعاظ والشعراء والمنشدين، خاصة القادمين منهم من بلدان بعيدة.

وعن تكاليف الاحتفالات السنوية هذه يذكر انها بلغت ثلاثمائة الف دينار، وهو مبلغ ضخم ولاشك، بالنسبة لقيمة الدينار قبل نحو ثمانمائة سنة، وربما اثرت على وضع امارة اربيل المالي..

---

[٨] ابن خلكان ١٢٢/٣، و ٢٧٥/٣، وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣٧/١٣، الفاسي الملكي: ١٠٥/٧.

[٩] المخطوط، المذكور، ١٥٦/٥.

[١٠] وفيات الاعيان، ١٢٢/٣.

[١١] السماط: مايبسط ليوضع عليه الطعام.

[١٢] سبط ابن الجوزي، ٦٨١/٨.

[١٣] سبط : ص. ن. الذهبي:

مخطوط تاريخ الاسلام

بسالة واساليب قتال الفرنجة
و فشل مشروع إحتلال الحجاز(*)

المقدمة:

اتخاذ موقف مُسبق من حدثٍ تاريخي مايجعل الباحث لايرى جوانب (موضوعه) كلها، ولاسيما حين يكون (الحدث) يخصّ طرفاً آخر، او إذا كان هذا الآخر مخالفاً لانتماءات الباحث المختلفة، أو عدواً.. فعليه ـ قدر المستطاع ـ ان يقف على مسافة واحدة من تلك الاطراف، او لاينظر الى موضوعه بإحدى عينيه، كمحاولة لغضّ النظر عن إيجابيات الآخر، وموضوعنا يخصّ حقيقة جماعة توجَّهتْ من الغرب الى المشرق الاسلامي في حملات عسكرية، في محاولة لاسترجاع ما فقدته من مواقع قبل مئات السنين، ولاسيما في الشام ومصر ـوالتي كانت تضم مدناً لها قدسيّتها عندهم، خاصة في فلسطين، (الناصرة، بيت لحم، وبيت المقدس ـ اورشليم).

فهل كان الزاحفون ـ حسب النعوت التي ألصقت بهم ـ محتلين، شذّاذ آفاق، كفرة، عبدة الثالوث، وهل كانوا جبناء؟ وتسميات أخرى بعضها ـ في الاقل ـ بعيدة عن الحقيقة؟ أم كانوا أصحاب قضية، وعلينا ان نتصّفح المصادر بدقّة لمعرفة المزيد عنهم؟ فهذه محاولة للرد على السياق غير الموضوعي الذي يهدف الحط من مكانة الزاحفين؟ كما تبحث عن أساليب قتالهم، وأخيراً عن المغامرة التي قادها من عرف بانه كان أشرس أمرائهم (رينو دي شاتيون ـ ارناط) لاحتلال الحرمين، والتي قضى عليها صلاح الدين يوسف بن ايوب، وأخوه سيف الدين أبوبكر.

البحث:

ديمومة احتلال أرضٍ ماتجعل المحتل يستمرىء العيش عليها، بل تصبح تلك الارض، مع مرور الزمن، وطناً لهم، ولاسيما لأبناء الأجيال التالية الذين يولدون عليها، لأنهم لايعرفون أرضاً غيرها، أوليْسَ من أجل إتخاذ أرض الآخرين، وطناً لهم

(*) نشر في مجلة (الأكاديمي) التي تصدرها الأكاديمية الكردية في أربيل. في العدد (١٥) سنة ٢٠١٠.

تنشب الحروب، وتسفك الدماء، وتدمّر الأوطان، وتهدر مقدّرات الناس على شراء أسلحة تدمير الاخرين؟ اوليس الدفاع عن الارض هو الوجه الآخر للحروب، ونوعاً من أنواعها؟ وبالتالي فان العكس يصّح حين يتذرع مشنوّ الحروب بحجج دفاعية، او يجعلون من نشر الدين والدفاع عن القوم او الوطن مبرّراً لاندلاعها.

الواقع ان الحروب لاتشن إلاّ بعد حدوث ـ او إحداث ـ حالة من الغضب لدى القوى المتحاربة تفضي الى توتّر العلاقات بين الطرفين، فيستعدان للقتال، بعد أن هزمت لغة الحوار وتمّ خنق منطق السلم. فالعلاقات بين الجماعات لم تخرج عن هذه "القاعدة". فقد تعددّت الاسباب والحرب حرب، هي إزهاق النفوس، وانتحار. ربما ينبري أحدهم ليقول ان ثمّة فرق بين حرب عدوانية وحرب دفاعية، وهذا صحيح ـ لأول وهلة ـ فالدفاع عن الذات عمل مشروع، لكني أريد القول: ان لولا أطماع (القوي)، لولا الحرب العدوانية لما وجدت الحرب الدفاعية، حروب التحرير، فنريد أنّ نقول ان الحروب مدانة، ففيها القتل والخراب والجوع.

وحين ينتصر أحد الطرفين، ولافرق في منظور فلسفة التاريخ بين من كان المنتصر، فهو يفرض أحكامه، ويكتب تاريخ، ماحصل، والتاريخ لايكتبهُ ألاّ المنتصر ... إلاّ القوي عدا حالات نادرة.... والقوة قد لاتكمن في قوة المحارب المعنوية، حين يقتنع ـ المحارب ـ ربما بقوة منطقة او بقوّة إعلامه، او بقوّة الجوع والعطش، فيرى نفسه محقاً في الاندفاع نحو الآخر. ولهذا فان التحدث عن الحيلولة دون إندلاع الحرب ثرثرة ولغو لاطائل تحته، فينبغي البحث عن أسبابها، وظروفها للحيلولة دون قيامها، او جعلها وسيلة لحل المشاكل بين الجماعات.

اندفع الفرنجة (الصليبيون)[1] نحو الآخر الذي سبقَ أن غزا، أن فتح، او حرّر سمّه كما تشاء، أرض أجداد الصليبيين، أجداد نصارى الشام، وضمّوا ـ أي المسلمون ـ أرض فلسطين، أرض المقدّسات، حيث فيها بيت لحم، والقدس، والناصرة، ونهر الأردن حيث تمّ تعميد السيد المسيح في مياهه.

---

[1] مصادر المسلمين في تدوين التاريخ اطلقت اسم (الفرنجة) على الصليبيين. لأن الثاثا الذي دعى الى شنّ الحرب على المسلمين كان فرنسياً وعلى ارض فرنسية في بلدة (كليرمونت)، وبلغته الفرنسية. أما تسميتها بـ(الحروب الصليبية) فتمّت في القرن السابع عشر.

هذا القادم من جوف الصحراء.... من جزيرة العرب، استطاع أن ينتصر بسرعة قياسية، هذا الانتصار أذهل المؤرخين في الغرب والشرق، وجعلهم حيارى أمام المشهد الدراماتيكي. ودلّ على قوّة الغزاة، وإندفاعهم بسبب قوّة الجانب الروحي، وماسيحصلون عليه في ارض المنّ والسلوى، وفي الأراضي المحيطة بها شرقاً وغرباً.

بمرور الزمن صار المسلم صاحب أرض الرافدين، بما فيها كردستان، وبلاد فارس والشام ومصر وشمالي افريقيا، وبلاد ماوراء النهر، وماوراء البحر حين عبروا المضيق الى اسبانيا "بلاد الاندلس". صاروا أصحاب الأرض لمدد متفاوته، وبأشكال شتّى. لكنهم لم يستطيعوا الاستقرار على بعض تلك الأراضي، لأن سكانها الأصليين لم يقتنعوا بهم، بما فيه الكفاية، لم يقتنعوا أن يصبحوا جزءاً من العالم الأسلامي، فانسحبوا منها حرباً او سلماً، وهذا ماحصل في اسبانيا وصقلية، وهكذا في أرمينيا حيث عاد أهلها الى ممارسة معتقداتهم وثقافتهم، وصار وجود المسلمين في تلك الديار ذكرى، وجزءاً من تاريخهم، وصار أهل البلاد يشيدون بالشخوص التي قادت حركة استرداد الأرض، وصارت هذه الشخوص أبطالاً في منظور أهل البلاد الديني والوطني.

والانتصار قد لايحدث بسبب قوّة الغازى ـ أحياناً ـ بل قد يتم بسبب ضعف "أصحاب الارض" لسبب او آخر، او حين يباغت الغازي أصحاب الأرض، ويبدأ هجومه دون سابق إنذار، بمعنى آخر يبدأ طرف ما الحرب في غفلة من التاريخ، رغم اني لا أعتنق نظرية الهجوم المباغت. لكن قد تحدث غفلة ـ في العُرف العسكري التكتيكي ـ حين يستغل الغُزاة حالة تمزّق صفوف أهل الأرض ـ صفوف الطرف الآخر ـ "أي كان نوع التمزّق" في وقت يكون أهل الأرض في نزاع بين ذواتهم، نزاع من قبيل حرب الأخوة، الشبيهة بالحرب الأهلية عندها يكون بوسع القوي أن يباغت، ويدخل مع أهل الأرض في معارك معروفة النتائج، سلفاً في اكثر الحالات.

وهذا ماحصل في إنتصار المسلمين على المستويات كلها، وصارت الاراضي المفتوحة (دار السلام) حسب عُرف المسلمين، اما دار الآخرين، غير المفتوحة، غير الملحقة بأرض المسلمين، فهي (دار حرب).

أما الآن، أقصد في حروب الفرنجة (الصليبية) فقد إنعكست الآية، حين أدرك (الشرق والغرب المسيحيَّن) أقصد الامپراطورية البيزنظية (الروم البيزنطيون) وعاصمتها (بيزنطة ـ أو قسطنطينية ـ أستانبول فيما بعد)، ودول الغرب وعلى رأسها الپاپوية، خطورة الموقف فاتفق الطرفان، أي الكنيستان، رغم الخصومات بينهما، ورغم المجامع المسكونة والانشقاق الذي دبّ بينهما والمستمّرة بينهما، لحد الآن، بسبب نظرة الكنيستين الى طبيعة السيد المسيح. يوم لم تكن الحركة الانشقاقية الآخرى "البروستانتية" قد حصلت.. إتفق الطرفان على الانتقام من هزيمة الروم الساحقة في بلدة ملازكرت ـ الكردية بالقرب من بحيرة وان ـ في شرقي بلاد الاناضول، بايدي السلطان السلجوقي المعروف (الب ارسلان) وكان تحت امرته عشرة الآف مقاتل كردي[٢]. فاضافة الى أسر امپراطور الروم رومانوس الرابع، قتل في تلك المعركة قائد جيشهم عام ١٠٧١م، كما تمّ تدمير جيشهم.

بعد هزيمتهم هذه لم يعد ثمَّ مايوقف السلاجقة من إجتياح أكثر أراضي آسيا الصغرى، فكانت نكبة مدمرة للوجود البيزنطي في تلك البقعة وعلى أثرها أغلق السلاجقة طرق الحجاج الغربيين عبر آسيا الصغرى الى الأراضي المقدسة في فلسطين. فكانت بداية لقيامهم بحرب ضد الأتراك السلجوقيين لانقاذ الأماكن المقدسة، خاصة إذا علمنا ان السلاجقة استطاعوا في العام نفسه (١٠٧١م) الاستيلاء على بيت المقدس من الفاطميين والتحكم فيها، فكانت الحروب الصليبية.

لن نتحدّث عن الذرائع والأسباب التي أدت الى القيام بتلك الحملات بدعوة من الپاپا اربان الثاني في بلدة (كلير مونت) بفرنسا عام ١٠٩٥م، لكننا نشير الى أن الحملة الناجحة ضمن الحملات الثمانية المعروفة تاريخياً كانت الحملة الأولى، ففيها استولوا على مدن عديدة في آسيا الصغرى وبلاد الشام، وأقاموا ثلاث إمارات صليبية هي إمارة الرها "أديسا، اورفة الحالية" وإمارة انطاكية وإمارة طرابلس في شمالي لبنان، واخيراً بلغوا الى مرامهم فأسّسوا مملكة بيت المقدس في فلسطين. ودام

---

[٢] الدواداري، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية. مطبعة المعهد الالماني للآثار... القاهرة، ١٩٦١، ص: ٣٩٣.

وجودهم في الشرق نحو قرنين إنتهى بهزيمتهم أمام المماليك الترك حكام مصر والشام قرب عكّا عام ١٢٩١م.

في (عرف) التاريخ يعدّ المهاجمون (الغزاة) أناساً شجعان، يخرجون من ديارهم الى ارض الآخرين، كما حدث في حملات رافعي صورة الصليب على قمصانهم، فتوجّهوا شرقاً، وعبروا مضيق البوسفور. واصلوا مسيرهم الشاق، وعانوا ماعانوا من عثرات وآلام وجوع،ولاسيما عندما وصولهم الى أسوار مدينة انطاكية الشهيرة.

أفاق المسلمون من هول ماحدث، ورأى البعض منهم ـ في قرارة أنفسهم، أن الأمر قد انتهى، وان تلك الاراضي عادت الى ايدي النصارى، كما كانت قبل الفتوحات الاسلامية، ثم بدأت فترة التأمّل بما حصل، حتى افاقوا مما صاروا فيه، فتململوا وتحرّكوا، وبدأوا يقاومون الأمر الواقع بضعف وتردّد تم تطوّرت إمكاناتهم، وبحثهم عن قيادة ترفض الواقع الجديد، فطفقوا باسترجاع قرى وبلدات صغيرة هنا وهناك، ثم استعادوات الرها، ثم دمشق... الخ، وكانت النتيجة مجموعة من المعارك والمناوشات والهدن، وتوّجت أعمال الافاقة الاسلامية بمعركة حاسمة وإسترجاع المسلمين البيت المقدس وعكا تحت راية صلاح الدين يوسف بن ايوب الهذباني الروادي.

بيت القصيد هنا هو ان كُتّاباً ومؤرّخين مسلمين كتبوا عن الفرنجة (الصليبيين) باسلوب دعائي "پروپاگاندا" في كتابات لهم، ولاسيما بعد إحراز قياداتهم إنتصارات في معارك ضد الفرنجة، على أنهم جبناء .. كفرة .. عبدة الثالوث ... عدّو مخذول ملاعين.... الخ. والواقع ان كتّاباً ومؤرخيّن صليبيين لم يألوا جهداً في وصف المسلمين بنعوت مشابهة، لتكتمل بانوراما الحرب بين طرفين. ففي مصدر واحد نلتقط صورة المسلمين لديهم، فهم: قطعان ... طغاة .. وثنيّون ... أعداء الربّ... الدنسون[٣] فصورة (العدو) أي عدوّ كان، يجب تشويهها، والاّ لن يندفع المقاتل لمحاربته، ومحاولة القضاء عليه وهذا هو شأن الحروب كافة، اضافة الى ماسيحصل عليه المنتصر من ارض وغنائم وأسرى... الخ.

---

[٣] انظر كتاب لمؤلف مجهول رافق الحملة الاولى: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ترجمة د. حسن حبشي. دار الفكر العربي. ١٩٥٨ صفحات: ٤٣، ٥٨، ٧١ـ٧٣ـ٨٤، ٨٦، وغيرها. والكتاب هذا يُعد مصدراً مهماً لنا في تاريخ الحملة الصليبية الاولى، حسب وصف المترجم، ص: ١٣.

لكننا في بحثنا هذا نحاول ان نبيّن ان المقاتل الصليبي لو لم يكن قويّ الشكيمة... محارباً من أجل قضيّة يؤمن بها، أي انه اقتنع بأنه يسير الى بلاد بعيدة ليسترجع الارض التي ولد عليهاالسيد المسيح، وعاش فيها وصلب، يسترجعها من ايدي أناس صاروا يسيطرون عليها، ثم هاهم يعرقلون زيارة تلك الارض المقدسة، وأداء الحج فيها. فلولا تلك الشكيمة لما حاربوا بالحماسة الدينية، ولما أبدوا بسالة جلبت أنظار المؤرخين المسلمين، فوصفوهم بألفاظ: غلاظ القلوب... جهنّميون.... أنفاسهم شرر... خلق الله الخلق (الآخرين) من طين وخلق الفرنجة من حجارة ... الخ حسب وصف عمادالدين الكاتب الأصفهاني أحد اثنين من كبار مؤرّخي تحركات صلاح الدين ومعاركه، كما وصفهم بالجمود والقسوة الى حدّ الوحشية.

فأثناء حصار يافاسنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) وكان صلاح الدين يشرف عليه بنفسه، أمر مقاتليه بالزحف على الفرنجة ـ كما يذكر ابن شداد، ثاني اثنين من كبار مؤرّخي عصر صلاح الدين ـ معلناً ان المسلمين زحفوا على تلك البلدة، وضايقوا الفرنجة فيها مضايقة عظيمة. ويضيف: ولله درّهم من رجال مقاتلين، ماأشدهم وأعظم بأسهم، فانهم مع هذا كلّه لم يغلقوا لها باباً، ومازالوا يقاتلون خارج الأبواب[٤].

وفي الحصار نفسه يصفهم ابن شداد بأنهم ظهر منهم من الشدّة والحماية والذبّ والمنعة ماأضعف قلوب الناس (أي قلوب المحاربين المسلمين)[٥]. فان لم نقرّ بشجاعة هؤلاء ولم نعلن أنهم كانوا بواسل لن نعط لجهود المسلمين في استعادة الأرض قيمتها، لأنهم بذلك يكونون قد حاربوا اناساً "محتلّين" غير شجعان، حاربوا جماعة من الجبناء، فهل يقبل عاقل أن يقال أنّ اناساً جبناء إستطاعوا أن يحتّلوا أرضاً كانت بأيدي المسلمين، بينها ماصارت ـ بعد الأسلام ـ اول قبلة لهم، ثم اعتبروها ثالث الحرمين؟ بالطبع لا أحد يجيب بـ(نعم)، فالقوم لم يكونوا جبناء. الجبان لايحتل أرضاً، بل تُحتل أرضُهم، فلايستطيعون مقاومة الغزاة لأي سبب من الأسباب.

---

[٤] النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق أحمد ايبش طبعة ٢٠٠٥، ص: ٣٨٤.

[٥] نفسه، ص: ٣٨٢.

والواقع ان كتّاب المسلمين ومؤرّخيهم المعاصرين للحملات ـ والحق يقال ـ قد أقرّوا في ثنايا كتاباتهم، فها هو اسامة بن منقذ ـ من سلالة أمارة شيزر، الذين حكموا في منطقة حماه في بلاد الشام، ولديه تصانيف عديدة، لعلّ أبرزها (كتاب الأعتبار) استطاع أن يرسم فيه صورة واقعية حين أعلن ان الفرنجة هم بمثابة بهائم (كائنات غير آدمية) لكنهم يتمتّعون بـ"فضيلة الشجاعة والقتال"[٦]. وأسامة هذا (٤٨٨ـ٥٨٤هـ/١٠٩٥ـ١١٨٨م) عرفهم عن كثب بحكم احتكاك موقع موطنه مع المستوطنات التي أقاموها في المنطقة المحاذية لشيرز ولمدينة حماه، ومعاصرته للحملات الصليبية الثلاثة الاولى، ولروح المغامرة التي اشتهر بها، حتى أنه صار يصارع الضواري في الآجام (الغابات) المحيطة بموطنه، وفي نهايات عمره عاصر وجالس صلاح الدين، ومات بعد معركة حطين بسنة واحدة، وقد جمع بين الأدب والفروسية، كما جمع في ذاكرته المتقّدة مشاهداته وخبراته، بعد أن صادق بعضاً من الفرسان الصليبيين في أوقات السلم، كما قاتلهم زمن الحرب، يقول في كتابه النفيس ان الفرنجة مافيهم غيرة ولانخوة لكن فيهم الشجاعة العظيمة[٧].

أما إبن الأثير عزالدين علي الجزري المؤرخ (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) فقد كتب في كتابه الموسوعي الشهير (الكامل في التاريخ) ضمن أحداث (٥٦٥هـ/١١٦٩م) معلناً أن الف فارس مسلم لم يستطيعوا الصمود بوجه ثلاثمائة فارس افرنجي. رغم أن قوات نورالدين محمود قد إنتصرت عليهم بعد أن وصلته قوات إيلغازي بن أرتق، وبعد قتال مستميت. وكان ضمن قتلى الفرنجة مقدّم كبير، كان من الشجاعة بمقام كبير، كما كان بمثابة شوكة في حلوق المسلمين[٨]. وفي كتاب آخر له يذكر هذا المؤرخ ان الأتابك (ايلدكز) صاحب بلاد الجبال وأذربيجان وأرّان، حين تدّخل في

---

[٦] الاعتبار، تحقيق د. فيليب حتي، مطبعة جامعة پرنستون، الولايات المتحدة الامريكية، ١٩٣٠، ص:١٣٢، وانظر ص: ٦٤–٦٥.

[٧] ص: ١٣٧. هذا وقد كتب عن حياة أسامة بن منقذ عديد من الكتاب والباحثين بينهم محقق كتابه، ومحمد سيد كيلاني ويوسف الشاروني، اضافة الى الكاتب الشهير عباس محمود العقاد، ومحمد حسين، كما طبع كتابه المذكور وتم تحقيقه اكثر من مرة، اضافة الى كتبه الأخرى... ونشير هنا الى ان هذا الكاتب ـ وهو من اسرة عربية معروفة ـ قد كتب عن بسالة الكرد والنسوة الكرديات في بواكير الوجود الفرنجي في المنطقة، وقبل ظهور صلاح الدين يوسف وأسرته على مسرح الأحداث.

[٨] الكامل في التاريخ. دار صادر ـ دار بيروت ـ لبنان، ١٩٦٦، ١١/٣٥٣ـ٣٥٤.

خلاف بين الأخوين نورالدين محمود وسيف الدين غازي (ولدي عماد الدين زنكي) وجّه محمود نوعاً من التوبيخ الى ايلدكز وتوعَّدهُ قائلاً له: إنكَ مَلْكتَ نصفَ بلاد الاسلام(!) وأهملتَ الثغور (مواقع الدفاع الحدودية) في تلك البلاد المحاذية لبلاد الگرج، حتى غلبَ هؤلاء النصارى عليها، ونورالدين محمود ـ بصفته المسؤول الأول عن مواجهة الفرنجة ـ يومئذ ـ أعلن: أمّا أنا "فقد بليتُ لوحدي بأشجع الناس، أي الفرنجة، فأخذتُ بلادهم وأسرتُ ملوكهم"[٩]. وهذا يعني أنّ من لا يدركُ او يقدّرُ قوّة وشكيمة العدو، لايستطيعُ إحراز النصر عليهم. فنورالدين محمود القائد الباسل إنتصر على هؤلاء البواسل، معلناً بفخار ماأنجزه، فمن لم يكن قويّاً لايمكنه الاعلان بانتصاره "لوحده على أشجع الناس". ولأن مواجهتهم تحتاج الى قوّة إرادة، وإتخاذ الحيطة، دون الاستهانة بهم. ومن يقرأ كتاب المؤرّخ الفرنجي المجهول المذكور، المعنون "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس) يرى العجب عما عاناه هؤلاء في حصار أنطاكية في عامي ١٠٩٧ـ١٠٩٨م. يقول صاحب الكتاب بَلَوْنا مضّ (ألم) وحرقة الظمأ، ولم نجد مانمسكُ به رَمَقَنا سوى الشوك نقتلعه ونسحقهُ باكّفنا، فكان هذا هو الطعام الذي عِشنا عليه ونحن في أشدّ حالات الضنك، وقد نفق (مات) معظم جيادنا حتى إضطرَ الكثيرون من فرساننا للترجّل، ودَفَعَنا نقص المطايا الى استعمال الثيران بدلاً من جياد القتال. كما إستعملنا وسط هذه الحاجة الملّحة الماعز والخراف والكلاب لحمل أمتعتنا[١٠]. رغم إحتمال لجوء هذا المؤرخ الى عنصر المبالغة. والواقع ان الدعوة الى تحمّل المشاق والعذاب (في طريق الحج الى القدس) كان مطلوباً، كما جاء في الخطبة الخطيرة التي القاها البابا أربان الثاني (١٠٨٨ـ١٠٩٩م) في بلدة كليرمونت في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٥م حين قال: "أيها الاخوان يجب عليكم أن تتعذّبوا كثيراً من أجل المسيح، وتتحمّلوا المشاق والفقر، وتكابدوا الجفاء والاضطهاد والمذلّة والمرض والجوع والظلم، وما شاكلها من الشرر، كما قال السيد المسيح لتلاميذه: "سأريكم كم ينبغي أن تتألّموا من أجل

---

[٩] الباهر في التاريخ الاتابكي. تحقيق د. عبدالقادر احمد طليمات ط. دار الكتب الحديثة، القاهرة ـ ١٩٦٣، ص: ١٥٣.

[١٠] مصدر مذكور، ص: ٤٣–٤٤.

إسمي"[١١]. فكان هذا الخطاب المجلجل إيذاناً برسم فلسفة الحروب الصليبية، وطفَقَ المتوجّهون الى الأرض المقدّسة يحملون صليبهم.

لقد كان هذا المقاتل أسير عواطفه الدينية المحمومة المشوبة بمعتقدات بعيدة عن طبيعة الدين المسيحي الداعي الى التآخي والتسامح والمحبّة، لكنها معتقدات كانت تنسجم مع روح العصر، كما كانت تنسجم مع جوّ الدعاية المحموم التي أذكتْ البابوية نيرانها، وأشعلتهاحرباً طاحنة. ويضيق بنا المقام ـ كما اكّد ذلك اكثر من باحث، عن محاولة تتبُّع الأمثلة التي دوّنها مؤرخو العصر، وهي تكشف عن أن العزف على اوتار العاطفة الدينية كان يدفع المقاتل الفرنجي الى الاستبسال والاستماتة في جبهات القتال، وإختراق مدن المسلمين والسطو على مزارعهم ودوابهم.

كان هذا الاستبسال نتاجاً لنشأته او للوسط الاجتماعي الذي وجد نفسه فيه ووجّهه، كما كان إنعكاساً للمفاهيم الدينية التي استحوذت على عقولهم وعلى تصرفاتهم في تلك الفترة العصيبة من الزمن. وإذ جرى اعتبار التهيئة لحرب المسلمين وسيلة للخلاص والتطهير الديني والدعوة الى التوبة، والى السلام الالهي (peace of God) كل هذا جعل الحرب مطلوبة، فاعلن الپاپا ليو الرابع، في منتصف القرن التاسع، بان كل من يموت أو يقتل في سبيل الكنيسة مثواه الجنة، أو من الشهداء، لذا عُدّت الحروب الصليبية حرباً مقدّسة لفتح طريق الحجاج الى بيت المقدس. لاسيما إثر إستيلاء الترك السلاجقة على هذه المدينة عام ١٠٧١م، بعد ان كانت بأيدي مصر الفاطمية، وبدا وكأن صحوة إسلامية (سنّية) قد بدأت بايدي السلاجقة بعد الحادثين الشهيرين اللذين حصلا على أيدي هؤلاء في سنة واحدة، كما وهبوا الخلافة العباسية ببغداد حياة جديدة بعد أن أصابها التداعي والانهيار[١٢].

هذا اضافة الى أن المقاتل، ولاسيما الفارس، الصليبي المدجّج بالأسلحة والمغافر والدروع، في كل أجزاء جسمه، وجسم فرسه الذي يمتطيه، كان مُكلفاً وثقيلاً، لذا كان يخضع لتدريبات شاقة تؤهّله للقيام بواجبه القتالي والديني، كل

---

[١١] الانجيل ـ أعمال الرسل: ٩: ١٦. وانظر أعمال الفرنجة، ص: ١٧–١٨.

[١٢] ارنست باركر، الحروب الصليبية. ترجمه الدكتور السيد الباز العريني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت، ١٩٦٧، ص: ١٨.

هذا جعله يتمتّع بشجاعة لفت أنظار قادة ومؤرخي أعدائهم المسلمين، فشجاعته كانت أشبه بالولاء للقيم الكنسّية، ويدلّ على نشاط منظّم مدروس ومحموم، فهي شجاعة تعني الكثير لمن قطع المسافات البعيدة للوصول الى ارض المقدسات، بسالة تعني القدرة على تحديد الخطر المحدق بهم في ارض صارت بايدي المسلمين منذ نحو خمسة قرون، فعليهم تقدير قوة المسلمين، دون أن يَدَعوا الخوف يتسلّل الى عقولهم.

نعود الى الحملة على انطاكية ونقول ان قلعة المدينة حين عصَت على الفرنجة واصلوا حصارها، رغم أنهم كانوا مهدّدين بالموت جوعاً، فلما أيّسوا من إحراز النصر، بَعثوا رسولاً الى (كربوغا) حاكم الموصل السلجوقي الذي كلفه الخليفة العباسي المستظهر بالله ابن الخليفة المقتدي، بأن يتحرّك مع غيره من الأمراء السلاجقة للحيلولة دون سقوط المدينة العريقة ذات الموقع الستراتيجي، وذلك بعد أن وصلته نداءات حاكم المدينة (ياغي سيان) يطلب فيها النجدة، في حين لم يحرّك الخليفة قوّاته من بغداد.

بعث الفرنجة رسولهم الى كربوغا يطلبون منه الأمان، ويعلنون إستعدادهم للخروج من المدينة سالمين، ورفع حصارهم عن القلعة فلم يعطهم كربوغا الأمان.

لقد كانت الحملة ـ التي صارت الاولى بعد تدّفق الحملات التالية ـ أشهر الحملات قاطبة، ففيها كبار أمراء أوربا، خاصة النورمانديون مثل (بردويل وصانجيل وكوندفري وتنكريد وروبرت النورماندي) ثم القمص بوهيمند ـ الذي سيغدو حاكم انطاكية المقبل ـ وكان قائد الحملة كلها.

ظهر بين المحاصرين راهب ذكيّ مطاع، بدأ يفكر في موضوع حلم أشبه بالرؤيا، بعد ان أدرك ان القادة، ومن معهم، مستعدّون لأيّ عمل ينقذهم من المحنة. فما كان منه إلاّ اللجوء الى حلم سؤثّر عليهم من الأعماق، فيندفعون لأخذ القلعة. يذكر المؤلف المجهول المذكور[١٣]: كان هناك حاج في جيشنا إسمه پطرس بارثلمي، صاحب الرؤى الكثيرة في تلك الفترة، تراءى له في حلمه القديس اندراوس، قال لپطرس: انني الحواري اندراوس، اطلب أن تعّرج حين دخولك المدينة على كنيسة القدّيس پطرس ، وستجدُ بها حربة مخلّصنا يسوع المسيح التي طُعِنَ بها حين رُفع من على خشبة الصليب. ثم اختفى القديس. ولما كان پطرس بارثلمي

[١٣] مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة، ص: ٨٢.

خائفاً من الجهر بما رأى ـ حسب قول المؤلف ـ وظنّ انه أضغاث أحلام فسأل القديس ـ في الحلم ـ ترى من يستطيع الايمان بهذا؟. في هذه اللحظة أخذه القديّس وسار به شطر الناحية التي كانت الحربة مطمورة فيها تحت الأرض. وقال لبطرس: لماذا لم ترفع الحربة من باطن الأرض كما أشرتُ عليك؟ ألا فاعلم أن لن يغلبَ قطّ قومُ يحملون معهم هذه الحربة في القتال.

حين استيقظ بطرس من حلمه(!) وقصّ على قومه مارآه، لم يصدّقوا أقواله، وسألوه: كيف نعتقد صحة ماترويه، فذهب بطرس اليهم في الحال وأقسم لهم أنه صادق فيما يرويه، وان القديّس اندراوس تبدّى له مرّتين في رؤياه[١٤].

وتذكروا إيحاء المسيح على لسان الرسول بطرس بارثلمي، فانطلقنا ـ كما يقول المؤلف ـ بأقصى سرعة شطر ناحية كنيسة القديّس بطرس ، واشتغل ثلاثة عشر من الرجال في الحفر من الصباح حتى المساء يوم ١٤ حزيران/يونيو ١٠٩٨م، فعثروا على الحربة في الموضع الذي أشار اليه، فتلقاها القوم بفرح شديد وهّبة عظيمة، وعمّت المدينة بهجة شاملة[١٥]. تذكر رواية لابن الأثير: كان قد دَفَن أحدُ رجال الدين قبل ذلك حربةً في المكان المذكور، وعفى أثرها ثم أمرهم بالصّوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أدخلهم الموضع، ومعهم الصُنّاع، وحفروا في أماكن متفرّقة حتّى وجدوا الحربة، فقال لهم: أبشروا بالظفر[١٦].

ويذكر ارنست باركر ان التأثير الروحي لهذه الحربة التي إخترقت جنب السيد المسيح، كان كشفاً مزعوماً، لم يلبث أن إمتدّ تأثيرها الى الجيش بأكمله، ومكنتهم من قتال كربوغا ويهزموه[١٧].

على كل، فان قصّة الحربة تلقي ظلالاً على عقلية المحاربين، وإندفاعهم لقتال المسلمين، وهي جزء من الحرب النفسية، الغرض منها استنهاض همم المقاتلين

---

[١٤] نفسه، ص: ٨٣.

[١٥] نفسه، ص: ٩٠.

[١٦] الكامل في التاريخ. طبعة المكتبة العصرية (صيدا ـ بيروت) الجزء الثامن، أحداث ٤٩١. ص: ٢٧٣.

[١٧] الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العريني. دار النهضة بيروت، ١٩٦٧، ص: ٣٥. وأنظر انتوني بردج. تاريخ الحروب الصليبية، دار قتيبة دمشق، ١٩٨٥، ترجمة أحمد غسان سبانو ـ نبيل الجيرودي، ص: ٩٠–٩١.

ودفعهم في مقاتلة عدوّهم، وقد درج محاربو الازمنة على استعمال مثل هذا السلاح الروحي، ولاسيما في اوقات الشدّة والازمات حين يحتاج المقاتلون ـ وغير المقاتلين ـ الى إختلاق قصص، على غرار ما فعله پطرس (الحالم) في محاولة مخلصة منه لأنقاذ أبناء قومه وأهل دينه من المأزق والهلاك الذي ألمّوا به ووجدوا أنفسهم فيه بسبب بسالة المقاتلين السلاجقة حماة انطاكية.

حقيقة قتال الفرنجة داخل حصونهم

ذكر القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني (٥٢٩ـ٥٩٦هـ/١١٣٤ـ١١٩٩م) في رسالة بعث بها الى بغداد لاستنهاض شعور الخليفة العباسي، عساهُ يساهم فعلياً ولو بقسطٍ في معاركَ صلاح الدين يوسف بن ايوب[١٨] كتبها وارسلها الى بغداد عشيّة إنتصار صلاح الدين على الفرنجة في معركة معروفة نجم عنها فتح حصن (بيت الأحزان)[١٩] في سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، قال فيها: ان بين مقاتلي العدو من قَبلَ أن يُراق دَمَهُ ـ أن يُقتل ـ "ولا على رقبته أن تسترق"[٢٠]. كما بعث القاضي الفاضل رسالة اخرى الى الخليفة عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م، قال فيها: "أن الفرنجة لايقاتلون إلاّ في قرى محصّنة، ولايقاتلون إلا على نجاة متيقنة[٢١]. وقد أيّدَ أسامة بن منقذ كلام القاضي فذكر ان الفرنجة أشّد الناس إحترازاً في الحرب، فهم يتجنبون خوض غمار معركة إلا إذا كانت نتائجها مضمونة(!) ترى ما حقيقةٍ هذا الاحتراز الفرنجي في قتال المسلمين؟ الواقع ان ماذكره الرجلان فيه بعض الحقيقة، ولا ادّل من تشييد الفرنجة لعشرات الحصون والقلاع على طول الحدود المحاذية بين ساحل الشام المحتل من أنطاكية شمالاً الى عكا وقلعة الكرك "صخرة الصحراء" كما وصفت، ورأس البحر

---

[١٨] انظر بحثنا المنشور في العددين (٥٤–٥٦) من مجلة (متين) الصادرة في ١٩٩٦ في دهوك، تحت عنوان (رسائل صلاح الدين، الفحوى والمغزى).

[١٩] بيت الاحزان، حصن بين دمشق وبين ساحل البحر، ياقوت الحموي معجم البلدان. ط. دار صادر ـ بيروت ١٩٥٥ـ ١٩٥٧.

[٢٠] رسائل القاضي الفاضل. دراسة وتحقيق د. علي نجم عيسى. منشورات دار الكتب العلمية. بيروت ٢٠٠٥، ص: ١٣٦.

[٢١] نفسه، ص: ١٥٥.

الأحمر قرب ميناء إيلات (ايله)والعقبة جنوباً، وبين بلدات الداخل التي ظلّت غير محتلة إلاّ فيما ندر، ولم يشّيد الفرنجة هذه الحصون إلا لاتخاذها مراكز للدفاع عن أنفسهم، او لجعلها مثابة لهم لدى إتخاذ قرار للهجوم على مدن وقرى وحقول المسلمين، ولم يكن بوسعهم تشييد تلك الحصون على ارض المسلمين إلا بعد أن اطمأنوا الى وجودهم في مواقع البناء، وان المسلمين لم يعد بوسعهم إيقاف أعمالهم، وأنهم شيّدوها ليزيدوا من قوة وجودهم، بتلك التحصينات.

وتلك القلاع والحصون شُيّد كل منها لغاية، وتنقسم إلى أقسام بالنسبة لمواقعها الجغرافية ولهندسة بنائها ولحجمها، فمنها ماشيّدت فوق الممّرات الجبلية، فتحكّمت بحركة مرور القوافل وحركات الجيوش المعادية، ومنها ماشيّدت على الساحل، وكانت مراكز لحراسة الشواطيء والموانيء، وضمان لنقل المؤن والاسلحة عبر البحر المتوسط من اوروبا، ولاسيما من مدن ايطاليا جنوه وبيزه، وأضخم هذه القلاع واكثرها هيبة ومناعة تلك التي شيّدوها لغرض الاشراف والسيطرة على الاراضي الواقعة بين ساحل البحر المتوسط وبين مستوطناتهم في الداخل، عبر جبال النصيرية، وسلسلة جبال لبنان، واهمها قلعة الشقيف "شقيق أرنون" وقلعة صهيون وقلعة برزية وقلعة الحصن، وأطلالها مازالت تحكي قصة الحروب التي جعلت البشر وموارد الطبيعة لقمة للسيف والحراب والمنجنيق.

وقلاع الساحل كانت أصغر حجماً، وأقل شأناً من القلاع المذكورة لأن الساحل بات تحت سيطرة الفرنجة، الى أن استولى صلاح الدين على اكثرها. ومن أشهر تلك القلاع قلعة طرابلس في شمالي لبنان، وقلعة طرطوس (سورية) وقلعة جبيل وقلعة صور وصيدا في جنوبي لبنان.

لقد أدرك الفرنجة ضرورة بناء القلاع، بعد أن ادركوا ضعف مركزهم الحربي، ولأن المستوطنات أو المستقرّات التي أقاموها تقع في بلاد اكثرية سكانها من أبناء الارض التي جاؤا لاحتلالها أو لاسترجاعها.

وكانت تلك القلاع على إتصال فيما بينها بواسطة الحمام الزاجل، او بواسطة إشارات إشعال النيران ـ ليلاً ـ ولاسيما بين القلاع القريبة بعضها من بعض. وكانت قلعة صفد وتبنين، وقلعة الشقيف تؤلف شبكة متصلة واحدة في مراسلاتهم، كما

كانت قلعة عكار والقليعات وقلاع أريما ويحمور وطرطوس وصافيتا وقلعة جزيرة أرواد مقابل الساحل السوري، وقلعة الحصن تؤلف شبكة ثانية.

وكانت الحياة في تلك القلاع تحتاج الى إدارة منظمّة قادرة على تحمّل مسؤولياتها، وتدبير نفقاتها، ولهذا إنتقلت إدارة اكثرها الى المنظمتين العسكريتين الدينيّتين المعروفتين، اللتين خلقتهما ظروف الحرب، اولاهما منظمة الهوسپتالية Hospital (الاسبتارية، حسب تسمية المصادر العربية لها) والثانية الداوية أو الهيكلية (تامپلار ـ Templar) أو فرسان المعبد (الهيكل).

لكن الفرنجة لم يهنأوا طويلاً بقلاعهم، فبعد إحتلال قلعة (المرقب) بدأت الاستعدادات لمعركة (حطين) الشهيرة، حين أصابتهم الهزيمة بقيادة صلاح الدين يوسف، ومصرع وهزيمة وأسر الكثير من الفرسان والمشاة الفرنجة، بينهم رجال المنظمتين المذكورتين. صارت تلك القلاع تفتقر إلى حراسة بسبب تلك الهزيمة، لكن بالمقابل صمدت بعض القلاع، فلم تستسلم قلعة الكرك وقلعة الشقيف وصفد إلا بعد نحو عام من حطيّن، اما قلعة المرقب وحصن الاكراد، فقد ظلت في يد الفرنجة.

وقد استغرق سقوط هذه القلاع مدة طويلة، بسبب مناعتها، وقدرتها على خزن الذخيرة والمياه لوجود صهاريج أو آبار، فكان الهجوم عليها يتّم بطريقتين، اولاهما تسلق أسوار القلعة وإقتحامها، والثانية بنقب (خرق) الاسوار وإحراقها، والدخول اليها عبر ثغرة يحدثونها في سورها، وكانت الطريقتان تحتاجان إلى ضحايا ولاسيما من المهاجمين، لأن حملة سلالم التَسلّق كانوا يتعرَّضون عادة لسهام المدافعين عن القلعة، فاذا ماتمكّن المهاجمون من تثبيت السلالم على سور القلعة لجأ المدافعون الى طرق اخرى كرْمي السلم بمن عليه من المقاتلين، أو صبّ الزيت المغلي، أو إلقاء النار التي لاتنطفيء على المتسلّقين، وكذلك إطلاق السهام النارية عليهم، كما إهتدى المهاجمون الى صنع أبراج خشبية أعلى من أرتفاع سور القلاع، فيدفعون البرج نحو السور حتى يلتصق به، ثم يتسلقها المهاجمون، ويندفعون الى داخل سطح القلعة مباشرة. غير أن المدافعين كانوا يعمدون الى تهيئة مواد لاحراق الابراج، أضافة الى صعوبة دفعها حتى تلتصق بالسور، ولاسيما فوق ارض وعرة محيطة ببعض القلاع. والواقع أن الطرفين حاربا داخل وخارج الأسوار، مرة للدفاع عن المدينة وعن أنفسهم، وحين تغدو هذه الحصون ـ وحتّى المدن ـ بأيديهم يدافعون عنها ويصبح

العدو في موقع المهاجم على الحصن، وسيّان في التاريخ إن كان داخل السور من هذا الطرف أو ذاك.

ونذكر أن أبرز وأشهر تلك القلاع، او الحصون هو (حصن الاكراد) المذكور، وكان قائماً على مرتفع تحيط به تلال عالية، وتمتد تحته سهول فسيحة ووديان، وقد وُصف بأنه أجمل حصون المنطقة واكثرها بهاءً ومهابة، رغم أن بُناتها لازالوا مجهولين، وقد سيطر هذا الحصن على التحركات العسكرية، وعلى النشاط التجاري بين مدينة حمص والساحل، وظل على وضعه يتناوب السيطرة عليه حكام المنطقة، حتى إستولى عليه الفرنجة عام ٥٠٤هـ/١١١٠م، سمّوه (كراك دي شوڤالية)، وعمدوا الى توسيعه حتى غدا في غاية المناعة، او قلعة شامخة تسمو على المنطقة المحيطة بها. وانتقلت ادارتها والتحكّم فيها الى الهوسپتالية عام ٥٣٧هـ/١١٤٢م، وكان ذلك بداية مجد القلعة حين غدت اولى قلاع الفرنجة وأعظمها شأناً واكثرها مناعة وصموداً، وصارت بمثابة عظمة عاصية في حنجرة المسلمين الذين حاولوا استرجاعها نحو اثنتي عشرة مرّة، وقد حاصرها القائد نورالدين محمود ابن عمادالدين زنكي عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م، إلاّ انه اخفق في استرجاعها، وبعد خمس وعشرين سنة مرّ بالقرب منها القائد صلاح الدين يوسف، ولم يشأ ان يحاصرها، ويحصر جهود ووقت جنده في عمل عابث ـ يومئذ ـ وأثنى على متانتها وقوّة دفاعاتها.

في عهد المماليك ـ حكام مصر والشام ـ ظهر السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) فسقطت بجهود جيشه القلاع الواحدة بعد الاخرى، واستولى على المدن والبلدات والحصون من يافا حتى انطاكية في أقصى شمال بلاد الشام، وإستسلمت الأراضي المحيطة بحصن الاكراد، وصار الحصن مطوقاً بقوات بيبرس، وإنخفض عدد حماته، فبعد أن كان يضم نحو ألفي مقاتل، لم يبق فيه سوى ثلاثمائة، يتناوبون في حراسة الحصن، وعلى غراره حصل في حصن المرقب القريب من حصن الاكراد، كما حاول الفرنجة تدعيم بناء الحصنين، وفي (٦٧٠هـ/١٢٧٠م) حاصره السلطان بيبرس حصاراً ناجحاً، واستبسلت حاميته، رغم قلة عدد المقاومين فيه، ثم سقط مدخل السور الاول ثم تمّ تلغيم أسس السور الثاني بالنار، فتراجع المقاومون الى الحصن الاكبر في مؤخرة المبنى، وكان أمنع حصونه،

واستطاع جنده الاستيلاء عليه في العام نفسه، لكن حماته لم يستسلموا إلا بشروط تسمحُ لهم بالرحيل والعودة الى بلادهم.

ذكرنا أن ماأعلنه القاضي الفاضل واسامة بن منقذ فيه بعض الحقيقة، أقصد أن الفرنجة لايقاتلون إلا في قرى محصنة، أو إلاّ على نجاة متيقّنة، لأن القتال في قرى محصّنة حصل حينما صارت تلك القرى تحت سيطرتهم، حين إستقروا بقتالهم العنيد على أرض لم يكونوا من سكانها، وشيّدوا عليها قرى محصّنة، وقلاع وحصون، حينما صارت تلك القرى تحت سيطرتهم. ومعنى هذا انهم قاتلوا في العراء في بدايات وصولهم الى المنطقة، حتى تسنى لهم إحتلال تلك القرى، وهذا يعني ان هذا الاسلوب من القتال كان يمثّل مرحلة من مراحل وجودهم في بلاد الشام، وسبقه اسلوب الهجوم وإحتلال الارض، ثم لحقهُ اسلوب أشّد شراسة حين حاولوا الاستيلاء على مدن (غير مقدسة) وهم في طريقهم استرجاع بيت المقدس. وخرج الموضوع عن كونها "حرباً صليبية" حين صارت مصر هدفاً من أهدافهم، في عهد الخلافة الفاطمية، فشنّوا عليها خمس حملات فاشلة، ثلاث منها ردّها شيركو ومعه الشاب يوسف بن ايوب، ابن أخيه حين قاد (شيركو) الجيش الذي قرّر نورالدين محمود ارساله الى مصر لصدّ الفرنجة الذين وصلوا الى ارض مصر، ارسله بطلب ملح من الخليفة الفاطمي الأخير العاضد. ثم تجاوزوا هذا الحد حين نظمّوا حملتين ضمن الحملات الصليبية الثمانية، ووجهوهما نحو مصر حصراً، هما الحملة الصليبية الخامسة والحملة السابعة، ومحاولة استيلائهم على تونس، بل كانت لهم حملة خطيرة خرجت عن المرامي الدينية التي تذرع بها البابا والأمراء الفرنجة، حين توجهت الى القسطنطينية عاصمة دولة الروم البيزنطيين ومركز الكنيسة الشرقية (الارثذوكسية)، وكانت بمثابة حريق وسط تلك الحروب التي دامت نحو قرنين.

والحريق الثاني سبق الحريق المذكور، وهو ماحدث سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م) حين اعدّ الأمير الفرنجي المعروف بشراسته وعدائه اللامحدود للاسلام وهو (رينو دي شاتيون) الذي تسمّيه المصادر الاسلامية (أرناط)، أعدّ مشروعاً ضخماً وخطيراً قصد منه الوصول الى اهداف عديدة:

أولاً: السيطرة على البحر الأحمر باحتلال ايلة (ايلات) على خليج العقبة، وإحتلال عيذاب على الساحل المصري الذي يشرف على البحر نفسه[٢٢]، وكذلك إحتلال جدة ورابغ على ساحل الجزير العربية الغربي[٢٣]، ومن ثم احتلال عدن، وبذلك يصبح هذا البحر (بما فيه خليج العقبة) بحراً تحت رحمة الفرنجة، ويسيطرون على منافذ التجارة في أطراف البحر العربي والمحيط الهندي.

ثانياً: محاولة قطع الصلة بين الحرمين، قلبي العالم الاسلامي، وبين بقية أجزاء هذا العالم، سواء في الاتصال البريّ او البحري، وهذه محاولة قصدَ منها مُدبّرو المشروع إستفزاز مشاعر المسلمين وحنقهم، وبثّ موجة من الذعر في نفوسهم. واكثر من هذا فهم عزموا على دخول المدينة المنورة، واخراج رفاة الرسول (صلعم) ونقلها الى بلادهم، أي الى الاراضي التي استولوا عليها في فلسطين وفي بقية بلاد الشام، فاضافة الى ذلك فهم ارادوا أن يستفيدوا ماديّاً من زيارة المسلمين لقبر رسولهم بأخذ ضريبة من الحجاج المسلمين[٢٤].

ثالثاً: إقناع مملكة الحبشة النصرانية بالمشاركة في الحروب ضد المسلمين. وقد استعدّ الامير لتنفيذ العملية من الجوانب كلها، فأمر بقطع أشجار الغابات، ونخيل العريش (التي كانت تحت سيطرتهم) وبدأوا بصنع هياكل سفن، وجرّب عمله في مياه البحر الميّت[٢٥].

كما عهد (رينو دي شاتيون ـ أرناط) الى أتباعه في عسقلان ـ وكانت تحت سيطرتهم كذلك ـ بصنع مراكب أخرى، حتى صار لديه اسطول مكوّن من خمس قطع حربية كبيرة، وعدد اكبر من المراكب المتوسطة والصغيرة، وقام رجالهُ بنقل أجزائها مفككة الى ساحل خليج العقبة على ظهر جمال مؤجّرة من بدو "اعراب" المنطقة الذين طالما تعاونوا مع قوات الفرنجة لمصالحهم الذاتية، وضعف الرادع الديني لديهم.

---

[٢٢] ياقوت الحموي.

[٢٣] ابن الاثير، الكامل ٤٩/١١. ابو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة وادي النيل (١٢٨٧ـ ١٢٨٨هـ)، ٣٧/٢.

[٢٤] المقريزي، الخطط، طبعة بولاق، ٨٦/٢.

[٢٥] ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة د. السيد الباز العريني، ٧٠٦/٢.

كما احضر (أرناط) جيشاً برّياً سَيَرَّهُ الى منطقة تبوك شمال الحجاز، للحيلولة دون وصول إمدادات عسكرية قد يطلبها حاكم (ايلة) المسلم من مصر أو من الشام. ثم إتجه ـ أرناط ـ بقواته نحوها فاحتلها دون مقاومة وانطلقت سفنه للاغارة على الساحل الافريقي (المصري) وأخذت قوّاته تغير على كل ماصادفها في طريقها، حتى وصلت الى عيذاب، واستولت على سفن زاخرة بالسلع الواردة من اليمن وعدن ومن الهند.

لقد فزع المسلمون حين شاهدوا مراكب الفرنجة تجوب عباب البحر الأحمر لاول مرة، إذ لم يعهدوا أن يروا في هذه المياه فرنجياً قط، لا تاجراً ولا محارباً[٢٦]، ولاسيما وقد أحدثوا حوادث شنيعة، وأحرقوا ستة عشر مركباً للمسلمين. وأخذوا مركباً يحمل حجاجاً، وأحرقوا مواد غذائية كانت معدّة لميرة "لتموين" مكة والمدينة، فضلاً عن أحداث قتل وأسر وتنكيل إرتكبوها في عباب البحر وفي البر[٢٧].

من الساحل الغربي للبحر الأحمر تحوّلوا الى ساحله الشرقي، أي الى ساحل الحجاز، فاشعلوا النار في السفن الراسية بالحوراء وينبع، مينائي المدينة المنورة، ثم توغّلوا جنوباً حتى بلغوا رابغ من موائي مكة، وأغرقوا سفينة كان يستقلها الحجاج وبذلك نجحت تحرّكاتهم وتكتيكاتهم جميعها، واعتبروا ذلك نصراً لهم على الأصعدة كلها، لكنّها جَلَبت إستنكار العالم الاسلامي برمّته، بل استنكرها حتى الفرنجة أنفسهم بما فيهم قادتهم في بلاد الشام[٢٨]، لأن احتلال الحرمين لم يكن ضمن أهداف الحملة التي اعلنها البابا في كليرمونت، لكن الغريب في الأمر ان هذه الحملة لم تحرك غيرة خليفة المسلمين القابع في بغداد، ولا ذكرها المؤرخ البغدادي الكبير المعاصر للأحداث ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) في كتابه الموسوعي (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) ولا في أي من مؤلفاته الغزيرة جداً.

بلغت الأنباء الى صلاح الدين، وكان في الشام، فبعث الى اخيه نائبه في مصر الملك العادل سيف الدين ابي بكر، يحثّه على أتخاذ مايلزم، وبسرعة للرّد على تصرّفات أرناط الخطيرة، والواقع أن العادل ابابكر كان قد إستعّدَ للمهمة قبل ان

---

[٢٦] ابن الثير، الكامل، ٤٩٠/١١.

[٢٧] ابن واصل، مفرج الكروب، ١٢٧/٢. المقريزي، السلوك ٧٩/١٢.

[٢٨] Henry Treece, The crusades, N.Y. 1962.P.119.

يصله طلب اخيه السلطان، فأوعز الى قائد اسطوله حسام الدين لؤلؤ، بالأستعداد للرّد على العدوان، فأرسل أجزاء سفن عديدة على ظهر قافلة من الجمال من مصر (القاهرة) ومن الاسكندرية، وأوصلها الى ساحل خليج السويس، ثم تمّ تركيب الأجزاء، وجعل سفنه في قافلتين، إتجهت الاولى الى ايلة، واستولّت على مراكب فرنجية كانت راسية، وقتلت اكثر من بها من الرجال، واستطاع قسم منهم الهرب والاختفاء في شعاب ووديان المنطقة، إلا أنّهم لم يستطيعوا الانفلات من أيدي رجال حسام الدين، فأنقضوا عليهم. أمّا الجماعة الثانية فوجّههم نحو عيذاب، ولم يجدوا فيها أحداً من الفرنجة، فقاموا بتعقيب اسطولهم فوجدوا قطعة راسية قبالة الحوراء، فبدأوا بمقاتلتهم ومطاردة من يَفّرُ منهم، وألقوا القبض عليهم، وكان عددهم مائة وسبعين من المقاتلين، أخذوهم أسرى، كما حرّروا الأسرى المسلمين، واستولوا على مراكبهم وما فيها من بضائع[٢٩].

عاد حسام الدين لؤلؤ بأسطوله المنتصر الى مصر ومعه الأسرى وفي أرجلهم القيود، وكان دخولهم الاسكندرية في ربيع ٥٧٨هـ/١١٨٣م، يوماً مشهوداً، وصادف ذلك اليوم، وصول الرحالة المغربي الاندلسي المعروف ابن جبير الى الاسكندرية، فشاهد جمعاً غفيراً من الناس جاؤا لمشاهدة الأسرى، وهم راكبين جِمالاً ووجوههم الى أذناب الجمال، وحولهم الطبّالون ونافخو الأبواق[٣٠]، للتشهير بهم وإلحاق المهانة بهم. ولاداعي لذكر أساليب قتلهم، سواء في الاسكندرية او في (منى) بجبل عرفان في موسم حج ذلك العام[٣١].

---

[٢٩] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٣٦٩/٨.

ابو شامة والمقريزي المذكورين.

[٣٠] ابن جبير. رحلته. طبعة دار صادر ـ دار بيروت. بيروت ١٩٦٤، ص: ٣٤.

[٣١] انظر عن تلك المذابح في:

ابن الاثير، الكامل، ٤٩١/١١.

ابو شامة، ٣٦٠٣٥/٢.

ابن واصل، ١٢٨/٢.

المقريزي، السلوك، ٧٩/١، والخطط، ٨٦/٢.

اضافة الى ماذكره كل من ابن الوردي وابن خلدون وغيرهم.

اما مدبّر وقائد الحملة أرناط، فقد استطاع الافلات من الأسر وعاد الى حصنه المتين (الكرك) كذئب ـ كما يقول هارولد لامب ـ يلعق جروحه[٣٢]. ليواصل خططه ومشاريعه الخطيرة ضد المسلمين، سواء في حصنه او في إحتجازه القوافل المصرية التي كانت تعبر صحراء سيناء لتموين جيش صلاح الدين وكان بدو (أعراب) المنطقة يعاونون أرناط وغيره، فكانوا يخبرون قادة الفرنجة بتحركات القوافل المصرية، وكما حصل أيّام صراع صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد، فيما بعد.

كان صلاح الدين يقف بالمرصاد لتحركات أرناط، وأعلن انه لن يغفر له محاولاته، وانتهاكه لحرمة الحرمين، ونذر نفسه للأنتقام منه، وحصل ذلك يوم حطين، لم يعاود الفرنجة ـ رغم روح المغامرة التي اتسمّوا بها وشجاعتهم ـ التجربة في البحر الأحمر، فظل هذا البحر تحت سيطرة القوى الاسلامية.

نتائج البحث، واستنتاجات مضافة

لعل من المناسب ان نوجز بعض الحقائق التي توصّلنا اليها.

اولاً: نؤكد ان شجاعة الفرنجة (الصليبيين) أمر لايشك فيه المعنيون بمواضيع تلك الحروب التي جرت على أديم كردستان أولاً، ثم بلاد الشام، وكان مقصودهم استرداد بيت المقدس. فلولا بسالتهم لما استولوا على مدن ذلك الاقليم الواسع الممتد من (الرها) الحالية المدينة الكردية التي يسميّها أهلها (روحا) ويسميّها الترك مدينة (اورفة) وهي (أديسا Edessa القديمة)، والتي اقام فيها الفرنجة اولى الامارات في الاراضي التي استولوا عليها. وكان هؤلاء القادمون من عالم الغرب اللاتيني يعرفون انهم يتوجهّون الى عالم تحكم فيه خلافتان هما العباسية في بغداد، والفاطمية في مصر، إضافة الى الوجود السلجوقي القوي في جزء لايستهان به، من بلاد الروم البيزنطية.

ثانياً: ان الپاپوية استثمرت معركة ملازكرد في كردستان الشمالية التي هزم فيها السلطان الب ارسلان امپراطور الروم بقوات كردية قوامها عشرة الاف مقاتل، استثمرتها لصالحها عساها تنجح في مسعاها في توحيد العالمين او الكنيستين،

---

[٣٢] صلاح الدين، شعلة الاسلام. ص: ٩٦٠.

المسيحية الشرقية "الارثذوكسية" والغربية "الكاثوليكية" فكانت هزيمة دولة الروم في معركة ملازكرد بمثابة الدعوة الى حرب صليبية.

ثالثاً: كما استثمرت (البابوية) مايسمى "روح العصر" التي إتسمت بالتعصب الديني الذي شحذته وسائل إعلام الكنيسة وأذكته لمصلحتها، هذا التعصب الذي جعل السلاجقة يمنعون وصول المسيحيين الى فلسطين لزيارة أماكنهم المقدّسة في الناصرة وبيت لحم وأورشليم (القدس)، فكان التعصّب الفرنجي ردّ فعل لذلك المنع غير المبرّر.

رابعاً: أساليب القتال في الحروب كافة، في كل زمان ومكان، تتغيّر حسب أنواع اسلحة العصر، وحسب طبيعة (طوبوغرافية) الأرض، والروح القتالية لدى المحارب. وحروب الفرنجة لم تستثن عن هذه القواعد، فما استعملوه من أساليب وهم يقتحمون مدناً كانت بايدي المسلمين، تختلف عن معارك ميدانية، حين تتواجه قوّتان، وكذلك أساليب قتالهم وهم يحتمون بأسوار مدن صارت بايديهم، ويدافعون عن انفسهم فيها، وكل هذا ينطبق تماماً على أساليب قتال المسلمين، لكن يتعيّن علينا ألا ننسى ان الفرنجة كانوا يحاربون على ارض معادية لهم، لأن جلّ سكانها من المسلمين وخسارتهم في معركة ما، كانت تؤثر على معنوياتهم، بل وعلى وجودهم الفتي في تلك البلاد، ولهذا كان قتالهم يتسم بالقسوة. في حين كانت خسارة المسلمين في معركة ما لم تكن خسارة مصيرية. ولهذا فليست ثمة قاعدة في أساليب القتال فلم يكن الفرنجة يقاتلون في قرى محصنّة، أو خلف أسوار قوية، كما جاء في كتابة القاضي الفاضل وفي كتابات أسامة بن منقذ، وهذه الاساليب تتوقف على مايسمى في الحروب بـ"التكتيك والستراتيج" وتدخل ضمنها الحروب النفسية، وقوة وضعف ايمان المقاتل بعدالة قضيته وموقفه القوي أو الضعيف.

خامساً: نجاح حروب الاسترداد في أسپانيا "الاندلس" وصقلية، شجّع القوى الدينية والدنيوية في اوروپا على القيام بأعمال مماثلة، لاسترداد الاماكن المقدسة في فلسطين التي غدت بأيدي المسلمين، ولاسيما بعد معركة اليرموك، وهزيمة دولة الروم في بلاد الشام، في القرن الاول الهجري.

سادساً: دخول العنصر الجرماني (النورماني ـ الشمالي) الى معترك القتال منذ عقود، ولاسيما بعد إعتناقهم الدين المسيحي أضاف قوة جديدة للبابوية ولقوى

الغرب على شنّ حرب صليبية، ولاسيما لما كان يتمتّع به الجرمان من شراسة في القتال جعلتهم لايعرفون معنى الهزيمة، لذا تمّت تهيأتهم لقتال المسلمين، وهناك من يشبّه إعتناق العنصر الجرماني للمسيحية، باعتناق السلاجقة الدين الاسلامي.

سابعاً: أن مقاومة المسلمين للوجود الفرنجي بدأت بشكل متواضع على يد القادة مودود وعمادالدين زنكي وولده نورالدين محمود، ثم بلغت الذروة في عهد القائد الشهير صلاح الدين يوسف بن ايوب في إنتصار حطين المدّوي واسترجاع بيت المقدس، ثم استرجاع اكثر مدن ساحل الشام، وتكللت انتصارات المسلمين، على ايدي المماليك، حكام مصر والشام حين استولوا على آخر معقل للفرنجة في عكا، بعد رحيل صلاح الدين يوسف بنحو قرن من الزمان.

ثامنا: كانت الحروب الصليبية نتيجة لروح العصر التي إتّسمت بالتعصّب الديني والذهبي، ثم صارت سببا لأذكاء المزيد من التعصّب. وهذا ما دفعهم الى محاولة الأعتداء على الأماكن المقدسة الإسلامية في الحرمين، ولاسيما في المدينة المنوّرة. فحاولوا جهدهم الاعتداء على مثوى الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، لكن ما ان سمع صلاح الدين يوسف ذلك إلاّ وطلب من نائبه وأخيه الملك العادل سيف الدين ابي بكر ومعه صاحب أسطوله حسام الدين لؤلؤ القضاء على الحركة، فتكاتفت القوة البحرية المصرية لدحر مغامرة رينودي شاتيون، وإحباط محاولته، ثم القضاء عليها عن بكرة أبيها.

ونضيف أخيراً ونقول: أن فترة القرنين التي إستغرقتها الحروب الصليبية، بحملاتها المنظمة الثمانية لم يكن كلها فترة حروب وإراقة دماء، بل تخلّلتها فترات سلم وعقد هدن "جمع هدنة" وتبادل تجاري، وأعمال المثاقفة بين الطرفين والعالمين، ولاأدلّ من تعلّم بعض المسلمين التحدّث بالفرنجية (أسامة بن منقذ مثلاً) كما تعلم بعض الفرنجة التحدث بلغة سكان المنطقة العربية (المؤرخ الشهير وليم الصوري كمثل)، ثم نقل منتجات ومحاصيل الشرق الى الغرب، وبالعكس، وكذلك تأثر الهندسة المعمارية بينهما، وانتقال صناعة الاسلحة، وأساليب القتال، ومحاولة نقل نظام الفروسية الذي كان معمولاً به في اوروبا في العصر الوسيط الى بلدان الشرق.

صلاح الدين وطبيعة علاقاته مع الخلافة العباسية من خلال رسائله(*)

(بمثابة وثيقة)

المقدمة:

وجد صلاح الدين نفسه في ظرف يدفعه إلى أداء مهمته. فالقوى أو الجماعات الإسلامية التي كانت في المنطقة قد ضعفت جذوتها لسبب أوآخر. وكان هذ مجالاً لصقل مواهبه، ولينمو النمّو المطلوب، كما ينمو النبات حين توفَّر له البيئة المناسبة، من ضوء وماء وتربة. فالتفت ـ صلاح الدين ـ يمنة ويسرة ليرى ان المسؤوليات صارت تُلقى على عاتقه من حيث يريد او لايريد، كما صارت التيارات المختلفة تتقاذفه وتدفعه إلى الأمام وتشحذ هِمَمَه، فغدت مواهُبه تنمو وتصقل، ونظرته إلى الأُمور تزداد حكمة.

فالدولة الفاطمية في مصر، حيث بدأ صلاح الدين حياته العسكرية والسياسية فيها، صارت تواصل تدهورها في كافة مناحي الحياة، ولزم هذا وضع حدّ للخلافة الفاطمية التي غدت ـ بسبب ظروفها ـ عقبة أمام قيام مصر بواجبها في التصدّي للوجود الصليبي بإمكاناتها الإقتصادية والبشرية الهائلة، سواء في الدفاع عن أرضها أو دورها في إسترداد فلسطين وساحل الشام.

فحين أُلغيت الخلافة ومات العاضد الخليفة الأخير، زاد إحساس صلاح الدين بمسؤولياته تجاه مصر، ومسؤوليّات مصر تجاه قضية إسترجاع فلسطين ولم تمر إلاّ نحو سنتين حتى توفى القائد الكبير نورالدين محمود صاحب الشام (حلب ودمشق) والموصل، وبوفاته لم يرث إلاّ ولداً قاصراً، فشمّر أمراء دولته في المدن المذكورة عن سواعدهم وشحذوا اسنانهم، وبيّنوا عن نواياهم في تقسيم دولة نوالدين بينهم، ووضعوا قضية إسترداد الأرض خلف ظهورهم، بل أنّ بعضهم حاول الإستفادة من الوجود الصليبي بالإحتماء به ضدّ منافسيهم(!) وبذلك عاد التشرذم

(*) نشر في مجلة (K21) العدد (٩) سنة ٢٠١٠.

والمنافسات في الشام إلى سابق عهده مما دفع صلاح الدين الى التصدى لهذا الوضع الذي صار لاينسجم مع تطلّعات المسلمين في الوحدة والوقوف بوجه المحتلّين، فأدرك بحسّه الثاقب ان مسؤوليّته تجاه مايجري قد زادت.

أما بغداد العباسية فلم يكن يحكمها منذ عقود ـ وهل أقول منذ قرون؟ – خليفةٌ يرتفع الى مستوى الأحداث الخطيرة، الى مستوى خطورة الوجود الصليبي، وأظهر لامبالاة واضحة لما يجري وكأن الأمور لا تعنيه. بل بدأ وكأن من مصلحته أن يستولي الصليبيون على أرض كانت منطقة النفوذ المصري (أي الخلافة الفاطمية التي نافست الخلافة العباسية)، وحين تخسر الدولة الفاطمية مواقعها في فلسطين فانها ستضعف. وهذا يعني ان كفّة بغداد ستصبح راجحة في المنطقة وكان هذا وهما ـ ولاشك ـ لأن الصراع الأساسي ـ المصيري ـ كان مع قوى أجنبية.

وكان هذا يعني بالنسبة لصلاح الدين. في مثل تلك الظروف. ألاّ ينتظر من الخلافة أن تفعل شيئا لصالح المسلمين. ومع ذلك فان صلاح الدين وجّه عددا غير قليل من رسائله الى بغداد لإخبار الخليفة فيها بالتطورات التي حصلت منذ أن إستقرت سلطته في مصر، وكذلك محاولة الحصول على اعتراف من الخليفة بشرعية حكمه، أو ماينوي القيام به من أعمال عسكرية، أو لعله يستطيع أن يحرك همّة الخليفة، ويجعله يحسّ بخطورة ما يجري، أو لكي يوضّح للخليفة معاناته مع القوى الإسلامية المحلية التي لم تكن يهّمها شيء سوى مصالحها الضيّقة، أو كان يراسلُ بغداد لأسباب أخرى، كما سنرى. وكذلك وجّه رسائل عديدة ـ أيام حصار عكا الطويل الأمد ـ إلى ملك المغرب، الخليفة المنصور الموحّدي[1]، إلاّ أنهّ لم يقبض من هاتيك الرسائل سوى الريح.

وهكذا نرى أن هذا القائد كان يعمل في معاركه المصيرية التي خاضها بأخذ مشورة الآخرين عبر مسارين قصد منهما وضع المشاركين، سواء أكانوا من أمراء و قادة جيشه، أم الحكام المسلمين من خلفاء وملوك، أمام مسؤولياتهم التأريخية، أي أنه كان يبغي عدم الإنفراد بالرأي إيمانا منه بأن رأيين أو أكثر، افضل من رأي

---

[1] انظر بحثنا (طبيعة واسباب اتصال صلاح الدين مع الخليفة المنصور الموحدي) المنشور في مجلة جامعة الملك سعود، م ٢/الآداب (١) الرياض (١٤١٠هـ – ١٩٩٠م) ص. ص ٣٠٣ ـ ٣٢٦.

واحد ولكيلا يتّهم بأنه لم يشرك الآخرين في تحمّل مسؤولياته. ولأن التأريخ سيحاسبهم.

وقد تمسّك صلاح الدين بهذه السياسة الحكمة في كافة مراحل تأريخه إبتداءا من عهد وزارته المبكّر في مصر، حتّى إنعقاد الإجتماع الأخير والخطير الذي تمّ للتشاور فيه بشأن عقد صلح الرملة مع الصليبيين، وسواء على نطاق دولته الداخلية، أو في علاقاته مع القوى الإسلامية.

وسنكتفي في بحثنا هذا بقراة فحوى أهم الرسائل التي بعث بها الى ديوان الخلافة العبّاسية.

البحث:

الملاحظ ان هذه الرسائل كان يكتبها كبار رجال القلم والفكر، ولا بأس أن نتحدث عن مكانة إثنين منهم بشيء من التفصيل لاعطاء فكرة عن مدى خطورة الموقف التي إقتضت كتابة مثل تلك الرسائل وإرسالها بالشكل اللائق. فالكاتب الشهير عبدالرحيم بن علي البيساني المعروف بـ(القاضي الفاضل) كان بمثابة وزير صلاح الدين وصديقه وعضده ومشيره[٢]، وبرز في صناعة الإنشاء وفاق المتقدمين، حتّى قيل ان مسودات رسائله تبلغ نحو مائة مجلد[٣] وكان صلاح الدين يقول لأصحابه لاتظنوا اني ملكتُ البلاد بسيوفكم. بل بقلم القاضي، وهذا اكبر تقدير يناله الكاتب من قائد في مستوى صلاح الدين[٤].

قال عنه السبكي انه إمام الأدباء وقائد لواء النثر. وصاحب ديوان الإنشاء. وإن الله لم يخلق من بعده ولا من قبله كاتبا على غراره بأكثر من مائتي سنة وربَما زاد. وبلغ عدد الكتب التي جمعها في مكتبته الخاصة مائة وأربعة عشر الف كتاب.

---

[٢] السبكي: طبقات الشافعية، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٠، ١٦٧/٧.

[٣] ابن خلكان: وفيات الاعيان، طبعة بيروت ١٩٧٠، ١٥٩/٣.

النويري: نهاية الارب، طبعة القاهرة، ١/٨.

ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مطبعة القدسي، القاهرة ١٩٣١، ٣٢٤/٤.

[٤] ابن تغردي بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط، دار الكتب المصرية ١٩٣٨، ١٥٧/٦.

وذلك قبل وفاته بعشرين سنة[٥]. ووصفه عماد الدين الكاتب الأصفهاني وإبن الأثير بأوحد الزمان وصاحب القرآن[٦]. فكان بحق كاتب عصره شرقا وغربا[٧]. حتى ان الكاتب الأصفهاني وصف عام ٥٩٦هـ/١٢٠٠م الذي توفي فيه القاضي بأنه: الرزيّة الكبرى والبليّة العظمى فجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وانه ـ أي الأصفهاني ـ حين أراد التحدّث عن القاضي في كتابه (خريدة القصر وجريدة العصر) الذي يقع في أجزاء واقسام عديدة، قال: قبل شروعي في ذكر أعيان مصر ومحاسنها ومزايا فضلائها... أقدمُ ذكر من جمع أفاضل الدهر وأماثل العصر كالقطرة في تيّار بحره... وهو القاضي الأجلّ الفاضل... صاحب القرآن العديم الأقران... واوحد الزمان... العظيم الشأن... ربّ القلم والبيان... فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع[٨]. وأعلن العماد أنه يؤثر أن يفرد لنظم ونثر القاضي كتاباً "لأنني اغارُ من ذكره مع الذين هم كالسُها" أي كواكب صغيرة" في فلك شمسه. وكالثرى عند ثريّا علمه وذكائه. فائما تبدو النجوم إذا لم تبرز الشمس"[٩].

هذا وقد دوّن القاضي الفاضل أخبار الأحداث التي عاصرها فيها أسماء "المياومات، أي اليوميّات/ المذكرات اليومية"[١٠]. وقد نقل عنه مؤرخون عديدون بينهم أبو شامة.

---

[٥] ابن العماد، مصدر سابق: ٣٢٤/٤.

[٦] في كتاب: أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة وادي النيل، القاهرة ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨هـ، ٢٤١/٢.

ابن الاثير، الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر ـ بيروت، ١٥٩/١٢.

[٧] النويري: مصدر سابق، ١/٨.

[٨] العماد الكاتب الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، طبعة القاهرة: ١٩٥١، ٣٥/١.

[٩] ابو شامة، الروضتين، ٢٤٢/٢.

[١٠] عثرت قوات الاحتلال الاسرائيلي في مكتبة كنيسة سانت كاترين في شبه جزيرة سيناء على وثائق عديدة، كان بينها كتابات ورسائل القاضي الفاضل، وسلموها الى السلطات المصرية، ونشر الاستاذ الدكتور على نجم عيسى مشكورا مجموعة رسائل القاضي معتمدا على نسخة مكتبة الاوقاف في الموصل، يعود تاريخ نسخها الى عام ١١٩٤هـ – ١٧٧٩م، وطبعها في دار الكتب العلمية، بيروت سنة ٢٠٠٥، الا اننا كتبنا بحثنا هذا في أواخر القرن الماضي، دون ان نطّلع على هذا المطبوع المهم.

ذكرنا هذه السطور لنبيّن مكانة القاضي ككاتب مفكّر من الطراز الأول، اما كسياسي فله شأن خاص بين رجال عصره. نذكر هذه الرواية التي تُغني عن الكثير. فقد كتب صلاح الدين ـ وهو على حصار عكا الشديد الوطأة، في عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م ـ الى القاضي الفاضل وهو في القاهرة يشكو له مسلك بعض أمرائه في الحصار وضجرهم من طول الإقامة والإنتظار. فرد عليه القاضي الفاضل طالباً منه أن يوسّع صدرهُ مع أمرائه، كما أنه رأى أن يكون الى جوار صلاح الدين، ليكون مشاوره ويُهدّئ ثائرة الأُمراء. فغادر القاهرة فوراً الى عكا، فما أن وصل حتى أرسل الخليفة خطاباً الى صلاح الدين يطلب فيه أن يرسل القاضي الى بغداد لتصفية ما بينهما من خلاف[١١].

أما الشخص الثاني الذي تولّى كتابة رسائل صلاح الدين فهو عماد الدين الكاتب الأصفهاني (محمد بن صفي الدين محمد بن حامد) المذكور. ولد في أصفهان ببلاد فارس عام ٥١٩هـ/١١٢٥م. وتوفي بدمشق عام ٥٩٧هـ/١٢٠١م نشأهو ووالدّه وأعمامه في بيت رئاسة وكتابة بأصفهان. وعملوا في ديوان السلاجقة في فترة ضعف سلاطينهم وصراعهم مع الخلافة. وبدأ منذ نعومة أظفاره بدراسة القرآن والحديث والشعر واللغة العربية، بالإضافة الى لغته الفارسية وآدابها. وإنتقل مع والده وأسرته الى بغداد، وإنخرط في المدرسة النظامية، عاد بعدها الى بلاده. وبعد سنين عاد الى بغداد وتولى منصب نائب الوزير عون الدين إبن هبيرة. ثم إستقر في دمشق في عهد نورالدين محمود حيث علت منزلته عنده فصار صاحب سِرّه وكاتب رسائله ومبعوثه، وبعد وفاة نورالدين إتصل بإدارة دولة صلاح الدين، وإقترب من القاضي الفاضل، وتمّ تعيينه في ديوان الإنشاء، فلازم خدمة صلاح الدين في حلّه وترحاله.

بعد وفاة صلاح الدين إعتزل العمل الرسمي وكرّس وقته للتدريس والتأليف في التأريخ والتراجم، فصنّف كتباً عالجت الفترة منذ قدومه إلى الشام حتى سنة وفاته ٥٩٧هـ/١٢٠١م. وصارت هذه المؤلفات أهم مصدر لدراسة تأريخ تلك الفترة، سواء في تأريخ السلاجقة أو الأتابكة أو عصر صلاح الدين وبعده، وكذلك في تأريخ الأدب

---

[١١] إبن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) طبعة القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٩٩.

ابو شامة، مصدر سابق، ١٩٢/٢.

العربي، كما صارت مصدراً أساسياً لكثير من المؤرخين، فنقلوا عنه روايات غير قليلة، مثل إبن الأثير وأبي شامه وابن خلكان وإبن واصل والذهبي والعيني وإبن الفرات.. وغيرهم.

إن هذه الرسائل التي حرّرها هذان الكاتبان وغيرهما، إذا أعدنا ترتيبها في سياقها الزمني، وما تتضمّنه من حقائق، لأصبحت من أهم وثائق عصر صلاح الدين، ولأستطعنا أن نكتب تأريخ هذه الفترة من جوانبها المتعدّدة، ولاسيما الجوانب السياسية والعسكرية، إضافة الى أهميتها الإستثنائية في مجال العلاقات الدبلوماسية بين صلاح الدين والخلافة العباسية (وكذلك الخلافة الموحدية في المغرب) ومع القوى الأخرى، حتى أنه يمكن إعتبار هذه الرسائل . (بارومترا) لقياس مستوى هذه العلاقات سواء من حيث فحوى هذه الرسائل، أو من حيث شخصية حاملها، إضافة إلى مكانة كاتبيها السامية لدى صلاح الدين.

ونسجل هنا ملاحظة جديرة بالإهتمام، هي ان مؤرخي بغداد المعاصرين لصلاح الدين، وأرزهم إبن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) صاحب التآليف الغزيرة جدا، سواء تآليفه في أحداث عصره، أو في تراجم كبار شخصيات الإسلام. لم يورد ـ أو يتطرّق إلى ـ هذه الرسائل. أو يتحدّث عن اخبار صلاح الدين وإنتصاراته المعروفة، بل إننا لم نجد بين مؤرخي بغداد من دوّن سيرة هذا القائد المُلهم ضمن تآليفهم الخاصة بتراجم الرجال وكذلك لم يتطرق المؤرخ الكبير إبن الأثير الى هذه الرسائل. فانفرد مؤرخو صلاح الدين، في الشام ومصر بتدوينها.

الرسائل:

لعل أول رسالة بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله (حكم في الفترة ٥٦٦ ـ ٥٧٥هـ) تلك التي أرسلها بعد أن إستقر في مصر بصفته وزيرها، ثم بعد وفاة الخليفة الفاطمي الأخير العاضد بالله، وإلغاء هذه الخلافة في مصر، فكتب القاضي الفاضل إلى بغداد ـ على لسان صلاح الدين ـ يبشر الخليفة المذكور بالمناسبة، ويطلب منه تقليده إدارة شؤون مصر. فبعد عبارات الثناء والتقدير، وإبداء صنوف الولاء بألفاظ بلاغيّة، يقول: أنه ـ أي صلاح الدين ـ يرجو

من أمير المؤمنين أن يحظى بتكريمه (ما يجعل له سلطانا ويُمكّن له في قلوب الأعداء والأولياء مكانا حتى يحفظ على الخلافة من لايُعينه إلاّ إياها)[١٢].

وحين وصلت الرسالة الى بغداد ضربت البشائر واقيمت معالم الزينة والفرح فيها وبعث الخليفة احد كبار رجال قصره. وهو عمادالدين صندل بن عبدالله الخادم (ت ٥٩٢ هـ/١١٩٦م) الى نورالدين محمود بالهدايا والخلع، وفيها العمامة وسيف فاخر ومبلغ الف دينار. كما بعث خلعة مماثلة إلى صلاح الدين.

أما الرسالة التالية فقد بعث بها الى الخليفة بعد أن إستقر في مصر أثر وفاة نورالدين محمود (عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣ف) صاحب الشام ومصر، وبوفاته إضطربت أحوال الشام. فكتب القاضي الفاضل يشرح تلك الأحوال، ومحاولات الصليبين المستمرة للإستيلاء عليها، والجهود التي بذلها في مصر في إلغاء الخلافة الفاطمية، وجهاده الذي لايكلّ في مقاومة الأطماع الصليبية، وصموده ضد تطلعات الأعداء الروم البيزنطيين في القسطنطينية وفي جزيرة صقلية الذين كانوا ينوون ضرب الإسلام، ويحاولون الإستيلاء على الأسكندرية ثغر مصر كما بيّن صلاح الدين للخليفة سبب توجيه قواته نحو اليمن، وانه قصد من ذلك ضرب من إدعى انه (المهدي المنتظر) كما ذكر في الرسالة (إنه قدم الشام لإصلاح الأمور وحفظ الثغور، وخدمة إبن نورالدين محمود[١٣] وكفالته وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا بإسمه. ويبالغون في ظلمه[١٤] وفي رسالته هذه طلب من الخليفة تقليده ليتولّى شؤون مصر والشام واليمن والمغرب، وكل المناطق التي كانت ضمن دولة نورالدين محمود " وكل ما فتحه ويفتحه الله للدولة بسيوفنا وسيوف عساكرنا ولمن نقيمه من اخ أو ولد من بعدنا تقليدا. يضمن للنعمة تخليدا وللدعوة تجديدا، مع ما ينعم به من السماوات التي يقتضيها الملك"[١٥].

---

[١٢] الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب. ط بغداد ١٩٧٨، ص ٧٩ ـ ٨٠.

[١٣] الملك الصالح اسماعيل، وكان في الحادية عشرة من عمره حين وفاة والده، ولم يخلف نورالدين محمود ولداً غيره.

[١٤] ابن واصل، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب. القاهرة ١٩٥٧، ٢/٢٩.

ابو شامة، مصدر سابق، ٢٤٣/١.

[١٥] ابن واصل: مصدر سابق، الصفحة نفسها.

وألحَقَ القاضي خطابه بآخر الى ديوان الخلافة يُبشرهُ فيه بفتح بلاد النوبة (أقصى صعيد مصر). معلنا انه أعاد النيل الى الفرات، بعد أن أضل المعتدون الطريق... وضاقت بهم الصدور.. والقيُت بعيدا كراسي خلافة الله "العباسية"... وكانت نعمة من الله حين انتخبهُ ـ سبحانه وتعالى ـ من بين أهل أرضه لنُصرة الحق وأهله. وإن الملك لله وحدهُ، ثم وَصف قادة وسكان بلاد النوبة من الحاميين ـ حسب وصفه لهم ـ وشبّه كثرتهم بالجراد... وسوادهم بالغربان "وطغى ذلك الفحم!"[١٦].

وأعلن إنه ـ أي صلاح الدين ـ أعاد الدعاء في جوامع البلاد بإسم الخلافة العباسية "والحمد الله الذي جعل أمير المؤمنين إماماً لخلقه ووارثاً لأرضه". وكر في الختام إنه اعاد الشعائر العباسية الى بلاد النوبة، بينها "السواد ـ شعار العّباسيين ـ ليجلي الحلك عن ضمائر المبطلين ـ المرتدّين"[١٧]، ثم كتب رسالة اخرى الى بغداد يخبرها فيها فتح اجزاء اخرى من بلاد النوبة، وإنه الحق هزيمة بملك النوبة وعساكره[١٨].

وفي رسالة لعلّها كانت أطول رسائل صلاح الدين الى بغداد. حملها الأمير شمس الدين الخطيب. يُعدّد فيها القاضى الفاضل فتوحات هذا القائد وإنتصاراته في مصر واليمن والمغرب، ويطلب من الخليفة ـ مرة أخرى ـ أن يرسل إليه التقاليد" المراسيم" بتوليته على هذه البلاد وعلى ما قد يفتحه من بلاد أخرى ومما جاء فيها:

"كان أول أمرنا انا كنّا في الشام نفتح الفتوحات مباشرين بانفسنا ونجاهد الكفّار متقدمين العساكر ونحن ووالدنا وعمّنا، فأيّ مدينة فُتحت، أو معقل ملك، وعسكر للعدوّ كُسر، أو مصاف "قتال" للإسلام معه ضُرب، فما يجهلُ أحدٌ أو يجحد

ابو شامة مصدر سابق، ٢٤٣/١

[١٦] لاشك ان هذه النظرة العرقية تخالف نظرة الاسلام الى الاجناس، ولكن النظرة لاتعدو كونها صراعاً سياسياً اتخذ هذا الطابع المشين والمنافي للنظرة الانسانية، وبهذا الصدد نذكر ان قوام الجيش الفاطمي (المصري) كان من السودان ومن البربر بالدرجة الاولى، ذلك الجيش الذي قام صلاح الدين بتصفيته.

[١٧] القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الإنشا، القاهرة ١٣ ـ ١٩١٧، ٥٠٦/٦ ـ ٥١١.

[١٨] المصدر السابق، ٥١٢/٦ ـ ٥١٥.

أنا نصطلى الجمرة... ونتقدم الجماعة ونرتّب المقاتلة، وندبِّر التعبئـة، الى أن ظهـرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولايضّرنا أن يكون لغيرنا ذكرها. ثم يقول:

"وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سـوء التـدبير، ومما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير، وان النظام قد فُسد، والإسلام بها قـد ضـعُف عن إقامته كـلُ قـائم بهـا وقعـد... "ويواصـل حديثـه في الرسـالة ويقـول ان عناصـر الجيش الفاطمي مستمرة على مقاومة الإنقلاب الذي أحدثهُ ـ صلاح الدين ـ في مصر.

وإن في جيش هذه البلاد من لايعرفون ربّـا الا سـاكن قصـره.. وبـه عسـكر مـن الأرمن باقون على النصرانية. موضوعة "أي ملغاة" عنهم الجزيـة[١٩]... وكيـف إنهـم إسـتنجدوا بـالفرنج ((الصـليبيين)) ممـا أدى الى حـدوث مصـادمات بـين الطـرفين في بلبيس[٢٠] ودمياط ثم قام ـ أي الفرنج ـ بانزال بحري في الف مركب مقاتـل ـ حسـب هذه الرواية ـ بهجوم برّي في مائتي الـف فـارس وراجـل، وحصـروا دميـاط شـهرين" ونحن نقاتل العدوّين "الباطن والظاهر، المنافق والكافر، حتّى أتى الله بـأمره وأيَّـدنا بنصره، وخابت المطامع مـن المصـريّين "المقصـود: بقايـا الحكـم الفـاطمي" ومـن الفرنج ومن ملك الروم، ومن الجنويين "نسبة إلى مدينة جنوا بإيطالياً"

بعدها يتحدّث القاضي عمّا فعلهُ ـ صـلاح الـدين ـ في شـبه جزيـرة سـيناء، ومـا أقامه من تحصينات للحيلولة دون إعتدائهم على مصر بحراً، أو قيامهم بشـنّ هجـوم محتمل على الحرمين، ثم التوغل الى بـلاد الـيمن، كمـا حـاولوا الإعتـداء علـى مثـوى الرسول الكريم "صلى الله عليـه وسـلم"[٢١] فكـادت القبلـة أن يسـتوي علـى أصـلها، ومساجد الله ان يسكنها غير أهلها، ويتعّرض مقام إبراهيم الخليـل ومضـجع الرسـول الى مخاطر "كما يروي الخطاب ما فعله صلاح الدين مـن تغـييرات في بـلاد الـيمن وفي

---

[١٩] ان هذا النص يلقي ضوءا على عناصر (او الاعراق التي ضـمها) الجـيش الفـاطمي مـن سـودان وارمـن (اضافة الى البربر) مع احتفاظهم بعقيدتهم الدينية، وعـدم تقـديمهم لضـريب الجزيـة والاكتفـاء بـاعلان الولاء للدولة وحمايتها، وبهذا الصدد انظر كتابنا (الجيش في عهد صـلاح الـدين، ط، بـيروت ١٩٨٦) ص. ص: ٧١ ـ ٨٤.

[٢٠] بلبيس: مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الشام، ياقوت الحموي معجم البلدان.

[٢١] انظر بحثنا (محاولات لانقاذ مثوى الرسول الكـريم بـين الخيـال والحقيقـة) مجلـة (الرسـالة الاسـلامية) العدد (١٧٩) لسنة ١٩٨٥.

بلاد المغرب" ولا سيما في ليبيا وتونس، وفي مدن "لك برقة، قفصه، قسطيلية، وتوزر" ويعدّد خصومه وأعداءه من: صاحب اليمن الى ملك المغرب بني عبدالمؤمن.[٢٢]... وصاحب بلاد الروم (صاحب القسطنطينية) وهو الطاغية الأكبر... وصاحب صقلية اللذين تعاونا في الهجوم، والانزال البحري على دمياط، وكذلك البنادقة والبياشنة والجنوية "نسبة الى مدن إيطاليا المعروفة". ثم يحذر في هذا (الخطاب ـ الوثيقة) من ان بيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، فان قوات العدو ستزداد وتعمّ المنطقة كلها، لذا لابد من أخذ الإستعداد الكافي بالمال والسلاح وترصين الجبهة الداخلية في مصر والشام واليمن والمغرب، ونطلب من الخليفة أن يقلّدنا أمور هذه البلاد[٢٣].

ولم يكن الخليفة ليردّ على أكثر هذه الرسائل ربّما لطبيعة هذه الرسائل. ولكن بالنسبة لهذه الرسالة المهمة فان ديوان الإنشاء والمخاطبات في بغداد أصدر قراره بتولية صلاح الدين ملك مصر وأعمالها والصعيد والأسكندرية ومافتحه من بلاد اليمن وبلاد المغرب والساحل الشامي، وقد ورد ذلك في رسالة بعث بها الى القاهرة نقتطف منها أهم ما جاء فيها:

فبعد الإشادة بصلاح اليدن يقول كتاب العهد: "ولما كان الملك الأجلُّ، السيد صلاح الدين، ناصر الإسلام، عماد الدولة، جمال الملك، صفي الخلافة، تاج الملوك والسلاطين، وقامع الكفر والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، عزالمجاهدين، (الب ارسلان بك)[٢٤] يوسف بن أيوب ـ ادام الله عُلُوَّهُ ـ على هذه السجايا مقبلاً، وبصفاتها الكاملة مشتملاً" وصار الخليفة في خطابه هذا يوجّه أوامره الى صلاح الدين طالباً منه مراعاة أمور الدين والدولة... وإتخاذ كتاب الله قدوة يقتدي به.. وتقوى الله.. والقيام بالواجبات الدينية والسنن الشرعية كالصلوات وتلاوة القرآن.. وإظهار العدل في الرعية.. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وردّ الحقوق إلى أهلها، والعفو والصفح عن الأخطاء، وإجتناب المحرّمات والغدر، وحفظ ثغور المسلمين من

---

[٢٢] رغم ان صلاح الدين سيضطر الى مراسلة بني عبدالمؤمن ـ ملوك الدولة الموحدية في المغرب ـ انظر الهامش رقم(١).

[٢٣] القلقشندي، مصدر سابق، ٨١/١٣ ـ ٩٠.

[٢٤] لقب (الب ارسلان بك) لقب تشريفي تركي كان يمنح لكبار سلاطين آل سلجوق.

الكفار، وتوزيع الغنائم حسب الأصول المرعيّة الواردة في القرآن، وغيرها من الأوامر والنواهي، مذيّلاً كُلّ أمر ونصيحة بآية قرآنية كريمة. وهذه الرسالة بعث بها الخليفة المستضىء بالله في أعقاب الحملة الناجحة المذكورة الى بلاد النوبة واليمن عام ٥٦٩هـ/١٠٧٤ف[٢٥].

هذا ولعلّ من المفيد ان نذكر بأن هذه التولية لم تكن تغيّر من واقع الأمر شيئا. فصلاح الدين كان الحاكم الفعلي لمناطق أوسع بكثير من المنطقة المحدودة التي بقيت من العراق تحت سيطرة الخلافة، بعد أن إستحوذ حكام الأقاليم، ومنذ قرون على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، شرقاً وغرباً، وإستولى حكّام اطراف العراق على مدن ومناطق عديدة من البلاد مثل: البصرة والموصل وأربل وشهرزور، وحتى بعض المناطق القريبة من بغداد مثل الداقوق وتكريت والحلة، وتمتعت هذه المناطق بإستقلالها الشكلي عن بغداد، ويبدو أن الملوك والسلاطين والأُمراء كانوا بحاجة الى نيل تشريف وإعتراف الخلافةلإكساب الشرعية على دُولهم، حتى لوكان هؤلاء الملوك والسلاطين يتمتعون بنفوذ واسع وحب وتقدير الرعية، وإحترام رجال الفقه ولا سيما صلاح الدين.

أما الخطاب: التالي فيتمتع بقيمة توثيقية أكثر من رسائل صلاح الدين الأخرى، لأنه ارسلها في أعقاب فشل الهجوم البحري الرومي الصقلي الذي شنّ على الأسكندرية والساحل المصري في نهاية ٥٦٩هـ/١١٧٤م وجاء في هذا الخطاب ان ملك الروم عرض صداقته على صلاح الدين، وطلب منه فتح صفحة جديدة من العلاقات بينهما، وأكثر من ذلك أعلن عن إستعداده ليضع قواته تحت تصرف صلاح الدين للقيام بعمل مشترك ضد المحتلين (الفرنجة اللاّتين)!.

بعد مقدّمة بليغة عبّر فيها عن مشاعر التقدير والإحترام للخليفة العباسي جاء في الخطاب "ان طاغيتي الكفر بقسطنطينية وصقلية كانا قد أوقدا للحرب نارا. ورفعا لها اوزارا. وإتخذا لها اسطولا جاريا وعسكرا جراراً. وتباريا ولم يزد الله الظالمين إلا تبارا "هلاكا"، وكتبا الى الفرنج بعد إنهزامهم بالنجدة والنصرة، وتضمّنا لهم الخروج والكرة، يصفان ما إستعدا به بما لايُعبر عنه إلا بالكثرة... وورد الى الملوك "يقصد: ورد الى صلاح الدين" رسولُ من طاغية القسطنطينية، وهو اقدم ملوك النصرانية

---

[٢٥] القلقشندي، المصدر نفسه، ١٠/١٤٥ ـ ١٥٢.

قدماً وأكثرهم مالاً، فعرض عليه "على صلاح الدين" موادعه "هدنة" يكون بها عسكره مودعاً، ويكون له بها مفزعا "يعني ان عسكر القسطنطينية ينجد جيش صلاح الدين".. ثم جاء في الخطاب: الا ان صلاح الدين لم يستجب لدعوة ملك القسطنطينية "فلم يجب الى السلم" لثقته للتصّدي لأي عدوان محتمل[٢٦].

ولا شكّ أن هذا العرض المقدّم من ملك الروم، وهو يمثلُ أكبر قوة مسيحية ـ يومئذ ـ في العالم، ليدلّ على مكانة صلاح الدين وما صار يتمتع به جيشه من سمعة، ويسبب صموده بوجه العدوان، حتى صار ملك الروم يخطب ودّه. كما ان هذه الرسالة تلقي الضوء عل تشابك العلاقات الدبلوماسية في تلك الفترة، ومن ثم فهي وثيقة لها أهميتها في دراسة المتغيرات التي فرضت نفسها على روح العصر.

ورغم هذه المراسلات بقي موقف الخلافة في عهد المستضيء بالله متأرجحا غير واضح تماما من صلاح الدين فلا هي (أي الخلافة) أخّذتُ بيده تُنصره في محاولاته لتوحيد الجبهة الإسلامية وتحرير الأرض، ولا هي منعت الأمراء ـ ولاسيما ملوك الموصل من الأ تابكة ـ من التحالف ضدّه والتعرُّض له يرى باحث حديث ان ضعف مركز الخليفة المذكور وعجزه عن وقف الصراع الدائر في البلاط بين وزيره وصاحب المخزن في دولته، جعلهُ يظهر بمظهر لايسمع ولايرى، هذا بالإضافة إلى ان مركز الخلافة ونفوذها على أمراء الأطراف كان ضعيفاً لضعف الخليفة نفسه، كما أنه لم يكن من مصلحة بغداد أن تحابي أميراً على آخر، ولو كان الحق بجانبه فالظروف السياسية المحيطة به لم تكن تساعده على إغضاب أحد منهم[٢٧]، وفي مثل تلك الظروف والأجواء كانت رسائل صلاح الدين تُبعث[٢٨].

---

[٢٦] المصدر نفسه، ٦/٥١٥ ـ ٥١٦.

[٢٧] د. القزاز، محمد صالح داود، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، النجف ١٩٧١، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

[٢٨] تؤكد المصادر ان الخلافة في هذه الفترة كانت تمر بأزمة، رغم أن تاريخها العام لم يخل من أزمات، فقد كان الخليفة المستضيء محكوماً عليه بالسكوت والطاعة لكبار رجالات الدولة لمشاركته في جريمة بشعة، جريمة قتل والده الخليفة المستنجد باالله بخنقه في الحمام وحين تولى المستضيء هذا عهده بالخلافة دخل في صراعات عديدة مع كبار رجال دولته، اي مع شركائه في الجريمة.

ومن الحوادث الخيرة في تأريخ الطرفين الإسلامي والصليبي، وفي تأريخ بحرية صلاح الدين الإنتصار الذي احرزه إسطوله في البحر الأحمر "بحر القلزم ـ كما كان يسمّى" عام ٥٧٨ هـ/١١٨٢م ففي هذا العام قام اسطول صليبي بقيادة الأمير رينو دي شاتيو) المعروف في المصادر الإسلامية بإسم (ارناط) بشنّ هجوم على الحجاز وعلى الحرمين الشريفين[٢٩] إلاّ أن اسطول صلاح الدين الفتيّ في مصر إستطاع بقيادة حسام الدين لؤلؤ القضاء على هذه الحملة الفريدة. عندها كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله خطابا جاء فيه: "وسارت المراكب الإسلامية طالبة شوكة المراكب الحربية المتعرضة للمراكب الحجازية واليمنية، وكانت مراكب العدو قد أوغلت في البحر، ودلها على عورات الساحلين من العرب[٣٠] من أشبه رُكابُها في الكفر، فواصلت الى عيذاب[٣١]. وإستطاع المغيرون الصليبيون من التوغُل نحو الجنوب حين وصلوا الى رابغ (وهناك وقع عليها أصحابُنا وأوقعوا بها أشد إيقاع، واخذوا المراكب الفرنجية ففرَّ الصليبيون، فركب أصحابنا وراءهم بالخيول... وأخذوا الكفار على حين غرة من شعاب وجبال إعتصموا بها، والقوا القبض عليهم، وموَّهوا عليم الطرقات حتى لاتنكشف لديهم أسرارها، لكيلا يعيدوا الكرة بعد أن إطلعوا عليها، فتزداد خطورتهم وتشتدّ جنايتهم..)[٣٢].

وفي رسالة ثانية إلى الخليفة الناصر حول الموضوع نفسه. ذكر القاضي الفاضل عن تفاصيل ما جرى، وبين نوايا الصليبيين في غزو البيت الحرام، وشبّهه بما فعله اصحاب الفيل قبل اكثر من ستمائة سنة، ويقول فيها ان الفرج كان لهم مقصدان: أحدهما قلعة إيلة (إيلات الحالية) مفتاح خليج العقبة والبحر الأحمر. والمقصد الآخر هو الخوض في هذا البحر الذي تجاوره "بلادهم" من ساحله، ليمنعوا الحاج من الوصول الى الحرمين، والسيطرة على طرق تجارة اليمن.. فأخذنا "مراكب العدو

---

[٢٩] انظر عن تفاصيل هذه الحملة كتابنا المذكور آنفاً (هامش ١٩) ص. ص: ٣٥٧ ـ ٣٦١.

[٣٠] المقصود بـ(العرب) بدو المنطقة الذين تعاونوا مع العدو المحتل.

[٣١] عيذاب: ميناء على البحر الاحمر، ثغر مصر على بحر القلزم، مرسى المراكب القادمة من الهند واليمن، فضلا عن مراكب الحجاج. د. نظير حسان سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين مكتبة النهضة المسرية. القاهرة ١٩٥٧، ص ١٤١.

[٣٢] ابو شامة: مصدر سابق، ٣٧/٢.

برمّتها، وقتلنا أكثر مقاتلها، إلاّ من تعلّق بهضبة" وإستطاع أن ينجو بنفسه، إلاّ أنّ المسلمين إقتفوا أثرهم وأحضروُهم.. "وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلاً ورجلاً، نهاراً وليلاً، حتى لم يتركا عنهم خبراً، ولم يبقوا لهم أثرا ﴿وسِيقَ الَّذين كفرُوا إلى جَهَنَّم زُمَراً صدق الله العظيم﴾ (الزمر: ٧١) وقُيّد منهم مائة وسبعونَ أسيرا"[٣٣]. وتصادف ان كان الموسم موسم الحج، فساق المسلمون معهم بعضاً من هؤلاء الأسرى الى منى "لذبحهم كما تنحر الذبائح"[٣٤].

وجدير بالذكر ان صلاح الدين راسل في الوقت نفسه اخاه الملك العادل سيف الدين ابا بكر بهذا الشأن، وذكر له خطورة ما حصل[٣٥] وفي رسالة ثانية إليه أمره بقتل أسرى العدوان الذين ارسلوا الى مصر. حتى لايبقى منهم أحد يخبر الى طريق البحر الأحمر "فليمض العزم في قتلهم، ليتناهى امثالهم عن فعلهم". وقد كرّر هذا الطلب على أخيه في رسالة ثالثة[٣٦] وقد نفّذ سيف الدين طلب أخيه بعد أن جال بالأسرى في شوارع الأسكندرية، وشهّربهم أمام الحشود الذين تجمهروا ليروا المشهد وصادف ذلك اليوم وصول الرحالة المغربي الأندلسي المعروف (إبن جبير) الى الأسكندرية، فشاهد جمعاً غفيراً من الناس إحتشدوا ليتفرّجوا على الأسرى، وقد أُدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوهم الى اذنابها "وحولهم الطبول والأبواق"[٣٧] إيغالاً في إهانتهم[*].

---

[٣٣] المصدر نفسه والصفحة.

[٣٤] ابن الاثير، مصدر سابق: ٣٩١/١١.

ابن واصل، مصدر سابق: ١٢٨/٢.

المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٤، ٧٩/١.

[٣٥] ابو شامة، مصدر سابق، ٣٦/٢.

[٣٦] ابو شامة ٣٦/٢ ـ ٣٧.

[٣٧] ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر ـ دار بيروت ١٩٦٤، ص: ٣٤.

[*] كتبا بحثاً في مجلة (سەنتەرى برايەتى)، العدد (٢٣) ٢٠٠٢. بعنوان: إنطباعات ابن جبير حول صلاح الدين ودولته من خلال معايناته.

رسالة عن حطين

توالت الخطابات على بغداد، وعلى غيرها من حواضر العالم الإسلامي حول معركة حطين، وتفاصيل ما حصل قبل بدء المعركة وبعد خوضها وإحراز النصر فيها، وبأقلام العديد من كتاب العصر فاضافة إلى القاضي الفاصل. كتب العماد الكاتب خطابات الى بغداد، وكذلك فعل عبدالله بن أحمد المقدسي، وقد إحتفظ بخطابه المؤرخ إبن القادسي[٣٨] وقد ورد في مقدمة خطابه "كتب هذا الكتاب من عسقلان يوم الثلاثاء ثالث جمادي الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة" (١١٨٧م) وجاء فيه:

ولو حمدنا الله عّزوجل طول أعمارنا ما وفّينا بعشر معاشر نعمته التي انعم بها علينا من هذا الفتح العظيم فائا خرجنا الى عسكر صلاح الدين، وتلاحق الأجنادُ حتى جاء الناس من الموصل وديار‌بكر وأربل، فجمع صلاح الدين الأُمراء وقال لهم: هذا هو اليوم الذي كنتُ أنتظره، وجمع الله لنا العساكر، وأنا رجلٌ قد كبرتُ، وما أدري متى أجلي، فاغتنموا هذا اليوم وقاتلوا لله تعالى لا من أجلي. فاختلفوا في الجواب، وكان رأي أكثرهم لقاء الكفّار، فعرض جُندهُ ورتّبهم، وجعل تقي الدين عمر (إبن أخيه شاهنشاه) في الميمنة، ومظفرالدين گوگبورى (زوج أخته، صاحب اربل في وقت لاحق) في الميسرة، وكان صلاح الدين في القلب، وبقية العسكر في الجناحين، ثم ساروا على مراتبهم حتى نزلوا الأقحوانه[٣٩] فتركوا بها اثقالهم (عُدّة الحرب والذخيرة)، وساروا حتى نزلوا قرية كفرسبت، فأقاموا يومين ينتظرون أن يبرُزلهم الكفار، وكان الكفار على صفورية القريبة من طبرية، فلم يبرزوا، فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية، فتقدم فرسانه وحماته ورماته والنقابون (الذين ينقبون ويدّمرون أسوار الحصون). فدخلوا تحت الحصن فلمّا تمكن النقب منه إنهال من غير وقودنا ودخل المسلمون فإنتهبوا البلدة يوم الخميس وأصبحوا يوم الجمعة فشرعوا في نقب القلعة. فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر أنّ الكفّار قد توجّهوا إلينا، فارتجل صلاح الدين مع صفوفه فلقيهم، ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم. وصار قلب المسلمين خلفهم، فتراموا ساعة وبات كل فريق على مصافّهم، ثم

---

[٣٨] كتاب ابن القادسي ضمن الكتب المفقودة، ونقل ابو شامة روايات عديدة من كتابه.

[٣٩] الاقحوانة، موضع بالاردن من ارض الشام على شاطيء بحيرة طبرية، معجم البلدان.

أصبحوا فسار الكفار يقصدون طبرية والمسلمون حولهم يلحَون عليهم بالرمي، فاقتلع المسلمون منهم فوارس وقتلوا خيالة ورجالة، فانحاز المشركون الى تل حطين فنزلوا عنده، ونصبوا الخيام وأقام الناس حولهم الى أن انتصف النهار، وهبت الرياح، فهجم المسلمون عليهم فإنهزموا لا يلوون على شيء، ولم يفلتْ منهم إلا نحو من مائتين، وكانوا ـ كما قيل ـ إثنين وثلاثين ألفاً، وقيل ثلاثة وعشرين ألفاً، لم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلاً، وكان الذي أسر الملك هو درباس الكردي، أما غلام الأمير إبراهيم المهراني فقد أسر الاپرنس "الأمير" ارناط الذي قتله صلاح الدين بيده. لأنه قد غدر وأخذ قافلة من طريق مصر، ثم عاد صلاح الدين الى طبرية، فأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضرب أعناق الأسارى الذين كانوا في العسكر وأرسل الى دمشق فضَرَبَتْ اعناقُ الذين بها منهم[٤٠].

كما بعث صلاح الدين الى بغداد خطاباً آخر فيه معلومات أخرى عما حصل في حطين وقد كتبه القاضي الفاضل من عكا بعد تحريرها. جاء فيه:

"صَبح الخادم" يقصد صلاح الدين" طبرية فافتض عذرتها بالسيف. وهجم عليها هجوم الطيف. وتفرق أهلها بين الأسر والقتل.. وجاء الملك (يقصد جاي لوسينيان ملك بيت المقدس الصليبي) ومن معه من كفاره، ولم يشعر إن ليل الكفر قد آن وقت أسفاره، فأضرم الخادم عليها ناراً ذات شرار، إذّكرْت بما أعدّ الله لهم في دار القرار، فترجل هو (أي الملك) ومن معه من صهوات الجياد، وتسنّموا هضبة رجاء أن تُنَجيَهُم من حرّ السيوف الحداد، ونصبوا للملك خيمة حمراء، وضعوا على الشرك عمادها، وتولت الرجال حفظ أطنابها، فكانوا أوتادها فأُخذ الملك أسيرا، وكان يوما على الكافرين عَسيرا، وأسر الابرنس ارناط ـ لعنه الله ـ فحصد بذرَهُ، وقتله الخادم بيده، ووفّى بذلك نذره.

وأسرت جماعة من مقدمي دولته، وكبراء ضلالته، وكانت القتلى تزيد على أربعين الفاً، ولم يبق أحدٌ من الداوية (الفرقة الصليبية المعروفة بكرهها للمسلمين) فللّه هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، وتداول فيه القتل والأسر"[٤١].

---

[٤٠] ابو شامة، ٨٢/٢.

[٤١] المصدر السابق، ٨٧/٢.

وكان للعماد الكاتب الأصفهاني حصته في الكتابة عن حطين، فكتب وهو في عكا للبشرى بهذا الانتصار، يقول: أحاط المسلمون بالقوم "بالصليبيين" فآوى ملكهم الى جبل يعصمه العوم، فأسمعه السيف: لا عاصم اليوم. وأستولى الخذلان عليهم بأسرهم، وبردت أيدي المؤمنين بحرّ قتلهم وأسرهم. ولم يبق لهم باقية، وغصّت بقتلاهم في الدنيا والآخرة أرض الله الواسعة ونار الله الحامية، فما يطأ من يصل الى مخيّمهم الا على رممهم البالية. وأسر الملك وأخوه، وبارونيته ومقدّموه، ولم يفلت منهم الا القمص ـ ريموند صاحب طرابلس ـ وهو مسلوب، ولابد أن ندركه فهو مطلوب.

وقد كنّا نظرنا ضرب رقبة الابرنس صاحب الكرك الغدار "ارناط" كافر الكفار، ونشيدة النار، فلّما رأيناه ضربنا عُنقه سريعاً وسرنا الى عكا بيضة مُلكهم، وواسطة سلكهم، ومركز دائرة كُفرهم، ومجمع جمع برهم وبحرهم، فتسلّمناها بلأمان.

والصخرة المقدسة الآن بنا تصرخ وتستغيثُ، وعبادالله الصالحون قد وصلت اليهم بوعدالله الصادق المواريث، والبشارة بفتح القدس لا تتأخر، والهمم بعد هذا الفتح السنّي على ذلك تتوفّر، والحمد الله الذي تتم الصالحات بمحمده، ﴿مَا يفْتَحِ اللهُ للنَّاس من رَّحْمة فلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسكْ فَلا مُرْسل لهُ من بعْدِه.. صد الله العظيم﴾. ((سورة فاطر: ٢))

وفي خطاب مطّول خطّه يراع القاضي الفاضل البارع على لسان صلاح الدين الى ديوان الخليفة الناصر لدين الله يبشره فيه بالنبأ العظيم بفتح القدس الشريف، وتحريره من ايدي الصليبين. فبعد الدعاء بدوام "أيام الديوان العزيز النبوي الناصري، كما جاء في ديباجة الخطاب، كتب عن عزم جنده الذي لم يلنْ، وقراره الجاد بإعادة المدينة المقدسة الى حظيرة الإسلام، مهما كان الثمن، وتحقيق ما تخفق له افئدة المسلمين، وتقربه أعينهم التي توجهت نحو اولى القبلتين وثالث الحرمين، وتلهجُ به السنتهُمُ بالدعاء وشكرالله لما تحقق من نصر على المحتلين "فكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه، والفوز معروضاً فقد بُذلتْ الأَنفُسُ في ثمنه.. وجاء أمرالله وانوف أهل الشرك راغمة.. وصدق وعدُ اللة في إظهار دينه على كلّ دين.. وإستردّ المسلمون تراثاً كان عنهم آبقا (غائباً) وظفروا يقظة بما لم يُصدقوا انهم يظفرون به

طيفا على النأي طارقا، وإستقرت على الأعلى اقدامهم، وخفقتُ على المسجد الأقصى أعلامُهم، وتلاقت على الصخرة قبلُهم.

ثم يقول أن صلاح الدين لم يكن يُهمهُ سوى هذا الفتح المبين، ولم يكن يسعى إلاّ لهذه المهّمة المباركة "ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النُعمى.. لتكون الكلمة مجموعة، والدعوةّ الى سامعها مرفوعة، فتكون كلمة الله هي العُليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا.. ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رابحة تجاسر... هذا الى كون القعود لايقضي فرض الله في الجهاد، ولا يُرعى به حقّ الله في العباد.." ثم يقول: (وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة وبدّل اللهُ مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من ايدي اصحاب المشأمة الى أيدي أصحاب الميمَنة).

وكان اليومُ مشهوداً، وكانت الملائكة شهوداً، وكان الكُفر مفقودا، والاسلامُ مولوداً، وأسر الملكَ وبيده أوثق وثائقه، وآكد وصله بالدين وعلائقه، وهوى صليب الصلبوت. وفي هذا اليوم أسرت سراتُهم، وذهبْت دهاتُهم، ولم يُفلت منهم أميرُ معروف الاّ القومص ـ صاحب طرابلس ـ فنجا بالاحتيال خوفا من أن يلحقهُ جناحُ السيف، ثم أخذهُ الله تعالى بعد أيام بيده، وأهلكهُ لموعده.

وبعد كسرة العدو مرّ الخادم (يقصد صلاح الدين) على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً، البيضاء صنعاً، وما لم يبق الا القدس وقد إجتمع اليها كلُّ شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كلُّ قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله ما نعتُهم، وان كنيستها الى الله شافعتُهُم فزوال البلد من جانب فاذا أودية عميقة ولُججٌ وعرةٌ غريقة، وسور قد انعطف عطف السوار.. فعدل إلى جهة أخرى كان للمطامع عليها مُعرّجُ، وللخيل فيه متولّج (مجال الدخول) فنزل عليها، واحاط بها وقرُب منها، وضرب خيمتهُ بحيثُ ينالُهُ السلاح... ونُصبت المنجنيقات... وفُتح في السور بابٌ سد من نجاتهم أبوابا، وأخذَ ينقبُ في حجر فقال عنده الكافر: "ياليتني كنتُ تراباً" فحينئذ يئس الكفار.. وفي الحال خرج كبيرهم ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلدُ بالسلام لا بالعنوة.. وبالأمان لا بالسوط.. وطرح جبينه في التراب.. وبذل مبلغاً لقاء الحفاظ على حياتهم.. وقال (كبيرهم المذكور): ها هنا أسارى مؤمنون يتجاوزون الألوف، وقد قرروا على انهم إن هجمْت عليهم قوات المسلمين.. قتلوا

اولادهم ونساءهم بأيديهم لكيلا يقعوا أسرى بأيدي المسلمين.. ثم يبداون بتنظيم مقاومة ضد قوات المسلمين.

وإتصلوا بهذا الشأن بصلاح الدين، وطلبوا منه أن يقبل عرضهم بتسليم البلد سلما لقاء مبلغ يُدفع عن كل من يغادر القدس "فقبل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون" وهكذا تمّ تحرير بيت المقدس وأوعز صلاح الدين بردّ الأقصى الى عهده المعهود، وأقام له ائمة لائقين، واقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان.. ورُفعت الى الله كلمة التوحيد، وكانت طرائقها مسدودة، وظهرت قبور الانبياء وكانت بالنجاسات(!) مكدودة، واقيمت الصلوات الخمس وكان التثليثُ (طريقة صلاة النصارى) يقعدُها، وجهرُت الالسُن بالله أكبر، وكان سحر الكفر يعقدها.

ثم يختتم الخطاب بقوله: انه مُجدٌ في إستفتاح بقية الثغور والمدن[٤٢].

وتبارى العمادُ الكاتب الاصفهاني مع القاضي الفاضل في ارسال الخطاب ـ مرة أخرى ـ الى بغداد بُبشرى النبأ هذا، في رسالة فيها معلومات فنية عن مجرى المعركة وماجرى فيها، فيتحدث عن الفرق المحاربة في جيش الفرنجة، والمواقع التي تّم تحريرها، وصليب الصلبوت، وقد حمل هذه الرسالة الى بغداد رجل من هذه المدينة هو رشيد الدين البوشنجي البغدادي (سنتحدث عنه فيما بعد) وجاء في صدر الخطاب: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون.. صدق الله العظيم) (سورة الانبياء: ١٠٥) الحمد الله على ما أنجز من هذا الوعد، على نصرته لهذا الدين الحنيف من قبلُ ومن بعدُ.. والحمد الله الذي نصر سلطان الديوان العزيز وأيدهُ وأظفَرَ جندَهُ الغالب وأنجدَهُ.. (ولقد منَنَا عليك مرّة اخرى) فالاولى في عصر النبي ـ صلعم ـ والصحابة. والأخرى هذه التي عتق فيها من رق الكآبة. فهو قد أصبح حرا فالزمان كهيئة إستدار. والحقُّ بمهجته قد أستنار.. وشفى غليل صدور المؤمنين برقراق الماء البوارد.. وإلا فان الحروب إنما عُقدت سجالاً. وانما جمعُت رجالا، ودعت خفافا وثقالاً، فاما سيوفُ تقاتل سيوفا، او زحوفُ تقاتل زحوفا، والحمد الله الذي أعاد الاسلام جديدا، والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم، مايشرح صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكافة المسلمين، ويكرر البشرى بما أنعم الله به.. خلال سبع ليال وثمانية ايام ﴿**فترى القومُ فيها**

---

[٤٢] القلقشندي، مصدر سابق ٢٨٢/٨ ـ ٢٨٩.

صَرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية، صدق الله العظيم﴾ ((سورة الحاقة: ٧)) ورايتها الى الاسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية.

ففي يوم الخميس فتحت طبرية.. وفي يوم الجمعة والسبت كُسرَ الفرنج التي مالَهم بعدها قائمة.. ثم فتحت عكا بالأمان، ورفعت بها أعلام الايمان، وهي أمّ البلاد، واختُ (إرم ذات العماد).. وأصدر (صلاح الدين) هذه المطالعة وصليبُ الصلبوت مأسور، وقلبُ ملك الكفر الأسير جيشه المكسور مكسور.. وطبرية قد رُفعت أعلامُ الاسلام عليها، ونكصُت من عكا ملةُ الكفر على عقبيها، ثم يعدّ العماد الكاتب البلدان والمعاقل والحصون التي فُتحت في هذه الجولة الكبيرة[٤٣].

بعد انتصار حطين واسترداد بيت المقدس، نظم الالمانُ حملة صليبية هائلة عُدّت اكبر حملة أعدتها دولة أوربية بمفردها. في تاريخ الحروب الصليبية، في الشام وفلسطين، بل ان المسؤولين في الدولة البيزنطية (الروم الشرقية، الارثودوكسية) حسبوا لهذه الحملة حسابها، لأنها ستجعل كفة المسحيين الغربيين (الكاثوليك، اللاتين) ترجح في المنطقة بفضل هذه الحملة التي قادَها ملكُ المانيا الشهير فردريك باربابروسّا "ذو اللحية الحمراء" وحين وَصلت أخبار الحملة الى صلاح الدين، أوعز الى كاتبه الكبير القاضي الفاضل ان يكتب خطاباً الى الخليفة الناصر لدين الله يخبره فيه بخطورة الوضع، علهُ يقوم بعمل ضمن مجهود إسلامي مشترك، فبعد أن عبر الالمان بلاد الاناضول، وتوجهوا نحو الجنوب، وما حصل من قتال بينهم وبين المسلمين، كتب القاضي (بعد ديباجة الخطاب): "ومن خبر الكفار أنهم الى الآن على عكا يمُدُّهم البحر بمراكب اكثر عُدّة من أمواجه، ويخرج للمسلمين منهم أمرّ من أجاجه (اجاج ـ الملح المر) قد تعاضد ملوك الكفر على ان ينهضوا اليهم من كل فرقةٍ منهم طائفة.. فاذا قتل المسلمون واحداً في البرّ بعث البحرُ عوضه الفا، واذا ذهب بالقتل صنفاً منهم اخلف بدلهُ صنفاً، فالزرعُ اكثر من الجداد (النبات الضار) والثمرة انمى من الحصاد.

ويسهب الكاتب في وصف عدد وعدة القادمين الجدد من وسط اوربا الى هذه الديار، ومقدار ما انفقوه لأعداد هذه الحملة المذهلة، ويقول على لسان صلاح الدين انه "يناشد الله المناشدة النبوية، في الصيحة البدرية (نسبة الى معركة بدر الكبرى):

---

[٤٣] المصدر السابق، ٥١٧/٦ ـ ٥٢٠.

اللّهم ان تهلك هذه العصابة.." ويقول: هذا والساحل وقد تماسك وما تهالك، وتجلد وما تبلّد.. فكيفَ به اذا خرج داعية الالمان، وملوك الصُلبان، وجموع ماوراء البحر، وحشود اجناس الكفر؟ وقد حرّم باباهم ـ لعنة الله عليهم وعليه[*] ـ كل مُباح، واستخرج منهم كلّ مَذخور، واغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحداد، وحكم عليهم أن لايزالوا كذلك او يستخلصوا المقبرة "اي قبر السيد المسيح" ويعيدوا القمامة[**]، ﴿**وإذ زيّن لهُم الشيطان أعمالهُم، وقال: لا غالب لَكُمُ اليومَ منَ النّاس وإني جار لكم، صدق الله العظيم**﴾. ((سورة الأنفال: ٤٨))

ثم يتحدث في الرسالة عن عزائم رجال صلاح الدين وإستعدادهم لملاقاة الالمان في هذه الحملة، وما كلفته الخزينة من أموال.. وهو "منتظر لنصر الله مرتقب.. ولسانه يردد الآية ﴿**رَب إنّي لا أملكُ إلا نفسي وأخي**، صدق الله العظيم﴾.. ويختتم الرسالة بقوله: أنجز الله لأميرالمؤمنين مواعدَ نصره، وتمَّمَ مساعدة دهره، واصفى مواردَ إحسانه، وأرسى قواعدَ سلطانه، وحفظهُ وحفظ به، فهو خير حافظاً، ونصرهُ ونصر على يدَيه، فهو اقوى ناصرا، إنشاء الله تعالى[٤٤].

★ ★ ★

الواقع اننا أوردنا أبرز تلك الخطابات التي تبين نوع العلاقة بين صلاح الدين والخليفة العباسي، على الرغم من أنّ هذه العلاقات لم تتعدّ إرسال هذه الخطابات من جانب واحد، مصحوبة بالهدايا، فكان صلاح الدين المبادر في مثل هذه العلاقة، وقد ردّ الخليفةُ بارسال الخلع الى صلاح الدين، تلك التي كان يبعث بها الى المقربين من السلاطين والامراء إحتراماً لهم وتمييزا عن غيرهم.

واستمرت العلاقات الطيبة ـ نسبياً ـ بين الطرفين، وكان بعض الامراء يلجأون الى الخليفة في محاولة منهم الحصول على الخلع والاعتراف بهم، الا ان الخليفة كان يرفض طلبهم خشية أن يفسرو كأنه يمنح تأييده المجاني لكل من يراسلهُ او يلجأ

---

[*] كذا في الاصل، فالحروب تثير الكراهية والتعصّب بين الناس في كل زمان ومكان.

[**] المقصود بالقمامة، كما ترد في مصادر العصر الاسلامية، كنيسة القيامة في بيت المقدس التي شيدت على قبر السيد المسيح (ع) صار المسلمون يطلقون عليها هذه التسمية تحقيراً، بتأثير الوجود الصليبي، وما الحقوه على المقدسات من اذى، ولاسيما في بيت المقدس.

[٤٤] القلقشندي: ١٢٦/٧ ـ ١٣٠.

اليه. وهذا ما حصل حين رفض ـ على سبيل المثال ـ طلب الامير جمال الدين خوشترين الكردي بمنحه الخلع[٤٥]. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان الخليفة ـ رغم ماكان بينه وبين صلاح الدين من إحترام وودّ حذر ـ لم يمنحه تقليد الموصل ليضمها الى جهوده التوحيدية الرامية لتحرير الارض الاسلامية، وربما كان السبب في ذلك هو ان الخليفة لم يكن ينظر بعين الارتياح لتحركات وانتصارات هذا القائد الواسعة، بل انه كان يرى خطورة أن يمتد نفوذ صلاح الدين الى المناطق القريبة من بغداد، فأراد ان تكون الموصل خطاً دفاعياً لحدود بغداد من ناحية الشمال[٤٦].

غير أن صلاح الدين لم يُغَيّر موقفه الودّي من الخليفة واحترامه الكبير له، يصف نفسه بالخادم ـ كما رأينا ـ تطميناً لقلب الخليفة، وظل يبعث بخطاباته الى بغداد، على الرغم من مواقف الخليفة السلبية (المستمرة والمستجدة). يقول باحث معني بسياسة صلاح الدين: ان الديوان العزيز ببغداد كان فيه من يحمل الضغينة والحسد لصلاح الدين وينتظر الفرصة الملائمة للايقاع بين الجانبين[٤٧].

استمر هذا النوع من العلاقة بينهما في عهد الخليفة التالي الناصرلدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) خاصة بعد انتصارات صلاح الدين في حطين وفتح بيت المقدس، حين أحرز موقع الصدارة الاول في العالم الاسلامي كله. ويبدو ان هذا الخليفة صار يبحث عن أعذار او حجج لتفجير الموقف ليعبّر عن مشاعر الغيرة والحسد. وعثر على الحجّة حين أتهم الخليفةُ صلاح الدين بارسال خطاب نبأ إنتصاره في حطين مع رجل من عامة الناس، وليس من علية القوم، وهو رشيد الدين البوشنجي البغدادي الذي غادر بغداد والتحق بجيش صلاح الدين[٤٨].

وحين وصل البوشنجي الى بغداد لم يردّ الخليفة على صلاح الدين بتهنأته، على عكس ما فعله سلاطين وامراء سلاجقة الروم وآذربيجان وخراسان، إضافة الى أخوته وغيرهم، الذين كان رُسلهم يتوالوُنَ في الوصول الى ركبه للتهنئة[٤٩]، بل ان الخليفة

---

[٤٥] الايوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق. طبعة عالم الكتب. القاهرة ١٩٦٨. ص ١٢٨ – ١٢٩.

[٤٦] دريد عبدالقادر نوري. سياسة صلاح الدين مطبعة الارشاد بغداد ١٩٧٦، ص ٤٠٠.

[٤٧] دريد، المرجع السابق، ص ٤٠٢ .

[٤٨] ابن واصل، مصدر سابق، ٢٤٨/٢.

[٤٩] العماد الكاتب في الروشتين، ١٢٠/٢.

تصـرف بمـا لايليـق بمقامـه، واسـتنكر مـا حصـل و"قامـت القيامـة"[٥٠]، وأهـان المشرفون على (ديوان الخليفة العزيز) رسول صـلاح الـدين و"حقـروه ومـا وقّـروه" ونظروا اليه بالعين التي يعرفونه بها[٥١].

لقد فسّرت بغداد إرسال التهنئة مع رجل من عامة الناس تفسـيراً لا ينسـجم مـع خطورة الحدث، ولم تتجاوز عُقد الماضي ومشاعر الحسد وتشبّثت بمسـائل صـغيرة، ثم أضاف الخليفة الى تلك الحجة حجة اخرى حين إتهم صلاح الدين بأنه إتخذ لنفسـه لقب (الملك الناصر) وهو نفس لقب الخليفة الناصر) لدين الله. وانه ـ اي صلاح الدين ـ يبغي قلب الدولة العباسية. بحمله هذا اللقب![٥٢].

ويبدو ان الخليفة كان يخشى ان يقوم صلاح الدين بعمـل إنقلابـي ضـده، فممّـا يُذكر بهذا الصدد ان الخليفة ارسل تاج الدين ابابكر حامد الاصفهاني ليتصـل بأخيـه العماد الكاتب الاصفهاني، ويعرف منه عن كثب عن نوايا صلاح الـدين، وارسـل معـه خطاب عتاب يتضمن (أخطاء) صلاح الدين وبلغة (غضب ولفظٍ فظ). وصل مبعـوث الخليفة الى العماد الكاتب، وقدّمه هذا الى صلاح الدين، واستقبله استقبالاً حاراً اكراماً للخليفة واحتراماً لمنزلته، ثم عرض المبعوث كتاب الخليفة على صلاح الـدين، وكـان مشغولاً بحصار بلدة صور التي ظلت عاصية عليه [٥٣]. ولما اطلع على فحوى الكتاب تضايق وابدى دهشتَهُ من تصورات الخليفة وأسلوب مخاطبته له، لكنه حـافظ علـى رباطة جأشه وأعلن ان الخليفة (أجلُّ من أن يأمر بمثل هذه الألفاظ الفظـاظ الغـلاظ)، وقال انه اقام الخطبه باسم الخليفة في كل مكان إستطاع جندُهُ ان يضمهُ الى جهوده التوحيدية، سواء في مصر او الشام او في الجزيرة او الـيمن او في شمـال افريقيـة، وان مايلقبُ به (الملك الناصر) انما هو من العاضد الخليفة الفـاطمي الأخـير، منحـهُ إيـاه أيام ما كان الخليفة في بغداد هو المستضيء بأمر الله والد الخليفة الحالي (يومئذ)[*].

---

[٥٠] ابو شامة، مصدر سابق، ١٢٣/٢.

[٥١] ابن واصل، مصدر سابق، ٢٤٨/٢.

[٥٢] ابو شامة، مصدر سابق، ١٢١/٢.

[٥٣] انظر بحثنا "مسؤولية صلاح الـدين في فشـل حصـار صـور "المجلـة العربيـة للعلـوم الانسـانية، كليـة الاداب – جامعة الكويت، المجلد ٧، العدد ٢٦ سنة ١٩٨٧.

[*] كانت خلافة المستضيء من ٥٦٦ الى ٥٧٥هـ.

بعد ان صار (صلاح الدين) وزيرا للخليفة الفاطمي المذكور، إثر موت عمه الوزير أسد الدين شيركو الذي لقبه العاضد بالملك المنصور أسدالدين شيركو[٥٤] وقال لمبعوث بغداد (والآن كل مايشرفني به أميرالمؤمنين من السمة فهو أسمى لي من الذي هو إسمي، وما عزمي إلا إستكمال الفتوح لأمير المؤمنين[٥٥].

يقول المؤرخ الحنبلي ان الخليفة الناصر أعلن في خطابه المذكور على هامش إرسال البوشنجي الى بغداد قائلاً: إن كل من هرب والتجأ الى صلاح الدين قبل لجوءه، وإتهمه بمشاركة الخليفة في لقبه، ثم قال الخليفة في رسالة أخرى: يفتخر علينا بالقدس؟ وهل فتحها إلاّ بعساكر الخليفة وتحت راياته؟ فاستشاط صلاح الدين غضبا، وقد كان ينتظر أن تأتيه خطابات من بغداد يحمد الله ويشكره فيها على فتح بيت المقدس، واعلن صلاح الدين لمبعوث الخليفة بغضب: اما البوشنجي فمن عندكم قدم إلينا، وقيل لي انه من بيت كبير وصحبني وسألني إنفاذه الى بغداد ليمنّ على أهله، وأما الذين إلتجأوا إليّ فان الانسان يلتجي الى إمرأة عجوز فتحميه، وأما اللقب فما إخترتُه انا، ولكن لمّا ازلتُ دولة عدوكم (يقصد الدولة الفاطمية) التي كانت قائمة منذ اكثر من مائتي سنة، لقبني الخليفة المستضيء بذلك[٥٦]، ولم يكن ذلك في زمانكم، ومع هذا ففي عسكري عشرة الاف جندي لقب كل واحد منهم (صلاح الدين)[٥٧]. واما القدس فما فتحتُه الا بعساكري وتحت راياتي، وارعد السلطان وأبرق، وتاكّدت الوحشةُ باطناً، وأمسك نفسه ظاهراً.

وكتب القاضي الفاضل جواباً فيه "المحاققة توجب المفارقة، واغلاق هذا الباب خير من فتحه، وإندمال هذا الجرح أولى من أتساعه وخرقه" ثم يشيدُ المؤرخ

---

[٥٤] ابو شامة، مصدر سابق، ١٥٨/١.

[٥٥] يورد أحمد بن اهيم الحنبلي، وهو من المؤرخين المتأخرين (ت ٨٧٦هـ) رواية فريدة تظهر مدى تأثير هذا التوتر، في العلاقة بين الطرفين، على مؤرخي الاجيال التالية، فدوّنوا راويات تتسم بالتشنج اكثر من روايات المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين، وكما ذكرنا آنفاً فان مؤرخي بغداد المعاشرين لصلاح الدين لم يتحدثوا عما حصل، ونذكر رواية الحنبلي الفريدة في متن البحث.

[٥٦] والصحيح هو ان الخليفة العاضد الفاطمي هو الذي لقّبه بالملك الناصر، وليس الخليفة العباسي كما ورد في هذه الرواية، وقد توفي العاضد في اول ايام ٥٦٧هـ/ سبتمبر/ ايلول ١١٧١م، اي قبل تولّي الناصر الدين الله الخلافة العباسية بنحو ثمانية أعوام.

[٥٧] نبرة المبالغة واضحة في الرواية الى حد كبير في ذكر الأرقام.

الحنبلي المذكور بشخصية البوشنجي الذي التحق بموكب صلاح الدين ليقاتل ويستشهد حتى يتباهى به أهلُ بغداد، وهو البغدادي[٥٨].

ورغم هذا التوتر في العلاقة بينهما، إلا أن صلاح الدين إستمر على إقامة الخطبة باسم الخليفة، وظلّ يجهّز رسله الى بغداد بالهدايا والتحف الثمينة والاسارى من الصليبيين، اضافة الى تاج ملكهم (جاي لوسينيان) الذي تمّ أسره في حطين، وصليب الصلبوت الذي فيه قطعة من الصليب الذي صُلب عليه السيد المسيح (ع) والذي رُفع من القدس بعد تحريرها[٥٩] فهدأت ثائرة الخليفة، وإطمأن الى أعمال صلاح الدين، وهذا ما دفعه الى مكاتبته بلغة جديدة فيها الودّ والتقدير، واعتبره رجل عصره الذي يتعيّن على قادة زمانه ومن سيليه الاقتداء لصُدقه واخلاصه، ومعتبراً إياهّ "رجل وقته ونسيج وحده".

إلا ان هاجس الريبة كان لايزال يعتملُ في صدر الخليفة، مما أدى الى أن يستمر التدهور في العلاقة بينهما، ومما يؤكد هذا مقتل أمير الحج الشامي الذي كان يعينه صلاح الدين عادة، فبينما كان صلاح الدين ينتقل بين بلدتي صور وعكا في ذي الحجة من عم ٥٨٣هـ في جهاده، وصله نبأ نعي شمس الدين بن المقدم محمد بن عبدالملك شيخ أمراء الاسلام بقتله بمنى عرفات بيد رجال أمير الحج العراقي طاشتكين محي الدين الذي كان قد عينه الخليفة، فحزن صلاح الدين للحدث، وبكى وأقسم أن ينتصر "ينتقم" لابن المقدم قائلا: قتلني الله إن لم انتصر له، وتأكدت الوحشة بينه وبين الخليفة اكثر من ذي قبل، رغم ان الخليفة أبدى أسفه لما حصل، وعيّن شخصا آخر على إمارة الحج، وقد نعى مؤرخو العصر ابن المقدم واعتبروه شهيد الجهاد وفتح بيت المقدس[٦٠].

وزاد الوضع سوءا بين الطرفين. ولاسيما بعد سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م) حين طلب صلاح الدين مساعدات من الخليفة الناصر كجزء من الاستنفار الاسلامي العام[٦١]، لشدة حصار الصليبيين لمدينة عكا الذي دام اثنين وعشرين شهراً ولتعبئة قوى

---

[٥٨] الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، ص ١٥٢.

[٥٩] العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، ط، ليدن ـ هولندا، ١٨٨٧. ص. ص: ١٧٠ ـ ١٧٢.

[٦٠] ابن واصل، مصدر سابق، ٢٥١٢.

[٦١] دريد، مرجع سابق، ص ٤٠٤.

المسلمين لمواجهة الخطر الألماني الصليبي (المذكور آنفا). وقد انتدب صلاح الدين القاضي بهاءالدين ابن شداد مؤرخ "سيرة صلاح الدين" رسولاً الى بغداد ليشرح للخليفة هذا الخطر "وتحريك عزم الخليفة على المعاونة" حسب تعبير القاضي المؤرخ هذا[٦٢].

غير ان الخليفة العباسي لم يفعل شيئاً، واكتفى بارسال حملين من النفط وخمسة زراقين[٦٣] الى ميدان الجهاد، وورقة موقعة منه تتضمن السماح لصلاح الدين باقتراض عشرين الف دينار من تجار الشام ينفقهُ جهاده، على أن يحيل المبلغ المقترض الى حساب الخليفة[٦٤]. وكان هذا اول وآخر معونة ـ على ضآلتها ـ تقدّمها الخلافة لقضية تحرير الارض والدفاع عن البلاد ضد الخطر الصليبي[٦٥]، وابدى صلاح الدين إستغرابه من حجم معونة المشاركة في المجهود الحربي الاسلامي، فترحَم على الخليفة العاضد الفاطمي، وذكر مابذله لرفع الصليبيين عن (دمياط عام ٥٦٥هـ/١١٧٠م).

كاد صلاح الدين أن يرفض المعونة الواصلة من بغداد، ويعيدها الى حيث أتت. ولكن أصحابه أثنوه عن عزمه، فقبل المعونة لكنه رفض ان يقترض من التجار هذا المبلغ الزهيد، "واستعفى عن الرقعة والتثقيل بها"[٦٦]، ان هذا الموقف من الخلافة جعل القاضي الفاضل يطلق ملاحظات مريرة فيقول: كتاب بغداد كتاب بارد غثّ جامد، مافيه مقصود لقاصد ولا صلة ولا عائد، ونحن نطلب الذهب الحار، فيضرب في حديد بارد"[٦٧]. وعلق باحث على هذا الموقف قائلاً: كان موقف الخليفة من

---

[٦٢] ابن شداد، مصدر سابق، ص ١١٥.

[٦٣] الزراق: الذي يرمي النفط من زراقة، وهي انبوبة خاصة يزرق بها النفط ونارها ودخانها شديد فتحترق السفن، ويعرف باليونانية باسم (سيفون).

[٦٤] ابن شداد مصدر، ١١٩.

[٦٥] ابن شداد، مصدر سابق، ص ١١٩.

العماد، فتح القسي، ص ٣٦٥.

ابو شامة، الروضتين، ١٥٢/٢.

ابن واصل، مصدر سابق، ٣١٤/٢.

[٦٦] ابن شداد، مصدر سابق، ١١٩.

[٦٧] القاضي الفاضل في كتاب الروضتين، ١٧٦/٢.

الحروب الصليبية يدعو للرثاء، لأنه لم يقدر خطورتهم على البلاد، ولم يعمل على توحيد كلمة المسلمين في المنطقة ليسند القوة الأيوبية التي كانت تتصدى لهم[٦٨].

يئسَ صلاح الدين من الخلافة، وتوقف عن إرسال السفارات الى بغداد، وكان البديل لعلاقته هو أن يوثق علاقته مع أمراء الاطراف اكثر من ذي قبل، ويلجأ في جهاده الى عامة المسلمين يستنفرهم من أرجاء العالم الاسلامي شرقاً وغرباً، وحين أوقف إتصالاته مع الخليفة حصلت القطيعة بين القطبين، ويبدو لنا ان الانتصارات الباهرة التي حققها والتي جعلت نجمه يسطع اكثر من اي قائد آخر، جعلته يدركُ انه صار بوسعه أن يستغني عن تأييد الخليفة، وانه صار ذلك القائد المُلهم والمُلهم (الكاريزما _ charisma) الذي تلتف حوله قلوبُ الناس، وترتفع الاكفّ الى السماء وتدعو له بالنصر المبين المستديم لدى كل صلاة جماعة.

بالمقابل بدأ الخليفة يتصل بالمخالفين لجهود صلاح الدين، او المنشقين عنه، محاولاً خلق متاعب تحدّ من مكانة هذا القائد وارتفاع شأنه وتعلّق الناس به، وكان بين هؤلاء المخالفين سيف الدين بكتمر الذي هرب من خلاط[٦٩] بأرمينيا، بعد فشل جهوده في الاستيلاء على هذه الديار إثر وفاة شاه أرمن[٧٠] وكذلك إتصل الى الامير حسن بن يعقوب بن قفجاق، سليل الاسرة القفجاقية التركمانية، التي شكلت امارة ضمت منطقة الكرخيني (كركوك) وقلاع شهرزور[٧١] في كردستان الجنوبية، وقد دخلت هذه الامارة في طاعة الخليفة للحيلولة دون ضم بقايا امارته الى دولة صلاح الدين.

وحين بدأ الأمير حسن يثير مشاكل للملك المعظم مظفرالدين گوگبورى، صهر صلاح الدين، صاحب امارة اربل المحاذية للامارة القفجاقيه[٧٢]، ألقى مظفرالدين

---

[٦٨] القزاز: مرجع سابق، ص ١٠٠.

[٦٩] خلاط: قصبة بلاد أرمنية الوسطى، ياقوت الحموي، معجم البلدان.

[٧٠] إبن واصل: مصدر سابق، ٢٦٨/٢.

[٧١] أنظر كتابنا (اربيل في العهد الاتابكي)، طبعة بغداد ١٩٧٦، ص. ص ١٧٩ _ ١٨٢.

[٧٢] إبن شداد، مصدر سابق، ٨٧

إبن خلكان، وفيات الأعيان، ط/١٩٤٨، ١٨٩/٦.

إبن واصل، مصدر سابق، ٢٥٦/٢، وكان مظفرالدين گوگبورى قد تزوج الست ربيعة خاتون أخت صلاح الدين.

القبض على الامير حسن، وهذا ما أثار حنق الخليفة، فاحتج على تصرف صهر صلاح الدين، وبعث رسولاً الى صلاح الدين يحمل معه عدة مطاليب أهمها: عدم التعرض لسيف الدين بكتمر، والايعاز الى صهره باطلاق سراح الامير حسن، كما طلب منه أن يرسل القاضي الفاضل مستشاره الى بغداد، لما عُرف عنه من حكمة وسداد رأي، لوضع حدّ لما يحصل بين الطرفين.

إلا ان صلاح الدين أجاب على هذه المطاليب جوابا يدل على مدى تردّي العلاقة بينهما، فبّرر اعتقال مظفرالدين للامير المذكور كونه يثير الاضطرابات في تلك المنطقة الواقعة بين مملكة الخليفة وامارة مظفرالدين گوگبورى في اربيل، وانه كان يتعرض للقوافل ويعيث في الارض فسادا[٧٣]، وإنا ـ كما جاء في ردّ صلاح الدين ـ قد أمرنا مظفرالدين باحضار الامير حسن الى الشام ليلازم فيها الجهاد، كما أنه إعتذر عن ارسال القاضي الفاضل الى بغداد لأنه يعاني من متاعب "كثير الامراض، وقوته تضعف عن الحركة الى العراق"[٧٤].

وأخيراً فان هذه الوتيرة من العلاقات بين الخليفة وصلاح الدين أصبحت حديث الناس، العام والخاص، وكانت لغير صالح الخليفة بسبب تعلق الناس بصلاح الدين نظراً لما أُحيط به من جاذبية، وحاول الخليفة ـ عبثاً ـ الحدّ من هذه الجاذبية، حتى أصبح التعلق بصلاح الدين والتحدث عن جهوده وانتصاراته تُهمةً يعاقب عليها الشخص، وكان هذا وسيلة للوشاية بالبعض للانتقام منهم[٧٥].

---

[٧٣] إبن شداد، مصدر سابق ١٩٩.

إبن واصل، مصدر سابق ٢/١٦٤.

[٧٤] إبن شداد، الصفحة نفسها.

[٧٥] القزاز، مرجع سابق، ص/ ٢٦٩.

دور الإعلام الكنسي
في التمهيد للحروب الصليبية(*)

المقدمة:

لسنا بصدد الخوض في غمار الحروب الصليبية، ولا ما حصل في الحملات التي شنَّتْ، ولم يعرف أحدٌ – في بدايتها – كم ستستغرق، وكم من الحملات ستنظّم، وكم من الدماء سيسفك. ولكن ما أن إستقرت أقدام الغزاة وبدأت المقاومة الاسلامية في المنطقة، إلا وأغرتهم خيراتها الى تنظيم المزيد من الحملات، ولأنهم إعتبروا وجودهم فيها أبدياً. فحين ظهر القائد المجاهد عماد الدين زنكي بن آق سنقر (اتابك الموصل) على مسرح الأحداث، وأستطاع الاستيلاء على أولى الامارات التي أقاموها في أعالي الجزيرة الفراتية، في الرها ((اورفة الحالية)) وأطرافها عام ٥٣٩هـ/١١٤٤م، بدأوا بحملة صليبية ثانية. وهكذا توالت الحملات.

نعم لقد عثروا على الطريق الى المشرق الذي سلكوه في الحملة التي صارت تسمى ـ فيما بعد بالاولى، ولم يضعوا في حسبانهم ان الحملات ستتوالى حتى يصل عددها الى ثمان حملات كبرى معروفة، ودامت قرنين من الزمان (٤٩٠ ـ ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) الى أن تم إجلاؤهم من آخر معاقلهم عن عكا.

والمعروف ان الحملات الاولى والثانية والثالثة والسادسة قد وجّهت الى بلاد الشام وفلسطين، ووجّهت إتنتان هما الخامسة والسابعة نحو مصر، في حين وجّهت الرابعة نحو القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية. وبذلك انحرفت عن الأهداف الدينية المعلنة في خطبة الپاپا اوربان الثاني Urban II الشهيرة التي القاها في بلدة كلير مونت Clermont بفرنسا قبيل بدء الحملة الاولى، وتدخل ضمن هذا الانحراف الحملة الثامنة التي توجّهت الى تونس، هذا إضافة الى حملات أخرى صغيرة لايعرف عددها

(*) نشر في مجلة (K21) العدد المزدوج (١٠ ـ ١١) سنة ٢٠١١.

تماماً، حتى تكاد لاتخلو سنة من سنين الاحتلال دون وصول جماعات مسلحة الى الشرق، كما يقول جيمس هارفي روبنسون[١].

والواقع أن الانتصار الاكبر الذي أحرزوه كان في الحملة الاولى التي أسفرت عن قيام ثلاث إمارات صليبية، الاولى في منطقة الجزيرة (كردستان الشمالية)، وهي امارة الرها، والثانية في شمال الشام، وهي امارة انطاكية، والثالثة في وسط الساحل الشامي، وهي امارة طرابلس، كما أقاموا مملكة بيت المقدس في فلسطين.

ولعل من المفيد ان نذكر ان مصادر التأريخ الاسلامية، المعاصرة لتلك الأحداث، لم تطلق على هذه الحروب (اسم الحروب الصليبية) بل سمت تلك الجماعات بـ: الفرنجة، الكفّار، عبدة الثالوث، وعبدة الصليب. اما الصليبيون أنفسهم، وبينهم مؤرخوهم، فقد اطلقوا على العمليات العسكرية التي قاموا بها تسميات: الطريق نحو الارض المقدّسة، الارتحال، السير على درب الرب، التجوال، حملة الصليب، مشروع يسوع المسيح، وحجاج بيت المقدس[٢]. الى أن ظهر مصطلح (الحرب الصليبية) في القرن السابع عشر، واول من استخدمه – حسب المعلومات المتوفرة ـ كان المؤرخ الفرنسي (لويس ممبور) عام ١٦٧٥م في بحثه (تأريخ الحروب الصليبية)، وفي المانيا يعود استعماله الى (ليسنگ)[٣].

البحث:

تكمن بواعث هذه الحروب في طرفي النزاع الاسلامي من جهة، والصليبي من جهة أخرى وما يخصّ العالم الاسلامي فان الضعف الذي دّبَّ في أوصاله منذ عقود، بل منذ قرون، لأسباب ليس هذا مجال بحثها، كان العامل الأساسي الذي جذب الغزاة.

---

(١) James Harvey Robinson, An Introduction to the history of western Europe, U. S. A. Boston, 1907, P. 187.

(٢) د. قاسم عبدة قاسم. ماهية الحروب الصليبية. الكويت ١٩٩٠. ص ١٢. راجع عناوين المصادر اللاتينية للحركة الصليبية في كتاب د. عزيز عطية سوريال:
Atiya, A. S, The Crusades, Historiography and Bibliography, London. 1962.

(٣) ميخائيل زابوروف. الصليبيون في الشرق، ترجمة الياس شاهين. دار التقدم ـ موسكو ١٩٨٦ز ص: ١٣ ـ ١٤.

فقد علّمنا التاريخ ان قوّة الغازي لاتكفي ليحقق انتصاراً، بل أنّ مايدفعه الى الانتصار ـ كذلك ـ هو ضعف الجانب الآخر.وهذا يعني ان المنتصر ليس هو القوى دائماً، والقوّة التي نعنيها ليست بالضرورة قوة العدد والعُدة.

وما يتعلق بضعف الجانب الاسلامي، فقد كانت المنطقة الاسلامية تعيش حالة التفكك السياسي والتشرذم بين القوى والدول الاسلامية، ووصل التخاصم في حالات عديدة الى حالة من العداء لم تشهدها المنطقة من قبل. كذلك حالة اللامبالاة التي أبدتها جماعات اسلامية تجاه مايحصل لجماعات إسلامية أخرى من خسارة مادام الأذى لم يلحق بها، ومادام العدو بعيداً عن تخومه. وهذا ما حصل في هذه الحروب الصليبية بشكل واضح (ثم مع الغزو المغولي فيما بعد) حينما وقف كلا الطرفين الاسلاميين الأساسيين يومئذ، الطرف الاول الخلافة العباسية ومعها القوى السلجوقية، والطرف الثاني هو الخلافة الفاطمية، وقفا موقف المتفرج تجاه مايحصل للطرف الثاني من خسارة في منطقة نفوذه، مادام العدو الصليبي لم يمس منطقة نفوذه هو (وقد مسّها فيما بعد فعلاً) ولم يحرّك الطرف الثاني ـ هو الآخر ـ ساكناً، فوقف شامتاً. وقد خسر بذلك الطرفان مناطق نفوذهما في الساحل الشامي الذي كانا يتقاسمانه. وتذرّع الطرفان بأسباب مذهبية، دون التفكير في مصلحة أهل المنطقة المسلمين ومصيرهم.

ان الضعف الذي أصاب العالم الاسلامي كان شاملاً خطيراً تطاول أجزاء واسعة من هذا العالم والمناطق التي كانت في حوزة المسلمين، واستمرّ وضع التشرذم حتى بعد انسحاب آخر صليبي من أرض فلسطين. فها هو ابن الأثير يربط بين ماحصل للمسلمين في اكثر من جبهة بأيدي الاوربيين ((الفرنجة)). فيبدأ يوجّه أنظارنا الى ماكان يجري في الأندلس التي تعرضت للخطر الفرنجي. ويعلل انتصارهم فيها ((باختلاف المسلمين فيما بينهم)) وإعتبر إستيلاء النصارى الفرنجة على طليطلة في الاندلس سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، واستيلاءهم على صقلية سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م، وغزوهم للشام منذ ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، حلقات في سلسلة واحدة من الحركات الفرنجية[٤]. وتتضح هذه النظرة الشمولية للأحداث الخطيرة التي هدّدت مغرب العالم الاسلامي ومشرقه،

---

[٤] ابن الأثير. الكامل في التاريخ. حوادث سنة ٤٩١هـ، طبعة دار صادر ـ دار بيروت. ١٩٦٦. ج ١، ص: ٢٧٢.

في هذه العبارة التي استهل بها ابن الأثير تدوينه للغزو الصليبي قائلاً: ((كان إبتداء ظهور دولة الفرنج، وإشتداد أمرهم، وخروجهم الى بلاد الاسلام، وإستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين واربعمائة، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس... ثم قصدوا سنة أربع وثمانين واربعمائة جزيرة صقلية وملكوها... وتطرقوا الى أطراف أفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم، ثم لمكوا غيره على ماتراه. فلما كان سنة تسعين واربعمائة، خرجوا الى بلاد الشام..)).

يقول باحث معني بكتابات ابن الأثير ان هذا المؤرخ نظر الى الخطر الخارجي نظرة شمولية، واعتبر أيّ عدوان على طرف من أطراف العالم الاسلامي ـ سواء في المشرق او المغرب ـ مفصلاً يصبّ في الخطر الأكبر، وهو الغزو الفرنجي المنظّم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كشف ابن الاثير بوضوح تام أن أسباب نجاح هذا الغزو ذي الشعب الثلاث، تكمن في الفرقة والاطماع الذاتية، وفقدان الروح الوثابة التي تميّز بها الحكام المسلمون الأوائل))[٥].

ولاحاجة بنا لنربط بين إحساس إبن الأثير بالأسى على ماحصل في نهاية القرن الخامس الهجري من حوادث خطيرة، وبين استمرار تفرّق كلمة المسلمين وغياب القادة المخلصين في القرون التالية، حتى حين إكتسح المغول المشرق الاسلامي. فهذا المؤرخ الكبير الذي عاصر الحروب الصليبية وشهد انطلاقة المغول الاولى، كان يرى ان العالم الاسلامي يفتقد القادة المخلصين. وأخذ على الحكام تخاذلهم وجبنهم في مقارعة الغزة، وقال: هذا العدو الكافر (التتر) قد وطئوا بلاد ماوراء النهر وملكوها وخرّبوها.. والعدو الآخر الفرنج ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم، بين الغرب والشمال، ووصلوا الى مصر.. فإنا للّه وإنا إليه راجعون، ولاحول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم[٦].

وقد أوضح مؤرخون غربيون عديدون هذه الحقيقة بينهم شارل اومان Oman عندما أعلن انه لو كان الحكام المسلمون قد اتفقوا وقتذاك لألحقوا الهزيمة بالفرنج

---

[٥] د. فيصل السامر. ابن الأثير، ط. وزارة الثقافة. دار الرشيد للنشر. بغداد ١٩٨٣. ص: ٤١.

[٦] ابن الأثير. الكامل. حوادث ٦١٧هـ.

الصليبيين. ولكنهم بدلاً من الاتحاد لمواجهة عدوّهم المشترك، لم يبذلوا أي جهد لوقف تقدمه في المشرق الاسلامي[٧].

ماأريد أن أثبته في هذه الاطلالة هو أنّ الاوربيين لم يختاروا هذه الفترة إعتباطاً لشنّ هجومهم، بل اختاروه بعد أن تأكّد لديهم بأن أحداً من الحكام المسلمين لن ينجد غيره، لأن كل حاكم إعتبر أنّ ضعف الطرف الاسلامي الآخر قوة له، وقد كان هذه التمزق من ممهّدات نجاح الصليبي. وقد ذكر المؤرخ المذكور رواية بهذا الصدد على جانب كبير من الأهمية مُعلناً: ((أن أصحاب مصر من العلويين (الفاطميين) لما رأوا قوة الدولة السلجوقية، وتمكنها وإستيلاءها على بلاد الشام الى غزّة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول آتسس (السلجوقي) الى مصر وحصرها، خافوا وارسلوا (اي الفاطميون) الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوها، ويكونوا بينهم وبين المسلمين، والله اعلم))[٨].

أما شمول الحروب الصليبية مشرق العالم الاسلامي ومغربه، فنذكر ان حروب الاسترداد الاسبانية وطرد المسلمين من الاندلس لم تكن حروباً صليبية بالمعنى الدقيق للحروب الصليبية، إلاّ أن البابوية سمحت فيما بعد لأتباعها من الفرسان بالقتال ضد مسلمي الاندلس بدلاً من الاشتراك في الحملة الى فلسطين. وثمة وثائق في هذا الشأن بينها خطاب يعود تاريخه فيما بين بداية ١٠٩٦ ـ وتموز ـ ١٠٩٩م، أي في خضم الحملة الصليبية، وجّههُ البابا الى بعض أمراء الأسبان يقول فيه:

((إذا كان الفرسان في إقليم ما قد قرّروا الذهاب لمساعدة الكنيسة الآسيوية (المقصود في فلسطين) وأن يحرّروا إخوانهم من طغيان المسلمين (كذا) فانه ينبغي عليكم، وبتشجيع منّا، أن تبذلوا قصارى جهدكم، وينبغي ألاّ يشك أحد في أن خطاياه سوف تغتفر إذا مات في هذه الحملة حبّاً في الرب وفي إخوانه، وانه سوف ينال، بالتأكيد، نصيبه في الحياة الخالدة، بفضل رحمة الربّ الواسعة... وانه ليس من الخير ان ننقذ المسيحيين من المسلمين في مكان، لكي نعرّضهم لطغيانهم في

---

[٧] Oman, C. W. C. A History of the Art of War in the Middle Aged, London, 1924, V. I, P. 233.

[٨] ابن الأثير. الكامل ٢٧٣/١٠.

مكان آخر..))[٩]. ونذكر بهذا الصدد ان مصادر العصر الغربية تذكر أن بعض قادة وأمراء الحملة الصليبية في الشام سبق لهم وأن إشتركوا في حروب الاسترداد في بلاد الأندلس، ربما كان أشهرهم ريموند الصنجيلي صاحب مقاطعة بروفانس في فرنسا.

الكنيسة الكاثوليكية تذكي الحماس..:

في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر ـ سنة ١٠٩٥ (شوال ٤٨٨هـ) ألقى البابا اوروبان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م) في بلدة كيلرمونت بجنوب فرنسا خطبته النارية التي كانت إيذاناً ببداية اعلان الحرب. وكانت صيحة الحضور جملة قصيرة في عدد كلماتها، خطيرة في مدلولها هي (هذه ارادة الله) او (الله ارادها ـ Deus levolt)[١٠]، وردّدت ارجاء البلاد تلك الصيحة، لأنها نفذت الى أعماق قلوبهم[١١]، فكانت بمثابة الشرارة التي اضطرمت في أكوام القش اليابس، كما كانت أبلغ إشارة وتعبير عن حقيقة بواعث هذه الحروب، والتمهيد للاندفاع نحو فلسطين، في محاولة لتخليص قبر السيد المسيح كما أعلنوها. وحصل ذلك في وقت همينت فيه الكنيسة اللاتينية (الكاثوليكية) على مقدّرات الناس وعلى حياتهم العامة والخاصة في أوربا[١٢]. ولم يكن هذا غريباً في عالم يرتكز فيه كل شيء على العقيدة الدينية وتعاليم الكنيسة وتفسيراتها، حتى مصالح الملوك وامراء الاقطاع وكبار رجال الدين والتجار. وتؤكد البحوث التاريخية الجادة ووقائعها ان هذه الكنيسة لم تكن تشجع أتباعها على محاربة المسلمين والمخالفين لها فحسب، بل انها صارت تدعو وتشجع تنظيم الحروب وتوجهها. ونسوا ان الدين جاء لتضميد الجراح، وليس لشق جروح مندملة. وكأن الدين لم يكن طريقاً للرحمة والسلام.

---

[٩] د. قاسم عبدة قاسم. الحروب الصليبية ـ نصوص وثائق الحملة الاولى، القاهرة ١٩٨٥. ص ص: ٨٩ ـ ٩٠.

[١٠] ستيفن رنسيمان. تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة د. السيد البارز العريني. دار الثقافة. بيروت. ١٩٦٧. ١٦٢/١.

[١١] فيليب حتي. تاريخ العرب (مطوّل). دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. ط ١٩٧٤. ص ٧٢٤.

[١٢] د. جوزيف نسيم يوسف. معركة حطين خلفياتها ودلالاتها، مجلة (عالم الفكر) الكويت. المجلد العشرون. العدد الأول ١٩٨٩. ص ٢٦٦.

نعم لقد كانت الحرب سجالاً بين المسلمين والروم البيزنطيين منذ ظهور الاسلام وإنتشاره، سواء في بلاد الشام ومصر، او على تخوم بلاد الروم فيما بعد. إلاّ أنّ الجديد هذه المرة هو مساهمة المسيحيين الغربيين في تنظيم الحملات على بلاد المسلمين، وتشجيع الكنيسة لأتباعها بصورة مستمرة على محاربة المسلمين في (حرب مقدّسة) يثاب عليها المحارب، وتدفعهم البابوية على طرد المسلمين من اسبانيا وصقلية، بل أن الپاپا گريگوري السابع طالب بطردهم من آسيا الصغرى، على إعتبار انها جزء من بلاد الروم.

وأثار البابوات حماس الاوربيين بما كالوه لهم من وعود مغرية وتوفير الأمان. ومما يذكر أن بعض الأساقفة سألوا الپاپا جون الثامن فيما إذا كان الذين سقطوا في ساحة المعارك دفاعاً عن الكنيسة ومن أجل الدين المسيحي ودولته سيحصلون على الغفران. فأجابهم الپاپا بفقرة إقتبسها من الكتاب المقدّس تتماشى مع المناسبة والظرف، وأكدَّ لهم أنّ الذين يموتون في سبيل الكنيسة وتعاليمها ستغفر لهم ذنوبهم وتقبل توبتهم[١٣]. عندئذ إستلت السيوف متذرعة بنصوص من الانجيل.

هذا وقد إزداد زوّار المواضع المقدّسة في فلسطين فيما سمي (حركة الحج) في القرن الحادي عشر، وكانت هذه الحركة متطابقة مع حركة الانتعاش الديني الذي عبّر عن نفسه ببناء الكاتدرائيات الضخمة وحركة (دير كلوني Cluny) في فرنسا، تلك الحركة الاصلاحية التي كانت تشجع الاندفاع الى الحج بالوسائل كافة، منها تشييد الفنادق على جانبي الطرق المؤدية الى الأراضي المقدّسة، وقيام أدلاّء لتنظيم مسيرتهم. فقد وفّرت حركة الأديرة الكلونية شبكة إتصالات، واستخدمت قدرتها التنظيمية في ترتيب التسهيلات للحجاج، كما تبرّع الأثرياء الاوربيون والتجار الايطاليون بالإنفاق على دور الضيافة والمنازل التي كرّست لتقديم الخدمات للحجاج وإيوائهم. وكانت اوربا تشهد في كل عام قدوم عدد من الرهبان المقيمين في القدس لجمع التبرعات من الأوربيين، لتمويل الخدمات الضرورية في تلك الدور والمنازل[١٤].

---

[١٣] د. عبدالامير محمد امين – محمد توفيق حسين. تاريخ اوربا في العصور الوسطى. مطبعة جامعة بغداد. ١٩٨٠. ص: ٢٢٩، نقلاً عن:

O' Sullivan, Jeremiah & John F. Burns, Medival Europe, 1946, PP. 589 – 590.

[١٤] د. قاسم. ماهية الحروب.. ص: ٢٥.

وفي القرن الحادي عشر كان قد استقرّ في ضمير الأوربيين في غرب القارة ـ بتأثير من إعلام الكنيسة ـ أنّ رحلة الحج تتويج لحياة المرء، وصار المتديّنون يتمنّون أن تكون الرحلة هي الخاتمة المريحة السعيدة لحياتهم في هذه الدنيا. وأعلن أحد رهبان دير كلوني (رالف گليبر Ralph Glaber) ان أعداداً ـ تفوق الحصر وتفوق تصوّر أي إنسان ـ من الحجاج صارت تتوجّه الى ضريح المخلّص في القدس من شتى بقاع الدنيا. ولم يكن الذاهبون من العامة ـ أي الفقراء ـ وأبناء الطبقة الوسطى فقط، بل أشترك في الحملة العديد من كبار الأمراء والكونتات والنبلاء، وكان الجميع يتمنّون أن يموتوا في الارض المقدّسة، أو في الطريق اليها، بدلاً من العودة الى وطنهم[١٥]. وقد زاد عدد الحجاج في القرن الحادي عشر ليصل الى بضعة آلاف من مختلف الاعمار والطبقات والأجناس.

ومن جهة أخرى رافق هذه الموجة انتشار توزيع «أدلة الحج للاراضي المقدسة» على نطاق واسع، وكانت هذه الادلة تتضمّن الكتب والخرائط. ومن الطريف ان بعض تلك الادلّة زعمت أنها إستطاعت أن تحدّد بدقّة موضع إستقرار سفينة نوح، وسرّ الرجل المشلول، وكذلك البقعة التي قذف اليها الحوت النبي يونس. وتحوّلت أهرامات مصر في الكتب وخرائط الدلالة إلى مخازن يوسف أيّام سنوات العجاف السبعة، كما ورد في التوراة[١٦].

وهذا الحج كان ممارسة دينية نمت منذ بداية تاريخ المسيحية. فعلى الرغم من انه ليس فريضة في هذا الدين، عكس الحال في الاسلام، إلاّ أنّ الجذب العاطفي نحو الارض التي شهدت قصة مولد المسيحية، ظل يشدّ الناس المؤمنين بشكل متصاعد مع مرور الزمن. وكانت الرحلة الى فلسطين نادرة في سنيّ المسيحية الاولى. فالسلطات الرومانية التي حاربت الدين المسيحي طيلة ثلاثة قرون ونيف، منعت المسيحيين من زيارة الاماكن المقدّسة لديهم. بل أن القائد الروماني تيتوس Titus دمّر القدس سنة

---

[١٥] انظر الترجمة الكاملة للنص في كتاب د. قاسم عبده: الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية. الكويت ١٩٨٨. ص ص: ٢١٩ — ٢٢٠.

[١٦] د. صالح محمد العابد: الحروب الصليبية. مجلة (المورد). عدد خاص عن: غزو الفرنجة/ الحروب الصليبية. المجلد ١٦. العدد ٤. السنة ١٩٨٧، ص ٨ نقلاً عن
Warren. O. Ault, Europe in the Middle Ages. Boston, U. S. A. 1946, PP. 332 – 333.

٧٠م، وبقيت المدينة اطلالاً حتى أعاد الامبراطور الروماني هادريان بناءها، وأهام بها معبداً لربة الجمال ڤينوس Venus.

وما أن حلّ القرن الثالث حتى صار الكهف الذي شهد مولد السيد المسيح في بيت لحم معروفاً للمسيحيين، وبدأوا بزيارة الاماكن المقدّسة للصلاة فيها ونيل البركة ـ حسب عقيدتهم ـ ثم زادتْ حركة الحج الى فلسطين بعد أن إعتنق الامبراطور الروماني قسطنطين الكبير وشريكه ليكنيوس المسيحية سنة ٣١٣م. ثم رحلت الامبراطورة هيلينا Helena أم قسطنطين إلى فلسطين، حيث أعلنت أنها اكتشفت خشبة الصليب الاعظم التي صلب عليها السيد المسيح، ومن ثم بنى ابنها الامبراطور كنيسة الضريح المقدّس. ولكل هذه التطورات تزايدت رحلات الحج، لرغبة أتباع هذا الدين في إقتفاء آثار خطوات المسح وحوارييّه، ورؤية الأماكن التي تجسّد فيها المسيح ولَمَسَها، ولاستعادة ذكريات العهد القديم والعهد الجديد، ولتناول الطعام في كهف تناول فيه السيد المسيح مع حواريه طعامه، كما إستحَمَّ بعضهم في مياه نهر الاردن الذي تعمّد فيه المسيح[١٧] عليه السلام.

وقد قامت الأديرة ونُزل الضيافة باستقبال أعداد الحجاج المتزايدة. وظلّ طريق الحج سالكاً طيلة السنة الى فلسطين، حتى بعد الفتح الاسلامي لهذه البلاد في القرن السابع الميلادي (الفرنجي) لأن الحج صار من الفروض الأساسية (لمن استطاع اليه سبيلاً) من المسلمين. ولهذا تعاطف الحكام المسلمون مع رحلات المسيحيين، إضافة الى ما حصل من تطورات في مفاهيم كنسية عديدة بمرور الزمن، بينها ما يتعلق بالمذنب المسيحيين، فصار عليه أن يقوم بأعمال قاسية تستغرق وقتاً طويلاً للتكفير عن ذنبه. وتّم وضع قوائم بالأعمال التي يكفّر بها المذنبون عن خطاياهم، وكان الحج أهم هذه الأعمال. ولم تصبح فكرة ((الغفران الصليبي)) فعّالة إلاّ بعد أن إرتبطت بفكرة الحج.

فهذا الرحلة كانت بداية لحياة التطهّر والتنسّك، حتى أنّ بعض المجرمين والمنبوذين إجتماعياً قاموا بهذه الرحلة رغبة منهم في طلب المغفرة وإعادة الاعتبار لأنفسهم، فان نجوا من مخاطر الطريق وعادوا سالمين فسيحرصون على الحفاظ على وضعهم الجديد الذي كسبوه من تقوى ومنزلة اجتماعية.

---

[١٧] د. قاسم. ماهية الحروب. ص: ٢١.

وكانت الرحلة تستغرق سنين عديدة، وقد شهد القرن العاشر الميلادي بداية عصر الحج الكبير، بسبب رسوخ مفاهيمه من جهة، واستقرار الاوضاع في دول حوض البحر المتوسط من جهة اخرى. فضلاً عن قيام العلاقات التجارية بين المدن التجارية الايطالية والامبراطورية البيزنطية ومصر والشام، وما فرضته التجارة من ضرورات السلام وقطع دابر قطاع الطرق والقراصنة. وكان بوسع الحجاج الاوربيين أن ينتقلوا في أرجاء فلسطين بحريّة، لأن السلطات الاسلامية ـ سواء من العباسيّين او الفاطميّين ـ كانت ترحّب بهم، اضافة الى إعتناق المجريّين (الهنغار) الدين المسيحي حديثاً، ففتح بذلك طرق اواسط اوربا لوصول قوافل الحاج إلى الشام وفلسطين.

وحصل منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي أن بدأت المصاعب تقف بوجه رحلات الحج، بسبب إستيلاء السلاجقة على القدس في ٤٦٣هـ/١٠٧١م، عندما نجح (آتسز) قائد جيش السلطان السلجوقي ملكشاه في الاستيلاء على هذه المدينة ووضعها تحت السيادة السلجوقية، كما استولى على الرملة وطبرية[١٨]. وأعاد فلسطين الى سيادة الخلافة العباسية في بغداد، بعد أن كانت تحت سيادة الخلافة الفاطمية، إضافة الى أنّ الأجزاء الجنوبية من بلاد الروم (آسيا الصغرى) كانت قد صارت تحت سيادة السلاجقة منذ سنوات، بعد أن كانت من ممتلكات دولة الروم البيزنطية، تلك الدولة التي ناصبها السلاجقة العداء وتوسّعوا على حسابها، وكذلك توسّعوا على حساب مصر الفاطمية، وصارت لهم السيطرة التامة على طرق الحجاج القادمين من الغرب.

أن هذه المشكلة الأمنية قد تركت أثرها على الحجاج المسافرين عبر آسيا الصغرى، بل أن هؤلاء تعمّدوا إثارة المشاكل للسلطات الاسلامية لكي تقوم (هذه السلطات) بالرد عليهم ومضايقتهم، ووضع عراقيل أمامهم وإلحاق الأذى بهم، إذ كانوا يعتقدون ـ كما رأينا ـ بانهم كلّما تعرّضوا لمزيد من الأذى والعراقيل كانت رحلتهم أكثر قبولاً وثواباً ونجاحاً.

أن المسألة التي استندت اليها البابوية في تحريض الأوربيين على الاشتراك في المشروع الصليبي، والتي هي ((تعدّيات السلاجقة على المسيحيين)) يمكن تصنيفها

---

[١٨] ابن القلانسي. ذيل تاريخ دمشق. مطبعة الآباء اليسوعيين. بيروت ١٩٠٨. ص ص: ٤٠ ـ ٤١. ابن الاثير. مصدر مذكور. ١٠/ ٦٨.

ضمن مجال الاعلام او الدعاية Propaganda لتحريض العالم المسيحي ضد المسلمين وإذكاء الأحقاد، ولكي تُسهم الاشاعة (حول الخطر الذي يشكلّه المسلمون على الأماكن المقدّسة، حسب رأيهم) في تدفق قوّات مسلّحة جديدة من الغرب، وهذا الضرب من الاشاعات كان ينطلق عادة وينتشر من روما حاضرة البابوية[١٩].وقد اختلق مدوّنو الأخبار الغربيّون، لتبرير تلك الحملات، مختلف الأساطير عن الملاحقات والمطاردات والاساءات التي قام بها السلاجقة ضد المسيحيين في البلدان الشرقية والحجّاج المتجهين الى القدس[٢٠]، وانساق وراءهم عددّ من المؤرّخين ـ القدامى والجدد ـ الذين رأوا أن ما فعله السلاجقة كان السبب الجوهري لتلك الحملات الصليبية، وهذا يعني أنّهم نقلوا مراكز الاحداث التي إستتبعت الحروب الصليبية، من الغرب المسيحي الى المشرق الاسلامي، رغبة منهم في تفسير منشأ هذه الحروب، على إعتبار ان المسلمين هم الذين بدأوا بها، ولم يكن ما فعله الاوربيّون سوى ردّ فعل على مافعله المسلمون. يعلّق زابوروف على ذلك بقوله:

((أن هذا التفسير للاحداث لايتطابق البتّة مع الوقائع التي قرّرها المؤرخون المسيحيون القروسطيّون. فالسلاجقة لم يتصفوا بالتعصب الديني، كما يرى. صحيح ان فتوحاتهم رافقها هلاك الناس وآلامهم، ولكن الهلاك والدمار رافق الحروب عبر التاريخ كافة، ولم يكن له علاقة بالتعصّب السلجوقي ضد المسيحيين، لما إتّصف به الاسلام من تسامح مع أتباع الديانات الأخرى، ولاسيما السماوية، فترك لهم حرّية ممارسة طقوسهم الدينية، بل كان من بين أتباع هذه الديانات ـ ولاسيما المسيحية ـ من أشغل مناصب رفيعة في الدولة الاسلامية. فضلاً عن ذلك كان الفتح الاسلامي خيراً ونعمة بالنسبة لأهل العقائد (المذاهب المسيحية المختلفة في أسيا الصغرى والشام، والتي تختلف عن العقيدة الكاثوليكية في روما البابوية، مثل (الارثذوكس، المونوفسيّون، النساطرة، والگريگوريّون.. وغيرهم) إذ تخلّص هؤلاء المسيحيون من مظالم البيزنطيين. ولعلّ من الامور المهمة ان نذكر ان هذه الحقيقة اوردها مؤرّخون نصارى شرقيّون عاصروا الحملات الصليبية، وأبرزهم المؤرخ متى الرهاوي Matthew of Edessa (ت ٥٤٠هـ/١١٤٠م) الذي عاصر حكم السلاجقة

---

[١٩] ميخائيل زابوروف. مرجع سابق. ص ص: ٣٥ ـ ٣٦.

[٢٠] م. ن. ص ص: ٣٣ ـ ٣٤.

الكبار، وكما عاصر حكم عماد الدين زنكي، أي عاصر الحملة الصليبية الاولى، وكذلك المؤرخ ميخائيل السرياني Michael The Syrian (ت ٥٩٣هـ/١١٩٦م) الذي عاصر نورالدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، ثم المؤلف المجهول الاسم الذي الّف كتاب (تاريخ بطاركة الأسكندرية). أن الاقاويل عن آلام المسيحيين الشرقيين، ومعاناتهم في ظل حكم السلاجقة، وعن العقبات التي أقامها هؤلاء في وجه الحجاج الاوربيين، هي بقدر كبير، إختلاقات تفتّق عنها خيال كُتّاب كنسيّين[٢١]. كأعلام مضاد، لأذكاء روح التعصّب تمهيداً لشنّ الحرب.

ومما يذكر بهذا الصدد أن أحد بطاركة بيت المقدس في القرن التاسع الميلادي/ الافرنجي، كتب رسالة سرّية الى زميله بطرك القسطنطينية جاء فيها: ان المسلمين قوم عادلون، ونحن لانلقى منهم أي أذى أو تعنّت)). وقد علّق أحد الكُتّاب الغربيين على ذلك بقوله إن الحق يتطلّب منا أن نعترف بان المسيحيين عاشوا في كنف الدولة الاسلامية أسعد حالاً بكثير مما كانت عليه بعض الطوائف المسيحية التي عاش في كنف الدولة البيزنطية ذاتها[٢٢]. وكانت هذه الكتابات بمثابة شهادة شاهد من أهله.

لهذا كله علينا ان نقول ان الحرب التي شنّتها اوربا على المشرق كانت بمثابة التطور المنطقي للحج المسيحي الاوربي الآنف الذكر، إذ لم تكن فكرة الحملة الصليبية لترى النور لو لم تكن رحلات الحج مستمرة منذ وقت مُبكّر إلى أخريات القرن الحادي عشر. ذلك ان تيار الحج المستمر كان لابد من أن يؤدّي بالضرورة الى فكرة: ان بقعة الارض التي شهدت قصة المسيح من ميلاده الى صلبه، ينبغي ان تكون تحت سيادة اتباع المسيح، وان اوروبا ـ بعد ان صارت تشعر بقوّتها ـ رفضت القبول ببقاء هذه الأرض بأيدي المسلمين الذين صوّرتهم الدعاية الكنسية في صورة

---

[٢١] م. ن. ص ص: ٣٤ ـ ٣٦. وانظر عن بُطلان دعاوي المؤرخين الغربيين في اضطهاد المسلمين للحجاج المسيحيين د. سعيد عبد الفتاح عاشور. الحركة الصليبية. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣. ج ١ ص ص: ٣٠ ـ ٣٣.

وعاشور نفسه في: أضواء جديدة على الحروب الصليبية. القاهرة ١٩٦٤. ص ص: ١٥ ـ ١٦.

[٢٢] عاشور: أضواء جديدة... ص: ١٧.

كفّار متوحّشين[٢٣]، ورأت ضرورة تخليص الارض المقدّسة من هؤلاء ((الكفار)). وقد أدّى هذا الى بروز أهمية القيام بحملة حجّ مسلّحة لتحقيق هذا الهدف، فكانت الحروب الصليبية.

ومن الامور المهمة ذات الدلالة ان المعاصرين للحملات لم يفرّقوا أبداً بين الحج وبين الحملة الصليبية، على نحوما تكشفه روايات المؤرخين اللاتين، إذ كان الخط الفاصل بينهما رقيقاً للغاية. ولعلّ ما يدخل ضمن هذا التيّار ذيوع أخبار الكرامات والمعجزات التي بثّتها الكنيسة، وساد الاعتقاد بأن نزول المسيح ثانية الى الارض بات وشيكاً، ولابدّ من المضي في إستنفار الناس وعمل الخير وطلب المغفرة، قبل هبوطه، وأن من الضروري استرداد الارض المقدّسة قبل هذا الهبوط[٢٤].

لقد كانت الفكرة الحاسمة في كلير مونت سنة ١٠٩٥م هي ((عسكرة الحج)) وإضفاء طابع القداسة على هذه العملية في الوقت نفسه. وكان الصليبي في حقيقته حاجّاً من طراز خاص، إذ كان حاجاً يتمتع بامتياز حمل السلاح، لهذا فان الاختلاف بين الصليبي والحاج كان إختلافاً في الدرجة، ولم يكن اختلافاً في الجوهر. فقد كان السيف الذي يحمله المحارب الصليبي مباركاً من الكنيسة باعتبارة جنديّاً في جيش

---

[٢٣] تنقل رواية لروبير الراهب عن الپاپا اوربان في وصف المسلمين قوله: جنس غريب على الرب تماما(!) قد غزا ارض المسيحيين وأخضع الناس بحدّ السيف والتدمير والحريق، كما حمل بعضهم أسرى، وذبح البعض الآخر بوحشية (كذا) وسوّى الكنائس بالأرض(!) لقد اجرى المسلمون عمليات الختان للمسيحيين، وكانوا يصبّون دماء الختان على مذابح الكنائس او في اواني التعميد(!) وشقوا بطون الذين اختاروهم لتعذيبهم، وقتلوهم بالموت البطيء المثير للاشمئزاز، فينزعون معظم الاعضاء الحية، ثم يربطون ضحاياهم الى العصيّ المدبّبة ويسحبونهم)). انظر النص الكامل لخطاب اوربان الثاني في كليرمونت برواية كل من: روبير الراهب، فولشير شارتر، جيبرت نوجنت، وبودري دول، في ترجمتها العربية في كتاب د. قاسم عبده قاسم: الحروب الصليبية. نصوص ووثائق الحملة الاولى. القاهرة ١٩٨٥. ص ص: ٧٣ ـ ٩٠.

ولا شك ان التعابير التي تفوّه بها الپاپا بعيدة كل البعد عن الحقيقة التاريخية، ولاتعدو كونها أساس الدعاية المعادية ضد المسلمين في مجتمعات اوروبية مختلفة يومئذ تطفح بأيديولوجية بثّتها الكنيسة كجهد يصب في إعداد المقاتل الصليبي المتعصب الذاهب الى قتال من وصفهم زعيم كنيستهم بهذه النعوت الشائنة الغريبة.

[٢٤] د. الباز العريني. الشرق الاوسط والحروب الصليبية، دار النهضة العربية. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. لاقاهرة ١٩٦٣/١٦٥.

المسيح، كما كانت أعمال وتصرفات الحاج التقليدية تحظى بمباركة الكنيسة. وقد نفهم هذا الأمر بوضوح اكثر إذا عرفنا أن زعماء الحملة الصليبية الثالثة، فردريك باربروسا ملك المانيا، وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا، وفيليب اغسطس ملك فرنسا، قد تلقوا مهمّات الحجاج التقليدية، وهي الصولجان والتصريح ((الشهادة)) (Staff and Scrip)، عندما انطلقوا في سبيلهم لقتال صلاح الدين، فيما بعد.

لقد صارت كلمة (جند المسيح) في القرن الثاني عشر الميلادي تعني ((صليبي مسلّح)) على حين توارت ـ بمرور الزمن ـ كلمة (حاج) التي استخدمها المؤرخون الصليبيون الذين عاصروا الحملة الاولى.

ونشير بهذا الصدد ان (المؤرّخ المجهول) الذي صاحب تلك الحملة ذكر ـ على سبيل المثال ـ وهو يتحدث عن نظرة أهالي المنطقة التي إجتازتها حشود الصليبيين قائلاً: لم ينظروا الينا نظرتهم الى حجاج، بل حُيلَ اليهم إنّنا طامعون في أرضهم، قادمون للفتك بهم))[٢٥]. رغم ان هذا المؤرّخ أسمى كتابه (أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس) على اعتبار أن هؤلاء الفرنجة ذاهبون لاداء مناسك الحج في بيت المقدس، الحج على طريقة (جند المسيح المسلح).

ومما يُذكر أن أهم عناصر هذه الحملة (المقدسة) يتمثل في مفهوم (الغفران) الذي صار هو العنصر الأهم في عيون العامة، لاسيّما بعد أن إرتبط بالحج الجماعي الذي تقوم به أعداد كبيرة، بعد أن صارت بلدة كليرمونت مركز الدعوة الى الحملة حسب الخطة التي وضعها البابا اوربان الثاني في تلك البلدة. ومثلما تطور مفهوم الحج منذ بداية المسيحية حتى بروز الدعوة لحرب صليبية، كذلك تطور مفهوم الحرب المقدسة الذي كان أهم روافد الاعلام والايديولوجية الصليبية.

ولاشك ان موقف آباء الكنيسة الاوائل كان حرجاً وهم يواجهون مشكلة التوفيق بين تعاليم المسيحسة الداعية الى المحبّة والسلم ونبذ القتل من ناحية، ومقاومة الشر الحتمي في الحياة الدنيا من ناحية أخرى. وقد أدان بعض رجال الكنيسة الحرب ـ ولاسيما في الكنيسة الشرقية الارثذوكسية البيزنطية ـ باعتبارها قتلاً جماعياً، ولكن

---

[٢٥] المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة د. حسن حبشي. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٥٨. ص: ٢٦.

هذه الإدانة لم تَحُل دون قيام حروب، من بينها حروب دينية مذهبية، بين اتباع الدين الواحد.

وفي رأي عديد من الباحثين ان الپاپا گريگوري السابع السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥ف) هو الذي صاغ فكرة الحرب المقدسة، وأحدث نقلة نوعية في موقف المسيحية من الحرب. فقد استحدث عبارة (جيش المسيح Militia Christi) للمرة الاولى بالمعنى الدنيوي، وليس بالمعنى المجازي الذي استخدم من قبل.

وكان الحداث الذي جعل الحرب ضرورية، هو معركة مانزكرت سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م، التي حدثت على ارض كردستان الشمالية، بين السلطان السلجوقي الب ارسلان، و بين امبراطور بيزنطة ارمانوس الذي وقع اسيراً في أيدي المقاتلين المسلمين، وهزمت قواته[٣٦]، مما جعل الپاپا گريگوري السابع يعلن ضرورة التعاون بين الكنيستين، وإستخدام القوة لحماية شعب المسيح (في الشرق والغرب) من الأعداء. وهذه الذريعة الدينية هي التي إتّخذها الپاپا اوربان ـ فيما بعد ـ في كلير مونت عام ١٠٩٥ف، وهو يدعو أمراء اوربا وفرسانها لأخذ شارة الصليب.

فإثر هزيمة مانزكرت التجأ امبراطور بيزنطة الجديد ميخائيل السابع، الذي خلف الامبراطور الاسير المذكور (ارمانوس)، الى الپاپا گريگوري طالباً مساعدته، وأبدى الپاپا استعداده لنجدة بيزنطة. وواصل الامبرطور الجديد (التالي) الكسيوس كومنين جهود سلفه، فالتجأ هو الآخر الى الپاپا التالي اوربان الثاني، وكان هذا قد ساهم مساهمة فعّالة في (الحرب الدينية) ضد المسلمين في أسبانيا، او ماسمي بـ((حرب الاسترداد))، وكان متحمساً لمواصلة الحرب في كل وقت وعلى كل بقعة.

في شهر تشرين الثاني من ١٠٩٥م حلّ اوربان في كلير مونت في جنوب فرنسا، بعد أن قام بجولة واسعة لنشر فكرة الحرب الصليبية والدعوة اليها، وتدفَّقَ الالاف من الرجال وعدد كبير من النبلاء الاقطاعيين إلى هذه البلدة. وفي اجتماع حاشد القى خطاباً حماسياً تاريخياً، دعا فيه الى القيام بتلك الحرب. وطلب من الحضور بذل جهد فعّال ومشترك لمواجهة خطر المسلمين ولحماية الاماكن المقدسة. وكان الپاپا حاذقاً في إثارة عواطف مستمعيه الدينية. ولأسلوب الخطاب الجذاب، وبسبب نتائجه

---

[٣٦] ابن الاثير. مصدر سابق ٦٥/١٠ ـ ٦٧. ونسيمان. مصدر سابق: ٩٦/١ ـ ٩٨.

الخطيرة صار واحداً من أشهر الخطب في تـأريخ اوربـا الوسـيط وتـاريخ العلاقـة بـين الشرق والغرب، ولم يسبق أن حقق خطاب في التاريخ نتائج فورية مثل هذا الخطاب.

وكـان الپاپـا فرنسـياً وسـبق لـه ان كـان راهبـاً في ديـر كلـوني بفرنسـا، ولأن الحاضرين في الاجتماع كانوا فرنسيين، فقد خاطبهم بلغتهم، مما دفعهـم الى التجـاوب اكثر مع تعابيره المثيرة للعواطف، فكان الفرنسيون اكثر المتطوعين حماسـاً وعـدداً في المشاركة والمسير نحو الشرق، وهذا ماجعل المسـلمين يطلقـون علـى الصـليبيين كلهم اسم ((الفرنجة)).

لقد كانت دعـوة الپاپـا ذات صـيغة دينيـة قويـة، دعـاهم فيهـا الى نبـذ الحـروب الاقطاعية والصراعات الداخلية في اوروبا، والتفرغ لما هو أسمـى وأهـم، وحـثّهم علـى نصرة إخوانهم في الدين في الشرق، كما طالب بمراعـاة مـا أسمـاهُ ((هدنـة الله في أرض الوطن)) وتجريد جيوش المسيحيين في الحملة لقهر المسلمين، إبتغـاء الحصـول علـى المغفرة والتوبة الكاملة[٢٧].

هذا وكان سعيُ البابوية الى إنشاء ثيوقراطية شاملة (حكم كبار رجال الـدين) في اوربا دليلاً على المكانة التي وصلت اليها الكنيسة الكاثوليكية في القرن الحادي عشـر في مركزها القيادي في روما. وكانت فكرة إنهاء إنفصال (او اعـادة) الكنيسـة الشـرقية الارثذوكسية التي استقلّت عن كنيسة رومـا في سـنة ١٠٥٤م، جـزءاً أساسـياً في مـنهج البابوية لمدّ سيطرتها على أراضي بيزنطة من جديد[٢٨]. وقد علّـق المـؤرخ هـ. ا. ل. فيشر على موقف الپاپا بقوله: ((ظل إحتواء الكنيسة الشرقية حلم البابوات، وهـو في جـوهره يعبّـر عـن طمـوح سياسـي وإقتصـادي أدّى ـ فيمـا بعـد ـ الى قيـام الحملـة الصليبية الرابعة بالاستيلاء على القسطنطينية))[٢٩].

وقد وردت نصوص استغاثة الامبراطور البيزنطـي الكيسـوس كـومنين (١٠٨٠ ـ ١١١٨م) الى الپاپا في كتابات مؤرخي اوربا في ذلـك العصـر، بتعـابير مختلفـة، ولكنهـا تجمع على (وحشيّة الترك السلاجقة) و (الخطـر الـداهم المهـدّد للمسـيحية)، وحرّكـت

---

[٢٧] ارنست باركر. الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العريني. القاهرة ١٩٦٠. ص: ٢٣٠.

[٢٨] ميخائيل زابورف. مرجع سابق. ص ص: ٢٨ ـ ٢٩.

[٢٩] Fisher, H. A. L. A History of Europe, London, 1945, P. 220.

هذه الرسالة همّة الپاپا بشدة وحثّته على إنتهاز الفرصة بالاستجابة الفورية والدعوة لها.

والمؤرخون الذين اوردو الخطاب هم اربعة: فولشير شارتر Fulsher of Chartres، وروبرت الراهب Rober the Monk، بودري دول Baudri of Dol، وجيبرت نوجنت Guibert of Nogent، وكلّهم معاصرون للحملة، اما وليم الصوري William of Tyre فقد نقل الخطاب بعد ثلاثين سنة. وقد حضر الثلاثة الاوائل المذكورين اجتماع كلير مونت، على أن ما من أحد منهم ادّعى انه اورد الرواية الحرفية الدقيقة، بل كتب كل منهم مؤلَفَهُ بعد مضي سنوات، وصاغ رواياته، وبالتالي عبارات الخطاب في ضوء الأحداث التالية، دون أن يعرف حقيقة وخطورة ماسمعه في ذلك النهار. وقد بين (مونرو) مابين هذه الروايات من إختلاف، ويأمل ان يتم العثور على النص الاصلي للخطاب التاريخي ذات يوم[٣٠]، ربما في دهاليز إحدى الكنائس.

وقد وصف الپاپا في خطابه وضع المسيحيين المزري في الشرق، وتحدّث عما يعانيه الحجاج من عذاب في طريقهم. ثم وجّه نداءه الشهير: فلينطق المسيحيون في الغرب لنجدة اخوتهم في الشرق. وينبغي ان يسير الاغنياء والفقراء سواء بسواء، كما ينبغي ان يكفوا عن الصراع فيما بينهم، وقتال بعضهم البعض، بل ينبغي عوضاً عن ذلك (القتال الحق)، فيؤدّوا ما أمرهم الله به.. وأعلن الپاپا: أن من يلق مصرعه في حرب المسلمين يحلل من ذنوبه ويغفر الله أخطاءه.. وأن الحياة هنا ـ أي في اوربا ـ أضحت تعسة كثيرة الشرور.. وليكن الله هاديهم.

كانت الاستجابة سريعة وقوية لدعوة الپاپا، وتخلّلت خطابه هتافات الحاضرين «هكذا اراد الله». ولم يكد الپاپا ينتهي من خطابه المدوّي حتى نهض من مجلسه أسقف (لي پويه Le Puy) وركع أمام عرش الپاپا، والتمس منه الاذن بأن يلتحق بالحملة المقدسة. وتلاه الكاردينال گريگوري فركعَ، وأخذ يتلو بصوت جهوري قدّاس (الاعتراف) فيردّده جمهور الحاضرين. فلما إنتهت مراسيم الصلاة، نهض الپاپا ثانية، وأمر الحضور بالانصراف الى مواطنهم.

---

[٣٠] رنسيمان. مرجع سابق: ١٦٠/١.

لقد فاق الحماس كل ما توقّعه، ثم أصدر تعليماته التي صارت بمثابة قوانين الحرب الصليبية، وتتضمّن ان كل ما يمتلكه المشتركون في القتال من متاع الدنيا، سوف يكون تحت رعاية الكنيسة أثناء غيابهم في الشرق، وينبغي ان يستردهُ حينما يعود الى وطنه، ويتعيّن على كل مشترك في الحملة أن يحمل علامة الصليب، رمز الوفاء والتضحية عند المسيحيين، ويرسمها على كتف سترته من نسيج أحمر اللون. وعلى كل من أتخذ الصليب ان يوفي بعهده في المسير الى الشرق. فإذا نكث بعهده، ولم يتوجّه نحو الهدف تعرّض للحرمان من الكنيسة. ويجب ألاّ يسير أحدٌ مطلقاً قبل أن يستشير مستشاره الروحي. أما موعد إنطلاق الجموع فيكون في عيد العذراء في ١٥/آب/أغسطس من السنة التالية، بعد أن يتم جمع المحصول، على ان تكون القسطنطينية مركز التقاء الجيوش. واستثنى من الاشتراك في الحملة كبار السن والمرضى.

وبدأ التشاور حول قيادة الحملة، وأراد البابا أن تكون تحت إشراف الكنيسة. فاتخذ المجمع قراراً بإجماع الآراء على ان يكون أسقف لي بويه المذكور (ادهيمر دي مونتيل Adhemer de Montril) قائداً للحملة، فكان أول من استجاب لدعوة اوربان، ومعروف عنه أنه قام منذ تسع سنوات بزيارة الاماكن المقدّسة المسيحية في فلسطين[٣١].

استغرق عقد المجمع الكنسي في كلير مونت اسبوعاً (١٨ ـ ٢٥ تشرين الثاني من العام المذكر ١٠٩٥م) بُحث فيه مختلف الموضوعات المتعلقة بالكنيسة ورجال الدين، ومنها تحريم (السيمونية) أي تحريم المتاجرة بالمناصب الدينية، وتأكيد مراعاة قاعدة العزوبية، لكونها تنسجم مع تعاليم الكنيسة الداعية للتفرغ لشؤون العبادة وهجر مغريات الحياة[٣٢].

وأخيراً نذكر أن الحركة الصليبية لم تكن لترى النور إلاّ بعد أن مهّدت الكنيسة الكاثوليكية الارض بإعلامها المؤثر القوي وبصياغة آيديولوجية الحرب المقدّسة من ناحية، وظهور طبقة الفرسان، التي وجّه البابا خطابه اليها، بسماتها الاقطاعية

---

[٣١] م. ن. ص: ١٦٤.

[٣٢] د. عبدالقادر احمد اليوسف. علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر. منشورات المكتبة العصرية. صيدا ـ بيروت ١٩٦٩. ص: ٤٤.

المعروفة، ونظامها القيمي والأخلاقي، وظروفها الاجتماعية والاقتصادية المتشابه في سائر أنحاء الغرب، من ناحية أخرى.

وهكذا كان الشرط (السبب) لشن الحرب، كما وضعه القديس اوغسطين saint Augustin (٣٥٤ ـ ٤٣٥م) لتبرير مسألة الحرب على أساس ديني كأول مفكر مسيحي عالج هذه المسألة الخطيرة التي إقتضاها تطور الأحداث اللاحقة على ظهور المسيحية، وإنتقال هذا الدين الى بلاد لم يكن بالامكان تجنّب الحروب فيها، وفي ظرف لم يكن بالامكان شنّها دون غطاء آيديولوجي ديني، فكان أن صاغوا الدعوة بالشكل الذي يتطابق مع دعوة هذا القديس.. وتعليمات هذا الپاپا الذي اذكى العواطف الدنية أكثر من أسلافه جميعاً.

کتێبە چاپکراوەکانی
کۆڕی زانیاری کوردستان و ئەکادیمیای کوردی

کۆڕی زانیاری کوردستان:

١) فەرهەنگی زاراوە (عەرەبی ـ کوردی)، بەدران ئەحمەد حەبیب، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، سالّی ٢٠٠٢، (١٤٢ لاپەڕە).

٢) کوردی تورکمانستان ـ مێژوو ـ ئەتنۆگرافیا ـ ئەدەب، د. مارف خەزنەدار، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی ڕۆشنبیری، سالّی ٢٠٠٣، (٢٥٨ لاپەڕە).

٣) زاراوەی یاسایی، لیژنەی زاراوە لە کۆڕی زانیاری کوردستان، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی ڕۆشنبیری، سالّی ٢٠٠٤، (٤٠ لاپەڕە).

٤) زاراوەی کارگێڕی، لیژنەی زاراوە لە کۆڕی زانیاری کوردستان، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی ڕۆشنبیری، سالّی ٢٠٠٤، (٤٧ لاپەڕە).

٥) من ینابیع الشعر الکلاسیکي الکردي، ج١، رشید فندی، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی ڕۆشنبیری، سالّی ٢٠٠٤، (٢٤٠ لاپەڕە).

٦) ڕێنووسی یەکگرتووی کوردی، بەدران ئەحمەد حەبیب، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، سالّی ٢٠٠٥، (٥٦ لاپەڕە).

٧) ڕێزمانی کەسی سێیەمی تاک، د.شێرکۆ بابان، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی ڕۆشنبیری، سالّی ٢٠٠٤، (١٥٩ لاپەڕە).

٨) چوارینێن خەیام، د. کامیران عالی بەدرخان، وەرگێڕانی لە لاتینییەوە د. عەبدوللا یاسین ئامێدی، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پۆشنبیری، ساڵی ٢٠٠٤، (٩٤ لاپەڕە).
٩) شێوەی سلێمانی زمانی کوردی، د. زەرێ یوسوپۆڤا، و: لە ڕوسییەوە د. کوردستان موکریانی، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٥، (٢١٦ لاپەڕە).
١٠) العروض في الشعر الكردي، احمد هردی، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پۆشنبیری، ساڵی ٢٠٠٤، (٢١٨ لاپەڕە).
١١) ژانرەکانی ڕۆژنامەوانی و میژووی چاپخانە ١٤٥٠ ـ ١٥٠٠، د. مەغدید سەپان، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٥، (٢٧٨ لاپەڕە).
١٢) زاراوەی ڕاگەیاندن، لێژنەی زاراوە لە کۆڕی زانیاری کوردستان، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٥، (١٠٨ لاپەڕە).
١٣) فەرهەنگی زاراوەگەلی ڕاگەیاندن (ئینگلیزی ـ کوردی ـ عەرەبی)، بەدران ئەحمەد حەبیب، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٥، (١٦٥ لاپەڕە).
١٤) ئەدەبی منداڵانی کورد ـ لێکۆڵینەوە ـ میژووی سەرهەڵدان، حەمە کەریم هەورامی، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٥، (٤٠٦ لاپەڕە).
١٥) گێرەکێن زمانێ کوردی، د. فازل عمر، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٥، (١٣٤ لاپەڕە).
١٦) ل دۆر ئەدەبێ کرمانجی ل سەد ساڵێ نوزدێ و بیستێ زایینی، تەحسین ئیبراهیم دۆسکی، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٥، (٢٧٦ لاپەڕە).
١٧) دەنگسازی و بڕگەسازی لە زمانی کوردیدا، د. شێرکۆ بابان، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٥، (٢٠٦ لاپەڕە).
١٨) هۆنراوەی بەرگری لەبەرهەمی چەند شاعیرێکی کرمانجی سەروودا ١٩٣٩ ـ ١٩٧٠، د. عبدالله یاسین عەلی ئامێدی، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٥، (٣٢٠ لاپەڕە).
١٩) یوسف و زولەیخا، حەکیم مەلا سالح، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٦، (٤٠٧ لاپەڕە).

٢٠) زمانی کوردان ـ چەند لێکۆڵینەوەیەکی فیلۆلۆجی زمان، پ. د فریدریش مووللێر ئەوانی تر، و: لە ئەڵمانییەوە د. حمید عزیز ، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٥، (١٩٢ لاپەڕە).
٢١) ڕێبەری بیبلۆگرافیە کوردییەکان ١٩٣٧ ـ ٢٠٠٥، شوان سلێمان یابە، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٦، (٤٠٠ لاپەڕە).
٢٢) فەرهەنگی گەورەی من. د. کوردستان موکریانی، چاپی یەکەم، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٦ ، (٨٠ لاپەڕە).
٢٣) دیوانی عەزیز ـ محەمەد عەلی قەرەداغی ـ هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠، (١٤٤ لاپەڕە).
٢٤) زاراوەگەلی کاروباری مین ـ جەمال جەلال حوسێن ـ دلێر سابیر ئیبراهیم ـ دەزگای گشتی هەرێم بۆ کاروباری مین، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٦، (٨٠ لاپەڕە).
٢٥) زاراوەی ڕاگەیاندن ـ کەمال غەمبار ـ هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٦، (٩٦ لاپەڕە).
٢٦) زاراوەی ئەدەبی ـ ئامادەکردنی: لیژنەی ئەدەب لە کۆڕی زانیاری کوردستان، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٦، (٣٨٠ لاپەڕە).
٢٧) ئیندێکسی گۆڤاری کۆڕی زانیاری کورد (١٩٧٣ ـ ٢٠٠٢) ــ شوان سلێمان یابە ـ هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٦، (٢٤٠ لاپەڕە).
٢٨) The Historical Roots of the National Name of the Kurds ـ د. جەمال ڕەشید، هەولێر، چاپخانەی وەزارەتی پەروەردە، ساڵی ٢٠٠٦، (١٠٧ لاپەڕە)
٢٩) فەرهەنگی کۆمەڵناسی ـ عوبێد خدر ـ چاپخانەی دەزگای ئاراس ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (٨٣ لاپەڕە).
٣٠) بزاڤی ڕزگاریخوازی نیشتیمانی لە کوردستانی ڕۆژهەلآتدا (١٨٨٠ ـ ١٩٣٩ز) ــ د.سەعدی عوسمان هەروتی ـ چاپخانەی دەزگای ئاراس ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (١٥٥ لاپەڕە).

٣١) شۆڕشی شێخ عوبەیدوڵڵای نەهری لە بەڵگەنامەی قاجاری دا ، نووسینی: حەسەن عەلی خانی گەڕووسی ، وەرگێڕانی لە فارسییەوە: محەمەد حەمە باقی ـ چاپخانەی دەزگای ئاراس ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (٢٠٤ لاپەڕە).
٣٢) شۆڕشی شێخ عوبەیدوڵڵای نەهری لە بەڵگەنامەی ئەرمەنیدا، نووسینی: ئەسکەندەر غوریانس، وەرگێڕانی لە فارسییەوە ـ محەمەد حەمە باقی. چاپخانەی دەزگای ئاراس ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (١٢٨ لاپەڕە).
٣٣) فەرهەنگی کوردی ـ فارسی، وەرگێڕانی لە فارسییەوە ـ محەمەد حەمە باقی. چاپخانەی دەزگای ئاراس ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (١١٢ لاپەڕە).
٣٤) شۆڕشی شێخ عوبەیدوڵڵای نەهری لە بەڵگەنامەی ئینگلیزی و ئەمریکی دا ـ نووسینی ـ وەدیع جوەیدە. وەرگێڕانی لە عەرەبییەوە ـ محەمەد حەمە باقی . چاپخانەی دەزگای ئاراس ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (١١٦ لاپەڕە).
٣٥) شۆڕشی شێخ عوبەیدوڵڵای نەهری لە بەڵگەنامەی قاجاری دا، نووسینی: عەلی خان گۆنەخان ئەفشار. وەرگێڕانی لە فارسییەوە ـ محەمەد حەمە باقی. چاپخانەی دەزگای ئاراس ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (٤٢٦ لاپەڕە).
٣٦) شۆڕشی شێخ عوبەیدوڵڵای نەهری لە بەڵگەنامەی قاجاری دا، نووسینی: عەلی ئەکبەر سەرهەنگ. وەرگێڕانی لە فارسییەوە: محەمەد حەمە باقی. چاپخانەی دەزگای ئاراس ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧. (١٩٢ لاپەڕە).
٣٧) چەپکێك لە زاراوە گەلی کشتوکاڵ ـ ئامادەکردنی ـ حەمە ساڵح فەرهادی ـ چاپخانەی دەزگای ئاراس ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (١٤٤ لاپەڕە).
٣٨) شۆڕشی شێخ عوبەیدوڵڵای نەهری لە بەڵگەنامەکانی وەزارەتی کاروباری دەرەوەی ئێران دا. وەرگێڕانی لە فارسییەوە: محەمەد حەمە باقی. چاپخانەی دەزگای ئاراس ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (٢٧٠ لاپەڕە)
٣٩) فەرهەنگی دیوانی شاعیران (نالی، سالم، کوردی)، نووسینی ـ د. محەمەد نووری عارف، چاپخانەی دەزگای ئاراس ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (١٠٠٠ لاپەڕە).
٤٠) یەکەم فەرهەنگی تۆ، وەرگێڕانی: د.کوردستان موکریانی، چاپخانەی دەزگای ئاراس، هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (٨٦ لاپەڕە).

٤١) ئەدەبی منداڵانی کورد دوای ڕاپەڕین، نووسینی: حەمە کەریم هەورامی، چاپخانەی دەزگای ئاراس، هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (٣٦٨ لاپەڕە).
٤٢) فەرهەنگی هەراشان، کۆکردنەوە و داڕشتنی: کۆمەڵێك مامۆستا، چاپخانەی دەزگای ئاراس، هەولێر، ساڵی ٢٠٠٧، (٣٣٦ لاپەڕە).

ئەکادیمیای کوردی:

٤٣) ئەلبوومی کەشکۆڵ، ب ١، دانراوی: محەمەد عەلی قەرەداغی، چاپخانەی خانی ـ دهۆك، ساڵی ٢٠٠٨، (٣٥٢ لاپەڕە).
٤٤) الأدب الشفاهي الكردي ، علي الجزيري ، چاپخانەی خانی ـ دهۆك، ساڵی ٢٠٠٨، (٢٠٠ لاپەڕە).
٤٥) بەرکولێکی زاراوە سازیی کوردی، ئامادەکردنی: جەمال عەبدول، دووەم چاپ، چاپخانەی خانی ـ دهۆك، ساڵی ٢٠٠٨، (٣٣٠ لاپەڕە).
٤٦) دیوانی قاصد، ساغکردنەوەی: شوکر مستەفا و ڕەحیم سورخی، چاپخانەی خانی ـ دهۆك، ساڵی ٢٠٠٨، (٣٥٢ لاپەڕە).
٤٧) چەند لێکۆڵینەوەیەك دەربارەی مێژووی کورد لە سەدەکانی ناوەڕاستدا، نووسینی: دکتۆر زرار سدیق تۆفیق، چاپخانەی خانی ـ دهۆك، ساڵی ٢٠٠٨، (٢٠٨ لاپەڕە).
٤٨) کیمیای ژەهری دەستکرد. نووسینی: پ.د. عەزیز ئەحمەد ئەمین، چاپخانەی خانی ـ دهۆك، ساڵی ٢٠٠٨، (٢٠٨ لاپەڕە).
٤٩) ڕۆڵی سەربازیی کورد لە دەوڵەت و میرنشینە ناکوردیەکان لە سەردەمی عەببасیدا، نووسینی: مەهدی عوسمان حسێن هەروتی، چاپخانەی خانی ـ دهۆك، ساڵی ٢٠٠٨، (٣٦٨ لاپەڕە).
٥٠) دور نواب السليمانية في المجلس النيابي العراقي (١٩٤٥ ـ ١٩٥٨)، دانانی: سالار عبدالكريم فندی الدوسكی، چاپخانەی خانی ـ دهۆك، ساڵی ٢٠٠٨، (٣٠٤ لاپەڕە).
٥١) عبدالله گۆران، رائداً لحركة تجديد الشعر الكوردي، دانانی: کەمال غەمبار چاپخانەی خانی ـ دهۆك، ساڵی ٢٠٠٨، (٣٢٠ لاپەڕە).
٥٢) وثائق بريطانية عن تشكيل دولة كوردية مستقلة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٧ ، دانانی: د.عبدالفتاح علی البوتانی، چاپخانەی خانی ـ دهۆك، ساڵی ٢٠٠٨، (٢٦٨ لاپەڕە).

٥٣) سالّنامەی ئەکادیمیای کوردی ، ئامادەکردنی: پڕوفیسور د. وریا عومەر ئەمین . چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، سالّی ٢٠٠٩، (٥٦ لاپەڕە).
٥٤) مەمێ و زینێ، ئامادەکردنی: جاسمێ جەلیل، دوکتۆر عیزەدین مستەفا ڕەسوول خستوویەتییە سەر نووسینی کوردیی عیراق و پێشەکیی بۆ نووسیوە و لێی کۆلّیوەتەوە، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، سالّی ٢٠٠٩، (١٦٨ لاپەڕە).
٥٥) هەنگاوێك لەسەر ڕێگەی لێکۆلّینەوەی (دیوانی سالم)دا، محەممەدعەلی قەرەداغی، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، سالّی ٢٠٠٩، (٨٠ لاپەڕە).
٥٦) کەرەسە بەتالّەکان لە ڕوانگەی تیۆری دەسەلاّت و بەستنەوە ((شێوەزاری کرمانجی سەروو))، نووسینی: ڤیان سلێمان حاجی، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، سالّی ٢٠٠٩، (٢١١ لاپەڕە).
٥٧) هێز و ئاواز لە دیالێکتی کوردیی ژوورووداو، نوسینی: عەبدولوەهاب خالید موسا، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، سالی ٢٠٠٩، (١٤٦ لاپەڕە).
٥٨) گەپنامەی مێرگولاّن، نوسینی: ڕەسولّ دەرویّش، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، سالّی ٢٠٠٩، (١٧٦لاپەڕە).
٥٩) دۆخەکانی ژێرەوە لای فیلمۆرو هەندی لایەنی ڕستەسازیی کوردی، ئامادەکردنی: یوسف شەریف سەعید، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، سالّی ٢٠٠٩ (١٣٤ لاپەڕە).
٦٠) هەندێ لایەنی ڕێزمانی دەسەلاّت و بەستنەوە (GB) لەزمانی کوردیدا، ئامادەکردنی: د.سەباح ڕەشید قادر، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، سالّی ٢٠٠٩ (١٧٢ لاپەڕە).
٦١) الحیاة الاجتماعیة للکورد بین القرنین (٤ ـ ٩هـ/١٠ ـ ١٥م)، دانانی: دکتۆرە فائزە محەمەد عزەت، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، سالّی ٢٠٠٩، (٢٧٢ لاپەڕە).
٦٢) العلاقات الایرانیة ـ السوفیتیة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٧، دانانی: نزار ایوب حسن الگولی، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، سالّی ٢٠٠٩، (٢٩٠ لاپەڕە).
٦٣) بیبلیۆگرافیای کوردناسی لە سەرچاوە فەرەنسییەکاندا، د. نەجاتی عەبدولّلاّ، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، سالّی ٢٠٠٩، (٥٢٨).

٦٤) بیبلیۆگرافیای کوردناسی لە سەرچاوە ئینگلیزییەکاندا، د. نەجاتی عەبدوڵڵا، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٩، (٤٤٨).
٦٥) امیر امراء کردستان (ابراهیم باشا الملی ١٨٤٥ ـ ١٩٠٨)، دانانی: أ. د. عبدالفتاح علی البوتانی ـ علی صالح المیرانی، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٩، (١٦٠ لاپەڕە).
٦٦) دیوانا مەلا محەمەدێ سەیدا، بەهەڤکار: سەید جەلال نزامی، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٩، (٨٨ لاپەڕە).
٦٧) داستانی هەیاسی خاس و سوڵتان مەحموود، نووسینی: محەمەد سالح سەعید، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٩، (٣٢٦ لاپەڕە).
٦٨) کیمیای ژینگە، پیسبوونی ئاووهەوا، پ . د. عەزیز ئەحمەد ئەمین، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٩، (١٦٠ لاپەڕە).
٦٩) گەشتنامەی پوژولا بۆ کوردستان ساڵی ١٨٣٧، وەرگێڕانی: د. نەجاتی عەبدوڵڵا، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٩، (١٩٨ لاپەڕە).
٧٠) ڕێزمانی کوردی، وەرگێڕانی: د. نەجاتی عەبدوڵڵا، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٩، (١٤٤ لاپەرە).
٧١) بونیاتی زمان لەشیعری هاوچەرخی کوردیدا، دانانی: د. ئازاد ئەحمەد مەحموود، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٩ (٢٥٨ لاپەڕە).
٧٢) الحرکة الشیوعیة في تقاریر مدیریة الامن العامة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٢، نووسینی: د. عبدالفتاح علی البوتانی، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، ساڵی ٢٠٠٩، (٢٨٨ لاپەڕە).
٧٣) فەرهەنگی سۆفیانەی دیوانی (جزیری و مەحوی)، نووسینی: د. ئیبراهیم ئەحمەد شوان، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، ساڵی ٢٠١٠، (٣٦٠ لاپەڕەیە).
٧٤) چیرۆکی منداڵان لە ئەدەبی کوردیدا (١٩٩١ ـ ٢٠٠٥)، دانانی: ڕازاو ڕەشید صەبری، چاپخانەی حاجی هاشم ـ هەولێر، ساڵی ٢٠١٠، (٢١٢ لاپەڕە).
٧٥) هەولێر لە سەردەمی ئەتابەگیاندا، نووسینی: پ. د. موحسین موحەممەد حوسێن، عثمان علی قادر کردویە بە کوردی، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، ساڵی ٢٠١٠، (٤٧٣ لاپەڕە).

٧٦) هەورامان باشتر بناسین، نووسینی: محەمەد رەشیدی ئەمینی، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، ساڵی ٢٠١٠، (٩٦ لاپەڕە).
٧٧) فەرهەنگا کانی، نووسینی: محەمەد سالح پێندرۆیی (جگەر سۆز)، چاپخانەی سپیرێز – دهۆك، ساڵی ٢٠١٠ (٦٣٩ لاپەڕە).
٧٨) وشەنامە، نووسینی: جەمال حبیب الله (بێدار)، چاپخانەی سپیرێز– دهۆك، ساڵی ٢٠١٠ (١١٤٧) لاپەڕە).
٧٩) بیبلیۆگرافیای ئەکادیمیای کوردی، ئامادەکردنی لیژنەی بیبلیۆگرافیای ئەکادیمیای کوردی، چاپخانەی سپیرێز – دهۆك، ساڵی ٢٠١٠ (٤٠٠) لاپەڕە.
٨٠) ئاسوورییەکانی باشووری کوردستان، نووسینی د. عەبدوڵڵا غەفور، چاپخانەی سپیرێز – دهۆك، ساڵی ٢٠١٠ (٢٠٨) لاپەڕە.
٨١) جوگرافیای ئابووری نەفت لە کوردستاندا، چاپی سێیەم، نووسینی د. عەبدوڵڵا غەفور، چاپخانەی حاجی هاشم– هەولێر، ساڵی ٢٠١٠ (٣٠٥) لاپەڕە.
٨٢) فلسفة العشق الإلهي في شعر الجزيري، تأليف محمد امين دوسكي، الطبعة الثانية، مطبعة سپیرێز– دهۆك، سنة ٢٠١٠ (١٩٦) صفحة.
٨٣) فەرهەنگی کوردی – فەرەنسی، نووسەر: ئۆگست ژابا، بلاوکەرەوەی زانستی: فێردیناند یۆستی، وەرگێڕانی پێشەکی و دووبارە لەچاپدانەوەی: د.نەجاتی عەبدوڵڵا، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، ساڵی ٢٠١٠ (٥٠٥) لاپەڕە.
٨٤) فەرهەنگی ئابووری، دانانی: پ.ی.د. سەلاحەددین کاکۆ خۆشناو، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، ساڵی ٢٠١٠ (٢٥٦لاپەڕە).
٨٥) الوسائل التعليمية ومعوقاتها في تدريس العلوم، رشيد فندي، مطبعة سپیرێز – دهوك، سنة ٢٠١٠ (١٣٠) صفحة.
٨٦) سایکۆلۆژی زمان
٨٧) الكُرد في مؤلفات المقريزي التاريخية – دراسة تحليلية، الدكتور فرهاد حاجي عبوش، مطبعة سبيريز– دهوك، سنة ٢٠١٠ (٤١٨) صفحة.
٨٨) من معالم الحياة الكردية في سوريا / تأليف ميديا عبدالمجيد محمود، مطبعة سپیرێز – دهوك ٢٠١٠، ٢١٦ صفحة.

٨٩) ئێل و ئویجاخێن کوردا ل کوردستانا ئیرانێ، وەرگێرانا مەسعود گوڵی، چاپخانا سپیرێز – دهۆك ٢٠١٠، ١٤٠ لاپەڕە.
٩٠) سمکوێ شکاك و شۆڕەشا وی د بەلگەنامەیێن ئیرانیدا، ئامادەکرن و تویژاندن فاخر حەسەن گوڵی و وەرگێران و پێداچوون نزار ئەیوب گوڵی، چاپخانا سپیرێز – دهۆك ٢٠١٠، ٣٨٤ لاپەرە.
٩١) الفارقی ومنهجه من خلال کتابه تاریخ میافارقین وآمد، تألیف سطظان محمد سعید کوچر، مطبعة سپیرێز – دهۆك ٢٠١٠، ٣٠٨ صفحة.
٩٢) پەندی کوردی، نووسینی حەمید رەشاش، چاپخانەی سپیرێز – دهۆك ٢٠١٠ ، ٣٢٤ لاپەڕە.
٩٣) دو فەرهەنگێن ڤەهاندی نووبار و (مرصاد الأطفال) بەرهەڤکرنا تەحسین ئیبراهیم دۆسکی، چاپخانەی سپیرێز – دهۆك ٢٠١٠، ١١٢ لاپەرە.
٩٤) دو ڤەهینۆکێن کرمانجی د علمێ تەجویدێ دا، بەرهەڤکرنا تەحسین ئیبراهیم دۆسکی، چاپخانەی سپیرێز – دهۆك ٢٠١٠، ١٠٠ لاپەرە.
٩٥) لێکولێنەوەو ساغکردنەوەی بەشێك لە دیوانی موخلیس. د. ئیبراهیم ئەحمەد شوان، چاپخانەی سپیرێز – دهۆك ٢٠١٠، ٣٢٤ لاپەرە.
٩٦) دیوانا نەفعی، ساخکرن و بەرهەڤکرن تەحسین ئیبراهیم دۆسکی و مەسعود خالد گولی، چاپخانا سپیرێز/ دهۆك ٢٠١٠، ٢٦٠ لاپەرە.
٩٧) بنیاتی جۆرەکانی ڕووداو لە ڕۆمانی کوردی باشووری کوردستان، نووسینی ڕێزان عوسمان (خاڵە دێوە)، چاپخانەی سپیرێز/ دهۆك ٢٠١٠، ٢٧٦ لاپەرە.
٩٨) تورك له بولگارستان، کورد له تورکیا، نووسینی، عەزیز نەسین، وەرگێران و ئامادە کردنی، بەکر شوانی و سیروان ڕەحیم، چاپخانەی حاجی هاشم/ هەولێر ٢٠١٠، ١٤٠ لاپەرە.
٩٩) الدولة الأیوبیة وفق نظریة الدولة لابن خلدون، تألیف: د. حکیم عبدالرحمن البابیری، مطبعة، حاجی هاشم/ أربیل ٢٠١٠ ، ٣٢٠ صفحة.
١٠٠) فەرهەنگی پزیشکی، دانانی د. جەمال رەشید، چاپخانەی حاجی هاشم، هەولێر ٢٠١٠، بەرگی یەکەم ٨٤٠ لاپەرە.

١٠١) فەرهەنگی پزیشکی، دانانی د. جەمال رەشید، چاپخانەی حاجی هاشم، هەولێر ٢٠١٠، بەرگی دووەم ٧٩٦ لاپەرە.
١٠٢) فەرهەنگی پزیشکی ، دانانی د. جەمال رەشید، چاپخانەی حاجی هاشم، هەولێر ٢٠١٠، بەرگی سێیەم ٦٨٠ لاپەرە.
١٠٣) راسپاردەکانی کۆنفرانسی بەرەو ڕێنووسێکی یەککگرتووی کوردی، ئامادەکردنی: لێژنەی زاراوە لەئەکادیمیای کوردی، هەولێر ساڵی ٢٠١٠، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، (٦٤) لاپەڕە.
١٠٤) ڕۆژنامەنووسی پڕۆفیشنالّ و ئیتیکی ڕۆژنامەوانی، نووسینی: محەمەد سالّح پێندرۆیی (جگەرسۆز)، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، ٢٠١٠، (١٨٤) لاپەڕە.
١٠٥) ڕەوتی نوێکردنەوەی شیعری کوردی لە باشووری کوردستان لەسالآنی (١٩٨٠–١٩٩١) دا، نووسینی : د. حوسێن غازی کاك ئەمین گەلآلەیی، چاپخانەی حاجی هاشم– هەولێر، ساڵی ٢٠١٠، (٢٣٥) لاپەڕە.
١٠٦) فەرهەنگی میدیا (کوردی–کوردی)، بەرگی یەکەم، نووسینی: د.ئەوڕەحمانی حاجی مارف، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، ساڵی ٢٠١٠، (٢٨٩) لاپەڕە.
١٠٧) لایەنە ڕەوانبێژییەکان لە شیعری کلاسیکی کوردیدا، نووسینی: د.ئیدریس عەبدوللآ مستەفا، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، ساڵی ٢٠١١، (٤٢٥) لاپەڕە.
١٠٨) فەرهەنگی زاراوەکانی ئاو، نووسینی: ناهیدە تالّەبانی – د.خالید بەرزنجی – فەیروز حەسەن عەزیز، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، ساڵی ٢٠١١، (٤٢٨) لاپەڕە.
١٠٩) مذكرات دولة الرئيس حسني بك البرازي رئيس الوزراء السوري الأسبق (١٨٩٥–١٩٧٥) تقديم: الدكتور عبدالفتاح علي البوتاني، مراجعة الهوامش: علي صالح الميراني، مطبعة الحاج هاشم – اربيل ، سنة ٢٠١١، (١٢٤) صفحة.
١١٠) عەقیدە نامەییّن کرمانجی، کۆمکرن و بەرهەڤکرن: تەحسین ئیبراهیم دۆسکی، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، ساڵی ٢٠١١، (٤٢٥) لاپەڕە.
١١١) المعجم التاريخي لإمارة بهدينان، تأليف: الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف، مطبعة الحاج هاشم – اربيل، سنة ٢٠١١، (٤٢٣) صفحة.

١١٢) ما مِنْ مكانٍ نختبئُ فيه، مذكرات ممرضة بريطانية في العراق ١٩٥٤–١٩٩١، تأليف: سوزان فرانكس و أندرية كروفس، ترجمة: ابتسام نعيم الرومي، مطبعة الحاج هاشم – اربيل، سنة ٢٠١١، (٢٩٥) صفحة.

113) Aspects of the Verbal Construction in Kurdish, Auther : Dr. Waria Omar Amin, Printed in : Haji Hashim Printing House, Erbil- 2011, (179) page.

١١٤) بیرەوەرییەکانی عەلی ئەکبەرخانی سەنجاوی سەردار موقتەدر، ساغکردنەوەی: دکتۆر کەریمی سەنجاوی، وەرگێڕانی : دکتۆر حەسەن جاف، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٦٨٧) لاپەرە.

١١٥) شیعری شانۆیی لە ئەدەبی کوردیدا (باشووری کوردستان ١٩٢٥ – ١٩٦١)، نووسەر: عەبدوڵڵا ڕەحمان عەوڵڵا، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٦٩٥) لاپەرە.

١١٦) شواهد المقبرة السلطانية في العمادية (دراسة تاريخية – أثرية)، المؤلف: الدكتور عماد عبد السلام رؤوف – الدكتورة نرمين علي محمد أمين، مطبعة الحاج هاشم – اربيل، سنة ٢٠١١، (١١٤) صفحة.

١١٧) تقسیمات کیشوری در شرق کردستان، گردآورند: دکتر عبدالله غفور، چاپ دوم، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٤٤٨) لاپەرە.

١١٨) الكورد في جيش الدولة المملوكية البحرية، المؤلف: عزت سليمان حسين، مطبعة الحاج هاشم – اربيل، سنة ٢٠١١، (٢٠٠) صفحة.

١١٩) قصائد كردية مترجمة ومقالات نقدية، ترجمة وتقديم: كمال حسين غمبار، مطبعة الحاج هاشم – اربيل، سنة ٢٠١١، (٤٢٤) صفحة.

١٢٠) ئێزدیاتی (جڤاك، سەمبۆل، ریتووەل و میت)، نووسەر: د. خانا ئۆمەرخالی، چاپی دووەم، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر سالّی ٢٠١١، (١٩٨) لاپەڕە.

١٢١) گەشتێك بەکارگەی جۆڵایی دا، نووسینی: عەبدوڵڵا سەمەدی، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (١٢٢) لاپەرە.

١٢٢) فەرهەنگی ناهید، نووسینی: محەمەد ناهید، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٧٢٨) لاپەڕە.
١٢٣) دراسة في أدب الفولكلور الكردي، الدكتور عزالدين مصطفى رسول، الطبعة الثانية، مطبعة الحاج هاشم – اربيل، سنة ٢٠١١، (١٧٦) صفحة.
١٢٤) زمانەوانی، پرۆفیسۆر د. محمد معروف فتاح، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٢٤٤) لاپەڕە.
١٢٥) ئۆسمان سەبری و ئالییەك ژ سەربۆڕا وی یا ئەدەبی، نووسینی: کۆڤان خانکی، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٣٣٦) لاپەڕە.
١٢٦) بیبلیۆگرافیای کوردناسی: کورد و کوردستان لە سەرچاوە ڕووسییەکاندا، نووسەر: ژ.س. موسائیلیان، وەرگێڕانی لە ڕووسییەوە: د.ئەفراسیاو هەورامی، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٨٢٦) لاپەڕە.
١٢٧) شعر و پەخشانی سوارە، لێکدانەوەو شیکردنەوەی بەرهەمەکانی سوارە، کۆکردنەوەو ئامادەکردنی: محەممەد بەهرەوەر، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٤٠٦) لاپەڕە.
١٢٨) کەرکووك یەکەمین شاری کوردستان، نووسینی: د. صدیق بۆرەکەیی، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (١٢٠) لاپەڕە.
١٢٩) کورد لێکۆڵینەوەیەك لە کولتووری ماددی سەردەمدا، نووسینی: د. عەبدوللا غەفور، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٣١٩) لاپەڕە.
١٣٠) ژیانی کوردەواری، حەمید ڕەشاش، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٢١٨) لاپەڕە.
١٣١) دیوانی عەزیز، چاپی دووەم، ئامادەکردنی: محمد عەلی قەرەداغی، چاپخانەی سپیرێز– دهۆك، سالّی ٢٠١١.
١٣٢) ڕوخسار و ناوەرۆکی چیرۆکی منداڵان لای لەتیف هەڵمەت، مظفر مصطفی اسماعیل، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٢٠٧) لاپەڕە.
١٣٣) الصحافة وصناعة الوعي، د. يحيى عمر ريشاوي، مطبعة الحاج هاشم – اربيل، سنة ٢٠١١، (٣٢١) صفحة.

134) ENDANGERED PLANTS OF KURDISTAN, prof. Dr. Saleem Esmael Shahbaz, Haji Hashim Printing House, Erbil- 2011, (109) page.

١٣٥) فەرهەنگی پەیامی رەنج، پەری سابیر ئەحمەد، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (٦٥٨) لاپەڕە.

١٣٦) نامۆیی لە ڕۆمانەکانی (سەلاح عومەر)دا، سەرکەوت سەعدی قادر، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (١٩٥) لاپەڕە.

١٣٧) پێکهاتەی ژمارە لە زمانی کوردیدا، بابا رسول نوری رسول، چاپخانەی حاجی هاشم – هەولێر، سالّی ٢٠١١، (١٧٩) لاپەڕە.

١٣٨) بحوث في التاريخ الكردي، الاستاذ الدكتور محسن محمد حسين، مطبعة الحاج هاشم – اربيل، سنة ٢٠١١، (٣٩٦) صفحة.